تأليف
صلاح الدين التلاتلي
حامل للاجازة في الآداب
ومحرز على ديبلوم الدراسات العليا في الجغرافية
استاذ بمعهد كارنو

تونس الجديدة

مشاكل ونظريات

عني بتعريبه
محمد السويسي
مبرز في الآداب العربية
حامل للاجازة ومحرز على ديبلوم
الدراسات العليا في الحسابيات
استاذ بالمدرسة الصادقية

في فجر نهضة

دار النشر ـ بوسلامة ـ تونس ١٩٥٩

كتب للمؤلف

صدر

١) جربة وسكانها
صورة وصفية سنة ١٩٤٢

٢) تونس الجديدة ١٩٥٧
مشاكل ونظريات

بصدد التحضير :

١) حضارة الزيتون
اطروحة الدكتوراه بكلية باريس

٢) مما كتب فى سبيل الاستقلال

٣) على هامش سيرى ...

وكل هذه المؤلفات بالفرنسية ولم يترجم منها سوى تونس الجديدة — مشاكل ونظريات

التعريف بالمؤلف

الاستاذ صلاح الدين التلاتلي هو نجل المرحوم الصادق التلاتلي الذى تقلد مسؤولية تفقد التعليم الابتدائي ۰ ولد في شهر جانفي من عام ١٩١٦

- زاول دراسته في الليسي كارنو من ١٩٢٥ الى ١٩٣٥

- تحصل على شهادة البكالوريا في جوان ١٩٣٥

- وفي جوان ١٩٣٧ اتم تحصيله على خمس من شهادات الليسانس في الاداب والتاريخ والجغرافية بملاحظة حسن وكان الناجح الاول بالنسبة لطلاب تلك السنة

- وفي سنة ١٩٣٨ تحصل على شهادة الدراسات العليا في الجغرافية بكلية مانبليي بملاحظة حسن جدا

- وفي جوان سنة ١٩٣٩ شارك في التبريز في علمي التاريخ والجغرافية بكلية باريس

- وفي اكتوبر ١٩٣٩ سمي استاذا للتاريخ بالمعهد الصادقي

- وفي اكتوبر ١٩٤٠ سمي استاذا للتاريخ بمعهد كارنو حيث يعمل حتى الآن

- وفي سنة ١٩٤٢ نشر كتابه عن جربة وسكانها وفي السنة نفسها نشر ايضا دراسة عن الايطاليين القاطنين بتونس وذلك بمجلة السياسة العالمية Revue :politique internationale

- وفي سنة ١٩٤٣ شارك في بعث مجلة المباحث وكان من بين محرريها كما شارك ايضا في تحرير مجلة « افريقية الادبية »

التى كانت تصدر بتونس ، كما حرر Afrique Littéraire
صحبة البير كموس وروبليس وبسكو وغيرهم وذلك في مجلة
التى كانت تصدر فى عاصمة الجزائر forge

– وفى ما بين سنة ١٩٤٥ وسنة ١٩٤٧ شارك فى تاسيس نقابة التعليم الثانوى التونسى واسندت له الكتابة العامة مما جعله يعمل جنبا لجنب مع الزعيم الشهيد فرحات حشاد وذلك الى نهاية سنة ١٩٤٧
وفى جوان ١٩٤٧ شارك فى بعث صحيفة « تونس الفتاة »
واسندت له ادارة التحرير الى نهاية ١٩٤٨ . La jeune Tunisie
وكان من الاهداف التى ترمى اليها تونس الفتاة هذه :

١) المطالبة بالاستقلال
٢) مقاومة الاستعمار واذنابه

وفى جانفى ١٩٤٩ اسس واشرف على ادارة صحيفة وطنية اخرى
« الامة التونسية » التى واصلت الكفاح La Nation Tunisienne
ضد الاستعمار وضد الوزارات التونسية . التى سخرها الاستعمار
ولقد كان شعار هذه الصحيفة : اتحاد – عمل – استقلال
وفى فيفرى عام ١٩٥١ شارك فى بعث وادارة صحيفة اخرى
« استقلال » التى اتبعت نفس سياسة سابقاتها Indépendance

ومن سنة ١٩٥١ الى سنة ١٩٥٦ كان عضوا فى اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستورى
وفى ٢٠ من مارس ١٩٥٦ نشر كتابه هذا

La Tunisie Nouvelle
Problèmes et perspectives
à l'Aube d'une renaissance

وذلك بمناسبة الذكرى الاولى للاستقلال
وفى ديسمبر ١٩٥٧ سجل فى تقديم اطروحة لشهادة التبريز فى الجغرافية وذلك بكلية باريس ٪

الناشر
على بوسلامة

مقدمة النشرة العربيـة

حرر هذا الكتاب بمناسبة الذكرى الاولى لاستقلال تونس في ٢٠ مارس ١٩٥٧

وقد قصد فيه ، بالاستناد على الاطار الجغرافي والتـاريخي والبشري الدائم ، الى ضبط مواردنا وهكذا الى تقديرامكانياتنا وما يمكن ان نعلق عليه من آمال في فترة دقيقة من تطورنا . ففيه حينئذ نظرة عامة في المشاكل الاقتصاديـة والاجتماعيـة التي تواجهها البلاد التونسية في فجر استقلالها .

ولكن هذه النظرة صورة خاطفة « حينية » اى انها وقف فيها الزمن واستقر ، فلا تكون صالحة صادقة الا بالنسبة للـوقت الذى اقرت فيه عناصر المشاكل البشرية ومعطياتها المتغيـرة المتحولة . وما كل بلد الا هيكل مستمر التطور دائم التحول. ومن المظاهر ما تبقى قارة هي هي ، ومنها ما هي تتغيـر ، فيخلق وجه جديد ، وتلوح شواغل مستحدثة ولعل من مزايـا هذا الكتاب اولا ان حاول ان يضبط صفات تـونس الجديدة في

الميدان الاقتصادى والاجتماعى فى السنة الاولى من استقلالها ، فيصير من الممكن هكذا لدراسات اخرى وليدة بضع السنوات المقبلة ان تضبط بدورها ما تم انجازه اى ان تختطف صورة ثانية « حينية » تمكن من قيس ما قطع من الطريق منذ هذا التاريخ • ومن مزاياه ايضا وعلى الاخص ان استخرج بالاستناد على الفروض الجغرافية معطيات عدة مشاكل رئيسية • وكما قال برقسون : ان عرض المشكل فيه نفسه حله • وقد حاولنا مع عرضنا للمشاكل ان نستوضح الوجهات والآراء وان نختط جادات معبدة وان نشير الى حلول انشائية قد برهنت - بما وقع من بعثها للوجود منذ نشر هذا الكتاب - ان اختيارها كان فرضا حتميا •

فسياسة غراسة الاشجار وخاصة الزيتون ، واستغلال الطبقات المائية بالوسط والجنوب استغلالا منطقيا ، وادراج مزروعات جديدة تلائم اراضينا اكثر من زراعة القمح ، واقرار الاعراب الرحل ، وفسخ الاستعمار بتوزيع ثروات الارض وخبايا الارض على التونسيين ، وتنظيم امكانياتنا الاقتصادية سواء فى ذلك انتاج الارض او خباياها او الصيد او الصناعة التقليدية ، وما يؤمل ان ياتى به التصنيع وباب السياحة من الامكانيات ، والاتجاه الجديد الذى ينبغى ان يصطبغ به التعليم نظرا لحاجيات البلاد خصوصا فى الميدان الفنى ، وانشاء عمولة تونسية وفك عصمتها من الفرنك ، وقطع مفعول الاتفاقية

القمرقية ، وسبر الاسواق الجديدة اللازمة لصادراتنا ، وقبل كل شيء وجوب الترفيع في مستوى العيش للتونسي المتوسط الحال وذلك باستعمال جميع الوسائل لمكافحة الداء القومي الذي يتخبط فيه الشعب ، داء البطالة بل قل داء انعدام العمل او بعبارة اخرى كسب المسابقة الجارية بين نمو عدد الرجال ونمو الثروات ، واخيرا وجوب التفكير من جديد في اقتصادنا ضمن تصميم مدقق مفصل مضبوط كي ينصب في قالب جديد ملائم للظروف الجديدة ، وهذا ما تتلخص فيه امهات الافكار المحللة في هذه الدراسة ، منذ ثلاث سنوات مضت ، تلك الافكار التي شرعنا في انجازها ومازلنا مثابرين على ذلك

وان مزية هذا الكتاب – واني لاقدم احر تشكراتي لزميلي وصديقي محمد السويسي لما بذله من جهد وما لاقاه من عناء في تعريبه اياه بكل حذق على الوجه الاكمل – ان مزية هذا الكتاب ليست فحسب في الدراسة النظرية لوسط جغرافي ولا في استقراء موارده وامكانياته ، بل هي في اقرار الظروف الاقتصادية والاجتماعية للنهضة التونسية ، وهي في ان كان في طليعة المعركة الاقتصادية التي تخوضها البلاد باجمعها منذ بضعة اشهر ٠

فكي تحول اقتصادها الماضي التابع للغير الى اقتصاد مستقل وكي توفق بين انتاجها وبين سرعة تزايدها التناسلي – بما يتبع ذلك من التوابع الاجتماعية والبشرية – ان البلادالتونسية

اليوم تخوض معركــة اقتصاديــة عظمى يتــوقف على نتيجتهــا مستقبل عدة اجيال من التونسيين ·

وكل معركة اذا اريد كسبها والفوز فيها لا بـد ان يتعـرف فيها الى التربة التى تجرى فيها والى نسبة القـوات المتواجهـة ولا بد ان تعتمد على جهاز استراتيجى احكم تصميمه ، ولا بـد ان ترتكز على عزيمة ثابتة باعثة على الفوز وارادة صادقةللانتصار وقبل ان تخاض هذه المعركة كانت النية فى « تونس الجديدة » ان توضح البعض من هذه العناصر الاساسية ·

ويكون اجمل جزاء لهذا الكتاب ان اتى بحجارته لبناء صرح النصر الذى يفرض على كل تونسى فى ناحيتــه وفى بابــه ان يعمل بصدق لاشادته وان يسعى جهده فى سبيله ·

المؤلف

صلاح الدين التلاتلى



تمهيـــــد

قال اندرى سيقفريد : « لكثير من البلدان ما يدعو الى الاغتباط بها ، فهي لها فى اتجاه ما نافذة تفتح على اللانهاية ، وعلى الامكـانية وعلى المستقبـل ، ويصير لهذا الاتجاه فى نظرها معنى يشبه الرمز ، او هو يصطبغ صبغة السر الكونى الخفى ... » .

وبالنسبة للشعب التونسي ـ طيلـة ثلاثة ارباع القرن ، اى منذ نصبت الحماية نظامها للرق السياسى ، ومنذ استحوذت على الاقتصاد لفائدة شرذمة من « المتمتعين به الثقاة » ، همهم فى خدمة مصالحهم الشخصية اكثر منه فى اعتبار القيم الادبية التى تتجسـم فى بلادهم ، ـ بالنسبة للشعب التونسى كانت « النافذة المفتوحة على اللانهاية والامكانية والمستقبل » ، تلك التى تهدف اليها القوى الحية لشعب باجمعه ، فيجنى نورها لكافة القلوب آمالا فسيحة ويشرف المرء من ورائها على وطن الحرية المرح الزاهى .

والان وقد اقتحمت النافذة ـ بفضل ما بذل فى ذلك من تضحيات دامية ـ ـ فلكي لا يكون هذا الوطن المرح سرابا خلبا ، صار من المتاكد ان يفهم ايضا من السيادة السياسية التى يتضمنها ان سيكون للتونسيين باسرهم حيـاة مادية كريمة ، لاتمسها الحاجة ، اذ كما قال **الرئيس بورقيبة** منذ ايام ـ وفى قوله الحق ـ : « **ان الاستقلال بلا ازدهار خديعة وغرور خطير** » .

فيلوح الكفاح فى سبيل ترفيع المستوى المادى وفى سبيل الرقى الاجتماعى تابعا طبيعيا بل تتويجا حتميا لكل حركة تحريرية وطنية . ولذا جعلت الدولة التونسية الفتية فى طليعة اعمالها توطيد اركان الاستقلال السياسى وتدعيمها ببعث ازدهار اقتصادى موزع على افراد الامة توزيعا منصفا عادلا .

ولكى يبنى هذا الازدهار على اساس متين ناجح يتعين علينا فى آن واحد ان نولى وجوهنا نحو آثار الماضى الباقية بيننا وان ننشىء الظروف الملائمة للنهضة التونسية العامة الشاملة •

ان الحالة الاقتصادية والبشرية الحاضرة تابعة مباشرة لعصر الاستعمار وما زالت تلوح عليها آثار هذا العصر وقروحه الدامية المؤلمة •

فبينما خبايا الارض التونسية التى تكون ٪ ٤٠ من جملة الصادرات تمنح دائما ثروتها لشركات اجنبية ، وبينما يستمر اليوم كالامس ـ اصحاب رقاع (صفاقس ـ قفصة) وجريسة وما شاكلها من بانروايا واضرابها على غنم مليارات عديدة من الارباح ، وبينما نرى اراضى القمح الخصبة التى اغتصبت من التراث الوطني تهب دائما الى قياصرة الاستعمار ما يقرب من ٪ ٤٦ مما تنتج من القموح ، ما زال مستوى العيش بالنسبة للجمهور التونسى فى درجة من اخفض الدرجات فى العالم • فتفيدنا احدث الاحصائيات اننا ـ من مجموع السكان المسلمين الذين يبلغ عددهم ٣ ٣٨٣ ٠٠٠ نسمة ـ نجد ٢ ٧٠٠ ٠٠٠ تونسى يتراوح محصولهم السنوى بين ١٦ ٠٠٠ فرنك وبين ٢٠ ٠٠٠ فرنك ـ وعين هذه الاحصائيات التى لا رافة فيها ولا شفقة تنبئنا ايضا ان ٪ ٧٦ من التونسيين الذين بلغوا السن الدراسية انما تكتنفهم مدرسة الشوارع ، وان الثلث من الرجال فى سن العمل يئنون تحت نير البطالة المزمنة

ولكن اذا كان فسخ الاستعمار بان يرجع للمجموعة التونسية جميع المنتوجات التى اغتصبت منها امرا حتميا لصحة البلاد وسلامتها ، انه ليس فى ذلك من الدواء ما يكفى •

فهذا الاندفاع العددى لافراد الامة يمثل نموا سنويا يقدر تقريبا بسبعين الفا من التونسيين الجدد ـ اعنى ما يفوق جملة سكان مدينة صفاقس ـ وفي ذلك ما يزيد يوما فيوما فى خطورة الاختلال بين الانتشار البشرى وبين نمو الثروات •

لذا لا يكفى لنتدارك ما للماضى من خلل ـ حيث كان فيه لاهالى البلاد اوفر نصيب من التعاسة والامية ـ ولنواجه هذا الانفجار التناسلى الذى مكن شعبا من تضعيف عدده فى ظرف ٣٥ عاما ، لا يكفى لذلك كله ان نسترد الثروات القومية الموجودة ، بل المشكلة هى فى جوهرها ان تنشا دوما موارد مستحدثة للانتاجات الوطنية •

وهذا الانشاء المستمر المتزايد المنظم يستدعى استغلالا بليغا ـ تتظافر فيه جميع المجهودات ـ لامكانياتنا المنتجة، بان يحول اقتصادنا الذى اقـره النظام الاستعمارى فى درجة وضيعة منخفضة الى اقتصاد رشيد حطم ما عليه من حجر وفي ك لذلك ما يجعل امامنا عملا جبارا مترامى الاطراف عملا يتاكد القيام به تاكدا ملحا حيويا .

وفى هذا العمل العام الشامل لجميع ما لبلادنا من مخبئات من الذخائر المادية والبشرية ، ليس فى الامكان ان نستغنى عن حظ من الحظوظ ولا ان نفرط فى امل من الامال .

لكنه يجدر بنا قبل كل شىء ـ شان النوتى عند نجاته من اعاصير جعلته لا يفقه اين المتجه ـ يجدر بنا ان نضبط موقعنا وان نعلم اين حللنا وعلى اى دعامة يمكننا ان نعتمد وعلى اى قاعدة يمكننا ان نرتكز لكى نستعمل ما بين ايدينا من المواد لاشادة ما فى الامكان اشادته ولبناء ما يجب بناؤه .

فما هى حالة فلاحتنا وصناعتنا التقليدية وصناعتنا العصرية الفتية وتجارتنا ؟ وما يختص به جميعها وما لها من الامتيازات التى من شانها ان تعين على احياء انتاجنا احياء سريعا قويا ؟ وما هى فى هذا الشان امكانياتنا البشرية من حيث الكم ومن حيث الكيف ؟ وكيف يلوح تكوين نشأتنا وفى اى مظهر تظهر سوق الاستخدام ويلوح المستوى العام للعيش ؟

وكل مسالة من هذه المسائل التى ترتكز عليها النهضة التونسية تستدعى دراسات طويلة عميقة تنتظم فى سلك تصميم عام محكم الضبط مدقق الحلقات .

وفى دائرة هذا العمل المتواضع انا لنؤمل فقط ان ناتى بحجارتنا لضبـط موقعنا فى الناحية الاقتصادية والبشرية ولتدقيق الواقع الحى لبلادنا فى فترة من ادق فتراتها التاريخية ـ وذلك بتصدير هذا الواقع فى وسطه الطبيعى ـ ولفتح مشكاة تشرف على الافاق والاتجاهات التى من شانها ان تاتى بالحلول للمشاكل المبسوطة فى هذه الميادين لتونس الحديثة .

وينبلج فجر جديد على قارتنا الافريقية العتيقة

فجر تجمعت فيه آمال الاحياء والاموات .

وغياهب الليل البيهم ستنجلى . . .

وانها لساعة الصبح المواتية ، حيث يشرع الزارع فى خط حرثه نـاشرا بذور آماله الخضراء اليانعة ، ساعة يقبض فيها بيده على اللحمة الخفية للصابات

المقبلة ، ساعة نيرة تتمخض عن الحزمات الثقيلة بالحبوب والاكداس العسجدية التى تنبعث منها الحضارات الناهضة ·

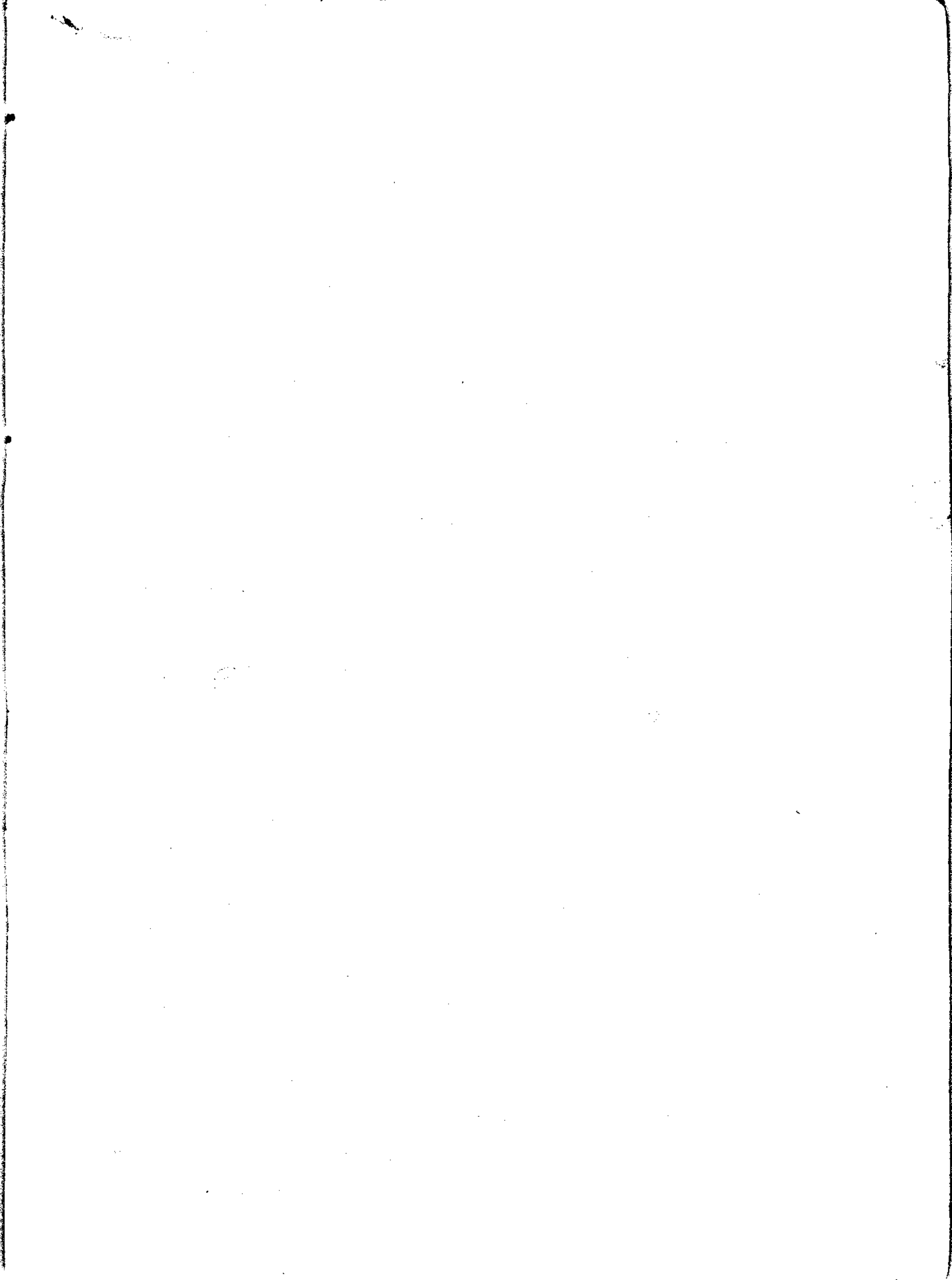
والتونسيون يشعرون بكافة ما تستلزمه حريتهم التي استرجعوها بـاغلى الاثمان من الواجبات والتضحيات وهم يعلمون انه كما قال جلالة سلطان المغرب محمد الخامس « **انما يبتدىء الكفاح حقيقة فى سبيل الاستقلال يوم يعلن بالاستقلال** » وما يعم قلوبهم من الطموح المنشىء الخلاق يتكافا عظمة مع جليل العمل الذى يترقبهم ، ذلك العمل الذى هم شرعوا فيه بعد ·

وارجو ان ياتى هذا الاستعراض السريع المستعجل ببعض العناصر التي من شانها ان تحلى لهم الحكم وان توضح لاصدقائنا فى الخارج وجه تونس التى هى بالرغم عما قاست من الالام فى الماضى وما يعترضها من ملح الحاجة اليوم تولى وجهها واثقة مؤمنة نحو النور المنبثق مما قدر لها من حظ جديد ·

(ـ ص· ت·)

القسم الاول

الطبيعة والعباد



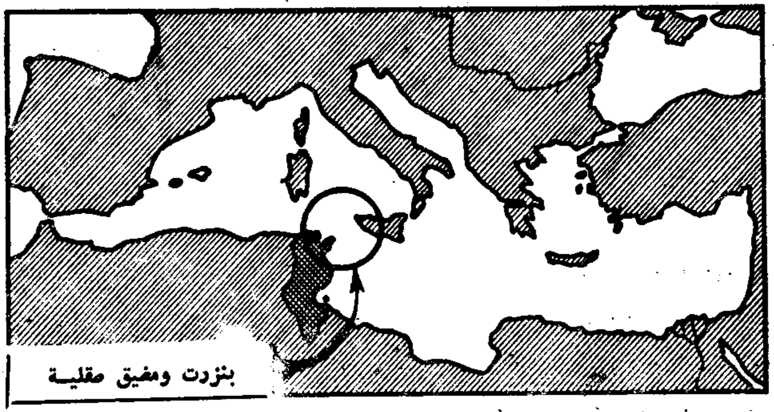
الباب الاول ـ الوسط الطبيعي

« البلد خزينة تنام فيها طاقات اودعت الطبيعة بذورها ولكن استعمالها متعلق ببني البشر »

(فيدال دي بلاش)

١ ـ الهيئة العامة والمناخ

الهيئة العامة : عند ما ينهى المسافر جولته الجوية او البحرية ويشرف على تونس بعد ان حلق فى سماء البحر الابيض المتوسط او مخر عباب هذا البساط الازرق او البنفسجى ، هذا البساط المتغير الحائل الحى ، الذى جعل سداه من اللازورد ولحمته من ذكريات الميثولوجية الارخبيلية او اليونانية ، عندما يشرف على تونس لا بد ان يستهويه سحر هذا البحر الفاتن فيقع كالعاشق المتيم ، بل لا بد ان يشعر فى قرارة نفسه بما لهذا الجوار من عظيم الشان ، وبما اثر به هذا البحر من قوى الاثر على ماضى البلاد ، وما يؤثر به اليوم ـ حين يضمها بين جناحيه ـ على النصيب الذى قدر به لحاضر هذه الرقعة الصغيرة من الارض الافريقية ولمستقبلها ٠



صورة رقم ١

فاذا اكب على خريطة ولو بسيطة لهذا البحر المتوسط ، ـ وما هى الا نظرة موضوعية مختزلة من واقع ياخذ بالالباب تنجلى له من تلقاء انفسها العناصر الاساسية التى تفسر المكانة الجغرافية العظمى والمنزلة التاريخية ذات القيمة الكبيرة اللتان تحلهما البلاد التونسية فى هذا المهد الجليل للحضارة البشرية.

ان السر فى هذه المكانة هو فى موقع البلاد نفسه اكثر منه فى خصب السهول الشمالية او فى جمال غابة الزيتون الساحلية او فى غزارة مناجم الفسفاط والحديد .

فموقع تونس الطبيعى الذى وجه منها نحو اوروبا مقدم الباخرة الشمال الافريقية يجعلها تسيطر على نقطة من اعز النقط من الممرات البحرية فى العالم. فبين الحوض الشرقى والحوض الغربى من البحر الابيض المتوسط يتعين المرور من مضيق صقلية وهو خنقة ذات ١٣٨ كم بين شبه جزيرة الوطن القبلى وصقلية ـ فلو لا هذا العنصر الاساسى لم يكن فى الامكان تفسير ما كان لقرطاج من السلطنة البحرية ولا ما كان لها من الصراع مع رومة فى الحروب البونيقية ولا ما يبرر ما لبنزرت من عظيم المكانة فى الصراع الحاضر .

فهناك مزية موقعية مركزية واقتصادية تذكرنا بمركز الدردانيل بتركيا ولا حاجة الى التاكيد فى اظهار مزيته خصوصا بعد فتح قنال السويس فصار البحر الابيض المتوسط من اهم المناطق البحرية فى العالم ومن اكثرها ازدحاما فى المرور .

وان لمجاورة هذا المحور العظيم للمرور ما طبع بطابع عميق الاثر جميع النشاط البشرى والاقتصادى فى الماضى والحاضر . فكانت البلاد التونسية مفترق طرق عظيم التقت فيها ابناء افريقية الغامضة وذخائرها بخيرات البحر الابيض ورجاله فعجن الجميع واستكمل كل ما له من ثروة مغتنما ما بين هذه العناصر من الفروق .

ومما سهل اختراق التاثير البحرى فى البلاد وضعية الشواطىء واتجاه التضاريس .

فهذا بلد صغير مساحته ١٢٥ ٠٠٠ كم مربع وموقعه موقع زاوية فهو يولى وجهين نحو البحر الابيض المتوسط فى طول ١ ٢٠٠ كم وهذا مما يجعل للمفعول الاقليمى والبشرى لهذا البحر اعمق الاثر فى البلاد . وتلك خاصية اساسية تميز الارض التونسية عن بلاد الجزائر والمغرب فبينما يولى المغرب

معظم وجهه نحو المحيط الاطلسى وبينما ترى الجزائر حاجز الاطلس التلى يوقف نفحات البحر الصالحة ، فتونس تفترش وتنفتح كلها تقريبا على ضفاف البحر الابيض المتوسط وخصوصا الشرقية منها . وتونس متجهة جغرافيا نحو الشرق ومن الشرق ايضا اتتها محاسن الحضارات الفنيقية والبوزنطية وعلى الخصوص الحضارة العربية . وكان لطابع الاسلام فى البلاد الاثر الاقوى . ويشاهد هذا الطابع لا فى النوع البشرى الذى يتكون منه الاهالى وانما هو فى اللغة العربية التى بقيت هنا فى اخلص صورها المستعملة اليوم بل يشاهد فى طبقة قوية من سكان المدن متعلقة اشد التعلق بالدين وبالتقاليد والثقافة الاسلامية وهذه الطبقة من سكان المدن تمكنت طيلة القرون ان تحفظ فى المدن والمداشر التراث الثمين للحضارات السابقة وهى التى تكون الشخصية التونسية وتضمن لها كنزا من قابلية الاكتمال مما يبشر احسن البشرى بالنهضة المستحدثة .

ومن الشرق ايضا اتت اواصر الاخوة الاسلامية ببذور الحركة الدستورية التى هى المحرك الباعث على تحرر شعوب الشمال الافريقى والخالقة للاستقلال التونسى .

وكذلك الجهاز الجبلى هو ايضا كانه سعى بكل افتنان ليفتح البلاد فسيحة امام ما للبحر من لطيف الاثر .

فالبلاد التونسية ـ اكثر من الجزائر واكثر على الخصوص من المغرب ـ بلاد بطاح ، اذ اكثر من نصف اراضيها لا تتجاوز ارتفاعا المائتى متر وثلاثة ارباع البلاد علوها اقل من ٤٠٠ م والقمة العليا ـ جبل الشعانبى ـ لا تفوق ١٥٤٤ م بينما يبلغ معدل الارتفاع فى الجزائر ٩٠٠ م تقريبا وبينما يبلغ الاطلس الاعلى المغربى ٤١٦٥ م.

وهذه التضاريس التونسية قليلة الارتفاع بحيث تغلب عليها البطاح والربوات والكدى المتناسقة وذلك مما اعان هنا اكثر مما اعان بسائر بلاد الشمال الافريقى على تعريب البلاد وعلى نشر الفلاحة القارة ووسع محيطها غانما ذلك من اراضى البدو الرحالة .

على انه مكن ذلك على الخصوص التاثيرات المناخية للبحر الابيض المتوسط من ان تخترق البلاد ، اذ كان الاتجاه العام لمنعطفات الاراضى والاودية من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربي يوافق مجارى غالب الارياح.

وهذا الاتجاه ايضا هو عين اتجاه الاودية الكبيرة من مجردة ووادي مليان. كما هو اتجاه الظهر التونسي حيث تلتقي وتلتحم الخطوط العظمى من الاطلس التلي والاطلس الصحراوي . ووقع التقاء هذه السلاسل الثلاثية ـ المعاصرة لجبال الالب ـ غربي الحدود الحالية للبلاد التونسية فلم يبق بهذه البلاد اثر للبطاح العالية التي هي من مميزات المناظر الطبيعية الجزائرية .

وجنوبي الظهر التونسي بالعكس ان اوضح مظهر طبيعي هو التشعب العظيم للمنعطفات المتوجهة من الشمال الى الجنوب ـ وهو اتجاه القاعدة العتيقة الهرقونية ـ مع منعطفات الاطلس التي مكثت على اتجاهها من الشرق الى الغرب، فنتج عن ذلك تلك المجموعة من القباب والصحاف التي تتكون منها المفازات العليا والمنخفضة ، وذاك الهيكل لما يوحى بالشبه لما يشاهد من المجاور الشكلية في منعطفات البيرينات وجبال بروفنسا :

ومن جهة اخرى لقد غطى الجهات المنخفضة المجاورة للشاطىء ـ خاصة بالساحل والجنوب ـ وفرش ارضها رواسب برية او بحرية وقد تم ذلك في آخر العصر الثلاثي ومستهل الرباعي .

ومما يزيد ايضاحا لضعف الارتفاع في غالب التضاريس التونسية امتداد التموجات الرخوة بالساحل والجنوب تحت البحر مكونة سطحا عريضا مغمورا بالبحر قليل العمق ينحدر شيئا فشيئا حيث بقيت مجار تحت البحر هي آثار الاودية القديمة يجيبها المد والجزر .

وهذا السطح تحت البحر قليل العمق له ما للبلاد التونسية نفسها من عرض خصوصا في خليج سرت ـ خليج قابس ـ فهذا السطح وحيد الشكل بشمال افريقيا ـ ومنحنى العمق المقابل لقدر ٢٠٠ م تحت سطح البحر يلاصق تقريبا الشاطىء الجزائري وهو بتونس يفارق الشاطىء الى بعد يفوق ٢٥٠ كم مكونا حقلا شاسعا لاقتناص الاسماك خاصة بين صفاقس وجزيرة جربة .

ومن النادر ان يوجد بالبحر الابيض المتوسط باجمعه منطقة اخصب بالاسماك ـ فكونت هذه الظروف الملائمة للحياة البحرية من سكان الجهات الساحلية ـ خصوصا جزر جربة وقرقنة ـ بحارة مهرة ، اشتهروا في القديم بالقرصنة ، وهم اليوم وديعون يصطادون الحوت والنشاف .

واخيرا قد يكون من المفيد ان نضيف ان الشكل العام للتضاريس التونسية يجعلها تتجمع في مركز طبيعي هو جهة عاصمة تونس . وذاك ايضا امر ممتاز

عديم النظير بشمال افريقيا وفيه ما يفسر ان تونس ـقبل سائر بلاد المغربـ كونت منذ عهد قديم مملكة موحدة ممركزة ٠

المنـــاخ

ان السائح عندما يكتشف زرقة سمائنا الصافية واشراقها البديع له ان يلتذ بذلك وان يصرح ان اقامته ساحرة خلابة ـ ولكن المزارع بالعكس وهو يرمق السماء متصيدا بعض الاشارة المبشرة بقرب انهطال الامطـار ليس له هو من جهته عين الدواعى للانشراح والطرب ٠

فيقـول جان ديبوا ذاكـرا جبل نفوسه : « ان حياة هؤلاء البـدو الرحل المتواضعين وسعادتهم ، اى الامل في سد رمقهم او بلاءهم ـ اعنى افضع صور الشقاوة والتعاسة ـ انما يتبع ذلك كله زيادة بعض العشرات من المليمترات من المطر او نقصها » ٠

فالمزارع التونسى او البدوى الرحال ـ ولو كان نصيبهم اوفر من نصيب سكان جبل نفوسة ـ باقيان دوما معلقين آمالهما على ترقب المـن السماوى وسلواه ٠

وفى الـواقع ليست الظروف المناخية تسيطـر على الصابات وعلى حيـاة المواشى فحسب ـ بل حياة البلاد باسرها وهى متعلقة ادق التعلق بالاقتصاد الفلاحى تتبع هذه الظروف المناخية ـ على ان ما يسيطر عليها ليس هو جملة كمية من الامطار ـ بما فى هذه الكمية من قليل الانتظام ـ بل هو توزيع هذه الكمية على اشهر السنة او هو فى الخلاصة عدد العشرات من المليمترات من الماء النازل فصل الخريف ابان اعمال الزراعة او فى افريل وماى عند انبشـاق سنابل الحبوب ٠ ونذكر بالمناسبة الملاحظة الطريفة المشحونة معنـى التى صرح بها احد مديرى المالية التونسية فى العهد البائد: « ينقص ميزانيتى ٥٠ مم من المطر » ٠

ونحن لا نصل الواقع مهما اكدنا على شدة تسيطر العناصر الجوية على هاته الرقعة الافريقية حيث اربعة اخماس السكان العائشين من الفلاحة يضعون كل آمالهم فى رحمة السماء ٠

فالعوامل المناخية هنا كما هى فى سائر بقاع الدنيا ناتجة عن عرض البلاد وارتفاعها وموقعها بالنسبة للبحـر ، والبلاد التونسية واقعة بين الدرجـة ٣٠ ـ ٣٢ والدرجة ٣٠ ـ ٣٧ من العرض الشمالى اعنى انها واقعة فى المنطقة

المعتدلة الدافئة التى تدعى منطقة البحر الابيض المتوسط ويميزها الجفاف والحرارة فى الصيف وشتاء لذيذ وغلظة الامطار فى الخريف كما تتصف على الاخص بنور وضاء وجو شفاف يجعلان من جملة البلدان الواقعة فيها شاطئا لازورديا لا حد له ولا مدى ٠

ويؤثر الموقع بالنسبة الى البحر على العناصر المناخية تاثيرا قويا ـ فللبلاد التونسية واجهتان تفتحان على البحر الابيض المتوسط وذلك ما يسمح لتاثير البحر ان يعمل فى مسافة طويلة جدا لها بعض العمق في الاراضى كلما سمحت التضاريس الجبلية بذلك ٠ ويكفى للوثوق من ذلك ان نتصفح بعض المعدلات الحرارية ـ فعلى الشواطىء ، من بنزرت الى قابس ، نشاهد معدلات جانفى واوت متقاربة : (بنزرت ١١،٣ و ٢٥،٨ ، صفاقس ١١،٧ و ٢٦،٤ ، قابس ١٠،٩ و ٢٧٥) ـ وبالعكس اذا ابتعدنا عن الساحل تقوى الفروق فى الحرارة فبالقيروان على بعد ٥٠ كم من سوسة ، معدل الصيف يفوق معدل هذه الميناء بقدر ثلاثة درجات ، وكذلك الفرق بين طبرقة وسوق الاربعاء اللذان تفصلهما مسافة ٥٠ كم ٠

فهذه الصبغة الاقليمية تتضح كلما غصنا داخل الاراضى الا ان هذه الصبغة الطف منها فى الجزائر لما للظهر التونسى من قابلية الاختراق اكثر مما للاطلس التلى ٠ على ان فى الجملة داخل البلاد باجمعه تابع لاقليم البحر الابيض المتوسط الجاف والفروق الحرارية فيه كبيرة والجفاف متناه ٠ ومن جهة اخرى كلما تقدمنا نحو الجنوب يظهر تاثير الصحراء فيعاكس ما للبحر الابيض من اثر ـ ويتصاعد هذا التاثير نحو الشمال فى الصيف وينزل الى الجنوب في الشتاء ومن ظواهره ازدياد درجة الحرارة وتفاقم الجفاف وزيادة الفروق الحرارية اليومية او طيلة السنة ٠

واما العامل الثالث وهو الارتفاع فان اثره ضعيف جدا اذ لا تصل ثلاثة ارباع البلاد الى علو ٤٠٠ م ٠ فتزداد بذلك الظاهرة الاقليمية على الظهر التونسى بسقوط الثلوج عليه ولكن الجبال انما تؤثر باتجاهها وان خريطة الامطار هنا كما فى سائر البلاد الشمال الافريقية تنطبع فى جملتها على امهات الخطوط الجبلية ـ فسلاسل خمير ومقعد المتجهة من الشمال الشرقى الىالجنوب الغربى توقف ما يصفعها بشدة من الرياح الشمالية الغربية المتشعبة من الرطوبة والندى ٠ ولذا كان هناك اروى الجهات فى شمال افريقيا واشدها

تهاطل امطار (١٥٧٥ مم بعيسن دراهم) وذلك ايضا ما جعل معظم البلاد التونسية الواقعة وراء هذا الحاجز الجبلى اجدب قليل المياه — فمنعطفات التضاريس الجبلية متجهة نحو الشمال الشرقى وتتسرب اليها الرياح المتجهة هذا الاتجاه ولكن هذه الرياح اقل رطوبة من رياح الشمال الغربى — وذاك امر اساسى — ولو كان الامر بالعكس اعنى لو كانت الجبال متجهة نحو الشمال الغربي لكانت البلاد التونسية اغنى واثرى ·

فكيف كان مفعول كل من هذه العوامل اذا لتكوين العناصر المناخية ؟

في هذه البلاد التى يكون دائما الشغل الشاغل فيها هو قلة الامطار ينبغى ان يلفت النظر قبل كل شيء الى الرياح الحاملة لهذه الامطار ·

فنظام الرياح تابع للنظام العام للرياح الافريقية · ومن المعلوم انه جنوبى خط الاستواء يكون ارتفاع درجة الحرارة تيارا صاعدا ومنطقة ضغط منخفض تجلب اليها رياح (اليزى) المنتظمة — وبالعكس فى جوار الجهات المدارية نزعة الى تكوين مناطق ذات ضغط مرتفع ورياح متفرقة عديدة الاتجاهات ، وخط الاستواء هذا الذى هو خط اعتدال حرارى لا جغرافى يتحرك تبعا للحركة الظاهرية للشمس وذبذبة خط الاستواء الحرارى بين الجهتين المداريتين يتبعها فى الصيف ان تدفع نحو شمال افريقيا وجزء من البحر الابيض المتوسط منطقة الضغط المرتفع الكائنة جنوبى الجهة المدارية وفى الشتاء ان ترجعها نحو الصحراء ·

فهكذا يصير المغرب فى الصيف مركز ضغط مرتفع ونقطة افتراق للرياح او فى الاغلب مركز سكون جوى · فاذا ما هبت الرياح سارت من الارض التى تلفحها الحرارة نحو جهات الضغط المنخفض الحالة بجزء من البحر الابيض · وهذه الرياح الشديدة الحر الشديدة الجفاف المعروفة بريح السموم او السيروكو او الشهيلي او القبلي لها اثر سيء فى نفوس الناس وعلى الحيوانات والزرع : فهى موجة من الحرارة المجففة الماصة لكل رطوبة ، وذاك ناشىء عن كون هذه الرياح الحارة فى نفسها لمرورها على الاراضى المتوقدة الجنوبية تزداد حرارة لانضغاطها عند هبوطها بشدة على منحدرات الاطلس او الظهر التونسي — ولكن الشهيلي لا يهب الا اذا وجدت منطقة انخفاض فى الضغط على البحر الابيض او فى الجنوب الشرقى من اوروبا ، وان لم يكن ذلك كان الطقس شديد الحرارة شديد السكون ·

على انه فى شهر سبتمبر ينحدر خط الاستواء الحرارى نحو الجنوب وتتبعه منطقة ارتفاع الضغط المدارية التى كانت تعم شمال افريقية • فتصير هذه اذا مركز ضغط منخفض يجلب اليه رياح البحر الابيض الحبلى بالامطار – وتلك بداية امطار الخريف ويدوم ذلك حتى الربيع ثم تدور عين الدورة من جديد ولكن هذه الدورة تتشعب بوجود ريح موسمية صغيرة يومية – السبب فيها الفرق بين حرارة افريقية وحرارة البحر الابيض – تلك الريح الباعثة للنسيم اللذيذ فى الصيف اذ ياتى المساء بما يبعث به البحر من برد وسلام كما تتشعب الدورة برياح ناشئة عن انخفاضات ثانوية فى الضغط تشوش هذه الاوضاع وتدخل خللا فى الانتظام مما جعل ذلك قاعدة من القواعد القارة لهذا المناخ الكثير التغير •

ومما يزيد هذا العبث فى انتظام الارياح خطرا ان الريح التى هى الحامل الطبيعى للمطر تدخل عبثها المفسد لنظام الامطار – فيكون هكذا للامطار ما تتصف به منطقة البحر الابيض بما لها من صفات ثلاث من كونها قليلة فى الزمن والمقدار مختلة النظام طيلة السنة بل هى تختلف اتم الاختلاف من سنة الى سنة •

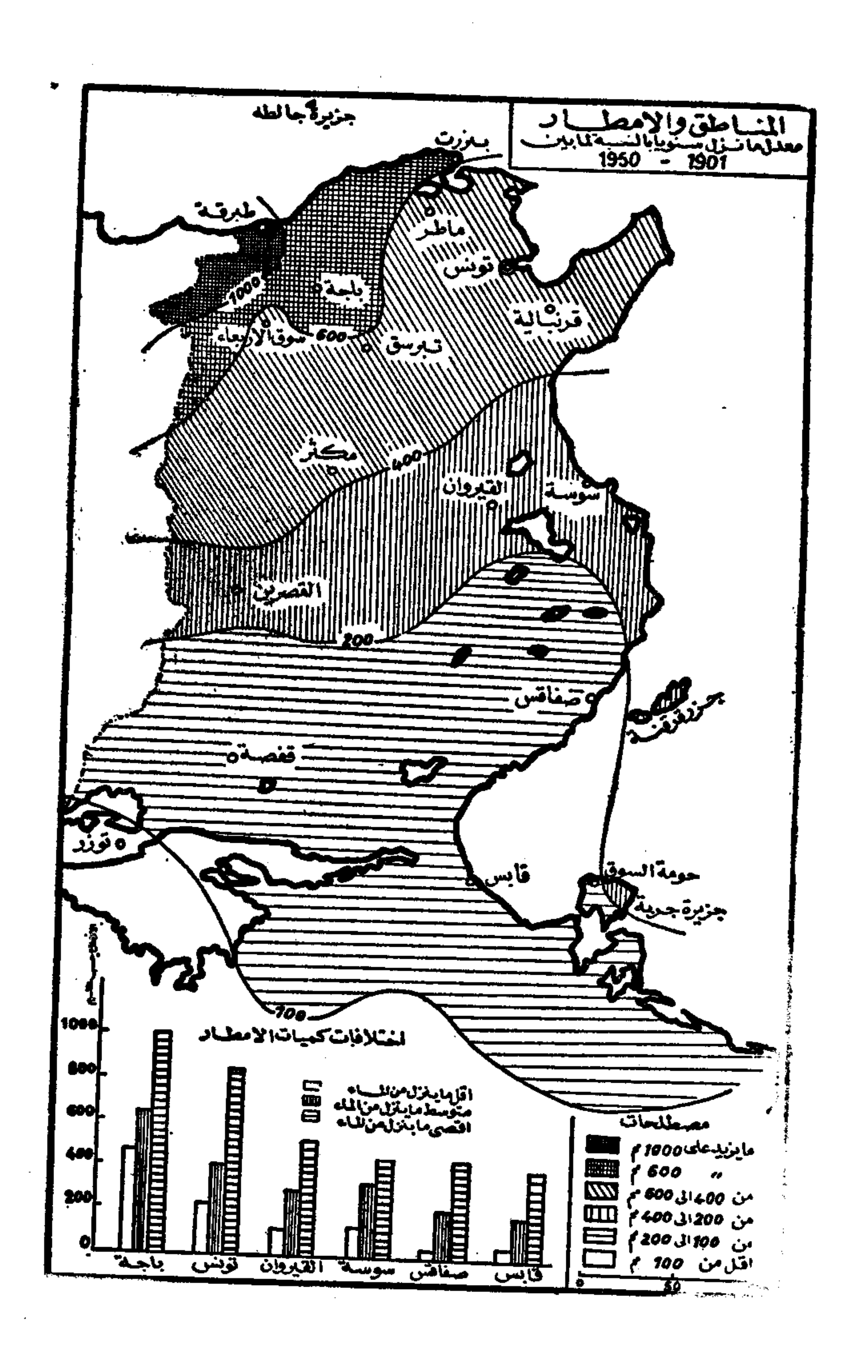
فلو نظرنا خريطة للامطار مثلا تلفت نظرنا قوة الفرق بين كميات المياه النازلة على الصفح الشمالى على التل الشمالى وعلى الصفح الجنوبى منه، فالشمال الغربى جهة جبلية تفرعها الرياح الشمالية الغربية فتغدق عليها امطارا هواطل• فينصب فى عين الدراهم ١٥٧٥ مم من المطر فى السنة بينما باجة التى تبعد عنها ٤٠ كم على الصفح الجنوبى لا ينصب فيها سوى ٦٥٠ مم • ثم نجد قطعة تخترق معظم الظهر التونسى والوطن القبلى وجهة العاصمة تتراوح الامطار فيها بين ٤٠٠ و ٦٠٠ مم • وفى هذه المنطقة التى بها فى الجملة ما يكفى من الامطار ليجعلها منطقة جليلة للحبوب نجد اثرا قويا لاتجاه الارض • ثم منطقة المطر فيها بين ٤٠٠ و ٢٠٠ مم تشمل جنوبى الظهر التونسى ومعظم الساحل حتى وادى ليف ران – ويحمل المطر فى هذه الجهة الشرقية من تونس على الخصوص الريح الشرقية (الشرقى) بينما كانت فى الشمال ياتى بها الجبالى (الريح الشمالية الغربية) – واخيرا فى الجانب الجنوبى الشرقى من شط الجريد يعين منحني الامطار رقما يقل عن ١٠٠ مم وذاك الحد الجغرافى للصحراء القفراء •

وما لهذه الخريطة الا قيمة تقريبية تشير بعض الاشارة الى الواقع اذ ما هى الا حاصل معدلات . وقد يتضعف مقدار الامطار فى السنة الواحدة . وبما ان زراعة القموح لا يسيطر عليها معدل الامطار فحسب بل يسيطر عليها الواقع الموجود قد تكون الصابات مجاحة اجاحة تامة فى جهات شهرت بريها — ولكن بالرغم عن عدم النظام الذى هو القاعدة الاساسية فى هذا المناخ ، والذى يعكر الحياة الاقتصادية والمالية والاجتماعية وحتى السياسية بالبلاد ، بـالرغم عن ذلك كله ، هناك بعض العناصر لها من الثبات والاستقرار قدر نسبى ، منهـا عدم وجود الامطار طيلة ثلاثة او اربعة وحتى خمسة اشهر مع كون القدر الاقصى للامطار يقع فى اوائل الخريف ، وعدد من ايام المطر قليل يتضاءل كلما اقتربنا نحو الجنوب ، وامطار تتدفق هواطل فيصب فى بضع ايام واحيانا فى بضـع ساعات مجموع الكمية السنوية من الماء . فهذه كلها خاصيات نظـام للامطار مضر اتم الضرر للمزروعات اذ من المفروض عليها ان تختـرق فى بضع ايـام مقدار ما تستحقه من الماء لسنة كاملة .

فالمناخ التونسى اذا له مزايا مناخ البحر الابيض الجاف او الشبيه بالجاف ونظام الامطار بالخصوص له آثار عميقة على تـوزيع المياه والزرع وبذلك على كيفيات العيش .

نتائج المناخ : ان توزيع المياه تابع اتم التبع لنوع الاراضى وللهيكل الجبلى وخصوصا للمناخ — وهنا الاراضى فى جملتها غير قابلة للانخراق والحدرات كثيرا ما تكون قوية والامطار تهطل غزيرة بعد فصل طويل من الجفاف ، وذاك كله مما يجعل من نظام الاودية التونسية نظاما متقطعا متدفقا فهى تجرى حينا وتنضب احيانا ، على ان هذا النظام يختلف اختلافا واضحا من الشمال الى الجنوب

فشمال الظهر التونسى يسيـر السيل بطبيعته نحو البحر اذ لا تـوجد السباخ والمياه الراكدة الا بقلة ومن جهة اخرى ان كثرة الامطار تبقى الاودية جارية فصل الصيف بمقدار ضئيل من المياه — فمجردة مثلا لها فترة تتصاعد فيها المياه ، واقعة بين نوفمبر وافريل وقـد تصـل بطبربـة الامطـار الى ٩٢٥ م٣ فى الثانية اى ثلاثة اضعاف غزارة نهر الصين الفرنسى ، ولكنها فصل انخفاض المياه لا تحمل اكثر من بضع مترات فيها من الوحل ما فيها من الماء — فلا يتبادر الى الذهن اذاك ان حمل هذا الوادى قد يكون هائلا مروعا كما وقع سنة ١٩٣١ اذ بلغت غزارته ١٣ ٠٠٠ م٣ فى الثانية وفى ذاك ما يفسر


المناطق والامطار
معدل ما نزل سنويا بالنسبة لما بين
1901 - 1950
جزيرة جالطه
بنزرت
طبرقة
ماطر
تونس
باجة
قرنبالية
سوق الاربعاء
تبرسق
مكثر
القيروان
سوسة
القصرين
صفاقس
جزر قرقنة
قفصة
توزر
قابس
حومة السوق
جزيرة جربة
1000
600
400
200
100
اختلافات كميات الامطار
اقل ما ينزل من الماء
متوسط ما ينزل من الماء
اقصى ما ينزل من الماء
مصطلحات
ما يزيد على 1000 م
600 م
من 400 الى 600 م
من 200 الى 400 م
من 100 الى 200 م
اقل من 100 م
باجة
تونس
القيروان
سوسة
صفاقس
قابس
0
200
400
600
800
1000
50

عظم مصبه عند البحر فتمكن من ان يتقدم قدر ٣٠٠ كم٢ منذ العهد الرومانى
واذا ما اقتحمنا الظهر التونسى نحو الجنوب نشاهد تغير هذه الصفات فهناك نظام انخفاضات مغلقة وغالب الاودية لا تصل البحر لقلة المياه التى فيها ولشدة التبخر وغزارة اختراق المياه للاراضى . فالسيلان عديم الاتصال ولا تجرى هذه الاودية الا وقت انصباب الامطار . فتصل صحافا مختلفة الامتداد وسباخا وشطوطا . وذاك ما يشاهد على الخصوص فى وادى مرقليل وزرود حيث يغمران سهل القيروان ثم يغرقان فى سبخة الكلبية وسبخة سيدى الهانى .
وتشتد هذه المظاهر للاودية كلما تقدمنا نحو الجنوب فلا تجد من القوة ما يمكنها من الجريان اثر الامطار ومن حمل اوحالها بل هى تغرق فى اوحالها بين الرمال . وذاك التضاد المشاهد بين جهات الشمال وجهات الجنوب فيما يخص المناخ وتوزيع المياه يلاحظ بعينه فيما يخص النباتات الطبيعية والمزروعات ويمثل الشمال لاعراب الجنوب الرحل صورة اراض خصبة مخضرة يانعة هى اراضى افريقية ، ولاهل الشمال بقى الجنوب ارضا قاحلة تدعى (بر القبلة) .
فشمالى الظهر التونسى تمتد جهات التل – ولفظة تل معناها الارض الخصبة – فهناك الاعشاب الناضرة ومزارع الحبوب والغابات التى اقوى ما تكون بالاراضى الرملية الصوانية بخمير وجبال مقعد تزينها اشجار الفلين الضخمة الجذوع واشجار البلوط وتتغطى الارض فيما بينها بالحشائش من اريقى وبطارس – وان المرء ليظن انه بغابة من غابات اوروبا : وهو على بعد ٤٠٠ كم من واحات الجنوب ومن الصحراء – وكلما تضاءلت الامطار تفرقت الغابات وتضاءلت اشجارها فاذا كانت كميتها تقل عن ٦٠٠ مم عاوضت الغابات الاحراش المعروفة (بالماكى) وتاخرت اشجار العناب والزياتين البرية امام الحقول الخصبة للقموح النامية بالاراضى السوداء (تشرنوزيوم) الممتدة بجهة باجة وبوادى مجردة .
وجنوبى مجردة يتموج الظهر التونسى الكلسى التربة بصنوبر حلب وشجيرات البلوط ، وتظهر الحلفاء لاول مرة فى الاراضى قليلة الجفاف ونجد احراشا تغطيها اشجار العناب وكلما انحدرنا على الصفح الجنوبى امتدت آفاق لا حد لها ولا نهاية هى آفاق السباسب القاحلة حيث لا يغشى الارض اى نبات سوى بضع نباتات الحبوب الصغيرة والحلفاء وبالمرتفعات المجاورة لقفصة بضع اشجار الصنوبر الحقيرة او اشجار البلوط الضعيفة – ثم يبتدىء منظر دعاص الرمال المترامية الاطراف حيث تتراءى من حين الى آخر نتف من (الدرن) .

وعلى الساحل يتبع المنظر النباتي عين التدرج من بنزرت الى قابس على ان هناك فرقا واضحا وهو ان النباتات البرية قليلة جدا بالنسبة الى المزروعات - فغابات الزيتون والهنـدى (المستورد فى الاصل من امريكا) - وسـائر المزروعات زحفت على سباسب جهـة الساحل وقهقرتها الى الـوراء واحيطت السباخ بنباتات مالحة تتغذى بها الابل وتتنعم بها •

فكل النباتات التونسية يطبعها طابع البحر الابيض ثم طابع الصحراء في الجنوب- وظروف الوسط الطبيعي من اشراق نورى وجفاف مستمر فى الصيف اوجبت على النباتات الطبيعية ان تكون محبة للجفاف وان تحل مشكلة المـاء باختزانه تحت الارض (نباتات بصليـة) او فى الجو (النـد والصبير) او باختصار مساحة التبخر (زيتون وحلفاء) او بنشر سحاب من الروائح يقيها (نباتات فيحاء) •

وان هذا الامر المنـاخي الذى هو نقمة جغرافية لهو الذى يطبـع الانسان باعمق المياسم ويسيطر على حياته العمليـة ففى هذه البلاد المتصفة بالجفـاف لاءم الانسان عيشه كله بمسالة الماء - فاذا كانت النباتات قد اختزنتما تحتاج اليه فى اوراقها وفى جذورها والجمل فى سنامه والاغنام فى اذنابها الضخمة فان الانسان حفر الصهاريج ومخازن الحبوب بل اكثر من ذلك هو جعل حياته فى الترحال المتواصل ، فتوزيع الحياة بين مرتحلة وقارة ثابتة هو ظاهرة تمت بصلة متينة الى توزيع الامطار ، والتل المطير هو ارض السكان القارين الثابتين والسباسب القاحلة هى بلاد البدو الرحالين •

٢ - الجهـات الطبيعيـة

اذا ما جبنا البلاد فى جميع الجهات امكننا ان نلاحظ ان البلاد التونسية هى حقيقة بلاد المتناقضات من ناحية المناظر والمنتوجات كما هى كذلك من ناحية اوجه الحيـاة •

فيلى اراضى القموح الخصبة وجلباب الغابات الغضة بالتـل الشمالى ، يلى ذلك من الجنوب مزارع جميلة وزياتين وغروس برتقال غناء تغشى التل السفلى من جهة العاصمة والوطن القبلى، وجبال تتفاوت غاباتها ونباتاتها خصبا ونضارة وقد تجللها فى الشتاء ثلوج ناصعة ، ثم اراضى الظهر التونسى حيث ترصعها بطاح غنية بحبوبها ، ثم البطاح المقفرة الخالية بالسباسب العالية التى تمتد

نحو الساحل الشرقى متصلة بخطوط متموجة مطاوعة هى الساسب السفلى ثم بحر الزياتين ببلاد الساحل واخيرا وحشة البيداء فى الجنوب تنبثق فيها مزهرة زاهية بعض الواحات الكبرى ٠

ولكل من هذه الاقسام الطبيعية التى كونتها ظروف مناخية وشكلية ونباتية وطبعهـا ، كلا بطابع ، اوجـه العيش والمنتوجات ، لكل منها وجـه خـاص ، وشخصية جغرافية بانفرادها ٠ ونحن نكتفي فيما يلي باستعراضها استعراضا موجزا وبالايماء اليها ايماء مقتضبا ٠

التـل الشمـالى ـ ان البدو الرحالـة المتنقلين لتتبع نقط الماء ومـواقع انتجـاع الكلا ليعتبرون شمال تونس ، تلك الجهة المشهورة باسم افريقيـا ، كبلاد نعيم وجنـة يسقى فيها الناس والدواب ويطعمون من جـوع ٠ فالتل الشمالى الواقع بين البحر الابيض ووادى مجردة والمشتمل على جبال خمير ومقعد التى تحيط بها جنوبا سهول سوق الاربعاء وباجة الغنية الخصبة وشرقا سهول ماطر وبنزرت ، هو جنة خضراء تجرى من تحتها الانهار نمـا عشبها وطما غيثها وغضت ثمارها وصاباتها تمتد فيها غابات تفترش ٢٥٠ ٠٠٠ هكتار وتتحلى بشجار البلوط والزان والصنوبر والدردار يتخللها برد وسلام متصاعد من طنافس البطارس والاريقى والاشنة ٠

والتضاريس الجبلية فيه تصور مغازل متقاربة متموجة محدودبة او جوفاء اتجاهها من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى وهى مكونة من تربة صوانية مرتكزة على قاعدة صلصالية ، وهذه التضاريس ما زالت فى عنفوان شبابها اذ تؤرخ بعض المنعطفات فيها بالبليوسان الاول ومما يكون العنصر الاساسى فى ذاتيتها وجود كثير من الاحواض الداخلية التى تنغمس وسطها وقد غمرتها شبكة من الاودية الحديثة بعد ما كانت مسيلا لميـاهها ـ والشاطىء صخـرى تنتصب فيه على بعد ٤٠ كم تقريبا من طبرقة جزيرة جالطة البركانية وهذا الشاطىء يؤكد ذاتية مناظر خمير وما دخل عليها من الاضطرابات وتاتى امطار الشتاء المتواصلة المستمرة فتزيد هذه الظاهرة قوة ووضوحا وكذلك تعمـل الثلوج ٠ وهناك غابة ضخمة مرتفعة كانت قديما ماوى للوحوش ٠

فحالة الرطوبة المتناهية ورداءة الارض وانتشار الغابات كل ذلك لا يمكن من زراعة الحبوب بهذه الجبال ـ وبالرغم عن جنى الفلين لفائدة الدولة وتربية بعض الحيونات من بقر ومعز وعن المنتوجات السياحية من مصطاف عين الدراهم

المرغوب فيه لارتفاعه (٨٠٠ م) ـ بالرغم عن ذلك ان سكان جبال خميـر ومقعدهم افقر سكان تونس واتعسهم حظا • وسد ابن مطير والمعمل المركـزى الكهربائى التابع له قد يمكنان من اقـرار بعض الصناعات بتلك الجهة وبعث بعض الرفاهية •

وانه لما يلفت النظر ان يلاحـظ شدة الفرق بين هذه الاراضى المرتفعـة الفقيرة قليلة السكان وبين السهول الغنية التابعة للتل الشمالى سواء سهول مجردة او سهول ماطر وبنزرت •

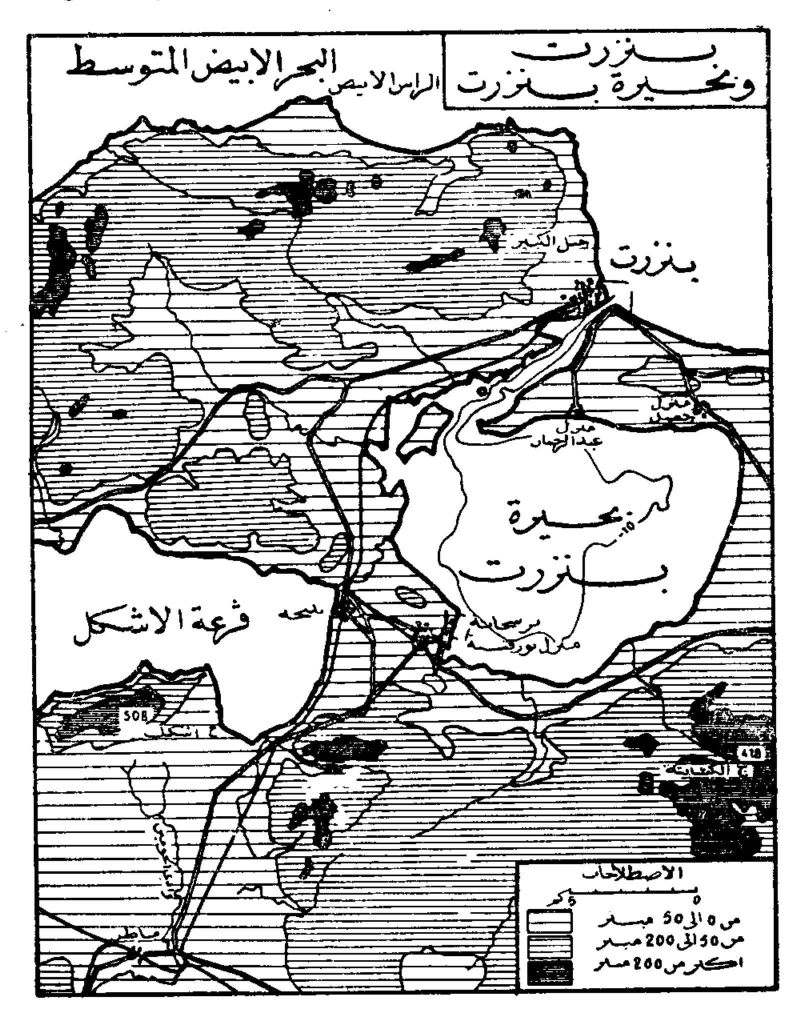
ففى هذه المنخفضات والمستنقعات التى ردمتها اوحال مجردة الوسطى تقع اخصب جهة بتونس ، جهة خزائن القموح بسوق الاربعاء وسوق الخميس وباجة حيث كونت الاراضى السوداء الغنية شهرة (المقاله بيديا) الرومانية ، وهى ما زالت تنتج صاباتها الخصبة التى كثيرا ما تفوق ٣٠ قنطارا للهكتار الواحد فتهدى هذه الصابات لقياصرة الاستعمار الذين يملكون معظم الاراضى بها •

ونهر مجردة ينبع بتراب الجزائر بالقرب من تبسة فى ارتفـاع ١٢٥٠ م وطوله ٤٦٠ كم وغزارته تتراوح بين ٩٢٥ وبين ٣ م٣ فى الثانية وهو اهـم اودية البلاد التونسية فيلتوى بالجهة التى ندرسها التواءات عديدة سـاحبا مياهه المتعكرة بالاوحال • وذاك انه بغار الدماء لا يفوق ارتفاعه ٢٠٠ م فى الحين الذى بقى عليه ان يقطع ثلثى مجراه ـ وعند الجديدة يبتدىء مصبه العظيم الذى يحل ٧٥٠٠٠ هكتار والذى كـونه نهر مجردة بسرعة عجيبـة ـ فميناء باشاطر البونيقى Utique هو اليوم على بعد ١٣ كم من البحر وتقـدر المساحة التى تقدم بها النهر منذ العهد الرومانى بقدر ٣٠٠ كم٢ ـ وانها لآمال جسام تتراءى فى الافق لهذه الجهة التى كانت فى القديم مـوطن مستنقعات ومركز الحمى التيفوييدية ، خصوصا وقد اتجهت السياسة نحو الاصلاح المنطقى لهذه الجهة بتحديد مجرى المياه وحسن توزيعها حيث يسعى فيها حثيثا الى انشاء ما يجعل منها صورة ثانية من مصر البحرية (انظر فيما يلى احياء وادى مجردة)

ويلى ذلك من جهة الشرق سهول ماطر الفسيحة وسهول بنزرت وهى نقطة الاتصال بالتل السفلى • وهى بحقول قموحها الثرية تذكر ببرية باجة الخصبة ولكنها بزياتينها ومزارعها الصغيرة للبقول هى تنبـىء بقرب سهول تونس العاصمة والوطن القبلى ـ ثم ان العنصر البشرى قد اعان كثيرا على تغييـر المنظر الزراعى فهؤلاء لاجئو الانـدلس وهم مهرة فى غرس الاشجـار وزرع

الازهار قد استقروا منذ ثلاثة قرون بهذه الجهة فى مداشر كبيرة تحيط بها الاجنة والغروس كما نشاهد **براس الجبل ورفراف والعالية ومنزل جميل ومتلين**

وان وسط سهول **ماطر وبنزرت** الذى تحله (قرعة اشكل) وبحيرة بنزرت ليشهد بتطور عملية الردم التي ردمت بها هذه المنخفضات والمستنقعات ـ فقرعة اشكل التى ينتصب فى وسطها حيال جبل اشكل (٥٠٨ م) والتى يتعاون



على ردمها وادا جمين والطين هى حوض تتصفق فيها مياه بحيرة بنزرت فتتمكن هذه بذلك من الاحتفاظ بعمقها (١٠ م تحت مستوى البحر) ووادى تينجة الذى يصل بين البحيرتين يفرغ مدة ستة اشهر ما زاد على القرعة من المياه الاقليمية ويوصل اليها مياه بحيرة بنزرت المالحة بقية السنة ٠

وبحيرة بنزرت وسعها ١٢٠ كم٢ ويصل بينها وبين البحر واد قديم وقع ردمه وهى احسن موقع من مواقع الموانى بالقارة الافريقية (انظر الباب الرابع) فلذا كانت بنزرت منفسا طبيعيا للجهة كلها وهى على الخصوص بما يزيد فى قيمتها من مجاورة دار الصناعة بمنزل بورقيبة (سابقا فريفيل) ميناء حربي من اهم مواني البحر الابيض ٠

التل السفلى ـ هكذا يدعوه علماء الجغرافية وهو عبارة عن جهة مجاز الباب والعاصمة والوطن القبلى وما هو فى الواقع الا الامتدادالشرقى للتل الشمالى مع انخفاض نحو البحر الابيض ـ والهيكل الجبلى اضعف من السابق يتقطع ربوات تفصل بينها منخفضات كثيرا ما يعسر سيل مياهها كمنخفض قبلاط او مجازات كالذى يلى وادى سليانة الى وادى مليان بواسطة سهول العروسة وبوعرادة وقنطرة الفحص ونحو الجنوب ينتهى الظهر التونسى على حافة خليج تونس بجبل بو قرنين الذى ينتصب هيكله المشابه للفيسوف على علو ٥٧٠ م ٠ ولكن شخصية هذا التل تتكون من السهول التى تمتد حول خليج تونس وشبه جزيرة الوطن القبلى ٠

وخليج تونس ـ كما سنرى حين نبسط القول فى تكوين موقع تونس (الباب الثالث) ـ تسبب فيه انقضاض حديث (العصر الثلاثى) ثم تصببت فيه مياه مجردة ووادى مليان الحاملة للاوحال فردمته فى العصر الرباعى فتم بذلك بواسطة سهام من الرمال وصل جزر عديدة للقارة الافريقية وذاك كما كان فى جزيرة سيدى ابى سعيد ٠

وان تجمع الطرق الطبيعية فى التل نحو سهل تونس لما تسبب فى انشاء مدينة تونس اكثر مما كان للمنتوجات الفلاحية لهذه السهول فى ذلك من الاثر ـ على ان هذه المنتوجات ليست بالحقيرة فمن حقول بديعة للقموح وغروس زيتون ووشاح من المزارع والبقول كل ذلك مما يذكر فيشكر ـ وان كان اوسع نطاقا واقوى مدى ـ بمزارع الساحل البنزرتى ـ وهنا ايضا نجد الاثر الجميل للعنصر الاندلسى الا ان الاستعمار ادخل صبغة جديدة على المنظر العام

للفلوات والمزارع · فالكروم مما تمتاز به جهة تونس كما يمتاز الساحل بالزيتون - وحول العاصمة وفي سهل قرنبالية تجتمع اربعة اخماس الكروم التونسية وينحصر القائمون على زراعتها تقريبا في المزارعين الفرنسيين والايطاليين ·

واما شبه جزيرة الوطن القبلي فجبالها متوسطة الارتفاع (اعلى قمة في جبل عبد الرحمان ٦٣٧ م) جرفت منها المياه جرفا عنيفا وهي كانت تكون جزيرة ربطتها بالارض الافريقية في العصر الرباعي سهول قرنبالية المتكونة من الاوحال · والوطن القبلي بمعزل عن الطرق الرئيسية التي يتبعها العرب الرحالة بعيد عن مجاري التجوال وسكانه يدعونه الجزيرة وهو يكون بلادا ذات شخصية وذاتية وحيدة ومناظر بديعة · ومناخه الذي يوحي بجفاف مناخ الساحل وحيث الشقاوة والقفر فالاطار الطبيعي نفسه تحول وجهه والمنظر النباتي والوسط الانساني تغير اتم تغيير ·

تلطف منه نفحات البحر التي تغمره حتى اعماقه - ولكن الوطن القبلي يمتاز عن الجاهت المجاورة له على الخصوص بطباع سكانه وبنوع اقتصاده - فسكانه كبيرهم وصغيرهم شديدو النشاط مهرة بارعون - وهذه الجهة الوحيدة بالبلاد التونسية التي لم تجد - او تكاد لم تجد - حظائر الشغل فيها بطالين لتشغيلهم

ومن هذه الارض القليلة المياه نسبيا كون عرق بني البشر بين الحمامات ونابل ومنزل ابي زلفي جنة عظيمة الارجاء جليلة الجمال يفوح فيها اريج البرتقال واشجار القوارص · وبينما يشتغل الرجال بغرس البرتقال وزراعة البقول (خاصة الفلفل الاحمر الشهير الذي يجفف على السطوح وعلى واجهات المنازل وتصنع منه (الهريسة) والتبغ والحبوب او يقصدون البحر لاقتناص اسماكه ، تشتغل النساء بالغزل والنسج وبديع الطرز ، ويشتغل الاطفال بنسج الحصر من الخيزران او يشاركون بشطارة ومهارة وذوق غريب في صنع ما اشتهرت به نابل من تحف من الخزف الصيني الفني - وانه لمن المناظر المدهشة الساحرة ان يشاهد هذا الشعب يوم الجمعة وهو يوم سوق نابل هائجا مائجا يتقد حيوية عارضا آلافا من القطع مما ابتدعه صنعه واثمره نشاطه ·

تونس الوسطى - ما اشد ما يكون الفرق عندما ننتقل من هذه السواحل التي يغمرها حتى اعماقها البحر الابيض ويؤثر فيها العنصر الاندلسي الى جهات


الارتفاعات
أعلى من ٢٠٠ م
من ٢٠٠ الى ١٠ امتار
من ١٠ امتار الى ٢٠٠ م
من صفر الى ٢٠ م
من ٢٠٠ م الى ٥٠٠ م
اكثر من ٥٠٠ م
اتجاه الارتفاع
0
50
100 كم
تونس
زغوان
1205
خليج تونس
خليج الحمامات
سوسة
الساحل
المهدية
القيروان
سيدي الهاني
الجم
صفاقس
خليج قابس
قابس
مطماطة
نفزاوة
مدنين
قفصة
شط الجريد
المكناسي
200
10
1200
1378
650
15

التل العالى والظهر التونسى وخصوصا السباسب العليا حيث القساوة والفقر

يقوم التل العالى بين مجردة والظهر التونسى فى ارتفاع معدله ٧٠٠ م وتضاريسه متكونة من قباب وجفان متشعبة متداخلة الواحدة فى الاخرى ومن جبال وسهول ومن ارض بور ومن مزارع مختلفة ـ فهنا قباب مستديرة كجبل الوسط ونصف قباب مكسرة كجبل ابى الاحناش وقباب هوى مستواها تندمج فيها منعطفات حدباء او جوفاء كسلاسل مكثر ـ وتحتفظ سلسلتها المنقطعة باتجاه الاطلس الصحراوى اى من الجنوب والجنوب الغربى الى الشمال والشمال الشرقى وتنحصر بين مشتبكاتها مجازات ذات جفنات مغلقة او مفتحة كالمجاز الذى يسيل فيه واد مليان والاودية المساعدة لمجردة وواد تسا وسليانة اين انغرستمراكز ثرية للفلاحة كتبرسق والعروسة وقعفور والسرس وابة قصور وفى هذه الجهة حيث المناخ فى جملته قاس له خصائص المناخ الاقليمي ، هناك تناقض واضح بين المنخفضات حيث بقيت الزراعات التلية من قموح وزياتين تورد خيراتها لاقلية من المعمرين استحوذوا على احسن القطع وبين المنحدرات الجبلية المجاورة لها الشبيهة بالقفراء حيث غابات الصنوبر مختلفة الكثافة عاوضت على هذه الاراضى الكلسية شجر الفلين الذى كان يعم التل الشمالى ٠

ومن جهة الجنوب تمتد جبال تبسة بالبلاد التونسية مكونة الظهر التونسى وهو متوالية منقطعة اتجاهها من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى من قباب كلسية قد مزقتها عمليات الجرف وانكسار طبقات الارض ، تتعاقب من جبل الشعانبى الذى به اعلى قمة من الارض التونسية ١٥٤٤ م الى جبل بو قرنين وبينهما على التوالى جبال سمامة والسرج وبرقو وفكيرين وزغوان والرصاص، وهناك مجازات من السهول المدرجة هى فى الاصل بحيرات او منخفضات تحمل مياهها سواعد مجردة وعلى الاخص مجارى المياه العظيمة التى تتجه نحو مستنقعات السباسب السفلى من واد زرود ومرقليل ونبانا حيث تتجمع فى سبختى الكلبية وسيدى الهانى ٠

وان احياء الاراضى بهذه الجهة لهو اشق واقسى ، وصابات الحبوب اقل اهمية واشجار الاحراش كالعناب تتسرب حتى السهول ـ والمراعى واراضي الغابات تمكن بكل عسر من تربية البقر والمعز ولكن الخيام وبيوت الشعر تؤذن بقرب السباسب وتجاور كيوخ الحجر والمدر ٠

ان هذا التحول،من حياة الزراعة الى رعى الاغنام ومن‌سكنى الحجر الى‌سكنى بيوت الشعر وحياة الترحال،الذى يشاهد بوضوح عندما نمر من شمالى الظهر التونسى الى جنوبيه لهو مرآة جلية ينحلى فيها التعكر التدريجى للمناخ اذ يشتد جفافا وحرا كلما تقدمنا نحو الجنوب ٠

وطالما كانت الحياة فى هذه المناطق الجبلية فى غير مامن فدعا ذلك السكان الى تخير المراكز الطبيعية المنيعة وتدعى قلاعا كقلعة السنان والقلعة الجرداء ٠ ولكن‌استثمار منتوجاتها واستخراجها من‌حديد بجريسة وفسفاط بقلعة الجرداء نفخا الروح فى مراكز منجمية تحيا كسائر المناجم التونسية بضع سنوات ، وامتدت خطوط حديدية اعانت بعض الشىء وفى كل تحشم على تطور هذه الجهات واهالى هذه الجبال الخشان ٠

وبين الظهر التونسى وسلسلة قفصة تمتد بساطات لا حد لها قفراء عزلاء من الاشجار هى السباسب التونسية ٠فهنا تسود السهول والجفنات تغشيها قشور من الكلس العتيق او تفترشها اوحال حديثة تقوم على سطحها من حين الى آخر بعض السليسلات العارية الموحشة ٠ واحيانا تلتحم حلقات هذه السليسلات فيتكون منها صف متصل بعض الاتصال كسلسلة سلجة وقفصة (اتجاهها من الشرق الى الغرب) وفريانة (من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى) وسيدى عيش ٠ ولكن الاتجاه العام للهيكل الجبلى مبعثر مشوش اكثر مما هو عليه بالشمال واذا كان غالب المنعطفات باقية على اتجاهها من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى فانه يظهر ان للقاعدة الهرقونية لهذه الجبال اثرا عميقا يبرر انعكاس محاور الاتجاه حتى تصل بها احيانا من الشمال الى الجنوب كما يشاهد فى جبل سيدى نصر الله وجبل خليف اللذان قد يمكننان من جعل حد بين الساسب العليا والسباسب المنخفضة ٠

وكمية الامطار هنا ضئيلة (١٥٠ الى ٣٠٠ مم) وهى مع ذلك لاتفوقها فى ذلك جهة الساحل ولكن هناك صبغات محلية واضحة بين بلاد الفراشيش وماجر فى الشمال الغربى كثيرة المياه نسبيا وبلاد الهمامة وقمودة فى الشرق قليلة الامطار ـ وانه لما يؤكد الشبه من ناحية الامطار مع جهة الساحل البعث الجديد لغراسة الزيتون فى هذه الجهة وثروتها من ذلك فى العهود الغابرة ٠

فبين القصرين وسبيطلة تعيد غروس الزيتون اليوم لهذه الجهة ما اشتهرت

به فى القديم من خصب فى الزياتين وانه لما يؤثر بها ما بقى مبعثرا فيها من آثار لمعاصر الزيت الرومانية • وان فى احياء هذه الجهة بواسطة الزياتين وفى جعل الوازع الاساسى فيها غرس الاشجار بعثا لمستقبل تونس الوسطى وانشاء لرفاهيتها وازدهارها •

اما الان وحتى تتم هذه الثورة الحتمية — فماذا يوجد بهذه السباسب من قليل السكان انما يجعلون موردهم الاساسى من قطاع اغنامهم حيث تضطرهم تنقلاتهم الفصلية الى حياة البدو والترحال ، متنقلين باستمرار ، لا يقر لهم قرار وان فى ذلك من التعاسة ما فيه خصوصا فى فترات الجفاف العظيم • ولذا جعل السكان الذين يتخبطون فى مستوى من العيش هو احط ما يمكن فى العالم جعل هؤلاء السكان كمتمم لمعيشتهم ان يشتغلوا بقلع الحلفاء التى تنبت فى هذه الفضاءات الشاسعة حيث تغمر منها ١٢٠٠٠٠٠ هكتار •

تونس الشرقية انما يمكن التمييز بين هذه الجهة وبين السباسب العليا بانقطاع الحلفاء منها — فالحلفا ءنبات يخشى الرطوبة وبها تختص الاراضى الجافة من السباسب العليا وان لفقدانها هنا ما ينبىء بتغيير مناخي يزداد شدة كلما انحدرنا نحو ساحل البحر الابيض الذى يعوم فى رطوبة اقوى وطقس اشد اعتدالا

وتنخفض التضاريس نفسها • فقليلا ما تفوق ٢٠٠ م فى السباسب السفلى واذا نحن بارض ذات ربى قليلة الارتفاع تنتمى الى احدث فترة من العصر الثلاثى pliocène تفصل بين صحون شاسعة وسهول منخفضة اين تركد سبخات عديدة من اهمها اتساعا سبخة الكلبية وسبخة سيدى الهانى — واما اودية الوسط فبعد ما تنشر مخروطات انصبابها والاوحال الضخمة التى تحملها وبعد ان يرشح معظم مياهها فى منخفضات هذه السباسب اذا هى تغرق فيها اذ لم يبق لها من القوة ولا من الميلان فى الحدرة ما يكفى لتصل البحر ففى طول ٣٠٠كم تقريبا اى فى طول منطقة الانتشار للسباسب السفلى لا تجد واديا واحدا يصل البحر وكل المياه المجتباة من التل الاعلى والظهر والسباسب العليا سواء نقلها واد مرقليل او زرود او نبانا او مياه السيل كلها تخترق الارض وتتجمع فى معظمها فى خزينة طبيعية متسعة الارجاء تشتمل على سلسلة من الطبقات المائية الشاسعة المتراكمة الواحدة على الاخرى (انظر خريطة طبقات المياه شكل ١٠)

ومعظم بلاد جلاص والسواسى وقمـودة وسهل القيروان جاثم على هـذه الكنوز الراكدة ـ والاساليب الفنية العصرية تمكن الانسان من تجاوز الطبقة السطحية قليلة العمق والتى وقع استخراجها من قبل فيصل بالحفر واستعمال المضخات الى استغلال الطبقات القوية التى يتراوح عمقها بين ٥٥ و٣١٣ م ٠ والبقايا الجافة لهذه المياه ، على تفاوتها ، هى فى الجملة قليلـة مما لا يبـرر المزروعات السقوية على مساحات شاسعة منتوجها لا باس به ٠ وان استغلالا منطقيا لهذه الخيرات المخباة تحت الارضـ ليمكن من تحويـل هذه الاراضي الفقيرة حيث لا توجد الا المراعى وبضع الحقول للحبوب ، تحويلهـا الى جنـة فسيحة ، رية ، سيبعث خصبها ازدهارا جديدا على القاعدة الاسلامية القديمة، مدينة القيروان وسيشع اشعاعا على حياة هؤلاء البدو والرحل الذين انهكتهم المجـاعـة ٠

ذاك هو المستقبل المؤمل وان احداث « صندوق لاحياء الوسط » مما يبشر بقربه ٠ واما الان فاعراب السباسب السفلى والساحل من جلاص والسواسى والمثاليث والنفافتة ليتنافسون منذ بضع عشرات من السنين ومنـذ نجحت غراسة الزيتون بالغابة الصفاقسية فهم يغرسون الفضاءات الشاسعـة التي كانت فى السابق قفراء فاخرجوا منها زياتيـن ولوزا ٠ وانا لنشاهد ظاهـرة عجيبـة هي اقرار الاعـراب اقرارا تدريجيـا بواسطـة الزيتونة وان فى ذلك الاقرار ما حدد من نطاق اراضى المراعى بل حذفها احيانا وما قسـم الاراضي المشتركة وفكك اواصر الاطار القبلى ـ الا ان هـؤلاء السكان المستقريـن فى الظاهر ليغلي دائما فى عروقهم حب التنقل واذا كان الرحيل التابع للمرعـي قد انقطع احيانا بانقطاع الاغنام فهناك رحيل جديد ، رحيل فى طلب العمل اليدوى يبعث نحو الساحل والتل عشرات الالاف ممن يعرضون سواعدهـم لعمل الحصاد او قطف العنب او جنى الزيتون ـ وانه لمن المتاصـل فى نفوس اولائك الرحال ما توارثوه من حب الانتقال ، وذاك يشاهـد بوضوح فى بـر السواسى وجلاص والمثاليث حيث يجاور بيت الشعر بيت الحجـر المستحدث الدال على التبلد والاستقرار الذين هما اكره ما تكره نفوس هؤلاء الاعراب ٠

وهذه السباسب المنخفضة التى يتطور منظرها يومـا فيوما ومن المتوقع ان تتغير تماما تصل احيانا حتى البحر ـ على انه فى الغالب يفصلها عن ساحل البحر رقعة مختلفة العرض تغمرها موجة الزياتين الحالكة وتنكتها عـدة نقط

بيضاء هى المداشر العظيمة ماوى سكـان يشتغلون بغرسـ الاشجار : ذاك هو الساحل

ومن العسير تحديد هذه الجهة كما يعسر ضبط السباسب السفلى اذ هـذه الحدود انما هى فى الواقع مناخية ونباتية وبشرية اكثر منها شكلية • وتلك الحافة البحرية ـ وهذا هو معنى لفظة ساحل ـ قليلة المرتفعات تمتد من خليج الحمامات الى جنوبى صفاقس الا انها لا تدعى باسم الساحل في التعبير المحلى الا فى جزئها الاوسط حول سوسة والمنستير والمهديـة ، فالصفاقسى مثـلا الذى يعتبر نفسه من سكان المدن يكره ان يظن انه ساحلى

انما يكون وحدة هذا الشريط الساحـلى تاثير البحر وكذلك على الخصوص اثر الزيتون فى حياة الانسان كلها • نعم ان الامطار لا تفوق كثرة ما هى عليه فى السباسب ولا تتجاوز ٣٠٠ الى ٣٥٠ مم فى الشمال و ١٧٥ مم على اقوى تقدير جنوبى صفاقس ـ الا ان التبخر اقل شدة وندى الليالى اكثر ، تمتصه ارض خفيفة جدا وذاك ما يدعو الى ايجاد رطوبة ملائمة للنبـات وعلى الاخص لتربية الزيتون ـ وفى الصيف يلفح الشهيلي السباسب بقوة ويحرق الجـزء الاقليمى من تونس الداخلية باجمعه وهو فى الساحل قليل واقل جفافا ويلطفه النسيم العليل المنتشر مساء من اعماق البحر

ـ هذه الظروف الجوية قليلة القساوة هى التى عجنت شخصية الساحل ومكنته من الاحتفاظ داخل اطاره بغابة من الزيتون مدارها افسح منه اليـوم فكان يعم قديما معظـم تونس الوسطى

على ان العناصر التى تميز بعض الجهات المحلية من بعض عديدة فالطبيعـة تفقد شيئا فشيئا لطفها ورحمتها فاذا هى ابخل بامطارها كلما اتجهنا نحـو الجنوب ، ونوع المعيشة ومجتمع المساكن والمنظر الانسانى نفسه يتغير تماما فذاك الباعث على الاختلافات الجهوية بين الساحل وداخل البلاد فـى الجهـة الصفاقسية •

ففي ساحل سوسة ، من سيدى ابى على الى المهدية ، تطبع غرس الزيتـون بطبيعة الارض الخاصة والتضاريس والمناخ فله منظر مخالف اتم المخالفة لمـا يشاهد بجهة صفاقس على انه بصفة عامة يقع الزيتون هنـا عند اقصى حـد جنوبى لمجال انتشاره ـ وهو مع ذلك شجرة شديدة الصبر تمكنه شبكة جذوره المتشعبة واوراقه الصغيرة المطلية من تحمل فترات الجفاف الطويلة ـ ففى جهة

صفاقس امكن بعض غروس الزيتون الجميلة ان تقتنع بقدر ١٥٠ مم من الماء فى السنة ـ والزيتونة ايضا شديدة القناعة من ناحية الاراضى ، فما دامت الامطار ذات بال اكتفت الزيتونة باى ارض كانت ، ولكن اذا ما اشتدت ازمة الجفاف يتحاشى الزيتون الاراضى الثقيلة الصلصالية او الجبسية متخيرا الاراضي الرملية او الكلسية التى هى اخف تخرقها الرطوبة بسهولة ٠

فالزراعة بالساحل عليها ان تواجه نظاما لامطار قليلة ومرتفعات ارضية فى شكل ربى وارضا فى عمومها ثقيلة فادخل عليها لذلك فكرة المساقى ـ فالمنحدرات التدريجية لصفح الربوات تكون مساحة طبيعية تسعى اليها المياه السائلة فتهديها شبكة بسيطة من السواقى نحو المستويات التى غرست بها الزياتين وتسمي مناقع ـ فكل غرس من الزيتون يتمم هكذا بمسقاة تمكنه من تضعيف جملة كمية الامطار المتحصلة فيه ـ وتتضح مزايا هذه الطريقة بما تفيده التجربة ـ وان الغروس التى خولفت فيها هذه الطريقة تضررت اشد ضرر وضعف انتاجها ٠

وفى الجهة الصفاقسية تخالف الغراسة هذا النظام مخالفة تامة ـ فهنا الامطار قليلة (تقريبا ٢٠٠ مم) والتربة الثقيلة قليلة والمنحدرات خفيفة لا تمكن المياه من السيلان وذاك مما الزم الصفاقسيين من ابعاد الاشجار بعضها عن بعض (٢٤ م) بينما كانت فى الساحل ضيقة المسافة (من ١٠ م الى ١٢ م) ولزمهم على الخصوص استعمال الحرث المستمر الملائم للجفاف ـ فالارض خفيفة جدا وهى باستمرار تدق فى شكل غبار بواسطة صفيحة افقية هى صفيحة المحشة وذاك يمكن التربة ان تعدم منها الاعشاب وان تمتص لاقصى حد رطوبة الجو ـ واحتياطات الزبر فى شكل كؤوس وفى جنى الزيتون تضيف لجنات الزيتون بالجهة الصفاقسية ما يجعلها انموذجا للاتقان والتفنن من العسير ان تجارى او ان تحاكي ٠ وفى هذا ما يفسر النجاح البديع الذى لاقته الغراسة الصفاقسية التى امدت هذه الغابة الجميلة الهندسية الغرس فى شعاع يقارب ٧٥ كم حول عاصمة الجنوب ٠ ولكن احسن ما اجدته هذه التجربة الناجحة ان نسج على منوالها واقتدى بها الاعراب الرحل القاطنين بالسباسب السفلي فاعراب البلاد المحيطة بمزارع صفاقس ومثاليث اراضى العروش واعراب جلاص الجنوبيين بهنشير سيدى عمر ابى حجلة والمهاذبة والنفافتة من جهة المحرص اخذتهم العدوى من حمى الزيتون فجعلوا يحفرون الارض ويغرسون الاشجار

ويبنون السياجات من الصبير ويشيدون بيوت الحجر وبالجملة مكنوا الارتباط بين حياتهم وبين ارض كانوا يمرون عليها مر الرياح « كانما الشبكة العظيمة التى تصورها صفوف الزياتين قبضت بين خطوطها على سكان طالما كانوا رحالة متنقلين »

على ان ما اختص به الساحل وداخل البلاد الصفاقسية (١) ليس هو اقتصاده المبنى على الزيت فحسب بل هو ايضا نوع سكانه فاهالى تونس الشرقية تمثل ثلث السكان المسلمين من البلاد التونسية باجمعها فحسب احصائيات (١٩٥٦) (٢) جملة هؤلاء السكان ٩٦٦ ٠٠٠ نسمة بينما جملة الاهالى المسلمين بتونس ٣ ٣٣٣ ٠٠٠ وهذا العدد فى اكمل النمو اذ ازداد مقدار الربع فى عشر سنوات (٧٩١ ٠٠٠ سنة ١٩٤٦) ٠

الا اننا نجد فى توزيع السكان عين الفروق التى نجدها فى الساحل وفى جهة صفاقس بين انواع الزراعات ٠ فانه مما يختص به منظر الساحل تجمع المساكن فى كمية كبيرة من القرى الكبيرة والمداشر ذات الاهمية ناشرة رقاعها البيضاء بين جلباب الزياتين القاتمة ٠ ويلـوح ان فكرة التحصن مـن خطر الرحالة هى التى دعت الى تجمع هذه المساكن فبقى المنظر هو هو طيلة القرون ولو فى العصور التى استتب فيها الامن بفضل حكومات مركزية قوية الشوكة وان هذا الغبار من المداشر لفى نعاس يسبـح حتي يفيق ناشطـا ابان جنى الزيتون ٠ ومن هذه المداشر ما هى مثل مساكـن وجمال والمكنين والقلعـة الكبرى تظهر فى مظهر المدن بينما سوسة « جوهرة الساحل » تجلب بواسطة مينائها زيوت الجهـة كلها بـل وحتى كميـات الحلفاء العظيمة التى جنيت بالسباسب الوسطى

اما السكنى بالجهة الصفاقسية فهى فى المدن او احوازها ـ وغابة صفاقس فى جملتها خالية من المساكـن فى الوقت ان المحيط حـول المدن عامر بعـدة منازل ومنتزهـات للمصيف داخل سـوار الاجنة اللطيفة الطقس والهـواء فتفوق كثافة النسمات ١٠٠٠ فى الكم ٢ ٠ فالصفاقسى مدنى الطبع لا يعيش فى ارضه ولو كان اقتصاده كله تابعا لها ـ ووظيفة ميناء صفاقس التجارية

---

(١) جان ديبوا: « تونس الشرقية: الساحل والسباسب السفلى ص٥٩٤»

(٢) جمعنا فى هذا العدد جملة اهالى اعمـال سوسة والمنستيـر وجمال والسواسي والمهدية والقيروان وجلاص وصفاقس وجبنيانة والصخيـرة ٠

كانت داعيا قويا لانتشار المدنية ونموها • فبينما كانت القيروان مثلا مرهقة بثقل ماضيها حاملة لعظيم ذكرياته وبقيت منـذ قرون بلـدا فلاحيا صناعيا وسوقا لرعاة السباسب السفلى غنمت صفاقس من موقع مينائها ما مكنهـا من ربط اتصالات تجارية جبارة ترتكز على اصدار زيوتهـا وعلى الاخص اصدار فسفاط شركة صفاقس قفصة • فهى ميناء عظيمة لمنتوجات المناجـم ومصدر جهة غنية بزيتها وتعد بعملها ٢٣١٠٠٠ نسمة فوجدت فيجد اهاليها وذكائهم ونشاطهم ما جعل لها ازدهـارا مستمرا اهلهـا ان تكون العاصمة الاداريـة والاقتصادية للجنوب

وتختم الخطوط الرخوة لتضاريس تونس الشرقية بساحل منبسط منخفض حلت به مستنقعات واشرطة شطية ربطت جزر المنستير والمهديـة بالارض وهناك قاعدة تحت البحر قليلة العمق وحفت بالشاطىء فجلبت اليها كميات عديدة من الاسماك وبالطبع تطلبت عددا من الصيادين مراسيهـم واقعة بين جزر قرقنة وصفاقس والمنستير وسوسة والمهدية حيث نمت صناعـة نافقة للتصبير

الجنوب التونسي جنوبى دائرة العرض التابعة لقفصة تتعكر السباسب شيئا فشيئا متحولة الى قفار يهدد النبات فيها جفاف مستمر (اقل من ١٠٠ مم) وطقس يرتفع حتى ٥٠ درجة فى الصيف ، فيلتجى النبـات الى بعض الواحات

فطبيعة الارض والمناخ وانواع العيش تنذر بقرب الصحراء • ففى الشمال تجد سلاسل قفصة المتجهة من الجنوب الغربى الى الشمـال الشرقى والتـى ترتقى حتى ١١٠٠ م فتتصل من جهة الشرق بجبل العيايشة ، وهى تتبـع تضاريس السباسب • واهم منتوجات الجهـة هى المنجم الضخـم للفسفاط الكلسى الذى يمتد من الحد الجزائرى الى الرديف والمتلوى وقفصـة ومضيلة وجبل الشمس (انظر خريطة المناجم الصورة ١٣) ومن سـوء الحظ ان هذه الثروة التى تجعـل تونس فى المنصب الثالث فى العالـم كمنتجة للفسفاط انما قد احيلت الى شركة صفاقس قفصة ولم يجن منها اهالى قرى المناجم اى خير يبعث على رفاهية عيشهم ورفع مستواهم الحيوى

ثم نحو الجنوب تجد السبخة العظيمة المعروفة بشط الجريد (٥٠٠٠ كم٢) وهى تحل وسط قبة عظيمة قدانهارتفالمنعطفات الشرقيةالغربيةمنجبل الشربفى الشمال ، بين توزر وقابس ، وجبل طباقـة فى الجنوب بين قبـلى وقابس ،

هى التى تكون حدودها الطبيعية ـ ومستوى هذه السبخة على علو ١٦ م من سطح البحر وذاك ما يلغى كـل فكرة لمشروع تكويـن بحر داخلى ـ وهناك شطوط اخرى اقل امتدادا غربى شط الجريـد كشط الغرصة (٢١ م تحت البحر) وتمتد فى تراب الجزائر ٠ فبقطع النظر عـن هذه التضاريـس ذات الانعطافات التى تختم بشط الجريد ان الاشكال المتغلبة هى اشكال المناضـد او ما حاكته الرياح من غشاوات للاراضى ٠ وجبل مطماطة (قبلى قابس) ما هو الا حافة الترس الصحراوى التى اندفعتمرتفعة او بقرها صرفالمياه والرياح٠ وشكل الحياة نفسه تحول صحراويا

فالجنوب هو قبل كل شىء بلاد كبـار الرحالة رعاة الابل والاغنـام ولكن يكفى ان تحفر بئر وان ينبثق الماء متفجرا لكى ياتى بالمعجزات فتنشر جنات الواحات الساحرة الجليلة ، وكلما اقتربنا من الشاطىء صار المناخ الطف حرا وجفافا واخف وطاة علىالتنفس٠ وجنوبى صفاقس تنقرض غابة الزيتون شيئا فشيئا وتحل محلها السباسب السفلى حيث حياة الرحالة هى السائدة ، وبلاد الاعراض ، قبلى قابس وبلاد ورغمة ما زال يقطن بهما رعاة متنقلون ٠ على ان وجود الرطوبة ووفرتها بشبه جزيرة جرجيس دعوا الرحالةمن عكارة الى اعادة التجربة التى نجحت فيها صفاقس فاذا هى زياتين قطوفها دانية وغروس غناء تسقى حول جرجيس وما هى الا مدخل للجنة التى تتالف منها جزيرة جربة

وهذه الجزيرة مساحتها ٥١٤ كم ٢ يفصلها عن الارض خليج ابى غرارة على انها اليوم تتصل بارض افريقية بالقنطرة الترابية الرومانيـة التى اعيـدت اشادتها ٠ وجزيرة جربة تكون عالما خاصا بفضل مناخها اللذيذ العذب الجذاب ذى رطوبة اوفر واقوى (١) وبفضل جناتها العذبة حيث تعلو ذؤابات النخيل على ضفاف البحر كما يشاهد فى مناظر الجزر البولينيزية وبفضل سكانهـا الذين يفوق عددهم ١٢٠ نسمة فى الكم ٢ وهى عين الكثافة التى لاتوجد الا فى جهة العاصمة وبعض النقط من الساحل (٢)

---

(١) « كثافة الجو اقوى فيلطف الفرق الحرارى لطفا محسوسا وهذا الجو يحتفظ بين طبقات مصفاته الساحرة كل العناصر المتغالية فلا يخرقه منهـا الا ما هو متحمل عقلا معتدل ، وهذا الجو يسحر بموجات نـوره ذى الالـوان الزكية نباتا قويا يحتفظ بنسيـم البحر وبـرده فلا يسمح بالفـروق القوية ص ٠ » التلاتلى » جربة والجربيون ـ صورة وصفية جهوية ١٩٤٢ ص ٣٥

(٢) حسب احصائيات ١٩٥٦ عـــدد سكان جربة ٦٣٢١٩

وللجزيرة جربة ايضا صنف من المعاش مختلط فاقتناص الاسماك وجنى النشاف يكونان تكملة لما تنتجه الارض من خيرات وما تجديه الصناعات العتيقة من فخار ونسج — ويسود العنصر البربرى بين السكان حيثيتخاطبون حتى اليوم بلغة التمازيغ جنوبى الجزيرة وحيث يتشبثون بكل قوة بمعتقدات الخوارج التى يغيرون عليها·

ولجربة ماض تاريخى مجيد وللجربى اليوم نشاط استخدم فيه جميع مواهبه العقلية الواقعية وقناعته وعمله الجدى المتواصل مما مكنه ان يقوم فى جميع انحاء الارض التونسية باستيطان موقت مثمر مرتكز على تجارة الابازير والعقاقير والمواد الغذائية وهو المسيطر على هذه التجارة ، موقتا ، اذ جزيرة آكلى النبق منذ عهد عوليس وعصر هوميروس ابقت دائما فى نفوس من عرفها شوقا مستمرا الى الرجوع اليها ·

لنفارق الان هذه الجزيرة الساحرة ولنلتق من جديد بوحشة المناظر المنذرة بالصحراء فى الجنوب التونسى·فهذه موجة متصاعدة من الدعاص الصحراوية تبتدىء قبلى قفصة ترصعها من حين الى حين بعض الواحات بخضرتها الفياضة وسط سطوح الرمال الرخوة العارية ·

وهناك مليونان ونصف او اكثر من النخيل المنتجة للتمور موزعة بين واحات توزر ونفطة وقابس وقبلى · وانا لنريد ان نختم المطاف بين الجهات الطبيعية التونسية بهذه الجواهر المحلية لجبين الجنوب التونسى

« هنا انقرض البحر الفضى للزياتين الصفاقسية فحل محله غربى المحرص وحشة لا حد لها ولا مدى هى وحشة السباسب المنذرة بالصحراء يعلو جبينها احيانا خيال جبال قفصة الشاحبة من الشمال او الجبال المكونة للشفتين اللتين تحفان شط الجريد — فهناك لا تجد اثرا لمجتمع بشرى ذى اهمية بل هى قطارات طويلة بطيئة من الابل لونها لون التراب وهى عرصات من الحلفاء قريبا توجه الى صفاقس او سوسة ، ثم هى قفصة تلوح بكل عسر من واحة زياتينها العظام التى يشرف عليها النخيل وهذه فليب طوماس التى لا قيمة لها بالنظر الى المتلوى التى يتلاشى خيالها وسط غيوم الفسفاط ، فيليب طوماس بضيعاتها المتحدة الشكل ورباضها المخصصة للعملة المساكين من اهالى طرابلس وسوف والجزائر · ثم هذا رتل صفاقس — قفصة يلهث بنا نحو توزر حيث لا نصل الا بعد الغروب — وهناك نكتشف ما يسحر من جذوع النخيل يزينها بياض

القمر الناصع • جو يغازل الزرقة ، ساكـن قد اسكرته الاحلام ، تلـوح منه خيالات صينية للمنخلةعلىشاشةالسماء المتقطرة نجوما ـ وهذا الطريق ينيره القمر وتنسج هواءه اشباح النخيل فيتهادى ويتمايل ويلتوى يصاحبه جدول مـن الماء ينساب مختفيا تحت حراشف النور التـى تكسوه • والليـل لذيـذ ، وان لليلة يناير النيرة من الفتور واللذة ما لتلطف الطفل وتدلله ـ وتعـم رحمة لا تتصور وحنان لا يفقه كنهه انزلا من اعماق السماء فتغمر كل الوجوه كما يغمره الندى فى الصباح • واحيانا نقف على الطريق على شبح اخذ يلاعبه النوم مزمل فى برنسه ، خصوصا حيث يهمس الماء بخريره عندما يهـوى على راسه • ثم هى جذوع للنخيل وجذوع اخرى بلا نهاية ، كان ليست بالمادية، شعور مبعثرة فى خيال الليل ••• وعند الفجر تنتفض توزر من نومها مرتعشة من برد الصباح • وتلوح البلدة تحت اشعة الشمس فى لون الارض ،جميلة الحمرة • وواجهات دورها العليا تحيط بازقة ضيقة وهى من الاجر اذ لا يوجد مقطع للحجر قرب المدينة وقد جعل فن مهندسى البناء الذين استغلوا تعاقب الظل والنور وضعوا الاجر داخلا او خارجا عن البناء ، مصوريـن عدة اشكال هندسية فى صورة طنافس بديعة • وان فى جعل قاعدتين من الاجر لما يدعو الى برودة المحل فى الصيف • وانك لا تجد فى الشوارع الا قليلا من المـارة واقل منهم من النسوة ـ والنساء يلتحفن تماما بحجاب اسود ، ومعظم الصبيان مصابون بامراض العيون

واذا ما خرجنا من المدينة متجهين نحو دقاش او الحامة تلوح توزر كثعبان صغير مفترش فى الشمس عارضة سطوح دورها المنبسطة فى علو متقارب يعلوها جميعا قائما منتصبا كالنخلـة منـار سيـدى عبد القادر ذى الصبغة الاندلسية تكسوه ايضا زينته الاجرية

وان دائرة الواحة لتحيط بالمدينة من كل جهة الا من الغرب حيث تنتصب دعاص الرمال على ابواب المدينة عند آخـر دورها كانها قائمة على حراستهـا وتخر قطرق متشعبة ملتوية متداخلة وسط الواحة تحت ظل فروع النخيل ويساير افسحها مجارى الماء معانقا اياها باسورة من جسور النخيل ، والماء فاتر باسم ، ويغسل الرجال والاطفال ثيابهم فيه موقعين حركاتهم على نغمة راقصة ويتناجى النخيل فوق رؤوسهم كل يحنو على خليله ويقبله

والماء العجيب ينساب على يواقيت من شظايا القلال المتكسرة تخفـق فيه

حيتانه الفضية ثم يتفرع جداول ثم هى سواق تجرى جدران الاجنة عابثة بلحمة مسايرة الظلال اللطيفة ، وتدخل احداها جنة فادخل فى اثرها

وكان اليوم يوم جنى للتمر فرحب بنا صاحب الجنة وهى من اجمل غروس توزر وكان القصاص معلقا بين اوراق النخلة على نحو عشرة امتار من الارض فيحصد عرجون الدقلة باداة كالمنجل ويعطيه احد المدادين الخمسة او الستة الذين يتعلقون ماسكين الجذع بيد مكونين سلسلة يتناقلون الواحد الى الاخر حملهم الثمين وعلى الارض يلتقط اللقاطون ما تساقط من العرجـون على الارض ـ واذا ما انزلت العناقيد على الارض فصلت من الجـذع ووضعت فى صناديـق حمولتها ثلاثون كيلو غراما تسمر هناك وتحمل الى توزر عـلى ظهور الاحمرة ثم ترسل الى صفاقس وتونس على السكة الحديدية ـ وذكر لى صاحب الغرس ان الصابة هذا العام لا باس بها فقد يجنى من بعض النخيل حمولة ثلاثة او اربعة صناديق ونوع التمر ايضا جيد اذ لـم تات الامطار لتعكر الثمـار وقت نضوجها

وبواحة توزر ٣٨٠٠٠٠ نخلة بها ٨٠٠٠٠ فقط تنتج « دقلة النور » وينتج سائر النخيل مئات من الانواع المختلفة لكل منها اسم خاص ـ فمن ذلك تمر العليق ويتفرع الى الفطيم واخت الفطيم وينقسم كل الى عشرات من الانـواع الفرعية وهناك جمع من انواع التمور البيض منها الشكان والقلود واللمسى الخ

وانتاج جملة هذه الانواع قليـل بالنسبـة الى الدقلـة التى تتطلب ارضا خصبة ثرية

ثم فارقنا الغرس وصاحبه وريح العسل المتصاعد مـن التمور واناشيـد القصاص واللقاط الحنينة التى احيت فى خيالى ذكريات اناشيد الحصـاد فى ربوع اخرى او اغانى السرور التى ينشدها جناة العنب بجبال الكربيار وفى كل يلوح طرب البشرية بجنى الغلة

وفى المساء زرنا القلعة البيزنطية ثم زاوية سيدى على ابى ليفة وقد غمرتها ظلال كثيفة من شجر العناب العتيق ولقد علق به الخيـال الشعبى كثيرا من المعتقدات الخرافية ـ ثم قصدنا طريق الجنة اذ لتوزر جنة كما لعدة جهات مـن جبال الالب وتدعى هنا غرس الشيخ رحومة . وتحت ظلال النخيـل الحاملـة لثمارها الذهبية ، او بين اشجار البرتقال والورد والنسرى والنرجس تترنم بانشودة لا صوت فيها هى انشودة الماء بين سواقى الرمـال الصهباء فقـال

خليلى ، « هى والله جنة » وبالرغم عن ذلك نحن فارقناها • فكان المنظر العام للمنخلة اشرفنا عليه من البلفيدير وهو منضدةصلصالية تعلو الشابية تنبثق منها مئات من العيون التى تروى الواحة ، منضدة تصطدم بها نحوبا موجـات الصحراء الموصلة الى نفطة •

وفى الليل مرت الحافلة التى حملتنا الى نفطة بين الدعاص الساكنة تحت اشعة القمر الهادئة تحيط بها هالة كبيرة ، فالارض قفـر والظلال المتشعبة رخوة رخصة ويحف بشط الجريد خط من اللجين البارد وتمر خيالات الابـل السوداء ، وعضنا البرد فى حافلتنا العتيقة حيث لم يكن لاستعمال البلور فـى نوافذها حظ يذكر

ووصلنا نفطة فى التاسعة مساء فهى بلدة قفرة تماما نائمة وقد دقت منـذ حين ساعة تحجير المرور ، وكان صاحب المنزل متغيبا وهـو الاب قريش ، الذى اقتبل منذ ثلاثين عاما بفندقه عند ابواب الصحراء كثيرا من مشاهيـر رجال القلم ورجال السياسة ، وهو نفسه يداعب احيانا بنات الشعر ـ ولكن روح جيد الذى اجال قديما نشوة شبابه فى واحة نفطة وقد سكن البيت رقم ٧ الملاصقة لبيتى ، هى الروحالتىترفحيةبيننا ، وكثيرا ما احسست مدةاقامتى بروح نطانا يال ترف حولى وتحوم

وبعد عشاء سريع اكتشفنـا نفطة كما اكتشفنا توزر يغمرنـا نور القمر

وتناهى بنا الطريق القفر اين امتدت (ظلال الواجهات العالية النائمة)تناهى بنا الى مسرب يشرف بنا على مسقط الماء لوادى سد الرحاء • ثم اجتزنا الجسر وخطونا نحو المسارب الموصلة الى « السلة » وبين النخيل الكثيف اكثـر مما كان بتوزر كان من العسير على القمر ان يخترق نوره هذه الظلال ـ واحيانا تطل فرجة من السماء قارصة عارية زرقاء عميقة تنبثق منها صواريخ نجـوم لم اشاهد عدتها ولا بريقها الا هنـاك ـ وتحت جسر صغيـر تنساب مويهة كالقرنيط لونا لا يعطفها شـىء بل قد تلطمها احيانا تراجيع المياه على ضفاف الوادى ، لا موجة فيها ، ومن حين الى آخر يرتعش القمر على صفحاتها ـ وفى زرقة بخار الليل ينحنى النخيل على الماء الخصب فى توافق سرى ـ واستتب سكون بديع النوع يضم كل شىء عابثا بالزمن ـ وكان لليلة الا تنتهى ـ وفى هذا الجو يكتسب الفكر من الشفاف والخفة ما يكتسى به حين يطول الارق حيث يحزن ويطرب من لاشىء متذوقا نور القمر متلذذا به

ومن الغد كانت واحة نفطة جنات عدن ، ومـا كانت جنة توزر الا المدخل البسيط المتواضع لهذه الجنات • وكانت المدينة عظيمة لا بفضل ما لهـا مـن الخمسة عشر الف نسمة ـ ولم يكن بتوزر ما يفوق ١٣٠٠٠ ـ ولكن بفضل توزيع احيائها وتراميها على الهضاب التى يفصلهـا واد نفطـة ، وعـلى الضفة اليمنى حي الشرفاء وعديد زواياه وحـى بنى على واولاد الشريف والمعـده ، وعلى الضفة اليسرى احياء بنى زيد والزبدة وسيدى احمد الذى يشرف عـلى « السلة » واخيرا علقمة حبث السوق ودار البريد والنزل الخ•والفن المعمارى هنا افريقى واضح اكثر مما هو بتوزر • والبناء هنا ايضا بالاجـر الداخـل المصور لعديد الاشكال الهندسية التى تحلى الواجهات • الا اننا نلاحظ هنـا قبابا فى شكل قنبلة تذكر بطنبكتو • والازقـة كثيرا ما تكـون مغطاة تماما مكونة انفقة باردة تقى شر الشمس ، ومن بعد تلوح المدينة وسط لوحة لون التربة يقوم فيها احيانا بياض هو بياض قبة من الزوايا •

وهنا ايضا كما فى توزر تحيط الواحة بالمدينة من جميـع جهاتها عـدى الغرب حيث تبتدى الصحراء الموصلة الى وادى سوف على بعـد مرحلة يومين او ثلاث على ظهور الجمال • وهنا عدد النخيل اكثر اذ يبلغ هذا العدد نصف مليون تقريبا الا ان حاملات الدقلة اقل •

ثم كان سرطوط من الاحمرة الصغار شرعنا عليهافىالمطاف فى ارجاء الواحة فلا مسرب هنا بل السير فى الوادى نفسه وسط انبثاق مستمر للمياه تحت قبو من النخيل ينبغى احيانا للمار ان يقوس ظهره لئلا يصطدم به ، واعلمنى صحبى اننا كنا نسير فى ماء يندفع من مئات من العيون باسقة عنـد اصل الدعاص التـى تحيط بمنخفض « السلـة » المعروف بالبركـة حيث تزدحم عشرات الالاف من النخيـل

وتجتمع المياه وتلتقى مكونة واديا وحيدا عرضه خمسة عشر مترا ويبتدى تفرعه عند سد الرحاء الى ساعدين متساويى القيمة يصل احدهمـا الى سـد الباب والثانى الى سيدى مزهود ، وفى الصيف ينصب فى ساعد سـد الباب كامل مياه الوادى يوما واحدا كل اربعة ايام وفـى باقيها ينصـب نصـف المياه كالاوقات المعتادة وذاك لان عدد النخيل فى جهة وادى سد الباب اكثـر وليتمكن من معاوضة المياه التى شربتها فى الصيف آلاف الجمال القادمة من الصحراء وان نظام توزيع المياهحيوى هنا ، وقد رتبه على هذا الاساس ابنالشباط

كما رتبه في جميع الفروع والشعب المتفرعة عن هذين الساعدين وحتى اخيرا في الجداول الشعرية المكونة للسواقي — ولكل ما لك حسب رسم شرائه حق في عدد معين من القواديس والقادوس فيقاعدتهثقبصغير يملا ماء فيتقطر منه قطرة قطرة هذا اساس الساعة المائية ، وينقضي لافراغ القادوس برهة من الوقت قدرها ثلاث او اربع دقائق • فيعين حق ارض من الاراضي بكونها لها في الاسبوع حق في السقي قدره كذا قواديس • وهناك امناء وحراس قائمون على انتظام هذا التوزيع معينين الوقت الذى فيه تحول المياه من ارضالى اخرى بواسطة طبل صغير او مزمار بحرى • على انه بالرغم عن هذه الرقابة المدققة لا تخلو الجهة من نزاع ومشاغبات ، وللمرء حق اشتراء عدد من القواديس من جاره اذا ما رام الجار ذلك •

وغادرت حمولاتنا مجرى الماء وداست رمال الغروس حيث المزروعات ثلاث طبقات نخيل ثم شجر البرقوق او الموز ثم مزارع البقول — ووافينا البركة — بحيرة صغيرة زمردية يحيط بها نخيل عظيم الجذوع حانية احيانا على صفحات الماء ، وتسلق سباح قزم راس اعلى نخلة وقفز في الفضاء صارخا صيحة طرزان• وان في ذلك لمن اشنع المشاهد السياحية• واحسن ما تكون البركة في المساء ، وبعيدا عن ذلك تحت اصل دعصة الرمل عشرات من فقيقعات الرمل تحت الماء الفاتر : ذلك هو خط رشوح المياه •

وفى المساء زرنا شط الجريد ، وهو شط مائع يحليه السرابعن بعيدمغمور بالاوحال تعلوها انوار الملح التى تلوح من قريب كسهل من السهول ابان انصهار الثلوج — وقريبا من الشط زاوية سيدى حسين عياد • ثم عدنا من جهة الغرب مارين من سيدى ابى على ، سلطان البلد ، في ربوة تحت النخيل على ضفاف الماء ، وهو — على ما حكى لى — من اعان كثيرا على ارجاعالاباضية بهذه الجهة الى المالكية •

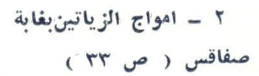
ولما وصلنا المقبرة الصغيرة التى غربى المدينة ، وجاوزنا القبور الارضية المتواضعة التى لا ترى من بعيد الا بواسطة العصى المركوزة عليها ، بعيدا عن النخيل والدعاص المترامية الاطراف ، غاصت الشمس محشرجة فى جمال الممات ، غامرة السماء بحمرة الشفق ، يطفو على جوانبها خمار قان لطيف تلوح على حافاته صفرة سماء عذبة تتحول بعد ذلك الى خضرة طرية يانعة

ثم بعد ان انقضت الشمس وراء رمال الصحراء الصهباء ـ شمس حمـراء كالحديد المنصهر على الزبرة ـ تصاعدت متعددة جلبة المؤذنين مترنمة وسط كابة المساء وجمال الليل الذى لا يهزه شيء ، ناشدة طمانينة الاسلام التى لا حد لها وسلامه العميم الشامل



١ – تضاريس معقل
تكرونة (جنوبى زغوان)
(ص ٣٠)





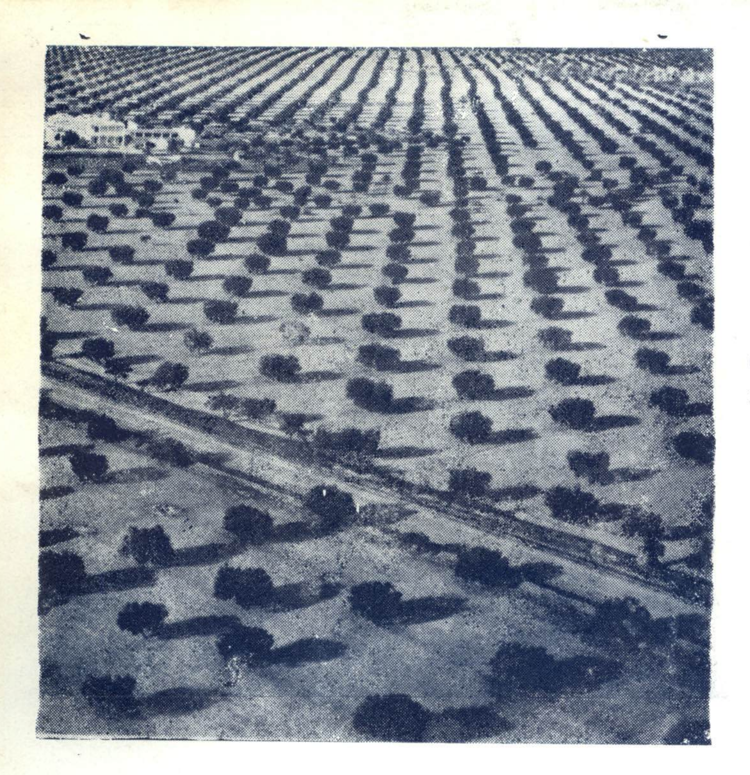
٢ – امواج الزياتين بغابة
صفاقس (ص ٣٣)



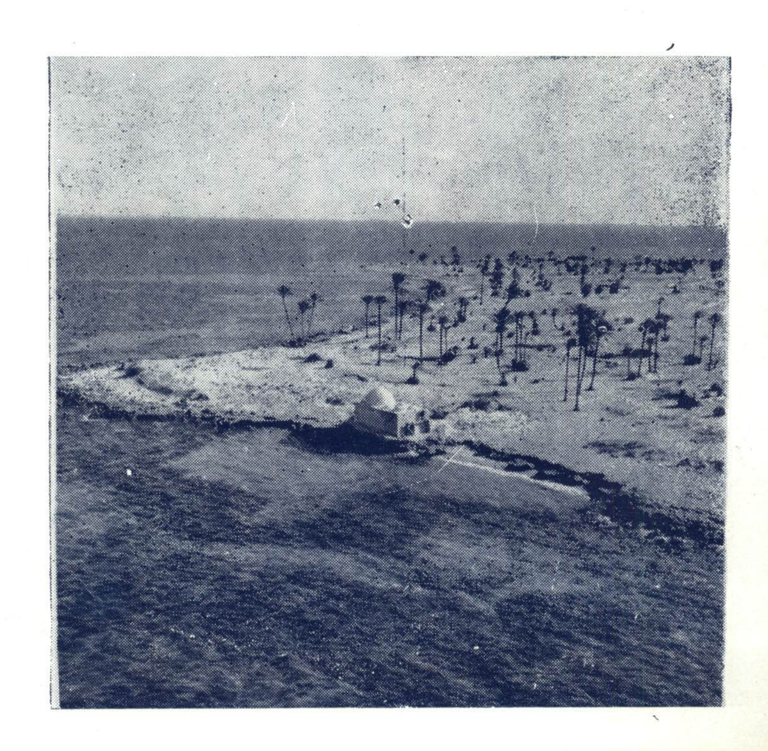
١ ـ اجنة احوازصفاقس
(ص ٣٤)

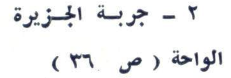


٢ ـ صفاقس واسوارها
(ص ٣٥)



١ - بالقرب من جرجيس
اعيدت التجربة الناجحة
للغابة الصفاقسية (ص٣٦)





٢ - جربة الجزيرة
الواحة (ص ٣٦)



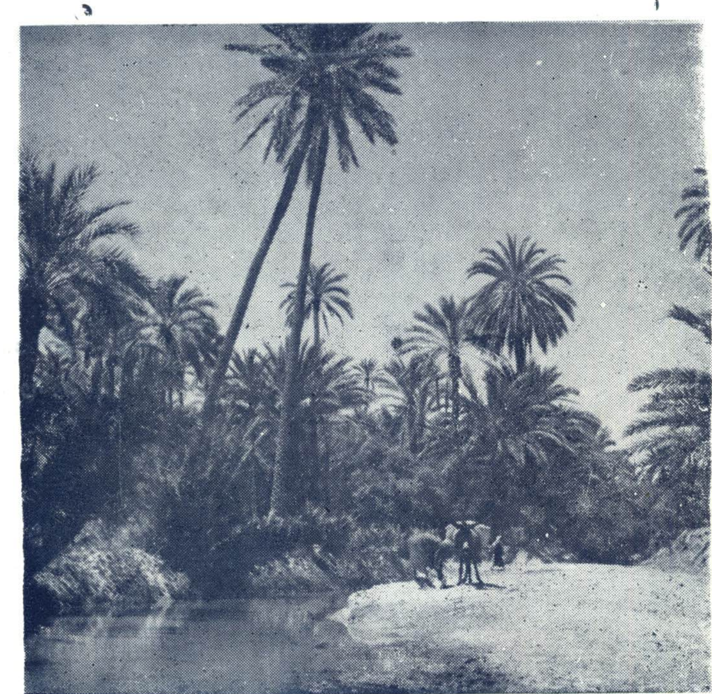
١ ـ نخيل جربة ويذكر
ببولينيزيا (ص ٣٧)



٢ ـ « منزل » بجربة
(ص ٣٧)



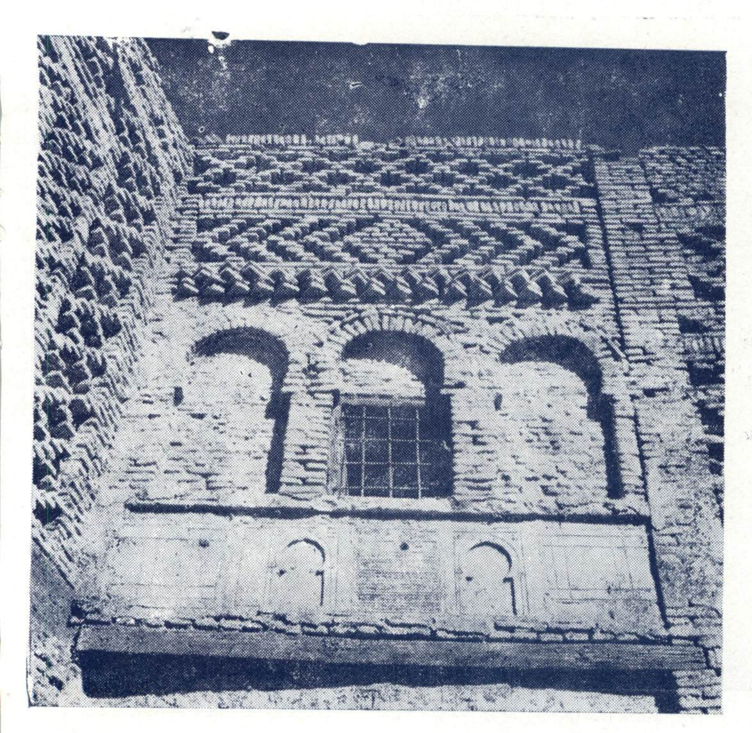
١ ـ « وهناك نكتشف ما يسحر من جذوع النخيل ». (ص ٣٨)



٢ ـ على مسيل الماء ، بواحة توزر (ص ٣٨)



١ ـ ان دائـرة الواحـة
لتحيط بتوزر من كل جهة
(ص ٣٩)

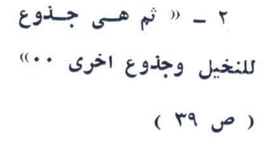


٢ ـ واجهات الاجر التى
تستغل تعاقب الظل والنور
(ص ٣٩)



١ ـ طريق الجنة بتوزر

(ص ٤٠)



٢ ـ « ثم هى جذوع للنخيل وجذوع اخرى ٠٠»

(ص ٣٩)





١ ـ « وكان اليوم يوم
جنى المتمر ... »(ص٤٠)



٢ ـ « .... الجمال
القادمة من الصحراء ...»
(ص ٤٢)



قطعان الاغنام بالسباسب الوسطى (ص ٣٠)



تحت ظلال شجر الفلين بالقرب من عين الدراهم (ص ٢٠)

الباب الثاني — العباد في الماضي وفي الحاضر
اولا — عدو القرون

الاصل : قريبا من قفصة ان اسنة السهام الصوانية وادوات ما قبل التاريخ من العصر القفصي لتجاور جنبا لجنب جثث الاطناك او الطائرات الباقية من حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ وبين هاذين الشاهدين لاطراف التاريخ تنطوى على ممر القرون صفحات التاريخ باجمعه بل ما قبل التاريخ التونسي٠ وانه لمن الحسن لمن يريد ان يدرك الحاضر ان يلقى نظرة ولو استعجالية على الخطوط الرئيسية للماضي ٠

لم يبق احد اليوم ليؤمن بفكرة الجنسية البشرية المحضة — على انه ليكون للايمان بهذه الفكرة حظ اقل في ملتقــى الطرق التونسي حيث لــذ لافريقيا واوروبا والبحر الابيض وحتى آسيا ان يضرب به كل منها موعدا مستمرا للاخر قبل التاريخ وحتى وقت التاريخ منذ اقدم العصور — وان نقط تلاقي القارات سائرها حيث تختلط البشرية وتعجن عجنا لمن خير الاماكن لنمو ثروة هذه الجهات الاقتصادية والبشرية والعقلية — ولم يكن حتميا لتونس في وظيفتها هاته من كونها حلقة اتصــال بيــن الحضارات ان تصفق بها ورسب احسن نصيب ، بل احتفظت على الاقل بطابع فرد خاص بها فيهروحها الخاصة وذاتيتها الوحيدة ٠ فلو سئل علماء الاجناس للاح ان اصــل السكان قديما جدا قبل التاريخ من عنصر شبيه بالسوداني ، وتاخر هذا العنصر نحو الجنوب لفرط الجفاف فعاوضته شعوب اتت من اوروبا وآسيا فتكون منها السكان في العصر الحجرى الاعلى وعلى الخصوص في العصر القبسي — بسبب المظاهر التابعة لما قبل التاريخ بجهة قفصة — فوصف هؤلاء السكان بكونهم بربرا واستمد هذا الاسم من اللاطينية وكان يطلقه الرومان على جميــع العناصر الاجنبية عــن الرومان ولكن لاختلاف الاصل لهؤلاء السكانآثار مختلفة في الذات والنوعولو اشتركوا في كثير من الصفاتوالنوع المتغلب هو النوع المستطيل الراس **Dolichocéphale** الاسمر ذو العينين السوداوين الموجــود بكثرة فــي غالب الجهات من اوروبــا الجنوبية وهناك عنصر يذكرنا بقدماء المصريين وآخر من نوع بيضوى الراس **Brachycéphale** ذوجمجمة كروية كما يشاهد في جربة وعلى ساحل السرت واخيرا هناك عنصر يعثر عليه قريبا من شطوط بنزرت وبالوطن القبلي عظيم الجثة اشقر ازرق العينين وتلك صفات اهالى الشمال ٠

ولجميع هذه العناصر البربرية ـ بالرغم عما تحملته من احتلالات عديدة للبلاد من طرف الاجانب لها من حب الحرية والاستقلال ما جعلها تتخذ لنفسها اسم « امازيغ » اى الناس الاحرار وهذه الحاجة الى الحرية التى نسجت منها قرارة نفوسهم وتاصلت فى طباعهم هى التى مكنتهم من مقاومة اى تدخل اجنبي كان ـ ومن الخور ان يقال ان تاريخ تونس والمغرب انماهوفى تاريخ الاحتلالات المتوالية التى تعاقبت على بلادهما ـ فالفينيقيون والرومان والوندال والبوزنطيين والاسبان تعاقبوا بهاته البلاد ولكن ما ابقوا بها من اثر دائم مستمر من ناحية الجنسية او اللغة او الحياة الاجتماعية او الدينية ؟ وحييت افريقيا الشمالية حياتها الخاصة ولو تحت نير الاحتلال الاجنبى ، حياة احيانا منظمة كما كان الشان فى « الممالك البربرية » يسوسها ملوك اجلاء مثل مسينسا ، وكانت هذه الحياة احيانا كامنة صامتة تلوح للعيان فى صورة ثورات مستمرة ـ ولم يظهر شعب من الشعوب ما اظهر شعب شمال افريقيا من الثبات على مقاومة الاجنبى • ولذا رغم القرون من الاستعباد الرسمي بقى التونسيون والجزائريون والمغاربة رجالا احرارا هم دائما امازيغ • وهناك احتلال واحد بقى له آثار لا تمحى اذ كانت توافق ما لطبيعة السكان من رغائب وذاك هو الاحتلال العربى ، وهو الحدث العظيم الاوحد فى تاريخ الشمال الافريقى • فهو لم يمنح بلاد المغرب عنصرا جنسياعربيا فحسب بل اتاها بدين واحد ولسان واحد وضمير اجتماعى واحد ـ وان فى هذا الحدث لاقوى اسمنت جمع بين ما تشتت من العناصر المكونة لهؤلاء السكان •

ولكن البلادالتونسيةهى اشد تعربا واذا كانت اللهجات البربرية يستعملها حتى الان ٤٠٪ من المغاربة و٢٠٪ من الجزائريين فلم يبق لها بتونس حظ سوى ١٪ من السكان فى جنوبى جربة ومطماطة وقريبا من قفصة ـ وان هذه الاغلبية الساحقة من الناطقين بالضاد بالبلاد التونسية لتؤكد ان لاوجود لمشكلة بربرية وان لاشىء يفصم بين عرى الوحدة القومية وتؤكد ايضا ان جزءا كبيرا من التونسيين اصله عربى • على ان اقوى عدد من هذا العنصر لم يات البلاد وقت الفتح بل اتاها زمن زحف بنى هلال فى القرن الحادى عشر المسيحى (القرن الرابع) ذلك الزحف الذى غمرت فيه تونس مئات الالاف من الاعراب وعائلاتهم وان عربية تونس لواقع لا ينكر ولا يجحد وهى لتقوى الروابط الدينية والاواصر اللغوية التى تربطها بالعالم الاسلامى

العهود القديمة : قديما جدا قبل قدوم الفينيقيين الى تونس ربط البربر على طريق البحر والبر علاقات مع الليبيين والمصريين وربما كان ذلك ايضا مع جزر الارخبيل

وتبتدىء العصور التاريخية بقدوم الفينيقيين فى القرن الثانى عشر قبل المسيح - فاسس الفنيقيون مراكز عديدة للتجارة على الشواطىء التونسية نخص بالذكر منها باشاطر (اوتيكه) وفى القرن الثامن « المدينة الحديثة » - قرت حدشت - مدينة قرطاجنة فصارت بسرعة ام القرى بالبحر الابيض وعروس مدنه وعقدت معاهدات مع الامراء الاهليين وزرعت مستعمراتها من عمود هرقلس - جبل طارق - حتى مصر

فبتونس كانت طاكا (قابس) وثينايا (جنوبى صفاقس) وحضرموت (سوسة) واوتيكة (باشاطر) وهبو دياريتوس (بنزرت) وتابراقا (طبرقة) وصارت قرطاجنة من اعظم مدن العهود العتيقة بلغ عدد سكانها حسب ما ذكره بعض الكتاب ٨٠٠٠٠٠ نسمة ، وكان البحارة البونيقيون يشتغلون بوسق الذهب والعاج ورقيق السودان والقموح والزيت والمعادن التونسية واعتنى هملقعر ثم ابنه هنبعل بسياسة غرس الزيتون فكان جزء كبير من البلاد جنة واسعة الارجاء . وحاول فلوبار في كتابه « صلمبو » ان يعطينا لوحة حية من هذا الازدهار القرطاجنى - الا ان هذا الازدهار قد اثار بالطبع غيرة رومة التى كانت هى بدورها تدعى الزعامة بالبحر الابيض . وكان بين المدينتين المتنافستين صراع حياة او موت دام اكثر من قرن . وكانت الحروب البونيقية . وقد اثيرت الحرب سنة ٢٦٤ قبل المسيح ومرت بمراحل ثلاث كلها مئاس وانتهت سنة ١٤٦ قبل المسيح بتخريب قرطاجنة واضمحلالها تماما ولكن في اثناء تلك الحرب قد اشرف هنبعل - احد العباقرة العظام فى فن الحرب من سائر الاجيال - اشرف رومة المرات العديدة على الهلاك .

انهزمت قرطاجنة واستتب الامر لرومة فحلت محلها ونصبت حمايتها على الامراء الاهليين . ثم انقلبت الحماية حكما مباشرا وقسمت البلاد مقاطعات رومانية على راسها مدينة قرطاجنة التى جدد بناؤها - ولكن بالرغم عن ابراز الرومان لما لهم من قوة لم يكتب لهم ابدا ان يفرضوا سلطتهم على البربر

وتعددت الثورات في وجه الاستعمار الرومانى واشتهر البعض منها كثورة يوغرتا . واحل الاستعمار الرومانى طيلة ثلاثة قرون عهد ازدهار ، الا انه لم

ينتفع به الا المعمرون انفسهم ولم يساهم المستعمرون فيه الا قليـلا • وادت البلاد التونسية على اكمل وجه ما اريد لها من وظيفة هى ان تكون « مخـزن الحبوب لرومـة » • وتفتقت ارض افريقيـا الخصبة عن حقـول ثرية للقمـوح وغروس للزياتين والكروم والاشجار المثمرة ـ وبنيـت السدود واشيـدت المواجل وخطت الطرقات واختط عديـد من المدن ـ لا على الشواطـىء فحسب كعهدها وقت الفنيقيين بل داخل البلاد ايضا ـ وانه ليطول صرد جميعـا بل يمكن ان نحتفظ بجانب قرطاجنة التى بعثت من جديد بحضرموت (سوسة) ومقطريس (مكثر) ونيابوليس (نابل) وسوفيتولا) سبيطلة) وثابراقـا (طبرقة) وتالة وطبربو مايوس ، ودقة قرب تبرسق وتيسدروس (الجـم) وفاقا (باجة) ـ وانه لمن العسير على السايح الذى يزور اليـوم قصر الجـم وقريته الصغيرة ان يتخيل ان هذا المسرح كان يضم ٦٠٠٠٠ من المتفرجين • وان انتشار المدن الرومانية بالتراب التونسى لما يشهد بالتطور الاقتصادى الذى بلغته البلاد فى الماضى وذلك فى جهات لم يبق فيها اليوم سوى القفـار وانه لوثيقة قطعية تستغنى عن طويل شرح لما خزن بالارض التونسية مـن مكنون الثروات •

ثم كان عصر الانحطاط فى الامبراطورية الرومانية وكانت ثمرته فى مقاطعة افريقية قرنين من الفوضى وانعدام الامن لم يوقف تيارهما دخـول الونـدال للبلاد (القرن الخامـس) ولا زحف البيزينطيين عليهـا (القرن السادس) وبذل البيزينطيون جهودا جدية لينسجوا على منوال الرومان ويتابعوا عملهم الا ان الامر لم يستتب لهم استتبابا ثابتا قارا وحين زحف العرب على البـلاد لم يجدوا منهم الا مقاومة ضعيفة •

القرون الوسطى العربية : فى القرن السابع للمسيح كانت الحضارة العتيقة متفككة الاواصر فكان ان تداعت اركانها حينما قارعها الزحف العربى ، وان فى هذا الزحف بالنسبة لشمال افريقية لمنعرجا حاسما فى طريقها • فمنـذ ذاك انقطعت الصلة بين هذا الجزء المعتبر من البسيطة وبين الغرب اللاطينى المسيحى وانظم فى زمرة الشرق الاسلامى •

وكل الاثار السابقة للاحتلال الرومانى او التابعة له اى ثمرة سبعة عشر قرنا من التاريخ انفرضت ولم يبق منها اثر ولا عين لا من ناحية اللغة ولا من ناحية الاوضاع لا فى الدين ولا فى الاخلاق ، وكفى هجوم العرب فى القـرن

السابع ليدفن الماضى الرومانى فى نفق مخبئات التاريخ تحت غبار النسيان وان فى ذلك لعبرة حسنة لمن اراد ان يفكر فى ما للطلى الاستعمارى ببلاد الشمال الافريقى من قيمة واهية ومكانة خالية خاوية .

ففتح القرن السابع ادخل الى البلاد الدين الاسلامى ونظمه واللغة العربية . ولم يكن القصد من الفتح الاستعمار . وسار المغرب فى مجرى العالم الاسلامى ولذا كان هذا الفتح صفحة اساسية من تاريخ البلاد .

على ان هذا الفتح فى صورته لم يكتس صبغة الهجوم بل هى بضع زحفات شنتها كتلة من الخيالة من ذوى العزم ، منظمين — قد انتقل النبىءمحمدصلعم الى الرفيق الاعلى سنة ٦٣٢ وبعد وفاته بقرن بالضبط امتدت الامبراطورية العربية من نهر الهندوس الى بلدة بواطيى .

وفى البلاد التونسية شن الزحف الاول سنة ٦٦٦ بقيادة عقبة بن نافع الذى اختط مدينة القيروان ثم تلته زحفات اخرى عديدة ، ولكن سنة ٦٩٧ فتح حسان بن النعمان قرطاجنة بعد ان اباد المعاقل البيزنطية ثم قطع دابر المقاومة البربرية التى كانت تقودها الكاهنة — وبعد حين انظم المفتوحون الى الفاتحين فامتلكوا اسبانيا وجنوبى فرنسا ، وفى سنة ٨٠٠ قلد خليفة بغداد الشهير هارون الرشيد ابراهيم بن الاغلب امارة افريقيا الشمالية فاتخذ قاعدة امارته القيروان وما فتىء ابن الاغلب ان اعلن استقلاله مؤسسا الدولة الاغلبية التى دامت ما يقرب من قرن واشتهرت بفتح صقلية . فعاد الازدهار شيئا فشيئا واخذت الزراعة والتجارة فى النمو وكذلك استخراج المعادن من المناجم وصارت تونس والقيروان على الخصوص عاصمتين للثقافة والحضارة الاسلامية . وصار لجامع الزيتونة الاعظم بتونس صبغة جامعة صغيرة . واستمرت هذه النهضة بافريقيا فى عهد الدولة الفاطمية وابتداؤها سنة ٩٠٩ـوتاخرت القيروان وحلت محلها المهدية كعاصمة للبلاد، وانتشرت بالبلاد معالم شامخة وقصور بديعة واجنة تغنى بجمالها الشعراء ، وتنافست المدن فى مزاحمة القيروان والمهدية ، ومنها تونس وسوسة وصفاقس، وجعل الاقتصاد الفلاحى والتجارى والصناعى كما جعلت الاداب والفنون من تونس بلادا فى سماء الازدهار حتى ان الفاطميين عزموا على فتح مصر وبها استقروا وابقوا واليا عينوه بالمهدية .

ولكن هجومات بنى هلال منذ سنة ١٠٥٠اصبت على البلاد مئات الالاف من

الاعراب الرحل الناهبين المخربين فوقف بذلك نمو تونس وغمرها قرنان من الفوضى • واخيرا سنة ١٢٣٦ ولدت دولـة جديدة دولـة الحفصيين فحكمت افريقية اكثر من ثلاثة قرون وانهت الحضارة التونسية الى اوجهـا ، خصوصا حين وصلت تونس موجة الاندلسيين وقد اطردوا من اسبانيا ابتداء من القرن الثالث عشر فاتوا البلاد بما لهم من مهارة صناعية وفلاحية ومعمارية ومدنية• فكانت تونس بلا منازع العاصمة الثقافية والفكرية للمغرب باجمعه ، بما كان لها من جامعة الزيتونة ومكتبات وعلماء وشعراء ـ وتعددت الاسواق وقـويت الحركة التجارية وقد ابقى لها المؤرخ التونسي ابن خلدون صورة من الحياةالمرحة زمن المستنصر فى منتصف القرن الثالث عشر •

« قد غص بلاط المستنصر بالشخصيات البارزة ، وعلى الخصوص الاندلسيين من شاعر مفلق وكاتب اكتب وعالم جهبذ وامير جليل وقائد جرىء ، احتمى الكل بوارف سلطانه ، وبلغت الدولة الحفصية فى عصره اوج الرقى وامتـد سلطانها وشملت نعمتها البلاد وتضخمت الثروات وتعدد السكان وقوى الشعور الوطنى وهابت الاقطار شوكة جنودها ، فتم من ذلك كله مازاد فى اشعاع عصر المستنصر فاشرقت بهجتـه وبهر نوره • وفي عصـر المستنصر بلغت البلاد التونسية اوج ازدهارها ونعم السكان برفاهية ليس لها نظير • »

هكذا بينما كانت اوروبا يغمرها (نور الظلام) الذى عمها فى القرونالوسطى لاح بتونس اشراق عصر وضاء وضاح منير •

الا ان هذا الاشراق دثر وانطفا عند قدوم الاتراك سنة ١٥٧٤

الزمن الحديث والفترة المعاصرة

وكان الحفصيون ضحية للصراع الكبير الذى نشب بين الاسبانيين والاتراك ـ فالقراصنة الاتراك من بربروس وخير الدين احتلا عدة قواعد افريقية على حساب سلطان الاستانة ـ فقابلهما شارل الخامس (كانت) والاسبانيونباحتلال تونس وحلقالوادىسنة ١٥٣٤ ـ على ان الاتراك احتلوا بدورهم هاتينالمدينتين سنة ١٥٧٤ ـ فكانت خاتمة الدولة الحفصية وصارت الارض التونسية طيلة ثلاثة قرون اى حتى الاحتلال الفرنسى سنة ١٨٨١ مقاطعة من الامبراطوريـة التركية ، مملكة باشوية تستمد قوتها من عصابة من الجنود والشواش ـ وكان سلطان الاستانة يسمى دايا على البلاد يحكمها بواسطة نائب يدعى الباى فنظم الدايات الاول البلاد الا ان تابعيهم استولى عليهم البايات حيث صار نظامهم

وراثيا واستقلوا فى الجملة بالامر منذ سنة ١٧٠٥ وبدا امر العائلة الحسينية التى دامت حتى العام الفارط. وكان من بينها بعض الملوك المصلحين منهم احمد باى (١٨٣٧ — ١٨٥٥) الذى نظم الايالة التونسية فى صورة دولة عصرية . الا انه قد شقعصا الطاعة فى وجه معظمهم الاعراب الرحالة واهالى البرية . وكان اهم عنصر اصلاحى وتقدمى العنصر الاندلسى المتمدن وكان للمدن الاندلسية كسليمان وطبربة وتستور ومجاز الباب نشاط قوى وبقيت تونس عاصمة الثقافة والفكر بافريقية الشمالية .

وسبق انتصاب فرنسا بتونس مضادة شديدة طويلة بين فرنسا وايطاليا — فمنذ احتلال الجزائر شرع تفرنسا تعير المسائل التونسية اهتماما جديا — الا ان بعض الملوك العظام كاحمد باى لم يكونوا ليمكنوا منهم التدخل الاجنبي فهو قد اختط ميناء غار الملح واشاد الثكنات للعساكر وبنى المدارس وشارك بجانب تركيا فى حر بالقرم . ثم وليه فى الامر امراء مسرفون اسرافا مدهشا فانهارت الحالة المالية انهيارا سريعا مما دعا الى اقتراض الاموال من الممالك الاوروبية — وانتصبت لجنة مالية دولية برئاسة الجنرال خير الدين فكان من هذه اللجنة ما اضاع فى الواقع عن تونس استقلالها المالى — وبالرغم عندسائس القنصل الانقليزى (وود) وزميله الايطالى (ماكشيو) تمكن القنصل الفرنسى (روسطان) من الضمان لفرنسا شيئا فشيئا بمكانة مختارة ممتازة فحصل على امتياز خط الطرقات والسكك الحديدية — على ان الضدية الفرنسية الايطالية بلغت اشدها . فعزمت فرنسا اذا على العدوان العسكرى ، فجعلت حكومة جول فرى من غزوة ببلاد خمير مستندا لتدخلها — على انه لو لم يكن اهل خمير موجودين لكان فى الامكان استنباطهم لما وصلت اليه الحالة من نضوج منذ مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨

وكانت جيوش البر بقيادة الجنرال (فرجمول) فاخترقت الحدود التونسية الجزائرية بينما انزل الجنرال (بريار) جيوشه بالقرب من العاصمة وفرض فى ١٢ مايه ١٨٨١ على الصادق باى معاهدة القصر السعيد وقد اشتهرت بمعاهدة باردو ، واتمت هذه المعاهدة بعد مضى عامين باتفاقية المرسى .

وقد نصبت معاهدة باردو فى الواقع وحدة تونسية فرنسية اكثر مما نصبت وضعية حماية — واعتبر الاحتلال الفرنسى نفسه كاحتلال فى اساسه موقت اذ ينص الفصل الثانى من المعاهدة على ما يلى : « وهذا الاحتلال يزول عندما تتفق

السلطتان الحربيتان الفرنسية والتونسية وتعترفان باتحاد بان الادارة المحلية اصبحت مقتدرة على المحافظة على دوام الراحة والامن العام » - وليس من المفيد ان نضيف ان عبارة « يزول » لم يقع العمل بها ابدا وان الاحتلال العسكرى ما زال جاريا حتى اليوم بالرغم عن الاعتراف الدولى باستقلال تونس وذاك على الاقل فيه ما فيه من معاكسة المنطق ٠ (١)

ولم يكن الزحف على تونس مجرد جولة عسكرية بل كانت ثورة ومقاومات عنيفة من الجنوب وصفاقس والقيروان وثارت مناقشات شديدة اللهجة فى مجلس النواب الفرنسى حيث لم يخف كليمانسو ضديته للعملية التى شرع فيها محققا ان احتلال تونس انما تحته عمليات مالية دنيئة الاصل والغرض على انه ولو التجا (فرى) الى التخلى فيما بعد فان الحماية بقيت واستمرت

ولم يحترم نظام الحماية شروط معاهدة باردو فبعد ان اضاعت تونس ذاتيتها الخارجية فقد منها استقلالها الداخلى وخطى بها نحو الادارة المباشرة التى جعلت منها مستعمرة فى خفاء

ولم تكن تونس بالرغم عن ذلك لتبخل على فرنسا بمؤازرتها العسكرية والاستراتيجية والاقتصادية خصوصا طيلة الحربين العالمتين الاخيرتين اللتين ذهبت ضحيتهما نحو ١٠٠٠٠٠ نسمة من التونسيين - ولذا ظن خيرة التونسيين ان سيشاد على انقاض الحماية نظام سياسة الاشتراك الحر والحكم الذاتى للبلاد - ولم تكتس حركة الشباب التونسى التى آلت الى الدستور قوة وانتشارا الا منذ سنة ١٩٢٠ - فخففت فرنسا بعض الوطاة واقرت بعض اصلاحات ضئيلة هزيلة منها على الاخص ان عوضت المجلس الاستشارى بالمجلس الكبير ٠ ولكن الحركة الوطنية ما فتئت تنتشر وتتفاقم بالرغم عن نظام المخنقة الذى فرض على الصحافة وبالرغم عن حالة الحصار المقررة وبالرغم عن ذلك كله او قل من اجل ذلك كله ٠

وفى حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ صارت البلاد التونسية موطنا للمعركة العالمية طيلة ستة اشهر ٠ ورغم التخريب والتهديم والموتى ورغم احتلال الالمان للبلاد بقيت تونس امينة فى صف فرنسا وساهمت حتى النهاية فى المجهود الحربى الذى قام به الحلفاء ٠ وترقبت ثمن امانتها بكل ثقة، ظنا منها انعصر الاستعمار

(١) قد شرع فى معركة الجلاء اثر قذف ساقية سيدىيوسف، وتمالاتفاقعلى اجلاء الجيوش الاجنبية فيما عدا قاعدة بنزرت

قد انقضى وان فرنسا نفسها ستسير بمحميتها الى الاستقلال او على الاقل الى الحكم الذاتى ـ فما راع التونسيين الا ان شاهدوا فرنسا التى التزمت حسب الفصل الثالث من معاهدة باردو « ان تمد سمو باى تونس باعانة مستمرة ضد كل خطر يهدد شخصه او عائلته » ما راعهم الا ان راوها تخلع فى عنف المنصف باى وتبعده الى مدينة بو ـ ومات هذا الباى العظيم المخلص للوطن بالارض الفرنسية ٠ فزاد ذلك دفين الاحقاد اتقادا وغليانا ـ وفى ليلة القدر، ليلة ٢٧ رمضان الموافقة ٢٣ اوت ١٩٤٦ اجتمع مؤتمر وطنى عم الدستور القديم والجديد فاعلن ارادة الشعب التونسى باسره فى البلوغ الى الاستقلال ٠ ومنذ ذلك قضى الامر وحم القضاء فتعاقب الضغط الاعمى والاصلاحات المحتشمة ومازاد ذلك الا اسراعا نحو الخاتمة ٠ واخيرا كان الكتاب الشهير المؤرخ بالخامس عشر من ديسامبر ١٩٥١ الذى اجابت به حكومة (بليفن) مذكرة وزارة شنيق الطالبة للحكم الذاتىجوابا تقرر فيه بكل كبرياء وكل بطر ان لاانفصام للعرى التي تثق فرنسا بتونس وتقر فيه استمرار الادارة المباشرة بلا نهاية٠ فكانت القطيعة لكل مفاوضة وكانت محنة اظهار القوة التى دامت حتى يوم ٣١ جويلية ١٩٥٤ (تصريح الرئيس منداس فرانس بقرطاج) ٠ فبعد التفتيشات الدامية التى سموها تمشيطات والتى نظمها المقيم (هوتوكلوك) بالوطن القبلى ، وبعد ان دبر اغتيال الزعيم الوطنى الصميم ـ رسول النقابة التونسية ومؤسس الاتحاد العام التونسى للشغل العتيد ، فرحات حشاد ، بعد ذلك كله عم الكفاح٠وبعدان عرقل الارهاب حياة المدنانتشرفى البرارى٠ وكانت روح المقاومة الوطنية مجسمة فى زعيم الدستور الجديد لسان حال الشعب التونسى باسره ، الحبيب بورقيبة ، الذى نظم من اعماق سجونه واقاصى منافيه كفاح التحرير سواء كان فى الميدان الخارجى او الداخلى ٠ فرفعت تونس ـ مستندة على الكتلة العربية الاسيوية ـ المشكلة التونسية امام منظمة الامم المتحدة فلاقت من هذه المنظمة مؤازرة ادبية، بينما كان داخل البلاد جيش « الفلاقة » الخفى ، جيش التحرير التونسى ، يمد شبكته فى البرارى والمدن ـ فكانت بعض الاصلاحات الظاهرية منحت لبعض وزارات تونسية من نوع « هر يحكى انتفاخا صولة الاسد » فلم يغير ذلك من الوضعية شيئا ـ وكان المازق ، خصوصا وان المغرب شرع بدوره فى العمل وان الجزائر كانت تتاهب للوثوب ـ ويعلم كل ما جرى بعد ذلك ـ فيوم ٣١ جويلية ١٩٥٤

قدم رئيس مجلس الوزراء الفرنسى، منداس فرانس، الى الباى الوعد القطعى بالاستقلال الداخلى ـ وكانت مفاوضات طويلة عسيرة ، ووقع بباريس فى ٣ جوان ١٩٥٥ على الاتفاقيات التونسية الفرنسية ـ ولكن رحى الاحداث كانت تدور بسرعة بالمغرب ولم تخف بعض الاوساط الوطنية التونسية ضديتهـا لاتفاقيات ٣ جوان ١٩٥٥ معتبرة اياها غير كافية ٠ ففى تلك الظروف تشكلت الحكومة التى تراسها الزعيم الوطنى الفـذ ، الرئيس بورقيبة الذى وقع فـى النهاية على بروتوكول ٢٠ مارس ١٩٥٦ حيث « تعتـرف فرنسا على رؤوس الملا باستقلال تونس ٠ » وتبع ذلك :

ا) ان المعاهدة المبرمة بين تونس وفرنسا لم يبق لها مفعول فيمـا يخص العلاقات التونسية الفرنسية

ب) ان مقررات اتفاقيات ٣ جوان ١٩٥٥ التى تنافى النظام الجديد لتونس المستقلة وذات السلطان التام يقع تغييرها او الغاؤها

ج) تقوم تونس بمسؤولياتها فى الشؤون الخرجية والامن والدفاع كما لها تكوين جيش وطنى تونسى »

واقر هذا الاعتراف باستقلال تونس فى الميدان الـدولى تصويت اجماعـى قامت به منظمة الامم المتحدة فى ١١ نوفامبر ١٩٥٦ حيث قبلت تونس كعضو فى هذه المنظمة ٠

وطويت صفحة جليلة من التاريخ التونسى ، وفتحت صفحة جديدة ،صفحة تونس المستقلة ، بما فيها من شقاء وعظمـة لائطين بحيـاة الشعوب والعباد الاحرار

٢ ـ حكم العامل التناسلى

« انه لمن المزعج مقدار ما يتناسل التونسيون وما يتكاثرون » هذا تصريح ذاك المدير سابقا للتعليم حينما اعتبر نمو عدد التونسيين واثبـا كالسهم الى السماء وقارنه بالخط البيانى الذى وضعه لايواء الاطفال بالمدارس وتصاعـده المتثاقل المحتشم ٠ فبالرغم عن كونه يفتح كل سنة ابواب المدارس امام عشرة آلاف من الاطفال كان الانتاج المحلى يبعث اليه بمائة الف ، وذاك مما يقوى فى صفوف الشباب الضخمة التى انخرطت فى سلك مدرسة الشـوارع ، وهـى اضخم المدارس عددا بالبلاد اذ حوت تسعة اعشار التونسيين ممن بلغوا سن الدراسة ـ وكانت الحالة غير قابلة للحل ٠ بل هى مشكلـة دن (الدنايد)

المثقوب القعر كلما صب فيه الماء لم يبق فيه شيء — واستبدت فكرة واحدة على مخ ذلك المسكين : الخط البياني للولادات ٠

على ان المشاكل الخطيرة التي يعرضها هذا التضخم العظيم ليست خاصة بالتعليم بل هي تشمل الميادين كلها من اقتصادى واجتماعي وبشرى ٠ فاذا كان مستوى المعاش للتونسي هو فى ذاته من اضعف المستويات بالعالم كيف يمكن ترفيعه اذا كان نمو الانتاج البشرى يفوق بكثير نمو الثروات ؟ او بعبارة اخرى كيف يتسنى كل عام اطعام ٧٠٠٠٠ من التونسيين الجدد والباسهم وتعليمهم واسكانهم ومداواتهم فى حين ان البلد لم يكن قادرا على القيام بهذه المهمات من قبل ؟ (١)

فكل المشاكل التى على الدولة التونسية الفتية ان تحلها فى جميع الميادين تابعة مباشرة او غير مباشرة لهذا العامل الاساسى : النمو « المزعج » لعدد السكان المسلمين ٠ فيجدر بنا اذن ان نضبط قبل كل شيء هذا العنصر الاساسى ثم توزيع السكان على مختلف جهات البلاد .

نمو السكان : اذا ما تصفحنا الارقام المسجلة بالمصلحة التونسية للاحصائيات التى استثمرها مديرها م ٠ لبيدى احسن استثمار فى دراسة قام بها حديثا (٢) يمكننا ان نتتبع تطور السكان بتقريب مرضى منذ ١٩٢١

---

(١) فى الواقع هذا العدد انما هو زيادة المواليد على الاموات ، اما عدد التونسيين الجدد الذين يولدون كل سنة فهو على الاقل ١٢٠٠٠٠ — وهذا هو الرقم الذى ينبغي اعتباره فى مشاريع التجهيز لاعداد الفائض المذكور

(٢) « سكان البلاد التونسية » ، دراسة لم تنشر ، تفضل مؤلفها بامدادنا بها ٠ وفى ما يخص الفترة السابقة عن ١٩٤٦ يمكن ان نستفيد من كتابة ل٠ شوفاليى « المشكل التناسلى الشمال الافريقى » دراسات ووثائق ١٩٤٨

جدول النمو التناسلى فى تونس

الجنسات	١٩٢١	١٩٢٦	١٩٣١	١٩٣٦	١٩٤٩	١٩٥٦
تونسيون مسلمون	١٨٢٦٥٤٥	١٨٦٤٩٠٨	٢٠٨٦٧٦٢	٢٢٦٥٧٥٠	٢٨٣٩٧٨	٣٣٨٣٢١٣
تونسيون يهود	٤٨٤٣٦	٥٤٢٤٣	٥٦٢٤٨	٥٩٤٨٥	٧١٥٤٣	٥٧٧٨٦
اروبيون	١٥٦١١٥	١٧٣٢٨١	١٩٥٢٩٣	٢١٣٢٠٥	٢٣٩٥٤٩	٢٥٥٣٣٢
الفرنسيون منهم	٥٤٤٧٦	٧١٠٢٠	٩١٤٢٧	١٠٨٠٦٨	١٤٣٩٧٧	١٨٠٤٥٠
اجناس مختلفة	٦٢٨٤٣	٦٧٢٧٦	٧٢٣٩٨	٦٩٨٧٣	٨٦٨٨٢	٦٦٨٥٦
الجملة	٢٠٩٣٩٣٩	٢١٥٩٧٠٨	٢٤١٠٦٩٢	٢٦٠٨٣١٣	٣٢٣٩٥٢	٣٧٨٢٤٨٠

فيلوح من هذا الجدول ان سكان تونس ـ وعلى الاخص العنصر الاسلامى منهم ونسبتهم ٪ ٩٣،٢ من المجموع ـ نما عددهم بسرعة عجيبة · ولو اضفنا الى هذا الجدول الرقم التابع لسنـة ١٩١١ ، وكان المجمـوع اذاك ١٩٣٨٦٨٧ ، للاحظنا انه ، بين ١٩١١ و ١٩٥٦، اى فى مدة ٣٥ سنة، تضعف عدد السكان بالبلاد التونسية ، ومن جهة اخرى ان هذا النمو فى تسارع مستمر · فكانت نسبة النمو بين ١٩١١ و ١٩٢١ تبلغ ٪ ٨ وبين ١٩٢١ و١٩٣١ ٪ ١٤ وبين ١٩٣٦ و ١٤٦ ٪ ٢٥ وبين ١٩٤٦ و ١٩٥٦ تبلـغ ٪ ٢٠ · على انه يظهـر ان الاحصائيات الاخيرة التى وقع القيام بها فى غرة فيفرى ١٩٥٦ تدل على بعض الانخفاض او على الاقل بعض التباطؤ ـ ويظن م·لبيدى ان ذاكانما هو ظاهرى اذ قد ضخمت ارقام ١٩٤٦ للاحراز على عدد اكثر من بطاقات التموين ـ ويمكننا ان نضيف سببا ثانيا هو ان فترة الاضطراب وانعدام الامن الواقعة بين ١٩٥٢ و ١٩٥٥ لم تكن لتلائم الازدياد القوى فى الولادات ·

فاذا استمرت سرعة النمو الحالية وهى من ٪ ٢ الى ٪ ٢،٢ نشرف على افق يصل بنا الى ٠٠٠ ٥٥٠٠ نسمة سنة ١٩٨٠

على ان ذلك انما هو افق نظرى وليس من المستحيل ان نرى الانخفاض الذى يلوح الانيتاكد نظرا للنظامالجديد للحالة الشخصية الذى يحجر تعدد الزوجات ويضع عراقيل للطلاق ·

ومهما يكن من امر فحيث ان ازدياد عدد السكان هو نتيجة الفائض بين عدد الولادات وعدد الوفيات ، صار من اللازم ان نقف وقـوفا اوضح على هـذين العاملين ·

الولادات والوفايات : قبل كل شيء لا يسعنا الا ان ناسف لقلة ضبط الحالة المدينة وبالتالى لمخالفاتها للواقع. فكثير من التونسيين ـ خاصة الرحالة لا يعلمون بالمواليد ـ خصوصا اذا كان المولود بنتا ـ ولا يعلمون بالوفيات . فلذا كانت التقديرات تشوبها اخطاء جسيمة وفى ذلك ما فيه من الخلل . على ان م. لبيدى تمكن من تلخيص بعض الارشادات التابعة للمدة ١٩٤٥ ـ ١٩٤٧ (« الاقتصاد التونسى منذ الحرب ») فمعدل الولادات ٤١٠ لكل ١٠ ٠٠٠ نسمة في جملة البلاد. وفىالوسط والجنوب اعنى فىاشد الجهاتاحتياجا وفقرا يبلغ هذا العدد ٤٩٠ بينما ينخفض فى الشمال الى ٣٥٠ وحتى ٣٠٠ ويلوح هذا التوزيع الجغرافى للولادات موافقا للواقع اذ من الملاحظ انه كثيرا ما ينحط عدد الولادات كلما ارتفع مستوى المعاش ـ ومهما يكن من الامر فينتج عن الاحصائيات الاخيرة ان معدل الولادات يتراوح بين ٤٠٠ و ٤٥٠ لكل ١٠ ٠٠٠ نسمة ـ ولو قارنا هذا الرقم بما هو عليه فىالبلدانالاخرى كانقلترا (١٦٠ لكل ١٠٠٠٠) وايطاليا (١٨٠) وفرنسا (٢٠٠) والبرازيل (٣٦٠) الخ للوحظ ان البلاد التونسيةمن اقوى بلاد العالم فى الرقمالقياسي للولادات وفعلا ان الرقم القياسي للانتاج (وهو نسبة الولادات الحية بالاضافة الى١٠٠٠ امراة عمرها بين ١٥ و ٤٩ عاما) يبلغ ١٧٠ ويلوح كاقوى رقم بالنسبة لسائر البلدان .

فعلى هذا تظهر اهالى تونس كاخصب اهالى الارض انتاجا . وان مداحى الاستعمار ليجعلون من هذه الخاصية حجة ممتازة لدعايتهم

«ولكن اذا كان التونسى (١) بطبعه كثير الاولاد ، فليس للحضور الفرنسى على ذلك من ميزة ولا فضل . بل قد كان على هذا الحضور ان يقيم الدليل على « رسالته التمدينية » بالتقليل من الوفيات . ففى هذا الباب كان على المعمر الحسن التصرف ان يدخل بالفائدة وان يظهر كفاءته وبراعته ـ فلا يشكر الراعى اذا انتجتاغنامه بل يشكر اذا ما عالجها نوقاها واحتفظ بجميعنتاجها.

فما تفيدنا الاحصائيات فى هذا الشان ؟ مابقى من ١٣٠٠٠٠ او ١٤٠٠٠٠ من المواليد التونسيين ؟ فهناك الارقام مزعجة . وهذا معدل الفترة ١٩٤٦ ـ

(١) مستمد من «التناسل ولاستعمار» ص ، التلاتلى فى « تونس الشابة» جويلية ١٩٤٧

١٩٥٦ من الوفيات التى بين صفر وعام (بادخال الموتى وقت الولادة) فيما يخص مدينة تونس ٢٧٦ لكل ١٠٠٠ ولادة وبالنسبة لمدينة صفاقس نحو ٣٠٠ لكل ١٠٠٠ (وفي الفترة ١٩٥٠ ـ ١٩٥٤ لمدينة تونس ٢٢٣ لكل ١٠٠٠)

فهكذا يموت ربع المواليد تقريبا فى سنتها الاولى • وهاتان المدينتان من اقوى المدن تمدنا اى مما يمكن فيه على احسن وجه مقاومة الوفيات الصبيانية

فما بالك بالبرارى والبلاد الحارة الجافة بالجنوب والوسط حيث يجفف الرضيع ـ بالتعبير الصحيح ـ ريح القبلي وانحطاط التغذية ؟ وما بالك بصبيان العرب الرحالة الذين هم عرضة لعبث الطقس وانواع الغبار واصناف العاهات والاوبئة ؟ فالوفيات الصبيانية بهذه الجهات التعيسة هى بدون شك ضعف ما هى عليه فى الجهات التى ذكرنا آنفا • وهذه هى الارقام بالنسبة للصبيان الذين لا يفوق عمرهم العام الواحد ـ على ان ما بقى هم دائما عرضة للعاهات حتى البلوغ ومن نجا منهم بقيت فيهم آثار المجاعة التى قاسوها مدة الصغر •

فهكذا اذا ولد عشرة تونسيين ، مات منهم قبل العام اثنان او ثلاثة وربما اكثر من ذلك ـ واخيرا ينجو من الغرق طفل واحد لكل ثلاثة اطفال

حينئذ اذا ما طبلت الاحصائيات وزمرت معلنة ان عدد التونسيين يزداد مليونا فى ٢٥ سنة ، ذاك امر جميل جدا ، ولكن لا ينبغي ان ننسى ان فى ضمن ذلك ٤٠٠٠٠٠ من صغار القبور ومن الدوحات الفارغة (١) •

وما ذاك الا الامر الخاص بالكارثة القومية التى تدعى الوفيات الصبيانية والتى يذهب لها ضحية فى ربع قرن ما يقرب من ضحايا الحرب الكبرى بفرنسا •

ولهذا يكون من الاحسن ان يتحاشى الاستعمار ان يستظهر بحجة النمو التناسلى • »

ومن سوء الحظ ليس لى ما اضيف الى ما كنت كتبت سنة ١٩٤٧ • نعم ان عدد الوفيات للصبيان الذين لا يتجاوز عمرهم السنة الواحدة اخذ شيئا ما فى الانخفاض • ففى سنة ١٩٥٣ كان هذا الرقم القياسى بمدينة تونس ١٨٧ بالنسبة للتونسيين المسلمين و ٤٥ بالنسبة للاوروبيين ، وذاك دائما رقم

(١) للمقارنة اعلم ان الرقم القياسى للوفيات الصبيانية بفرنسا ٦٤ فى الالف وفى المانيا ٦١ وفى نيرلندا ٣٦ ـ واضف الى ذلك ان سنة ١٩٥٤ كان هذا الرقم بالنسبة لاروبيى مدينة تونس ٣٧ فى الالف•

قوى ، مع كوننا لم ندخل فيه عدد الموتي وقت الولادة ! ولا يمكننا ان نرتاح الى قبول كون تونسى مقابل ٤ او ٥ يموت بصفة مطردة قبل ان يبلغ العام وانه لنظام عام لوفاية الاطفال ينبغى ان نقره فى المستوى القومى باجمعه · وذاك عمل حيوى لا مناص منه ولا حائل دون القيام به ـ فعليه يعتمد مستقبل شبابنا ·

ومن الطبيعي ان تثقل هذه الوفيات الصبيانية القوية الرقم القياسى العام للوفيات حيث يبقى مرتفعا جدا : ١٨٠ الى ٢٠٠ لكل ١٠٠٠٠ من المسلمين بينما هو ٨٧ لكل ١٠٠٠٠ من الاروبيين

وحسب الاحصائيات الاخيرة يقدر عدد الولادات بقدر ١٢٠٠٠٠ وتبلغ الوفيات ٦٤٠٠٠،فيكون الفائض السنوى ٥٦٠٠٠ يضا فاليه تقريبا ١٠٠٠٠ من الولادات التى لم يقع الاعلام بها فيكون النمو جملته ٦٦٠٠٠ فى السنة

هيكل السكان وتوزيعهم : فالاهالى التونسيون حينئذ يختصون بعدد قوى جدا من الولادات ، ووفيات عامة مرتفعة ، ووفيات صبيانية ضخمة ، مما يكون فائضا سنويا يناهز ٦٠٠٠٠ نسمة ، وهذه خاصيات شعب شاب ، فاكثر من نصف التونسيين لايبلغ عمرهم١٥ سنة! ولم يؤت اى بلد ما اوتيت تونس من هذه النسبة ـ وهرم الاعمار حينئذ ذو قاعدة فسيحة جدا ، وذاك بلا شك يحيى الامل فيما يخص حيوية هذا الجنس ، ولكنه على ذلك يعرض مشاكل خطيرة على الاجيال الصاعدة · ولكل هذا الشعب من الشباب المندفع فى الحياة مطامح وحاجيات سيقولب الاقتصاد باجمعه بالتبعية اليها وكذلك التطور الاجتماعي والسياسى للبلاد ؟

ولكن كيف يوزع هذا الشعب على سائر الانواع المهنية وكيف يقسم على جهات البلاد ؟

فهذه آخر التقديرات التى قدرها م· لبيدى («الشعب التونسى»)بالنسبة الى الاهالى التونسيين فى عنفوان نشاطهم ·

الزراعة	٧٠٠٠٠٠
اقتناص الاسماك	١٣٠٠٠
المناجم والصناعات التابعة لها	١٤٠٠٠
البناء والاشغال العمومية	٤٥٠٠٠
الصناعات الغذائية	٦٠٠٠

صناعات النسج والثيـاب	١٦١٠٠
صناعات مختلفـة	١٦٨٠٠
جملة للنقلة	٨٠٦٩٠٠
النقل	٧٠٠٠
التجارة	٣٢٠٠٠
البنوك وشركات الضمان	٧٠٠
المنظمات الادارية العامة	٢٢٠٠٠
مصالح اخرى	٣٠٠٠
الجملة	٨٧٢٠٠٠

وينبغي ان يضاف الى ذلك قائمة الاعراف ؟

الزراعـة	٢٥٦٠٠٠
الحر فالحرة	٧٠٠
الاعـراف	٢١٩٠٠
الصناع	٢٢٠٠٠
الجملـة	٣٠٠٠٠٠

واوضح عنصر فى هذا التوزيع هو الاغلبية الساحقة فى النسبة لمـن كان معاشهم من الارض · فمن جملة قدرها ١١٧٢٠٠٠ (بادخال الاعراف) نصل الى ٠٠٠ ٩٥٦ مزارع او عامل زراعى اعني نسبة ٪ ٨٥ من جملة السكان ·
وليس فى الامكان ان توضح بصفة اجلى مكانة الزراعة فى حياة البلاد ·

وفى ذاك ما يفسر كون السكان هم قبل كل شيء من اهل البرية فسكان المدن وسكان القرى التي يفوق عددها الالف نسمة لا يمثلون سوى ٣٧٪ مـن مجموع السكان على اننا نشاهد اقبالا على المدن اذ لم تكن هذه النسبة سنـة ١٩٢١ الا ٪ ٢٣

ويظهر ذلك جليا اذا ما تتبعنـا تطور السكان فـي العشر المـدن الكبرى من البلاد

	١٩٣٦	١٩٥٦
تونس	٢١٩٥٧٨	٤١٠٠٠٠
تونس واحوازها	٣٣٢٠٠٠	٥٤٢٠٠٠
صفاقس	٤٣٣٣٣	٦٥٦٣٥



١ موانى قرطاجنة (وعن بعيد جبل بوقرنين) (ص ٤٧)



٢ ـ الكابيتـول ، بدقة
(ص ٤٨)



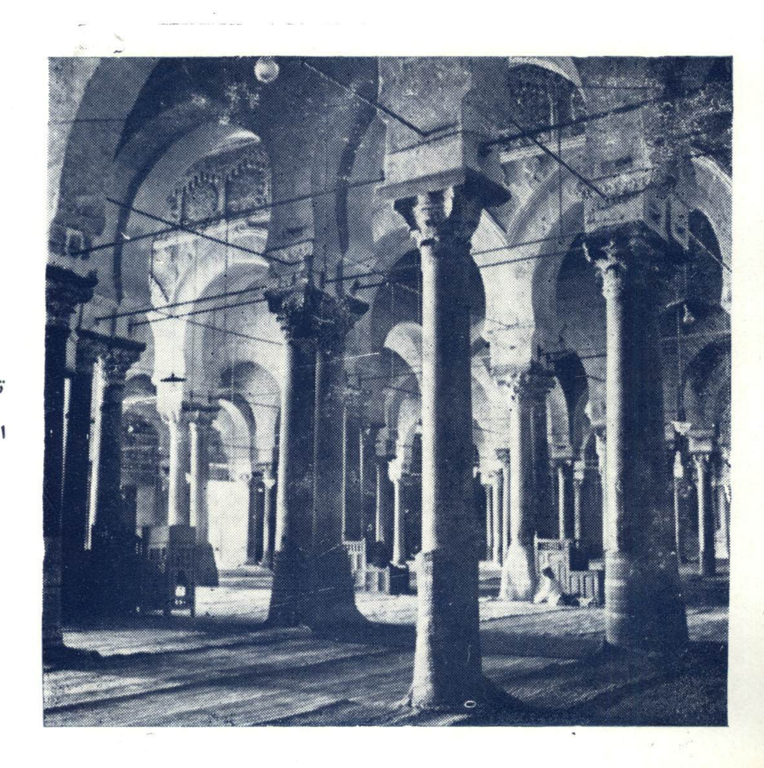
١ ـ مسرح الكوليـزي،
بالجم (ص ٤٨)



٢ ـ معبد سيلستيس ،
بدقة ، تحت ظلال الزياتين



١ ـ منذ ثلاثة عشر قرنا
صومعـة المسجـد الجامــع
بالقيروان ··· (ص٤٩)



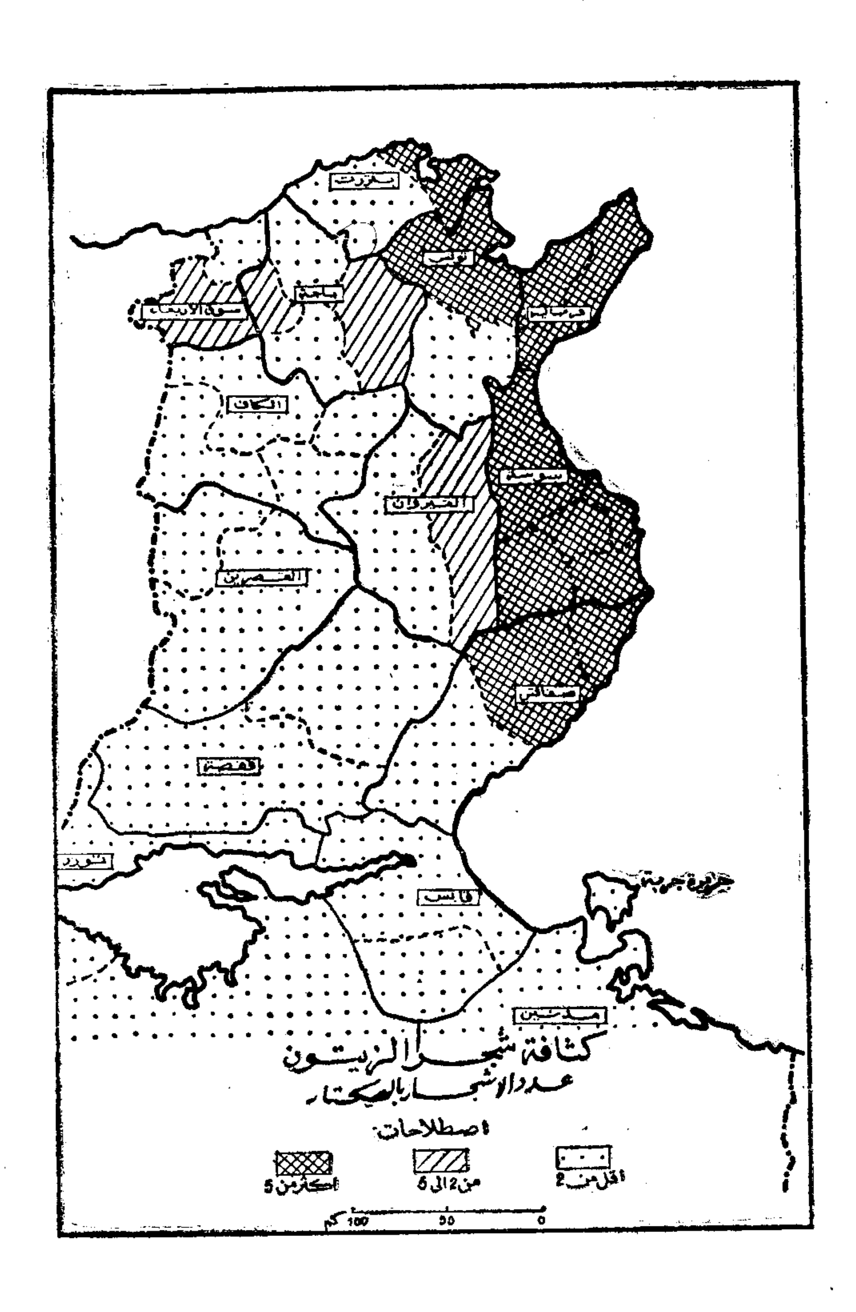
٢ ··· وغابة عرصاتـه
تشهد بما تم للاسلام مـن
اشعاع



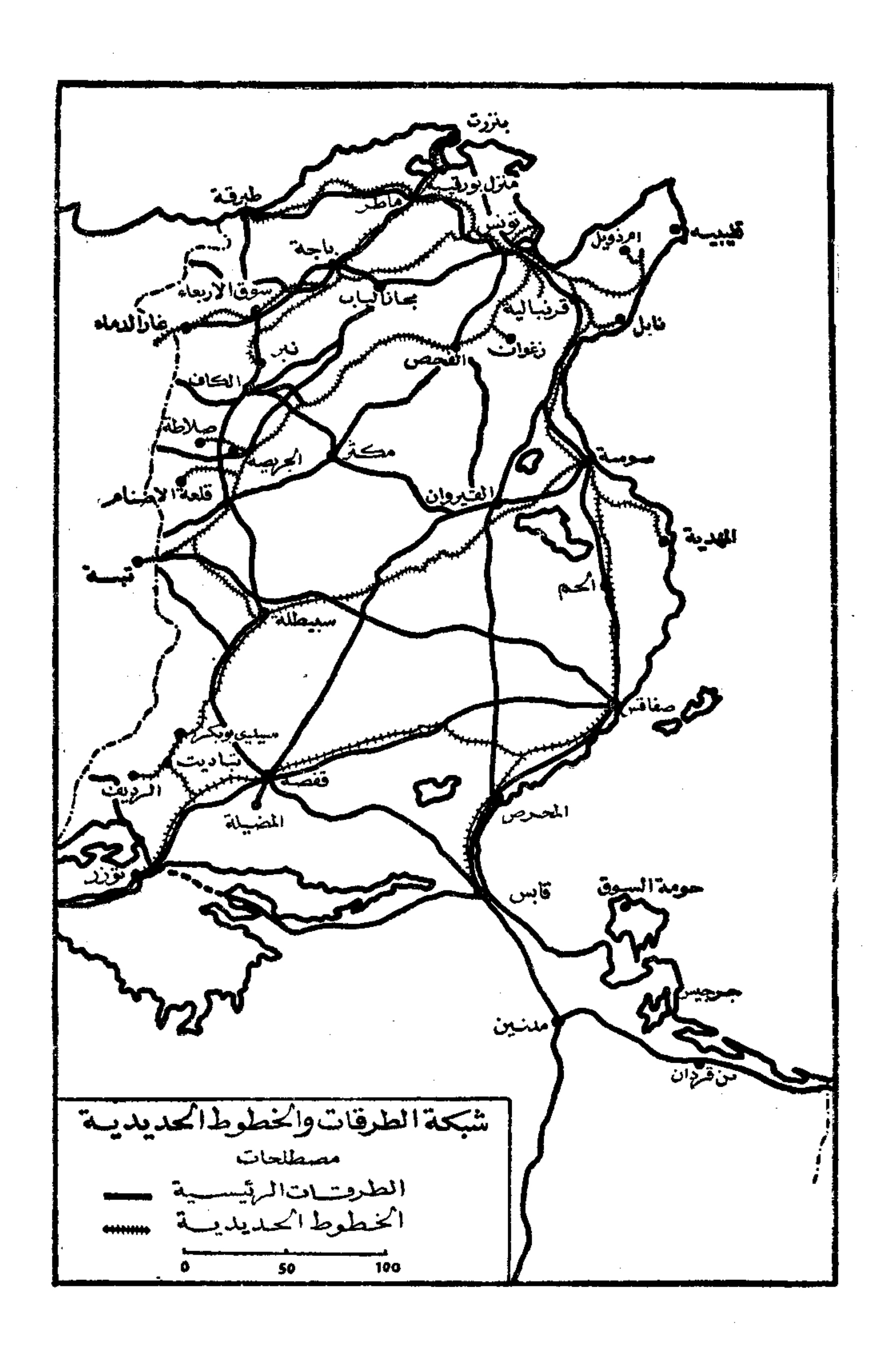
١ - الرئيس الحبيب
بورقيبة



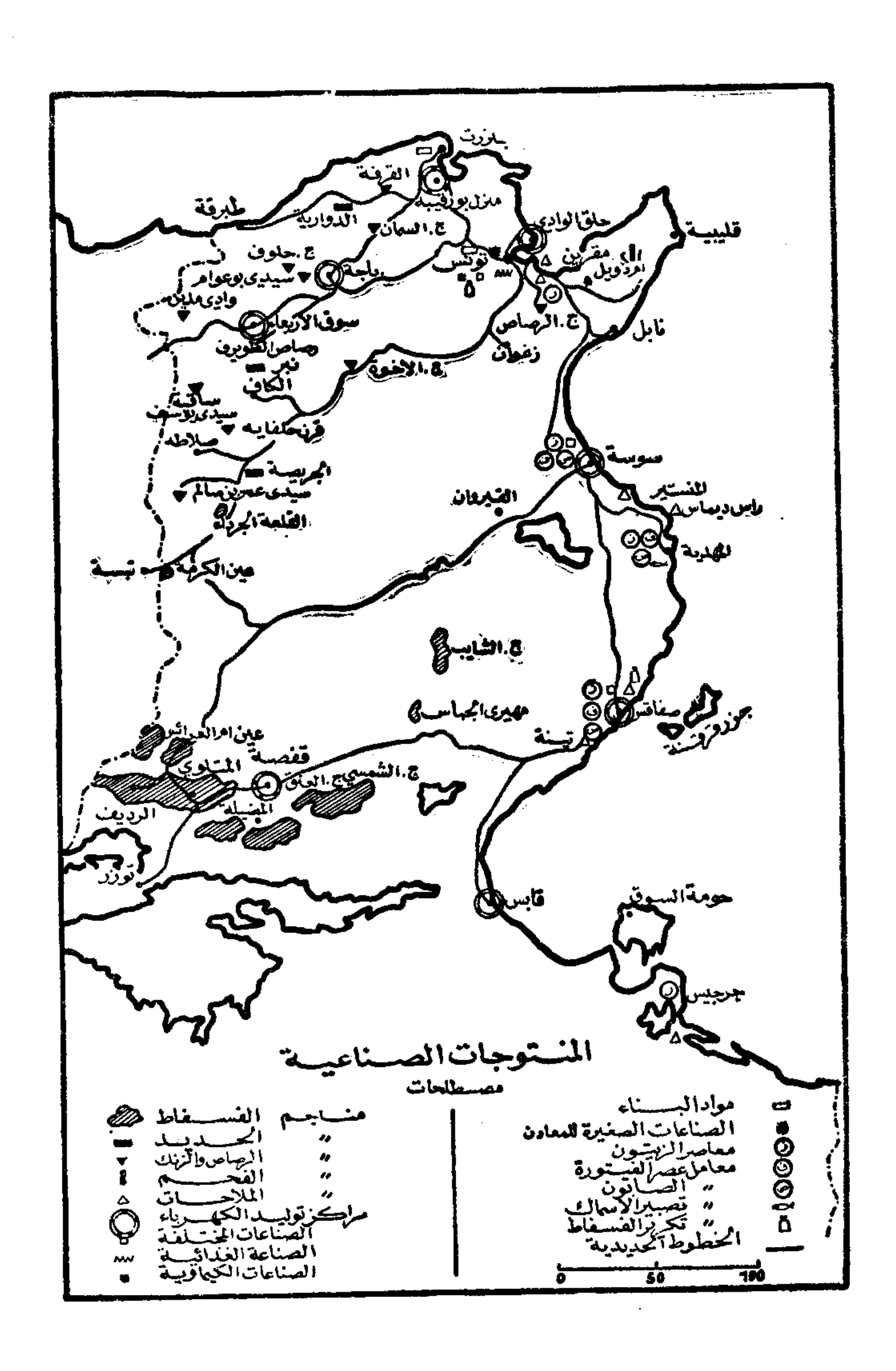
٢ - فرحات حشاد



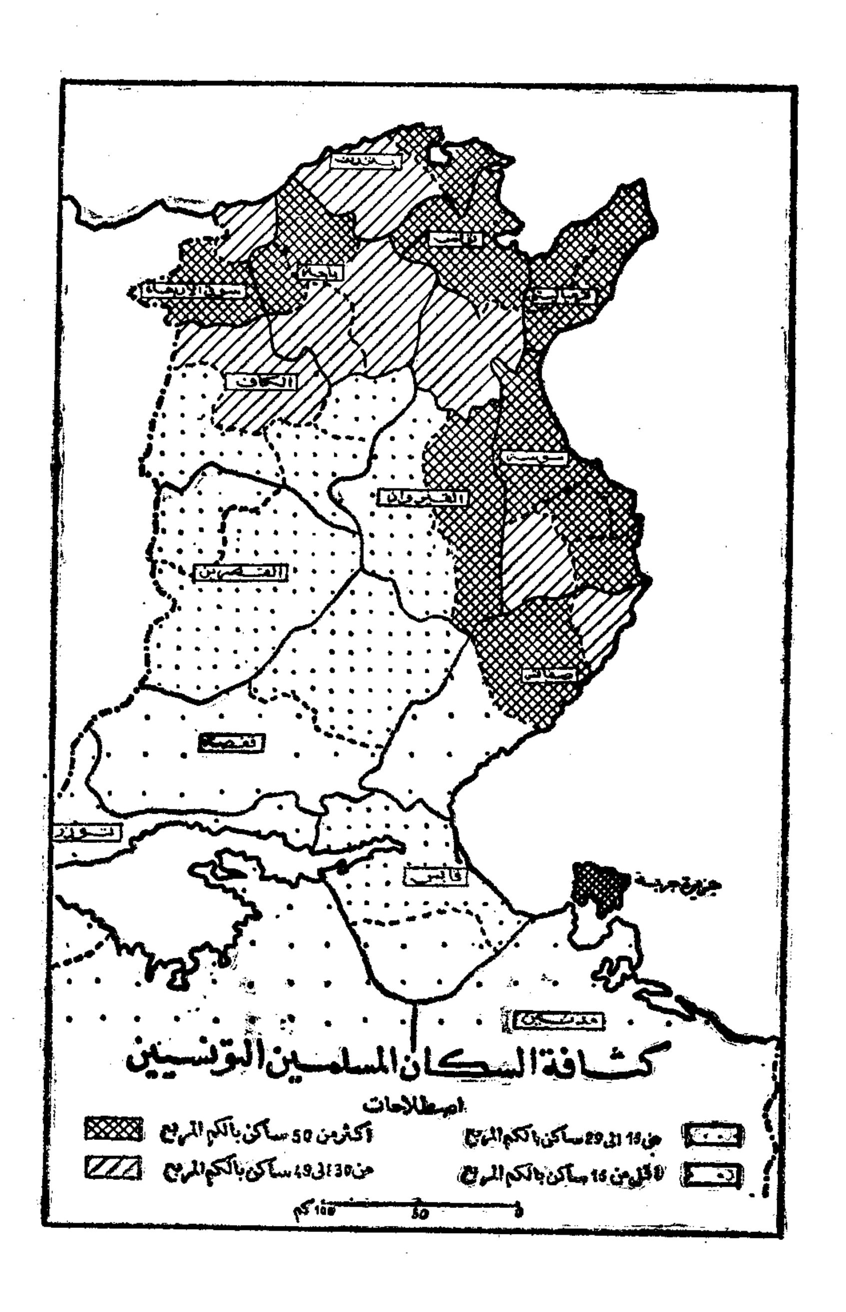
بنزرت
تونس
باجة
سوق الأربعاء
نابل
الكاف
سوسة
القيروان
القصرين
صفاقس
قفصة
توزر
قابس
جزيرة جربة
مدنين
كثافة شجر الزيتون
عدد الاشجار بالهكتار
اصطلاحات:
أكثر من 5
من 2 الى 5
اقل من 2
0
50
100 كم



بنزرت
منزل بورقيبة
ماطر
طبرقة
تونس
قليبية
باجة
سوق الاربعاء
مجاز الباب
قرنبالية
نابل
غار الدماء
زغوان
نبر
الفحص
الكاف
مكثر
الجريصة
سوسة
القيروان
المهدية
تبسة
الجم
سبيطلة
صفاقس
قفصة
الرديف
المضيلة
المحرص
توزر
قابس
حومة السوق
جرجيس
مدنين
شبكة الطرقات والخطوط الحديدية
مصطلحات
الطرقات الرئيسية
الخطوط الحديدية
0
50
100



بنزرت
القرفة
منزل بورقيبة
طبرقة
الدوارية
ج. السمان
حلق الوادي
قليبية
ج. جلوف
سيدي بوعوام
باجة
تونس
مقرين
وادي مليز
سوق الاربعاء
ج. الرصاص
نابل
زغوان
نبر
الكاف
ساقية سيدي يوسف
قرن حلفاية
سوسة
المنستير
راس ديماس
القيروان
المهدية
تبسة
عين الكرمة
ج. الشايب
صفاقس
قرقنة
ثينة
قفصة
المتلوي
الرديف
توزر
قابس
حومة السوق
جرجيس
المنتوجات الصناعية
مصطلحات
مناجم الفسفاط
" الحديد
" الرصاص والزنك
" الفحم
" الملاحات
مراكز توليد الكهرباء
الصناعات المختلفة
الصناعة الغذائية
الصناعات الكيماوية
مواد البناء
الصناعات الصغيرة للمعادن
معاصر الزيتون
معامل عصر الفيتورة
" الصابون
" تصبير الاسماك
" تكرير الفسفاط
الخطوط الحديدية
0
50
100



سوق الاربعاء
باجة
الكاف
القيروان
القصرين
قفصة
قابس
جزيرة جربة
كثافة السكان المسلمين التونسيين
اصطلاحات
أكثر من 50 ساكن بالكم المربع
من 30 الى 49 ساكن بالكم المربع
من 15 الى 29 ساكن بالكم المربع
اقل من 15 ساكن بالكم المربع
0
50
100 كم

سوسة	٢٨٤٦٥	٤٨١٧٢
بنزرت	٢٨٤٦٨	٤٤٦٨١
منزل بورقيبة	٦٣٣٠	٣٤٧٣٢
القيروان	٢٢٩٩١	٣٣٩٦٨
حلق الوادى	١٠٨٦٢	٢٦٣٢٣
مساكن	٢٠٠٨٩	٢٦١٤٢
قابس	١٨٦١١	٢٤٤٢٠
قفصة	١١٢٦٦	٢٤٣٤٥

اما السكان الاروبيون فهم بالعكس فى معظمهم يقطنون المدن (٪ ٨٥) واكثر من النصف يحل العاصمة ٠ ومن مجموع ٢٥٥٣٣٢ اورروبيا نجد ١٨٠٤٥٠ فرنسيا و٦٦٩٠٩ من الايطاليين٠ وقد انتقص عدد الايطاليين كثيرا منذ تجنس عدد عديد منهم بالجنسية الفرنسية (تجنس بهذه الجنسية ١٣٤٥٨ ايطاليا بين سنة ١٩٤٧ و ١٩٥٥) وهناك هجرة قوية جدا بدت آثارها بين السكان الاروبيين ٠ فكان منها فى الاشهر الاخيرة اكثر من ٤٠٠٠٠ مهاجر ٠

وعدد السكان التونسيين من اهالى البرية او اهالى المدن يتغير تغيرا قويا اثناء السنة فالحركات الانتقالية التىيقوم بها العربالرحالة لها اهمية كبرى من الناحية الاقتصادية والاجتماعية الا ان قيمتها العددية غير معلومة بالضبط ٠ فلا توجد احصائيات تفيدنا شيئا فى هذا الموضوع اذ الاحصائيات الدورية ليس لها سوى قيمة الصورة الوقتية غير واضحة الجوانب لا تفيد فائدة مدققة فيما يخص هذه الحركات الداخلية ٠ والان ليست هذه الرحلة رحلة انتجاع بل هى رحلة فى طلب الشغل لليد العاملة ٠ فالقوافل التعيسة من الرحالة نساء وولدانا كلابا وابلا التى نشاهدها صاعدة نحو الشمال وقت الحصاد والتى تبقى حتى ابان قطف العنب او وقت جنى الزيتون،هذه القوافل تعرض علينا مشاكل عديدة ٠ فهؤلاء الاهالى تعودوا النهب فيبثون الذعر فى الوسط البرى الفلاحى ٠ وذاك وحده كاف وفيه من القلق ما فيه ، واضف الى ذلك ان هذا الشان مما يخل الاتزان فى سو قاليد العاملة ٠ فهم يعرضون نفوسهم بابخس الاجور مع نية الاختلاس احيانا ٠ وبذاك يزاحمون العملة الفلاحيين القارين مزاحمة قوية — ولكن مما يزيد الامر خطورة ان نشاهد منذ بضع سنوات ان الرحالة يستقرون فى اماكن من الشمال لم يكونوا فى الماضي

ليحلوها الا موقتا ـ فبين سنة ١٩٣٦ و ١٩٤٦ استقر منهم ٣٨٠٠٠ فى ولاية بنزرت ونحو ٣٠٠٠٠ فى ولاية الوطن القبلى و ١٠٠٠٠ فى ولاية باجة وبالخصوص ١٨٠٠٠٠ بولاية تونس ـ ولو دام الامر واستمر لاختل الاعتدال الاقتصادى للبلاد اختلالا تاما ٠ وفى ذلك خطر يهدد الحياة الفلاحية والعملة القارين وحتى حياة المدن ـ واظهر ما تكون هذه الظاهرة وافضعها منظرا ما يشاهد من انشاء اسورة للتعاسة واكواخ تحيط بالمدن تموج فيها سكان نقلوا من اوساطهم ـ لا مكسب قارا لهم ولا اعتبار للحيطة الصحية والوقاية فى مسكنهم ـ وذاك ما وقع حول الحاضرة بالملاسين وعلى الخصوص بالجبل الاحمر (١)

انه من المهم اذا ومن المتاكد ان توقف هذه الهجرة نحو الشمال وان توجد حلول عامة لمشكلة الرحلة لليد العاملة ، خصوصا وان تلك ليست هي رحلة بل هجرة حقيقية ظاهرة او فى خفاء ٠

واذا ما اعتبرنا الان خريطة كثافة السكان لاحظنا تغيرات كبيرة بحسب الجهة٠ فمعدل الكثافة الذى يبلغ ٢٨ نسمة فى الكم ٢ باعتبار اراضى الجنوب القريبة من الصحراوية ، هو فى الواقع اقوى ٠ وهو على الخصوص كثير الاختلاف اذ هو يتغير من ٥ نسمات فى الكم ٢ فى جهات الجنوب الى ١٦٧فى تونس ٠ وبصفة عامة ان اكثر الجهات سكانا هى الشاطىء من بنزرت الى صفاقس مشتملا على ولايات تونس والوطن القبلى والساحل باضافة جزيرة جربة ـ فهناك ثلثا السكان باجمعهم تقريبا ، وهناك الكثافة تفوق المائة وحتى المائة والخمسين فى الكم ٢ فى الساحل وفى جهة الحاضرة ـ واما داخل البلاد منجنوبىالظهر التونسىفهو قليلالسكان (اقل من ٢٠ فىالكم٢٠ فهناك فرق قوى بين هذا الشاطىءالغزير السكان ومرتفعات الوسط والجنوب الخالية فى الجملة ٠

فما السبب فى ذلك ؟

هناك بلا شك عوامل مناخية وعوامل تابعة للهيكل الجبلى ولخصب الارض وللامن ولاسباب تاريخية ايضا ٠

---

(١) انظر ج٠ ب٠ د رد ل وش القليبى : « ربض مستر لتونس : الجبل الاحمر » ، نشر بـ « كراسات تونس » ثلاثة الاشهر الثانية ١٩٥٥

ولكن هنـاك على الاخص الزيتونة ·

فلو قورنت خريطة كثافة السكان (صورة ٥) بخريطة كثافة الزياتين (صورة ٦) للاحظنا مطابقـة مدهشة · فمناطق قـوة الكثافة فى السكـان تنطبق بدقة – مع وجود شاذ واحد او شاذين يفسران بثروات اخرى – على الجهات التى تقوى فيها كثافة الزيتون – ويمكن تقريبا ان تـوضع الخريطتان الواحدة على الاخرى فتنطبقان لما بينهما من متين العلاقة · وذاك يذكر باتفاق خريطة الارز وخريطة السكان بالهند ·

فيلوح جليا ان الزيتونة هى اهم مقرر للكثافة البشرية بالبلاد التونسية – ولهذا الشان ما له من الاهمية – فلا دون الزيتونة انتاج للارض او لمخبئاتها ولا لصناعات التحويل ما لهذه الشجرة من قوة الجاذبية · ولا وجود بالبلاد التونسية لمجال تنشط فيه الامكانيات الكامنـة البشريـة مثلما تنشط فـى هذا الميدان ففى الزيتونة اهم نصيب من الحل للمشكلة الخطيرة التى تتفاقـم كل يوم مشكلة الهوة التى تفصل بين الانتـاج والاستهلاك · وفيها الثـراء الوحيد العميم الذى فى الامكان ان يبتلع الفيضان التناسلى · والزيتونة هى احسن عنصر تفاعل زراعي لمناخ البحر الابيض · وهى تلائم بكيفية عجيبة الظروف المحلية ويمكنها ان تنمو بكل الجهات التونسية ·

فثروتنا الزيتية تستند على ٢٦ مليونا من اصول الزيتون يضـاف اليهـا ٥٠٠٠٠ كل سنـة · ولكن ذلك كله لا يكفـى – ينبغى ان نسلك سيـاسة اساسها غرس الزياتين فى السلم الوطنى · لا محالة ان هذا يستدعى برنامجا واموالا جسيمة وضبطا مدققا لثرواتنا المائية واقرارا لمعظم العرب الرحالة · سعى جبار سيغير تماما وجه اقتصادنا وانواع الحياة ببلادنا الا انه يـوافق اتم الموافقة استعداد بلدان البحر الابيض لغراسة الاشجار · وانه لقليل من الاستنتاجات لها من الاهمية للمستقبل ما لمقارنة الخريطتين خريطة كثـافة السكان وخريطة كثافة الزياتين ·

ينبغى ان نجعل من تونس – وفى امكاننا ان نجعلها – غابة لا حد لها غابة جميلة من الزياتين تضمن قسطا وافرا من الازدهار للاجيال الصاعدة ·

الباب الثالث تونس وتطورها

ان المكانة الرئيسية التى تحلها تونس فى النشاط التجارى والصناعى العصرى او التقليدى بالبلاد التونسية ذلك النشاط الذى جعل من تونس بوتقة يجرى فيها غالب العمليات الاقتصادية وتتجمع فيها رؤوس الاموال وان اهمية المشتبك المدنى الذى تكونه تنتشر باستمرار فجمع فيه خمس سكان البلاد باجمعها وهو يبلغ ثلث المنتوجات الغذائية التى تنتجها البلاد ، وان الوظيفة التى قامت بها تونس كمشعل جليل للثقافة والتعليم والمدنية وكنقطة تجمع للنظام الادارى والعدلى والسياسى للبلاد التونسية ، وان ماضى هذا الملتقى العظيم للطرقات الاقتصادية والبشرية فى البحر الابيض وحاضره كان ذلك يفرض علينا ان نخص العاصمة التونسية بموضع فرد ومكانة وحيدة كى نؤرخ نموها وتطورها بعد ان نضعها فى اطارها الطبيعى وكى نتعرض لبعض الظواهر التى توحى بها سكانها ووظائفها المدنية

اولا ـ جهة تونس : تكوينها ـ حدودها ـ مناخها (١)

ان التكوين الشكلى لجهة العاصمة التونسية يستند على انهيار الجسر الرابط بين صقلية والبلاد التونسية ، فى آخر عصر البليوسان • ففى ذا ك الوقت انهار المحور الشمالى الغربى الى الجنوب الشرقى لتراجع المنعطفات التى كانت تربط الظهر التونسى بالخطوط المطيلة لجبال الابنان بصقلية ، وكان هذا الانهيار تابعا لسلسلة متشعبة من شقوق فى جملتها متجهة من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى • فغمرت تحت المياه فى عمق ٢٠٠ م تابع للوطن القبلى نحو صقلية ، وصار الوطن القبلى نفسه جزيرة يفصلها عن القارة الافريقية مجاز واقع فى المنخفض الحالى بين حمام الانف والحمامات • وفى الوقت نفسه انغمر خليج تونس وكان يصل حتى ساق جبل بوقرنين والرصاص وجبل زغوان ثم يرتفع نحو الوضاب المشرفة على تونس من الغرب وينغمس اخيرا فى مصب وادى مجردة بالقرب من مجاز الباب اليوم •

---

(١) نستمدحو صلة هذا الباب الخاص بتونس فى البعض منها من صورة وصفية لم تنشر خصصنا بها « تونس وجهتها »

ويحفظ هذا الخليج الفسيح المتعدد الشوكات من قديم هيكله شهودا هى عدة جزر صغيرة ، كارخبيـل ايجيمور (جزيـرة زمبرة وزمبرتـا والجزيرة المستوية) وجزر سيدى ابى سعيد والجبل الاحمر والنحلى ـ وان تعدد العيون من المياه الحارة النابعة بقربص وحمام الانف ليشهد كذلك بوجود هذه الحوادث فى القشرة الارضية .

وفى فجر العصر الرباعى كانت الجهة التى اشيدت فيها مدينة تونس فيما بعد تحت مياه البحر الذى كان مستواه اعلى من المستوى الحالى بقدر مائة متر تقريبا (الطبقة الصقلية) . وكان معظم الهضاب المحيطة بتونس مغمورا بالمياه

ثم ادت الحركة الاوسطاطيقية فى العصور التى بين العصور الجليدية ادت بحر العصر الرباعى الى انخفاض مستواه شيئا فشيئا . وهناك فترات وقوف ابقت آثارا من الحصى والاصداف كما وقع فى العصر الميلازى (علو ٦٠ م) فى الشمال الغربى من اريانة . ثم ان الهضاب التى بنيت تونس فيما بعـد على صفوحها خرجت شيئا فشيئا من الماء : هضاب المنوبية ومنفلورى وسيدى ابى الحسن وكذلك المرتفعات المجاورة : جبل الخروبة وبئر القصعة ورادس وقرطاج

وكان العاملان القويان لردم الخليج مجردة ووادى مليان يقويان عملهمـا كلما ازداد انخفاض مستوى القاعدة اذ كان البحر الرباعى مستمرا فى نزوله . ونحن الان على ارتفاع ٣٠ م من المستوى الحالى (العصر التيرينى ، شطـوط قلعة الاندلس والهضبة رقم ٢٨ والجبل الخاوى فى الشمال الغربى من المرسى)

وانتقصت فسحة الخليج واجتمعت هضاب مقرين بهضبـة رادس ، والتقت مرتفعات بئر القصعة بالمنوبية والتحمت آخر صفـاح الجبل الاحمر والنحـلى بقبة راس الطابية والبلفيدير . وانعزلت جفنة السلجومى عن الخليج .

ثم وصل البحر مستواه الحالى . واستمرت مياه مجردة ووادى مليان الحاملة للاوحال على عمل ردمها متعاونة مع التيارات الشاطئية ـ كما راينا ـ فانشات مثلث الرواسب بالمرسى فاتصلت جزيـرة سيدى ابى سعيـد وقرطاج بالبر يجمعها به اشرطة شاطئية بحلق الوادى وسكرة وقمرت ـ واغلقت سهام رمل اخرى قناة قرنبالية ملصقة جزيرة الوطن القبلى بالارض الافريقية .

فهكذا انتشلت جهة تونس من زبد الامواج ـ كما انتشلت افروديت ـ وتجلت فى صورتها الحالية ـ وان هذا المولود الجديد لقد نشا ـ كما نشات سهول متيجة

بالجزائر بتاثر الردم الجزئى لخليج بحرى صبت فيه اوحال برية فى العصر الرباعى ٠

حدودها : يمكنك ان تكتشف الحدود الطبيعية لجهة العاصمة اذا صعدت فى مساء جميل مشمس على المرقبة البديعة التى تكونها هضبة سيدى ابى سعيد على بعد ١٥ كم شرقى تونس ٠

فالمنظر باجمعه ينتظم كما تنتظم المشاهد المسرحية - ويمتد تحت اعيننا مشهد ساحر من ابدع مشاهد الدنيا ٠ فهذه جبال قربص ، ذاك الحاجز اللازوردى المائل الى الخزامى المخطط بحجارة الصوان الصهباء ، تحيط من الجنوب بما امتد من سطح خليج تونس اللازوردى ٠ ثم ينخفض الحاجز فى شكل بطحاء رمادية اللون تلوح فى ارجائها لطخة بيضاء هى دور بلد سليمان ثم ياخذ الهيكل الجبلى فى الصعود ، جميلا متناسب الاطراف، فى شكل مخروط حسن المنظر يذكرنا مع قوى الشبه بالفيزوف ، ولكن بفيزوف ليس بالبركانى ذاك هو جبل بوقرنين يشرف فى غظمة شبحه على هذا الخليج الافريقى الشبيه بخليج نابلى ٠ ومن جهة الغرب ينتصب هيكل جبل الرصاص (٧٩٥م) متزملا فى الزرقة كان قد نقشته ضربات صماء من القلش فكان منه قصر من قصور الخيال ، قصور الاقاصيص والخرافات ومن خلفه كمن وراء الستار يقوم جبل زغوان (١٢٩٥ م) عالى الراس مكللا بالغيوم

ولا تجد العين انفاصا ما لهذا السوار الجبلى من ناحية الغرب فهو يمتد بلا انقطاع نحو الشمال ٠ على ان الخط الجبلى الواصل بين زغوان ومجاز الباب تطمسه موجة خفيفة تنبعث من رادس مارة بمقرين وبئر القصعة وسيدى ابى الحسن ومنفلورى والبلفدير متصلة بما جثم من اشكال الجبل الاحمر والنحلى التى يلوح من ورائها خط قمم الجبال الكائنة باسفل مجردة فتتصل هذه بجبل غار الملح الذى تخفى جزءا منه لطخة شقراء ، قريبة منا ، هى الدعاص الممتلئة الضخمة ، بقمرت ٠

وفى اعماق هذا المسرح العظيم تنتشر دور تونس البيضاء واحوازها القريبة او هى تتبلور من ناحية الغرب ، ومن الشمال ، بين سبخة اريانة التى يلمع لجين ملحها كلما انحدرت الشمس ، وبين بحيرة تونس التى تذكيها اشعة الغروب وبينهما تتمدد اكداس سكرة تغشيها ظلال زياتينها وبرتقالها الوارفة وتخططها طرقات تلمع كالقنوات ٠

ثم من الجنوب ، من قرطاج الى رادس ، على السهام الرملية الضيقة من حلق الوادى ، تتزاحم جموع متراكمة من ضيعات الاحواز ، ستستنير بعد حين اذا ما جن الليل ، كجمرة عجيبة تنبعث منها جزر من الانوار الطفيفة حتى حمام الانف وحتى سليمان ٠

واتى الليل وحل بقرية سيدى ابى سعيد العربية ، اذ نادى المؤذن من اعلى صومعته النحيفة فسرى بافاق الليل نداؤه البطىء الثقيل المهيب ٠

وآن وقت النزول ، الى الازقة الملتوية ، حيث احمرة صغيرة تحمل الماء ، فلنترك الى سباتها والى حملها العتيق هذه المدشرة ، مدشرة جبل المنار

المناخ : ان التموجات الطفيفة فى الاراضى التىتمكنالسهول الداخلية بجهة تونس من الانفتاح بسهولة الواحد للاخر لم تكن حاجزا ذا قيمة يمنع المواصلات وبالاحرى التاثيرات المناخية ٠

فاذا ما تصفحنا الاحصائيات التابعة لنظام الامطار والرياح والطقس نشاهد نوعا من التوافق بين سائر المحطات المناخية الموجودة بهذه الجهة ٠

فمعدل الطقس بتونس١٨،١وسيدى ثابتوهى بلدة تبعد عن الحاضرة٢٠كم من جهة الشمال لها عين المعدل وفى زغوان التى تبعد عنها ٥٠ كم من الجنوب الا انها فى صميم جهة جبلية ، يصل المعدل الى ١٧،٧ ، ولقائل ان يقول ان المعدل الحرارى السنوى لا يفيد بالطبع شيئا — وهذا قول حق — الا ان الفرق السنوى ليس اكثر تغيرا ٠

	جانفى	اوت	الفرق السنوى
تونس	١٠،٨	٢٧،١	١٦،٣
زغوان	١٠،٦	٢٦	١٥،٤

وبالنظر الى هذا الجدول نستنتج ان تونس الواقعة تقريبا على الشاطىء لها مناخ اشد اقليمية من مناخ زغوان التى تبعد عنه ٥٠ كم ٠

وان هذهالوحدة بعينها فيما يخص توزيع الامطار الذى هو مرآة صادقة لنظام الارياح ٠ فالمعدل المطرى لتونس (٤٢٠ مم) لا يخالف الا قليلا هذا المعدل بمجاز الباب (٤٢٥ مم) او مقرن (٤٨٧ مم) الكائنة بالقرب من زغوان ٠

وبالجملة ان المناخ اقليمي بلطف الا انه كما سنذكره قد يقسو في الصيف، وهو مناخ سباسب٠هاتان هما الخاصيتان العامتان اللتان تلوحان لنا منذ الان
ولكن كيف تتغير العناصر المختلفة لهذا المناخ بتغير الفصول ؟

انه ليجدر بنا ان نحيط بعض القول للجواب عن هذا السؤال ٠ ان من ياتي تونس في شهر اوت من السياح قادما من فرنسا او انقلترا ليدرك ما لصيف تونس من قساوة لا تحتمل ٠

فحياة المدينة كلها تسير ببطء كان قد ارهقتها الحرارة ٠ والمتوظفون الفرنسيون فروا الى تونس ممتطئين اولى البواخر من شهر جويلية او ان لم يمكنهم ذلك فهم قصدوا عين الدراهم والحمامات ـ واهالي تونس التجؤوا منذ اولى الارتفاعات في الحرارة الى ما انتشر حول خليج تونس من المصطافات البحرية من قمرت الى حمام الشط ـ وبانهج العاصمة ، ايام الشهيلي ، حيث لا تجد الا قليلا من المارة ينسابون في ظلال الدور الهزيلة ، يرتفع الطقس ارتفاعات مهولة ، كثيرا ما يتجاوز ٤٠ واحيانا ٤٥ درجة ـ والهواء جاف مهشم لكل شيء

واقل تنفس للهواء يثير الغبار ويذيع الروائح الكريهة المتصاعدة من البحيرة٠ ومن حسن الحظ انه كثيرا ما يعقب هذه الايام الثقيلة المرهقة بعض البرودة في المساء ـ الا ان المحنة قد تدوم وتستمر حتى في الليل ٠

وتبتدى ايام الحر في شهر جوان ، والمعدل الحراري الذي كان ١٩ درجة في ماية يصعد دفعة واحدة الى ٢٣٫٣ ٠ فهناك فاصل واضح يفصل الصيف عن الربيع وان هذا الفصل لاقوى فيما يخص الامطار ٠ وفي جويلية معدل الحرارة ٢٦،٥ ويصل اوجه في اوت حيث يبلغ ٢٧،١ ثم يتدحرج في سبتمبر الى ٢٤،٨ الا انه اذاك ثقيل اذ يتدخل عامل الرطوبة المنبعثة من الرياح الشمالية الشرقية فتكون الحرارة منهكة ـ على ان هذه الظاهرة عامة بالنسبة لعموم الشواطيء الشرقية التونسية وهي تزداد قوة كلما انحدرنا نحو الجنوب

الا ان الاحواز الشمالية للعاصمة ، التي تتقدم في الخليج من جانبي ذنب سيدي ابي سعيد ، تتلاعب فيها الرياح ويتنفس فيها نسيم الليل ونسيم الصباح ٠ فنسيم المرسى منذ عهد الحفصيين بل منذ اقدم من هذا العهد قد جذب دائما اعضاء الارستقراطية التونسية ، وبالرغم عن كون الحياة ترجع الى معتادها في شهر اكتوبر فان الطقس مازال مرتفع الحرارة (معدله ٢٠،٥)

وقد تلفح فيه بعض الايام من الشهيلي وتجعل من رجع الى المدينة يندم عن كونه فارق قبل الابان برد الشواطىء وسلامها وفي شهر نوفمبر فقط واحيانا دفعة واحدة — يظهر البرد لاول مرة · وهنا — كما لاحظنا في بداية الصيف نلاحظ فاصلا واضحا بين الفصول (معدل نوفمبر ١٦) فهكذا يدوم الفصل الحار الذى يفوق فيه معدل الحرارة ٢٠ درجة خمسة اشهر من جوان الى اكتوبر وتوافق ثلاثة الاشهر الاولى منه فصل الجفاف الذى ينتهي في منتصف سبتمبر فتلوح السنة اذا مقسمة الى قسمين من الحيثية الحرارية كما من جهة الامطار لا وجود لفصول متوسطة بينهما ·

على انه لا يوجد تطابق تام بين الحيثيتين الحرارية والمطرية كما يظن عادة — فالصيف يستمر بعد الامطار الاولى من شهر سبتامبر واكتوبر وقد تجتمع الحرارة والامطار مدة وفي ذاك غنم للمزروعات وذاك فصل البذر

ولكن اذا ما تمادى فصل الجفاف وبقيت السماء صافية فلا تمنح امطارها الا في شهر ديسامبر تعكرت حالة الصابة كلها ·

وفي شهر نوفامبر يدخلها الزمهرير الجنوبي الغربي او الغربي في فصل البرد · وينحدر معدل الحرارة الى ١٢،٢ في ديسامبر و ١٠،٨ في جانفي آخذا في الصعود الى ١١،٢ و ١٢،٧ في فيفرى ومارس بالغا ١٥ في شهر افريل

فهكذا يعقب خمسة اشهر الفصل الحار ستة اشهر من فصل فاتر قد يصب فيه برد قارص يعض العظام ينحدر من الظهر التونسي وفي شهر ماية يشاهد من جديد ما شوهد في اكتوبر ، طقس مرتفع الحرارة (معدل ١٩) تصحبه امطار تتفاوت قلة وغزارة — وتلك فترة عصيبة على الصابة اذ هي متعلقة في تلك الاونة ايضا بتقلبات السماء — فاهم الفترات للفلاحة التونسية هاتان الفترتان اللتان تجتمع فيهما الحرارة والرطوبة ومن التعادل غير الثابت لهاذين العنصرين ينتج خلل في انتظام الصابات وذاك يقوى كلما تقدمنا نحو الجنوب اى كلما ازداد اختلال التعادل لفائدة الحرارة

ولكن كيف توزع الامطار على السنة ؟

فاذا نحن نعلم ان المعدل المطرى بتونس ٤٢٠ مم ان هـذا المعدل لا يوافق الواقع اذ قد حسب بالنسبة لمدة خمسين سنة (١٩٠١ — ١٩٥٠) ، فلا يكون هذا المعدل موافقا للواقع الا في ثلاث سنوات فقط

واذا ما اردنا الوقوف على توزيع الامطار بحسب الفصول يكفــي ان نسال نظام الرياح المطيرة ٠

واذا ما اردنا الوقوف على اهمخاصيات هذا النظام ليس من اللازم ان نتصفح ما رسم من خطوط بيانية للرياح بالمحطة الجوية للمنوبية ولا ان ندرس الرياح الليلية التى سجلتها المنارات البحرية

فكل تونسى يريك اتجاه بيت النو : اى الشمال الغربى ــ والشمال الغربى ليس هنا هو اتجاه غالب الرياح فحسب بل هو اتجاه اهم الرياح المطيــرة ٠ ومن سوء الحظ ان الرياح الغربية والشمالية الغربية التى تجرى منذ سبتامبر حاملة رطوبة الحوض الشرقى من البحر الابيض قد لقيت قبل ان تصل احواز العاصمة حاجز التل الشمالى الذى خففها من حمولتها ــ وما ذكرنا بالنسبــة الى عين الدراهم وباجة يعاد بعينه بالنسبة لجهة الحاضرة ٠

وتبتدى السنة الفلاحية عند اولى امطار سبتامبر فمعدل الامطار الذى كان فى اوت ٥ مم يرتفع دفعة واحدة الى ٣١ مم في سبتمبر ويتصاعد بنظام (الا فيما يخص ديسامبر ٣٦ مم) بالغا اوجه في جانفى (٧٦ مم) ٠ ثم يكــون الانحطاط اسرع بين افريل (٣٥ مم) وماية (٢١ مم) وبين ما يسمى بالصيف جوان وجويلية واوت الذى يكون مجمــوع الامطار فيه ٢٤ مم ــ وما هذه الا معدلات اعنى اعدّادا نظرية ٠ واذا ما اردنا ان نقرب الواقع بصفة ادق ينبغى ان ننظر الى عدد ايامالمطر او قل عدد ساعاتالمطر ــ ففى ثلاثسنوات لوحظت ٧٨ ساعة من المطر فى الشتاء مما مكن من حساب معدل الغزارة المطرية فــى ساعة من الشتاء بمقدار ١،٦ مم وفــى الربيــم ٢ مم وفى الخريف ٢،٨ مــم وفى ذاك ما يوضح خاصية امطار الخريف من غزارة التهاطل ٠

اذا ، نظام الامطار هذا يتصف بضعف المعدل السنوى وتوزيع فصلى يوافق نظام البحر الابيض اعنىانه منتظم فى عدم الانتظام٠وهنا كما فى سائرجهات البلاد تسيطر مشكلة الماء ــ على ان جوار مياه مجردة والوادى الكبيــر وعيون زغوان ووجود طبقة مائية لا باس بها تحت الارض مكنت مجموعة العاصمــة التونسية من التغلب على هذه الصعوبة والقيام بمؤونتها من هذه الناحية(١)

---

(١) لا يخولنا ضيق المجال هنا ان ندرس مشكلة الماء والمزارع بجهة العاصمة التونسية ٠

٢ موقع تونس واحوازها ونموها (١)

« ان بذور المجتمعات البشرية المنتشرة هنا وهناك موكولة للصدفـة قـد تطرح احيانا وهي تنتش وتنمو اذا ما كانت الظروف ملائمة لها (٢)

وجذور تونس لم تطرح اذ كان في الموقع الحالى للمدينـة ـ قبل اختطاط قرطاجنة نفسها في القرن التاسع قبل الميلاد ـ مجموعـة بشريـة يظهر ان اصلها يرجع الى ما قبل العصور التاريخية ٠ فاذا كانت تونس مركزا من اقدم المراكز في العالم فذاك لان موقعها توفرت فيها شروط ملائمة اتم الملائمة لذلك

فلو كبرت خريطة هذا الموقع ونظر اليها لوجد فيها تقريبا مزايا قرطاجنة التى تبعد عنها بضع عشر كيلو مترات

تزعمت قرطاجنة على مضيق صقليةالذى كان يمر منه-وبقي يمر حتىالان تيار المواصلات بين حوضى البحر الابيض فصارت لها رقابة هـذا التيار وبـذاك كانت الخصم الالد لرومة التى كانت ترمى الى التزعم على تجارة البحر الابيض ولكن المستعمرة البونيقية الحديثة كانت منحصرة في شبه جزيرتها محصنة

---

(١) فيما يخص تطور مدينة تونس ينبغى ان يرجع الى الفصل : « تونس » بتحرير ر ٠ برنسفيك بدائرة المعار فالاسلامية ـ وهناك لوحة قريبـة مـن الكاملة فيما يخص القرون الوسطـى صورها المؤلـف نفسه فى « البربريـة الشرقية فى عهد الحفصيين من الاصل الى نهاية القرن الخامس عشر » (باريس ١٩٤٠) ج اص ٣٣٨ ـ ٣٥٧ ـ وهناك ارشادات قيمة ـ خصوصا فى الفن المعمارى بتحرير ج ٠ مرسى كتابه « تونس والقيروان » (سلسلة « مـدن الفن الشهيرة » باريس١٩٣٧) وفى كتابه «تاليف فى الفن الاسلامي » باريس ١٩٢٧ ٠ وقد تلتقط بعض الجزئيات الضئيلـة القيمة فيما يخص نمو الحـى الاروبى ، فى التاريخ القصصى الذى قد يخطىء احيانا ويدعى اسـم « تاريخ مدينة تونس » عرضـه ر٠ دسور (الجزائـر ١٩٢٤) ويوجد فـى سلسلة الهداة جوان: فى طريق تونس والجزائر وطانجة ، بقلم لويس بياس رسوما للمدينة الاروبية فى بدايتها ٠ وفى الواقع لم يخرج بعد ملخص عام للتطور المدنى بتونس ـ وما غرضنا هنا بالطبع الا التعرض بسرعة للمحة من ذلك

(٢) اليكس : المسكن البشرى ـ دروس التبريز ـ لم تطبع ـ ليون ١٩٤١

وراء اسوارها العتيدة التى كانت تقطع هذا الراس من الارض بين بحيرة تونس وبحيرة اريانة فكان لها موقع دفاعى وتجارى كان لمنافستها رومة ان تغبطها عليه ·

فكانت فى الواقع فى اعماق مجرى تنصب فيه التيارات التجارية لمعظم الشمال الافريقى · فكانت معظم الطرقات توصل الى قرطاجنة ، ونحوها تتجمع كافة طرقات الجنوب التى بعث بها الهيكل الجبلى نحو الشاطىء مبقية

مجازا ضيقا بين جبل بوقرنين وبين البحر ـ ونحوها يصل طريق المرور العظيم الواصل الى الجزائر والمار بجانب الباقر اداس وكذلك الطريق المار من وادى مليان المتعمق فى قلب الظهر التونسى ، فموقع قرطاجنة نقطة تجمع حتمى للطرقات البرية والبحرية فكان من المقدر له ان يحمل مدينة من اعظم مدن العصور الخالية واقواها ، وليدة ما للتبادل التجارى من غزارة كما كان الشان بالنسبة لسائر المدن العظام ·

ولكن ملتقى الطرقات لم يكن فى الواقع حيث كانت قرطاجنة بل حيث انشئت المدينة القديمة المدعوة تونس ·

فعلى هذه القطعة من الارض التى لا يفوق عرضها الكيلومترين الا قليلا ، الممتدة بين بحيرة تونس وبحيرة السيجومى كانت تصل شرايين تمر من سهل ماطر ومجاز مجردة ووادى مليان ومجاز بوقرنين شرايين تنصب منها من الشمال والغرب والجنوب دماء افريقية وثروتها · ومن هناك كانت تنبعث النفحات الزكية لحضارة البحر الابيض · وقد اشتم الاحساس التجارى للفينيقيين ما لهذا الموقع من مكانة وحيدة ، هذا الموقع الذى كان ينبض فيه قلب افريقية بجوار هذا البغاز المشابه للدردنيل بالبحر الابيض ولكنه اشتم ايضا انه على بعد بضع كيلومترات من مفتر قالطرقات هذا كان موقع قرطاجنة على شبه جزيرتها ليتوفر فيه لقوم منالتجارة كانوا يكونونه من قابليةللدفاع ما لم يكن لتونس ـ ومما زادهم تاثرا ان كان لمركزهم الجديد ما يشبه شبها غريبا ما لوطنهم التيرينى من الهيئة والنظام الطبيعى

فتونس او تونس التى قد يكون من التجازف ان يكون اصلها مصرى كانت موجودة هكذا قبل اختطاط قرطاجنة · وما كانت بلا شك الا قرية اهلية بسيطة تعير مدينة المهاجرين المجاورة لها اليد العاملة وتعتبر بالنسبة لها مركزا مقدما يدفع عنها كل غارة آتية من افريقية التى لا يمكن الوثوق بها

وبقيت لها هذه الوظيفة الثانوية طيلة القرون الى ان قـدم البلاد قوة مرتكزة ـ على الاقل فى بدايتها ٠ على عتادها البرى اكثر مما كانت تعتمد على سلطانها البحرى هى قوة العرب

فاختط المالكون الجدد لافريقيا مدينـة القيروان سنـة ٦٧٠ قبل سقوط قرطاجنة سنة ٦٩٨ ٠ وكان لهذا السبق فـى الوقت اثره اذ اخـر الزعامـة عن تونس طيلة اربعة قرون ـ على ان الحسن بن النعمان بعد ان فتح العاصمة المسيحية ادرك ما لموقع تونس من مزايا اقتصادية وحربية اذ يقيها هذا الموقع وراء بحيرتها ، من كل غارة او غرة اتية من البحر كما تحميها من جهة الارض سلسلة من المرتفعات تشرف على بحيرة السلجومى ـ فاشاد فى مكانها قاعدة العاصمة المقبلة للبلاد الافريقية ، واختط هناك ميناء كلف الاقباط ببنائها ، اذ بقيت بحيرة تونس التي ارسى فيها اسطول بيلزار قبل ذلك الوقت صالحة لايوا ءالبواخر ٠

وبالرغم عن ذلك كله تقدمت القيروان ثم المهدية على تونس ٠ الا انها اخذت تظهر فى مظهر المدينة العظيمة ـ فما كسبته من المدنية طيلة القرون وما غنمته من مجاورة قرطاجنة الشهيرة لها كل ذلك جلب اليها مهاجرين استوطنوها وقد اضطر احيانا ملوك الاغالبة ان يستقروا بتونس لما لقوه من اهاليها من حب للحرية والمناقشة والانتقاد ٠ فذاك كان شان ابو ابراهيم بن الاغلب (٨٥٦ ـ ٨٦٣) الذى اشاد فى قلب المدينة الجامع الاعظم جامع الزيتونة ويقال ان جزءا من هذا الجامع بناه الوالى الاموى ابن الحطاب سنـة ٧٣٢ ـ وان اتساع هـذا الجامع ـ ثانى جوامع افريقية بعد جامع القيروان ـ ليدل دلالة واضحة على ما كسبته المدينة الجديدة من الاهمية : وكان ذاك اساس النواة الاصلية ـ وحلاها ولاة القيروان بالاسوار الا ان الثورات المتوالية التى قام بها اهالى تونس ادتهم فى القريب الى هدمها ٠ ولم يكن رضوخ تونس للفاطميين فى القرن العاشـر ابلغ واقوى ، فقام ا ذاك ولى صالح ، صار فيما بعد (سلطان المدينة) الروحى هو سيدى محرز (١) تاثرت به تونس فنمت واتسعت وتنظمت ٠ فاصلحت المدينة اسوارها وامتدت نحو هضاب القصبة ٠

---

(١) يجعل كازاس (« تاريخ يهود تونس ») وبعد د سور (« تاريخ مدينة تونس ») سيدى محرز من اهالى القرن الثانى عشر اى يجعلانه يعيش بعد وفاته بقرنين ٠

اين كان الموقع الحقيقى للنواة الاولى لمدينة تونس؟ يظهر ان تونس كانت تحل فى القرن الحادى عشر الموقع الحالى (للمدينة) باجمعه اعنى ان اسوارها التى كانت تمتد على طول الهضبة المكونة لقلعة القصبة كانت تتبع شوارع باب البنات وباب المنارة والباب الجديد وباب الجزيرة وباب البحر وباب قرطاجنة وباب السويقة كل منها به باب للمدينة لم يبن البعض منها او لم يصلح الا بعد ذلك الوقت ، شان الباب الجديد وباب المنارة ٠

والبكرى يذكر هذه الابواب الخمسة فى وصفه للمدينة المشكوك فيه لما فيه من التحامل وكان ذلك قبيل زحف بنى هلال على البلاد فى القرن الحادى عشر وكانت تقام اسواق بابواب المدينة كباب السويقة ـ السوق الصغيرة حيث بني سيدى محرز زاويته بالقرب منه ٠ والى اى حد ينبغى ان نثق بالخبر القائل بان (سلطان المدينة) ، ذلك الرجل الصالح ، حمى الجالية اليهودية المستقرة بقرية الملاسين ، وخصص لها فى قلب المدينة حيا سمى الحارة فى مكان حى اليهود الحالى ؟ انه من الصعب ان نجيب على هذا السؤال ٠

وحوالى سنة ١٠٦٠ ارتقت تونس لاول مرة الى مرتبة عاصمة البلاد ، بعد الفوضى التى حطت اوزارها بعد الزحف الهلالى ، فاقام الوالى الحمادى ابن خراسان دولة قامت طيلة ما يقرب من قرن بشؤون مملكة صغيرة ٠

وبالرغم عن كل شىء شرع فى عدة اشغال لتعمير البلاد وحمايتها ٠ ومنذ ذلك الوقت بلا شك فاضت المدينة خارج اسوارها العتيقة من ناحيتى الشمال والجنوب وانشىء ربضان ، ربض باب السويقة قرب سوق الحلفا الذى صار بطحاء الحلفاوين بجوار سوق التبن بالتبانين ٠ والربض القبلى ربض باب الجزيرة وهو افسح من الاول ازدحم فيه اهالى الجنوب واهالى جزيرة الوطن القبلى ٠ ثم سقط آخر بنى خراسان امام النرمانديين المحتلين لصقلية فاقبل خليفة مراكش الموحدى سنة ١١٥٩ وانقذ تونس مما كان يهددها من الخطر المسيحى وجعل منها قاعدة مقاطعة تنطبق تقريبا على البلاد التونسية الحالية ٠ ثم دخل تونس سنة ١٢٠٣ بنو غانية قادمين من جزر الباليار فبعث سلطان مراكش سنة ١٢٠٧ واليا على تونس مطلق النفوذ لكى يرجع المياه الى مجاريها ، فهذا ابو محمد الحفصى الذى تدارك الحالة بالفعل ٠٠٠ ولكن لفائدته الشخصية ـ ودانت تونس عدة قرون للعائلة الحفصية فعرفت تونس الاسلامية فى عهدها ازهر ايامها واجمل اوقاتها ٠

وجعل ابو زكرياء ، اول الحفصيين ، من قلعة القصبة المشرفة على المدينة واحوازها الغربية ، مسكنه داخل المدينة ، كما انشا على الصفح الشرقى من الجبل الاحمر براس الطابية واريانة جنة ابى فهر حيث المصطافات والمنتزهات الضخمة والاجنة الغناء التى شغف بها ابن خلدون واثارت اعجابه - واجرى ابو زكرياء المياه وانشا البركات مصلحا حنايا حدريان العتيقة التى هدمها الوندال فاوصل ماء جبل زغوان حتى جامع الزيتونة .

وعززت حصون المدينة خصوصا بعد ما طرقها من الفزع اثر الحرب الصليبية التى قام بها القديس لويس (١٢٧٠) . وتعزى اسوار الارباض الى ذلك العصر ولو كان تاريخ اول نص يذكرها سنة ١٣١٧ وفتحت ابواب جديدة فى سور المدينة منها الباب الجديد وباب المنارة (القرن الثالث عشر) فتاكد بذلك اندماج النواة الاولى للمدينة بارباض باب السويقة وباب الجزيرة حيث كان يتزاحم اهالى البرية وكان لبناءاتهم طابع برى وكانت تحيط باسواق كانت تنصب بالشوارع التى بقيت اسماؤها ومواقعها حتى الان .

ففى الربض الشمالى كانت سوق الحلفا (الحلفاوين) والتبن (التبانين) وبالربض الجنوبى سوق الغنم (بطحاء الغنم) والخيل (المركاض) . وكانت الصناعات اللازمة لاهل البرية المضيقة للمدينة تحل اطرافها والاحياء المحيطة بها . فهناك موقع صناعة الفخار بقرية الملاسين والحدادة بالباب الجديد (ويدعى باب الحدادين) و (السراجين) بقرب باب المنارة و (الصباغين) قرب باب الجزيرة . وتكونت اسواق صغيرة خارج ابواب المدينة نفسها ، فقرب الباب الجديد سوق الاسلحة والبلغاجية وسوق العصر حيث يباع الاثاث القديم . وقرب باب البحر سوق الحوت . وبقى حتى اليوم موقع هذه الاسواق وكثيرا ما بقيت قائمة بوظيفتها السابقة رغم تطور المدينة وتوسعها .

وقد ترشدنا تواريخ انشاء الجوامع والمدارس ارشادات مفيدة فيما يخص امتدادات المدينة (١) فاختطاط جامع الهواء مثلا والمدرسة التوفيقية فى القرن الثالث عشر بالقرب من بطحاء الغنم قد يفيد ان توسع الربض الجنوبى كان

---

(١) قد يستفاد من كتاب الجنرال محمد بلخوجة « تاريخ معالم الدين فى الماضي وفى الوقت الحاضر » (تونس ١٩٣٩ - ٢٥٣ صحيفة) وقد استمد م. ب. قرانشان من النص العربى فصلا صغيرا بالفرنسية (المجلة التونسية : ثلاثة الاشهر الاولى والثانية ٩١٤٣ ص ٢٣٢ - ٢٣٧)

متجها الى هذه الناحية بينما تفيد الاختطاطات الجديدة لجوامع ربض باب السويقة يدل على نمو متاخر فى هذه الجهة • ومع ذلك فان هاذين الربضين ــ رغم بعض الضدية بينهما التى كانت تظهــر مثلا فى قلة التصــاهر بينهما ــ ان هاذين الربضين كان لهما زمن الحفصيين من الاهمية ما دعا الى بناء اسوار جديدة فى موقع السور الحالى خصوصا وقد استقر الاندلسيون فى هذه الاحياء الخارجية فصار لهاذين الربضين كثافة فى السكان تضاهى كثافة المدينة •

وامس كاليوم كانت هذه الاسوار تفتح بباب الخضراء او بباب الخضرة وباب سعدون وباب العلوج وبينهما باب اندثر يدعى باب الاقواس • وكان السور يصل القصبة ثم يستمر الى باب سيدى قاسم او باب المنصور وباب القرجانى وباب الفلة وباب عليوة • ولكن كيف كان يصل السور الجنوبى سور الربض الشمالى بين باب الخضراء وباب عليوة ؟ ليس لنا فيما يخــص ذلك ارشادات مدققة ويظن برنسفيك انه لم يكن يقى الربضين من الناحية الشرقية سوى (مستنقعات واوحال طرف البحيرة) • الا انه لم يكن فى هذه الوقاية ما يكفى والاقرب على الظن ان سور الربضين كان يتصل بسور المدينة بجدار بين باب الخضراء وباب قرطاجنة وبين باب الجزيرة وباب عليوة • وقد يكون هذا الجدار مكونا من قفا الدور الذى لا مفتح فيه •

ومهما يكن من الامر فان وجود اسوار جديدة يؤكد ان المدينة اتسعت وتضخم عدد سكانها ــ على انه لا تعوزنا الشواهد اذا ما اردنا الاستشهاد على ذلك ــ وقد صارت تونس احدى العواصم الاقتصادية والفكرية فى العالم الاسلامى ــ ويقدر ابن خلدون عدد سكانها فى نهاية القرن الرابع عشر بمائة الف نسمة ويذكر ان عدد سكانها كان يفوق عدد سكان القاهرة • ثم بعد قرن يجعل ليون الافريقى لتونس عشرة آلاف من مواقد النار ثلاثمائة منها بربض باب السويقة والف بربض باب الجزيرة •

وتضخم السكان هذا الذى يبالغ فيه احد رحالة القرن الخامس عشر فيجعله ٨٠٠٠٠٠ نسمة (١) لهو احسن مرآة للنشاط التجارى بحاضرة تونس منذ جعل منها الحفصيون عاصمة البربرية الشرقية ــ فهم نظموا منذ استتباب الامر لهم حارة الاسواق فى قلب المدينة • فحول الجامع الاعظم انتصب سوق الكتبيين والفكة (الفاكهة) والعطارين وسوق القماش والقشاشين وسوق الصاغة • ثم

(١) برنسفيك : الكتاب المذكور ص ٣٥٦

نشات اسواق اخرى خصوصا فى القرن السابع عشر منها سوق للصوف (سوق الجرابة) وسوق البشامقية وسوق الباى وسوق الرقيق بالبركة وسوق الترك وسوق الشواشية. وكان ذاك عهد يوسف داى لما اتت به هجرة الاندلسيين من عظيم التنشيط للبلاد ٠

وكان هؤلاء المهاجرون ياتون البلاد دفعات متوالية منذ القرن الثالث عشر كلما تقدمت جيوش المسيحيين طاردة لمسلمي اسبانيا، وكانت آخر موجة سنة ١٦٠٩ وهى اعظم الموجات واهمها فدعا ذلك الى احداث حى كامل قرب الحلفاوين يدعى حومة الاندلس بينما تجمع فى المدينة نفسها بالقرب من باب المنارة حى ثان يمتد بنهج الاندلس ، ومن الطبيعى ان تنفق صناعاتهم من صنع الشاشية ومنسوجات الحرير والخزف ٠ويذكر لنا ابن ابى دينار القيروانى ذاك الصانع البارع فى الخزف ، سيدى قاسم الجليزى ، الكائنة زاويته بقرب سيدى قاسم وفيها حفظت نماذج رائعة من زليج الخرن الخامس عشر ٠

وتاثرت التجارة خاصة بتقاطر التجار الجانوية ومن اهالى بيزة ومرسيلية حيث كان لهم منذ القرن الثالث عشر بالقرب من باب البحر « فندق » خاص بهم ومعبدو مخزن للبضائع ومحلات للسكنى ، فخارج المدينة ، بين باب البحر والميناء ، بقرب التمثال الذى كان لجول فيرى ، انتشرت فنادق التجار المسيحيين من جهتى الشارع الذى الف اهل المدينة الخروج اليه فى القرن الخامس عشر قصد التنزه والاستماع الى القصاص والمغنين،وسط اجنة البقول وروائح البحيرة الذى اشتهرت منذ ذاك العهد ٠ فكانت نواة المدينة الاروبية التى لم يكتب لها حقيقة النشوء والنمو الا منذ انتصاب الحماية ٠

وظهرب اولى المدارس بتونس فى القرن الثالث عشر وكان تعددها حجة على ما كان للعاصمة الحفصية من النهضة الثقافية فكانت تونس محط رحال الثقافة بالمغرب باسره ثم اخذت انوار تونس فى التضاءل فى عهد آخر بنى حفص الذين ارتكبوا افدح الخطا بارتباطهم باسبانيا المسيحية بعد احتلال شارل الخامس لتونس فى جويلية ١٥٣٥ ودام نصب الحماية هذا حتى احتل الاتراك تونس وحلق الوادى سنة ١٥٧٤ ٠ فانقرضت هكذا الدولة الحفصية وصارت تونس عاصمة مملكة باشوية كما كانت مملكة الجزائر وطرابلس وكان عصر خلافات واضطراب مرت به وارثة قرطاجنة ، ثم انطفا شيئا فشيئا سلطان الدايات فى البدء سنة ١٥٩٠ والبايات فيما بعد سنة ١٧٠٥

ومن حسن الحظ بقي العصر الاندلسي في العاصمة التونسية كما بقي في البرية حافظا للنشاط الصناعي والفلاحي ـ وقوى البايات تحصينات المدينة واصلحوا الاسوار القديمة وعززوها بقلاع جديدة وبروج حديثة خصوصا في عهد حمودة باشا (١٧٨٢ ـ ١٨١٤) الذى نظم من جديد ما للعاصمة من وسائل الدفاع فصار لها بعديد ثكناتها صبغة مدينة عسكرية ـ واجتمع حي تركي خصص للادارة ولاعلى الموظفين بالشمال الغربي من المدينة بجانبي نهج الباشا وسيدي ابن عروس بين دار الباي وباب السويقة ـ وكان هناك اهم دولاب للحكم ، الديوان ، حيث انتصبت المحكمة الشرعية حتى عهد قريب جدا . ونظمت عدة اسواق ، خاصة في عهد يوسف داى (١٦١٠ ـ ١٦٣٧) وكان من انفقها سوق الترك للخياطة ـ وظهرت المقاهي وتعددت المساجد بالربض الشمالي وانتشرت المدارس لايواء الطلبة وبنيت السبل العديدة تهدى ماءها للمارة ـ وكثيرا ما كانت هذه الاثار المعمارية تحمل طابع اليد العاملة الايطالية . وكان عدد المسيحيين من عبيد وتجار يزداد يوما فيوما .

وحل الحي الاوروبي داخل السور جوار باب البحر (نهج فبريكات الثلج ، ونهج الديوانة القديمة ونهج الكمسيون) ثم خرق بسرعة اسوار المدينة. فهذا ليون الافريقي يسجل لنا ذلك في اوائل القرن السادس عشر : « وتكون ربض آخر خارج الباب المدعو باب البحر وهناك استقر التجار المسيحيون الاجانب من جانويين وبندقيين ومن اهالي قاطالوني ، ولكن لكل منهم دكاكين ومغازات ووكالات بعيدة عن محلات الاهالي العرب » . الا ان هذه الصورة من المدينة الاوروبية بقيت في صورة نواة فحسب حتى الحماية . نعم ان دكاكين التجار والمخازن المعدة لوسق البواخر والمستودعات والحانات تشتتت بعض الشيء خارج الاسوار ولكن محلات السكنى بقيت مجتمعة في حي اوروبي داخلي حول « فندق الفرنسيين » (١) وظهرت بعض الكنائس الصغيرة خارج المدينة ، واشيد معبد في بداية القرن السابع عشر بالمقبرة الكاثوليكية ، معبد القديس انطوان (٢) واشيد على انقاضه سنة ١٨٨٢ كاتدرائية تونس التي لم

(١) انظر ب. قرانشان : فندق الفرنسيس : المجلة التونسية نصف السنة الاول ١٩٤٣ ص ١٨ ـ ٢٢

(٢) قرانشان : كنيسة القديس انطوان : مجلة تونسية ١٩٤٣ ص٥٨ـ٦١

تتشكل بشكلها الحالى الا سنة ١٨٩٧ ، وخارج باب قرطاجنة ، بمقبرة البروتستان انشئت الكنيسة الانقليكانية • على ان المدينة الاوروبية لم تشرع فى النمو والامتداد الا منذ ١٨٦١ حيث انتقلت قنصلية فرنسا من فندق الفرنسيس للعمارة التى اسست امام الكاتدرائية والتى صارت سنة ١٨٨١ مركز السفارة العامة • وحتى ذلك الوقت كانت القنصلية الفرنسية الجديدة آخر عمارة وصل اليها الحى الاوروبى فى اتجاه البحيرة • واحاطت انهج باسوار المدينة منها نهج المالطيين ونهج الجزيرة فسرعان ما صارت هذه الانهج انهجا عامرة كثيرة السكان طابعها طابع البحر الابيض ، كثيرا ما يشاهد فيها قطعان الخنازير والمعز سائرة مختلطة بالمارة • وعلى الشارع الذى صار فيما بعد شارع فرنسا اشاد ثريى البلديين التونسيين قصورا صغيرة ذات طابع ايطالى • وفى الاراضى الخالية حيث سيختط فيما بعد نهج ايطاليا ونهج البلنج بنيت بعض المصانع واقيمت مدبغة • وسنة ١٨٧٢ اشادت شركة وابل واى محطة للسكة الحديدية الواصلة بين تونس وحلق الوادى والمرسى وكان موقعها فى ملتقى الشارعين اللذين سينشئان فيما بعد ، شارع روسطان وشارع رومة • الا ان الحى الاوروبى بقى فى حكم المعدوم حتى انتصاب الحماية •

وبعيد انتصاب فرنسا بالبلاد انشا الاباء البيض على الشارع الصائر شارع باريس مدرسة القديس شارل التى سميت فيما بعد ليسى كارنو •

ومنذ ١٨٨٤ رسمت تصميمات الحى الاوروبى وجعل له شارع فرنسا وبطحاء جول فيرى (شارع بورقيبة الان) كمحور تقطعه سلسلة من الانهج والشوارع المتوازية اتجاهها من الشمال الى الجنوب مكونة مجموعات من البنايات فى شكل مربعات الشطرنج • وانتشر هذا الحى بسرعة رائعة رغم آراء الكردينال لافيجرى الذى كان يتمنى ان يرى تونس الاوروبية تبنى على انقاض قرطاجنة وكانت المدينة تنمو كالفقاع بين البحيرة والاسوار عابثة باراء مهندسى البناء الذين كانت فكرتهم الا يكون المحور الاساسى هو بطحاء فرى التى لم يكن لها قيمة تجارية بل شارعا يشك المدينة شكا بين الميناء والبلفيدير واصلا طرق القمح العظمى فى الشمال (فى العصر الحديث شارع جان جوريس وشارع مرسلان برطلو) بينما يصل شارع آخر بين الميناء وباب عليوة وطرق الجنوب (شارع الصادق باى) • ولكن فى مجال عرضه كيلومتر وطوله اربعة تقريبا ، بين الشبكة المنظمة للانهج المتعامدة جعل عرق السودانيين المرزمين

لاساس المحلات المغمور بالاوحال (انظر قى دى موبسان: الحياة المتجولة) جعل هذا العرق فى الامكان انشاء حى عظيم الارجاء كلما تقدم به نحو البحيرة بنى هذا الحى على اراض وحلية ، كون رواسبها المجهود البشرى وكانت عرصات الاسمنت المسلح المكونة لهذه الاسس مرتفعة الاثمان ولم يمنع ذلك المحلات المرتفعة فى شكل اميركى من اعلاء طبقاتها العديدة : وضاق هذا المستطيل بما رحب بالمدينة الاوروبية وارغمت الى الانتشار باحياء اخرى بالاحوازالقريبة التى التصقت اخيرا بالمدينة مع كونها احتفظت باسمائها الخاصة ٠

ففى الجنوب الغربى ، على صفحات هضبة المنوبيـة واصلة حتى المقبـرة الاسلامية المعروفة بالجلاز ، نشات ضيعات حملة واجنة غناء فى حى منفلورى الذى كان فيه من الفسحة اكثر مما كان للمدينة باسرها وفى هذا الحى يشرف الرائى على تونس باجمعها ٠ فكان حى البذخ يسكنه اعلى الموظفين والاثرياء من الاسر الفرنسية ٠ ثم كانت احياء بلفو ودوبسفيـل ، احياء وضيعة سكنـو العملة من شغالى محطة السكك الحديدية القريبـة منها ٠ ولكن المدينة قـد مدت فروعها الغاصة شديدة الكثافة نحو الشمال ٠ فهذه احياء صان سوسو ولافايات وجان دارك والبلفيدير وسيتى جردان وهذه فرانسفيل وموتوالفيل وبوسييت على صفاح البلفدير وقد اتصلت بعض الشىء بالاحياء الاولىمع كونها احتفظت بخضرتها ونضارتها وهدوءها مما ابقى لها صبغة الاحواز ٠ وفـى الشمال الغربى سانت هنرى يصل فرنسفيل بباردو ٠

وكان حظ العنصر الاسلامى حتى السنوات الاخيرة ضئيلا جدا فيما يخص هذا التوسع نحو الاحواز القريبة ولكنه تدارك الامر منذ خمس عشرة سنة ٠ وفاض العنصر اليهودى عن الحارة نحو الشرق ، جهة المقبرة اليهودية ، نحو نهج الحلفا وشارع لندرة وآخر شارع باريس ٠ وخارج المدينة صارت مراكز بوسييت وحلق الوادى واريانة والمنزه مراكز يهودية فى جملتها ٠

وكانت الاحواز الشمالية ، خصوصا شواطىء المرسى وسيدى ابى سعيد والكرم ، مصطافات للمسلمين تهجر فى الشتاء ٠ على ان عدد السكان القارين قد ازداد فى السنوات الاخيرة زيادة لا باس بها ، تسبب فى ذلك ازمة المساكن والتطلع الى الهواء الطلق ومما اعان على ذلك كثرة الارتال الكهربائية لشركة تـونس حلق الوادى والمرسى ٠

وتطورت الاحواز الجنوبية عين التطور كما وقع برادس المركز الاصطيافى

وحمام الانف مركز الاستحمام حيث تحول السكان الوقتيون فى الصيف او الشتاء الى سكان قارين ثابتين • وشمالى المدينة نفسها انشئت مراكز بناءات رخيصة الثمن للموظفين التونسيين المسلمين بين فرانسفيل والبلفدير بالعمران ثم بباردو وغرس سليم والتوفيق والملاسين والمنزه • وفى هاته الاحواز الشمالية والجنوبية ظهرت مراكز فرنسية بقرطاج والكرم وسان جرمان وماكسولا ومقرين •

وعلى اثر الحرب (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) ظهرت حول العاصمة قلادة من الخرب والاكواخ فانتشرت انتشارا مهولا وبعد ان كان انزواؤها شرقى البرجيل حيث تجمع سكان تعساء من القشاشين فاض سيلهم على الجبل الاحمر من الغرب من البلفدير الى الملاسين غربى المدينة • وتسببت الازمة الاقتصادية والمجاعات التي اجتاحت البلاد سنة ١٩٣٦ وبين ١٩٤٥ و ١٩٤٨ فى انبعاث سيل جارف من اهل البرية ادركهم الافلاس فقلعوا من اراضيهم واخرجوا منها فطلبوا النجاة من الغرق وعقدوا املهم فى النجاة على المدينة التى كثرت فيها اليد العاملة كثرة بليغة تفوق حاجياتها • فمن ١٩٣٦ الى ١٩٤٨ قدم العاصمة نحو ١٥٠ ٠٠٠ من السكان الجدد اتوها من جميع انحاء البلاد فتكدسوا فى اكواخ نشات كالفقاع على الجبل الاحمر (١) والملاسين (٢) •

فراى ملاكة الاراضى اراضيهم محتلة وبنى عليها اكواخ بين عشية وضحاها كما غابت مقابر المدينة تحت قش هذه الاكواخ • ومما اوقف هذه الهجرة بعض الازدهار الفلاحى الذى ظهر فيما بعد وخيبة آمال من كانوا يظنون انهم سيجدون الجنة بالعاصمة فلم يجدوا بها الا البطالة وما لوجهها من الفضاعة التي انسوها بالبرية •

وبينما صارت تونس واحوازها القريبة والبعيدة مجموعة بشرية ذات اهمية وثب تطورها الاقتصادى وثبة بعيدة الى الامام بعد ان اصلحت ميناؤها ووسعت ونظمت •

فالميناء التى اصلح البعض منها حمودة باشا بالبحيرة فى نهاية القرن الثامن عشر كانت تشتمل فى ١٨٨١ على مجاز قليل العمق يصلها بميناء حلق الوادى بواسطة قناة جرفت فى البحيرة فلم يكن ليعبرها سوى مراكب

(١) دردال والقليبى : النص المذكور •
(٢) ا• عطال : اكواخ الملاسين

لا يفوق تعمقها فى الماء المتر الواحد وكان لما كان اقوى منها من المراكب ان ترسى بحلق الوادى او بخليج تونس نفسه ٠

وقبيل الحماية عرضت عدة مشاريع على الصادق باى لانشاء ميناء جديدة (١) واعظم هذه المشاريع مشروع امير البحر موشز الرامى الى بناء مينا ءفى المياه العميقة المقابلة للموانى العتيقة لقرطاجنة فى خليج تونس الذى يتصور فيه ، بعد بحيرة بنزرت ، اجمل ملجا وامنعه فى افريقية كلها بين جبل طارق وبورط السعيد » (٢) ٠

وترك العمل بهذا المشروع الذى كانت تعززه حجج جغرافية واقتصادية والذى كان فى امكان ان يتحف تونس بمنفس بحرى مهم معتبر ، ترك هذا المشروع لاغراض سياسية اذ كان الخط الحديدى الموصل بين هذا المرسى الجديد وبين تونس ملكا لشركة انكليزية ٠

فدرس القنصل العام لفرنسا بتونس ، روسطان ، دسيسة ضد الشركة الانكليزية وبذلك ضد انكلترا نفسها فحصل من الباى على رخصة للشركة الحديدية عنابة — قالمة كى تبنى الميناء بتونس نفسها ٠ ويبرر هذه الفضيحة الفنية «التى اختطت ميناء فى اعماق مستنقعة من المياه ان كان الامر » حيث لم يتمكن الخط الحديدى الفرنسى من الوصول الى البحر ، لزم ايصال البحر نفسه الى هذا الخط » (٣) ٠

وبعيد الحماية شرع فى العمل بسرعة سنة ١٨٨٨ ودشنت ميناء تونس فى ٢٨ماية ١٨٩٣ — وكانت تشتمل على حوض مربع عمقه ٦،٥٠ م تصله بحلق الوادى قناة عمقها ٦،٥٠ ايضا طولها عشر كيلومترات عرضها ثلاثون مترا ٠ ثم زيد فى كبر الميناء خصوصا فى الفترة التى وليت الحرب ١٩١٤ — ١٩١٨ والحرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ ، وتفتح اليوم ميناء حلق الوادى على البحر بقناة عرضها ١٠٠ م عمقها ٨،٥٠ يمددها فى طول ٢٠٠٠ م فى البحر قنطرة طولها ٨٠٠ م ٠

---

(١) انظر مرسال كلفى : «مذكرات فيما يخص اصول ميناء تونس» مقتضب من (المؤتمر السبعين لـ ا٠ ف٠ ا٠ س٠ ماى ١٩٥١) تدقيق قيم للاغراض السياسية والديبلوماسية التى دعت بين ١٨٧٨ و ١٨٨٠ الى اختيار الموقع الحالى لميناء تونس ٠

(٢) انظر اعلاه ص ٣ (٣) انظر اعلاه ص ١٤

فهناك تقف البواخر العظام لوسق الحديد وسائر المواد الثقيلة منزلة مواد الوقود فمكن ذلك من تخفيف الازدحام من ميناء تونس. وترسى هذه البواخر فى حوضين كان عمقهما فى البدء ٨،٥٠ م ثم وصل بعد ذلك الى ١٠،٥٠ م وان التجهيز العصرى بميناء حلق الوادى ليمكن هذه البواخر من شحن اكثر من ٥٠٠ طن من الحديد فى الساعة ومن افراغ شحن اعظم ناقلات النفط فى اقصر وقت ممكن .

وقناة تونس نفسها تجرف دائما باستمرار فوصل بعرضها الى ٤٥ م وبعمقها الى ٧،٨٠ م بينما جرف احواض الميناء حتى عمق ٧،٥٠ م .

وبقيت ميناء تونس اولى موانى البلاد التونسية بالنسبة للمسافرين ولكنها ايضا اولى الموانى التجارية بالنظر الى قيمة البضائع المنقولة فيها وسنة ١٩٣٧ اشترت الحكومة التونسية من الشركات المكلفة بها موانى تونس وصفاقس وسوسة وكلفت بها مصلحة الموانى التى صارت فيما بعد مصلحة الموانى التجارية .

٣ - الموقع والسكان

المدينة انشاء صنعته يد الانسان فالعناصر المادية التى تضمن لها النجاح هى بالطبع العناصر التابعة لعلاقاتها مع العالم الخارجى والتي يتكون منها موقعها العام . ولكن العناصر التى يتوقف عليها انتشارها هى التى تكون موقعها المحلى

علمنا ان نمو تونس فى مختنق اساسى من البحر الابيض امام ملتقى حتمى للطرقات الارضية بافريقية انما ارتكز على موقعها العام . ولكن لم تكن هذه الوضعية الجغرافية هى السبب الوحيد فى رقيها ، فهناك عوامل اخرى ناتجة عن موقعها المحلى دعت الى مساعدة هذا المشروع على النجاح او الى عرقلته

ولكن هل فى الامكان ان نقف على اهمية هذا الموقع المحلى الذى فرضت بعث مواهبه عتبارات العلاقات مع لعالم الخارجى ، هل فى الامكان ذلك اكثر مما نشرف عليه من اعلى البلفدير ؟

من اعلى هذه القبة، تلك الجوهرة من جواهر الفن الاسلامى التى نقشها

ازميل النقاش فكساها لطافة الوشي ونصبها وسط جنة تتلاعب فيها الخضرة بسائر نغماته ، من هناك يعم النظر المدينة واحوازها

وفي جمال هذا المنظر حيث تونس البيضاء بمناراتها وقبابها وجباح سقوفها تلوح كانها تدفع المدينة الاوروبية — ذات البناءات المتحدة فى الذوق — نحو البحيرة ، هناك ندرك ان الاطار الذى اتخذته تونس لها كان لها احسن معين على الوظيفة الدفاعية للمدينة الجديدة

بين البحيرة من الشرق وسبخة السلجومى من الغرب ، كانت تونس محمية حماية عجيبة تقيها من كل خطر يهددها من ناحية البحر فلم يبق لها ضد العدوان البرى الا ان تراقب مختنقا ارضيا عرضه كيلو متران من الجنوب وثلاثة كيلو مترات من الشمال ، ومما يسهل الدفاع فى هذا المجاز الضيق ان احيط بمرتفعات بجبل سيدى بلحسن (٨٨ م) وجبل الخروبة (١٠٥م) من الجنوب يقيمان العسة على قطعة الارض التى يتسرب منها الشريان الذى يصل العاصمة بالوسط والجنوب ، ومن جهة الغرب هضبتا المنوبية (٧٧ م) والقصبة ، تشبهان هضبة الاكروبول باثينا ، فتبلورت المدينة حولهما ، ومن جهة الشمال الهضبة عدد ٥٣ التى اشيدت عليها قلعة فليفل ومرتفعات اخرى قبل اولى صفاح الجبل الاحمر (٣٢٨ م) وجبل النحلي (٢٣٦ م) كل ذلك تكون منه ترس منيع ضد كل هجوم من الشمال — فالهيكل الجبلى نفسه يقيم العسة واذا اضيف ذلك الى مزايا الموقع العام علم لماذا تقرر انشاء هذه المدينة وهى من اعتق المدن واكثرها سكانا بالقارة الافريقية .

واسرفت الطبيعة على هذه المدينة فاتحفتها من بديع الجمال بموقع يضاهي موقع نابلي وبثروات تحت الارض المجاورة لها تمنحها وتغدق عليها سائر المواد اللازمة للبناء .

ولكن اذا وجدت تونس ما حققت به الامال المنعقدة على موقعها وشكلها فلم يكن للوسط الطبيعي محاسن بدون مساو .

فالمدينة بقيت طويلا فى سباتها على صفحات القصبة ولم تفق منه الا دفعة واحدة فى بداية القرن العشرين بانشاء المدينة الاوروبية فضاق المجال بين البحيرتين امام المدينة فتوقف كثيرا من البداية لبناء المدينة على اراضي منقعية كان الصيادون يصطادون فيها البط الوحشى — فهناك من الناحية المناخية موقع عديم المزايا فهو حار ثقيل فى الصيف، ولهذا الموقع مساو اقوى

خصوصا لغلو اسس البناءات المرتكزة على ارض وحلية ، وله مساو اخرى من ناحية ضيق المجال ٠

ومن سوء الحظ ان الباعث السياسى الذى دعا كما رينا الى انشاء الميناء دعا ايضا الى بناء المدينة الاروبية بين اسوار المدينة والبحيرة ـ وامتدت مساحة المدينة بسرعة كبيرة تحتل احيانا اربع هكتارات فى العام (١٩٣٠) ومنذ ١٩٣١ صارت بطحاء قمبطا (شارع محمد الخامس)هى الحد لهذا الزحف نحو البحيرة ٠ فلم يبق للمدينة الاروبية الا ان تستطيل نحو الشمال الى ناحية اريانة وباردو ، فكان ذلك بسرعة عجيبة وانشئت مراكز عديدة للبناءات الرخيصة ـ وتحول مركز المدينة نحو الشمال فثارت انواع من المشاكل البلدية لتفريق اسواق التموين ومسائل الحمل ٠

فالمدينة العربية التى كانت مساحتها ٣٠٨ هكتارات سنة ١٨٨١ احاطت بها هالة مساحتها تساوى ٧ اضعاف او ثمانية اضعاف هذه المساحة وسادت فكرة المجموعة تونس العاصمة واحوازها القريبة على فكرة تونس ـ الحي الاوربى ٠

اما السكان فقد تبعوا فى الانتشار عين هذا النمو والتطور ٠

فاولى الاحصائيات للسكان التونسيين اجريت سنة ١٩٢١ واحصاء السكان الاوروبيين اجرى سنة ١٩١١ و اما فيما يخص الازمنة السابقة فليست الاتقديرات تخمينية بعيدة عن الواقع ٠ لقد شاهدنا ان ابن خلدون قدر ان عدد السكان فى القرن الرابع عشر ١٠٠ ٠٠٠ نسمة ٠ وسنة ١٧٣٦ كان قنصل فرنسا ، سان جرفي ، يعتبر ان « تونس بارباضها الاربعة كانت تعادل مرسيليا امتدادا وعدد سكان » ٠ ونحن نعلم ان مرسيليا كان عدد سكانها اذاك ١٠٠ ٠٠٠ ، وبعد ذلك بقرن قدر رنى ديفنتان سكان العاصمة التونسية بمائة وخمسين الف نسمة ٠

وازالت احصائيات ١٩٢١ ما كان يتابع هذه الافتراضات من الاوهام ٠ فكان سكان العاصمة ٥٠٠ ١٧١ منهم ٠٠٠ ٧٩ من المسلمين و ٢٠٠ ٢٢ فرنسي و ٦٠٠ ٤٢ ايطالى و ٠٠٠ ١٩ يهودى ، وسكان الاحواز ٠٠٠ ٨٦ منهم ٢٠٠ ٧٤ مسلم ٠ فصار مجموع السكان لتونس واحوازها ٠٠٠ ٢٥٧ بينما كان سكان الجزائر فى التاريخ نفسه لا يفوتون ٠٠٠ ١٩٣ ، فبقيت تونس اذا اولى عواصم الشمال الافريقى ٠

وبعد ذاك بخمسة عشر عاما ، حسب احصائيات ١٩٣٦ لوحظت زيادات

مهمة . فصار عدد سكان العاصمة نفسها ٥٠٠ ٢١٩ منهم ٥٠٠ ٩٣ مسلم و ٠٠٠ ٥٠ ايطالى و ٧٠٠ ٤٢ فرنسي و ٠٠٠ ٢٧ يهودى . وبلغت الاحواز ١١٢٤٠٠ منهم ٠٠٠ ٩٠ مسلم . وكان مجموع العاصمة واحوازها ٠٠٠ ٣٤٤ وكذلك الدار البيضاء .

ولكن اهم نمو وقع بين ١٩٣٦ و ١٩٤٦ فرغم الحرب وتخريباتها ان تونس العاصمة فى احصائيات ١٩٤٦ بلغت ٣٦٤٠٠٠ منهم ١٨٩٠٠٠ مسلم و ٦٦٤٠٠ فرنسي و ٦٠٠ ٤٦ ايطالى و ٠٠٠ ٣٤ يهودى اى كانت هناك وثبة قدرها ٠٠٠ ١٤٥ فى عشر سنوات للمدينة نفسها . وكانت الاحواز تساير هذا النمو فعمل الاحواز بلغ ٠٠٠ ٢٣٩ نسمة منهم ١٨٢٠٠٠ مسلم يسكن منهم ٩٠٠٠٠ بلديات الاحواز .

وبلغت مجموعة تونس الكبرى ٠٠٠ ٤٥٤ نسمة . هذا ولو فرض ان هذه الارقام التابعة لسنة ١٩٤٦ قد زيد فيها وبولغ فى اعدادها من اجل الحصول على بطاقات التموين فان عدد سكان تونس قد ازداد ٠٠٠ ٢٠٠ فى ظرف عشر سنوات .

وقد لاحظنا قبل ان هذا النمو العديم النظير فى عدد سكان الحاضرة انما تسبب فيه هجرة اهل البرية الذين افلسوا واصابتهم الخصاصة والمجاعة فى هذه الفترة من الزمن .فكان من هذه الموجة ما كون تطويقا حقيقيا للعاصمة بواسطة منطقة من الارباض ظاهرة او مستترة خفية ، بين مجموعة الاكواخ وبين القرية البرية ، حيث اكثر من ٠٠٠ ١٥٠ من القادمين الجدد الطامعين فى الاشتغال يعيشون مكدسين فى شقاء وتعاسة رائعين ، وفى ذلك مرآة تتجلى فيها ماساة الارض التونسية اكثر مما تتجلى فيها جاذبية المدينة . فليس هناك نشاط جديد يبرر هذا الارتفاع فى الطقس وهذا التزاحم الشديد . فلاحت المدينة هكذا كملجا لاهالى مناطق الوسط والجنوب التى اصابتها الاجاحة فنفرها اهلها . ولكنه ملجا حقير . حيث ازدحم شعب جائع على ابواب المدينة يموت شيئا فشيئا مترقبا الشغل (١) .

فاذا ما ضاعت آمال هذا الشعب فى الاشتغال والحصول على ما يسد رمقه ،

---

(١) ى. جورج « المدينة » ب. ف. ف. ١٩٥٢ ص ٢٨٣ فى : « مدينة مختلطة : تونس » .

واقتصر فى اكواخه على حياة القشاشين والشحاذين والبطالين، كثيرا ما اختار افراده النزوح عن مدينة لا حاجة لهـا بهم وحسبت عليهم بامر الاثمان حـق الانخراط فى سلك الطبقة التعيسة من المدينة ·

وخفت وطاة هذه الحركة حركة النزوح نحو المدينة · فاحصائيات ١٩٥٦ ولو لم يتم بعد ضبط نتائجها نهائـيا ، تظهر ان مجمـوع السكان فى تونس العاصمة ٠٠٠ ٤١٠ (١) منهم ٠٠٠ ٢٤٠ مسلم و ٠٠٠ ٧٧ فرنسى و ٠٠٠ ٣٨ ايطالى و ٠٠٠ ٣٢ يهودى بينما يبلغ عدد سكان الاحواز ٠٠٠ ١٣١

فسكان مجموعة تونس الكبرى يبلغ الان ٥٤٢٠٠٠ · فاذا ما كان الفـرق اقل وضوحا فى عشر السنوات الاخيرة ان مع ذلك فرقا قدره ٩٠٠٠٠ نسمة معظمهم من المسلمين فموجة اهل البرية نحو العاصمة خفت سرعتها وهى مع ذلك مازالت ذات اهمية وتفرض عدة مشاكل خطيرة نذكـر منهـا البعض فى باب « مستويات العيش وتمام الاشغال » ·

وفى خاتمة هذه الجولة بين الارقام والاحصائيات انه ليجدر بنا ان نضيء مشعلنا كى نعلم مما يتركب السكان والمناطق التى تحلها كافة العناصر المكونة لهم ·

فيبلغ عدد الاروبيين بالعاصمـة واحوازهـا ١٦٢٠٠٠ من بين ٢٥٥٠٠٠ استقروا بالبلاد التونسية ، وهم اجتمعوا فى الحى الاوروبى وفى الاحـواز الغربية الملتحمة بالعاصمة ، فهذا عنصر مدنى بينما صار سكان الاحواز من المسلمين يظاهون تقريبا منذ بضع سنوات سكـان المدينة نفسها · واهـم العناصر الاروبية اولا وبالذات الفرنسيون (ومنهم عدد عديد من الايطاليين اكتسبوا الجنسية الفرنسية) والايطاليون والمالطيون ·

واما الايطاليون فمعظمهم منسكان جزر صقلية وصردانيا وبنتلريا ـ وقليل منهم من كان منشؤه فى ايطاليا الاقليمية ·

واما الفرنسيون فاصلهـم فى معظمهم من جزيـرة كورسيكا ومن جنـوب فرنسا ومن الجزائر · ونقط تجمع الايطاليين واضحة · فهم تزاحموا على الحى الكادح الشقى فى صقلية الصغرى قرب الميناء وعلى بعض الانهج من المدينة وانتشر الفرنسيون فى الضيعات الضخمة المترفـة بالاحواز الغربية وفى العربية (نهج الصباغين ونهج الكمسيون)
جملة احياء المدينة الاروبية ·

---

(١) ارقام وقتية

اما الوسط الاسلامى فهو متشعب الفـروع مختلف الاصـل ، واذا ما راد المتجول بين الاسواق شاهد الوانا مختلفة متنوعة من السكان

فبجانب البلدى القديم « من قاع الخابية » ، الناحل البدن ، المشتغل بعض الشىء بدكاكيـن التجـارة او المتحلى بثقافة ظريفـة ، نرى جمع « البرانية » المتكون من العناصر الاجنبية عن المدينة ـ ومعظم الاهالى المسلمين من هـؤلاء البرانية التحفتهـم العاصمة اما بفعـل الاستيطان او بالمصاهـرة فصبوا فى شرايين العاصمة العجوز دما آفاقيا ·

فاقبل على العاصمة اهالى الساحل والوطن القبلى وجلاص والجريـد وكثير من الجزائريين (١٩٠٠٠) والطرابلسيين تجذبهم انوار المدينة فاستقروا بحسب طبائعهم واهوائهم فى احياء المدينة او فى الاحياء المحيطة بالمدينة وبعض البرنية كاهالى جربة لم تؤثر فيهم جاذبية المدينة ورجعوا الى مسقط رؤوسهم ليكونوا اسرة رجوعا منتظما كما نشاهد من طباع حنش البحر ·

وهؤلاء المسلمون الملونون بشتى الالوان وهذا الغبار من الاسر الاتيـة من اعماق البلاد كل ذلك كون مجموعات اجتماعية لها وظيفة اقتصادية معينة ·

وكون الاجانب من جزائرى الواحات الجنوبيـة (تغـرت وورقلـة وسوف ومزاب) ومغاربة وطربلسيين ناديا خاصا « دار الجماعة » لهم شيخهم هـو فى آن واحد عامل مكلف بتشغيلهم، ولهم منظمتهم الضمنية للتعاون والتساند وكل نوع من البرانية له فى الجملة خاصية معينة فاهل الحامـة باعة للفطائر مختصون بذلك ـ واهل جربة مختصون بدكاكين المـواد الغذائيـة او بيـع المنتوجات الصوفية (سوق الجرابة) واهل نابل مختصون ببيع الفخار والحصر والفلفل الجاف (حى سيدى محـرز) واهل ورقلة خدمة للمنازل والغرابة مختصون بالحراسة الخ···

ويهود تونس ومن بينهم جالية معتبرة من القرانة اتت من ايطاليا فى القرن السابع عشر ومركزها التجارى سوق القرانة يعيشون فى الحارة عيشة تنافى ابسط القواعد الصحية ـ وقد اصلحت هذه الحالة بعض الشىء ببرنامج تطهير لهذا الحي وتنظيم له وانشاء العمـارات لايواء العائـلات التى هدمت محلاتهـا بتطبيق هذا البرنامج ·

ويصل المجموعة التونسية بالخارج وسائل نقل سريعة تستخدم ايضا فى التنقلات داخل المدينة· فمحطة السكك الحديدية التى دشنت سنة ١٨٨٠ عند

اتمام خط تونس ـ غار الدماء اصابها الهدم حين رميت بالقنابل وقت الحرب ـوهى مركز اشعاع الخطوط التونسية كلهـا نحو الجزائـر وقابس وبنزرت. وانقصت شركة « سيارات النقل التونسية » كثيرا من نشاط التيار على هذه الخطوط .

ويصل العاصمة بالاحواز الشمالية خط تونس حلق الوادى والمرسى الذى وضعته شركة انكليزية (١٨٧١) التى باعته الى شركة ايطالية سنة ١٨٨٠ ثم باعته هذه الى لشركة الفرنسية عنابةـقالمة (١٨٨٨) التى احالته سنة ١٩٠٥ الى شركة الترامواى التونسيـة الحالية ـ وجهز هـذا الخط بالتيـار الكهربائى سنة ١٩٠٨ وصار امتداده ٣٧ كم ـ وبفضله تطورت سائر المصطافات على الشاطىء فصارت محلات اقامة قارة لسكان كادحين من الموظفين وصناع دعاهم رخص الاكرية وسرعة الانتقال الى السكنى فى هذه المحلات اللامركزية على انه فى الصيف تدعو حرارة العاصمة الى مهاجرتها زرافات نحو برودة هذه المحطـات البحريـة . وهنـا ايضا نلاحظ اختصاصـا عنصـريا للمحطـات . فالارستوقرطية الاسلامية تفضل محل اقامة لبايات القديمة مدينة المرسى او سيدى ابى سعيد ، ويختار اليهود حلق الوادى والايطاليون الكرم والفرنسيون قمرت .

وتمتد الاحواز الجنوبية من حمام الانف الى تونس وتصلها بها سكة حديدية اختطتها عنابة قالمة قبيل انتصاب الحماية . وهنـا تقل الفـروق بين الصيف والشتاء ومعظم الاهالى سكان ثابتون . وفى الجملة ان مستوى هؤلاء السكان اقل من مستوى سكان الاحواز الشمالية . وادى تصنيع الاحواز القريبة مـن الجنوب بين جبل الجلود ومقرين الى انشاء عدة قرى للشغالين وعملة السكـة الحديدية والعملة المخصصين من الاروبيين كدوبسفيل والكانيا وبلفو وماتيلدفيل الخ ...

والانتقالات داخل المدينة تقع على بضع خطوط من التـرام او مـن سيارات النقل الكهربائية التى تمتد فروعها لجلب سكان الاحياء المحيطة بالمدينة .

ووسائل النقل هذه بالمدينة او بمحيطها مكنت من التغلب على ضيق اطارها الموقعى الجغرافى ومن ان تضم الى المدينة تونس الاحـواز القريبـة ومحطات الخلاعة البعيدة المنتشرة حول الخليج ـ فهى تصب يوميا فى المدينة جمعـا من

الاهالى الكادحة وتحتفظ رغم هذا بما للشواطىء اللازوردية الافريقية من الجمال الساحر تغدقها الزرقة ويغمرها الضياء والنور

٤ ـ الوظائف المدنية

ان وجود مدينة اروبية بجانب مدينة عربية لهو امر يتجسم فيه هنا اكثر مما يظهر فى اى جهة اخرى من البلاد التونسية هذا الازدواج بين الاقتصاد التقليدى والاقتصاد العصرى اللذين يقسمان حياة البلاد نفسها ويتنازعانها ويمزقانها تمزيقا ٠

فالمدينة الاروبية وليدة الاستعمار ومرتبطة بانشاء الميناء وفى ذاك ما تعبر به قلبا وقالبا ، فى دمها ووظائفها ، عن نزعتها التجارية ـ وفيها تجمعت الاعضاء الرئيسية للاستغلال الاستعمارى المرتكز على احياء ثروات المناجم والاراضى ٠

وانه ليدل على ذلك اوضح دليل انتشار المصارف ودور القرض وشركات الضمان والحجرات التجارية والفلاحية او لمصالح المناجم وصناديق الشركات المنجمية والصناعية وشركات النقل التى تصطف عماراتها الضخمة احيانا بجانبى اهم الشوارع بالاحياء الاروبية ـ وبالرغم عن كون تونس لا تمثل الا خمس السكان باجمعهم هى تحل بالنظر الى هذه الوظيفة المسيرة للاقتصاد التونسى كله محلا رئيسيا بالنسبة الى التيار التجارى وفى ميدان العمليات المالية ـ ويكفى للوقوف على ذلك والوثوق منه ان نذكر ان تونس ومقدمة مينائها بحلق الوادى تبلغ قيمة الواردات فيها ٪ ٨٩ من واردات البلاد ويقدر رقم العمليات المالية التى تجرى فيها بقدر ٪ ٧٥ من عمليات البلاد باجمعها

على ان هذه الزعامة البالغة تشاهد بعينها فى سائر اقسام الاقتصاد وتؤكد بكل وضوح ان تونس وحدها لها من القيمة ما يفوق قيمة باقى البلاد سواء فى المعاملات التجارية (٪ ٥٢) او المراكز الصناعية (٪ ٥٣) او النقل (٪ ٥٨) ٠ او الميزانية البلدية (٪ ٥٨ او العلامات المختلفة لمستويات العيش: سيارات (٪ ٥٦) هاتف (٪ ٥٧) اجهزة اذاعية (٪ ٥٥) الخ ٠٠٠

وان هذا الخلل الفاحش بين البلاد باسرها وعاصمتها الذى ترجح فيه كفة العاصمة يفسر بكون السكان الاروبيين بتونس العاصمة يمثلون ثلاثة اخماس السكان الاروبيين بالبلاد التونسية ٠ فنجد هكذا بمقارنات عديدة البرهان على

امتلاك الاجانب للاقتصاد القومي ولثروات البلاد ، فالمدينة الاروبية بما تجلبه اليها من ثروات البلاد جعلت لها الحظ الاوفر بوساطة شبكة الشركات الخفية الاسم والبنوك التى تقطر لفائدتها الحياة الناشطة النابضة للشعب

وهناك مجموعة ثانية من ظواهر النشاط مرتبطة بوظيفة تونس كعاصمة ادارية وسياسية وثقافية للبلاد . فمختلف الوزارات والادارات المركزية والمعاهد الثانوية والعالية للتعليم والمعاهد الفنية ومعاهد البحوث والصحف كل ذلك جمع عالما كاملا من الممثلين وموظفي الوظائف الحرة والتجارة والفنيين يكونون العنصر المحرك لجملة الهيكل الاجتماعي التونسي .

والى هاتين الوظيفتين اللتين تقع قواعدهما بالحي الاروبي وبالحي الاداري بالقصبة ينبغي ان نضيف وظيفة ناشئة عن الصناعات التقليدية او عن الصناعات العصرية التي فاضت من المدينة الاروبية الى الاحواز الجنوبية فهاته المشاريع الصناعية اما تقليدية تكتسي احيانا صبغة القرون الوسطى في المدينة العربية واما عصرية في الاحواز الصناعية ، ما نشا منها لسد حاجيات المدينة هي التي تكتسي اكبر اهمية ويكون لها الحظ الاوفر .

فالصناعات الغذائية بعثت على انشاء عدة مطاحن تصنع السميذ ومصانع العجين (انظر ما يلي) كلها تستعمل الطاقة الكهربائية المنبعثة من المولدات المركزية بحلق الوادى . ومصانع التقطير (مصنع التقطير لتعاضدية جبل الجلود) والتخمير ومصانع مصبرات الغلال والبقول كلها نشات على الخصوص اثر الحرب العالمية الثانية حين تعرقلت الصناعة الفرنسية فكان من ذلك ما سمح باستثمار ما للبلاد التونسية من امكانيات كامنة باطنة (انظر ما يلي) اضف الى هذه الصناعات الغذائية ٣٤ معصرة للزيوت بجهة الحاضرة ومعامل للفيتورة والصابون والثلج الغذائي

اما صناعة الجلد والاحذئة فتشغل خمسة او ستة معامل عصرية (انظر ما يلي) ويبقى سوق البلاغجية هو الذى يروده الزبناء من اهل البرية لانشاء البلغ من جلد الغنم او المعز الاصفر . وتوجد صناعة الجلد ايضا بسوق السراجين العتيق وبه عدة نماذج من النوع العتيق

واما صناعة النسج فما زالت على حالتها التقليدية ويمكننا ان نضيف الى هذه الصناعات صناعة عتيقة جدا من اقدم الصناعات واشهرها بتونس، صناعة الشاشية . وترجع هيئة هذه الصناعة الى القرن العاشر ولكن

الاندلسيين نفخوا فيها روحا جديدة فاحيوها وحسنوا صنعها ووضعوا نظاما محكما لمجموعة الصناع الذين انخرطوا فيها وان الشبه لقوى جدا اذا ما قورنت هذه المجموعة بالمجموعات الصناعية فى اروبا الغربية بالقرن الثالث عشر . فهناك عين الفروق بين العرف والقلفة والصانع . والامانة وظيفة هى عين وظيفة المحتسبين المحلفين فى القديم — على ان الاسر الاندلسية المهاجرة الى تونس ارادت ان تحتفظ لنفسها بعرافة الشواشية فجعلت العراقيل عديدة امام المترشحين لهذه الوظيفة فبقى لهم حتى الان زعامة هذه المجموعة الصناعية فابناء الشواشية يرثون وحدهم النيشان اى طابع المصنع وعلامته وكان ذاك يمنح بامر من الباى .

ولكى يبقى للمجموعة ما اتصفت به من العدالة والمحافظة على شهرة الشاشية التونسية كان الامين يستعين بمجلس العشرة الذى كان له ان يفض جميع المشاكل الناجمة داخل النظام الخاص بالمجموعة وكان له ايضا ادارة معمل الغسل بالباطان ومعامل الصنع بتونس ولم يكن من النادر ان ينتخب للوزارة احد اعضاء هذا المجلس .

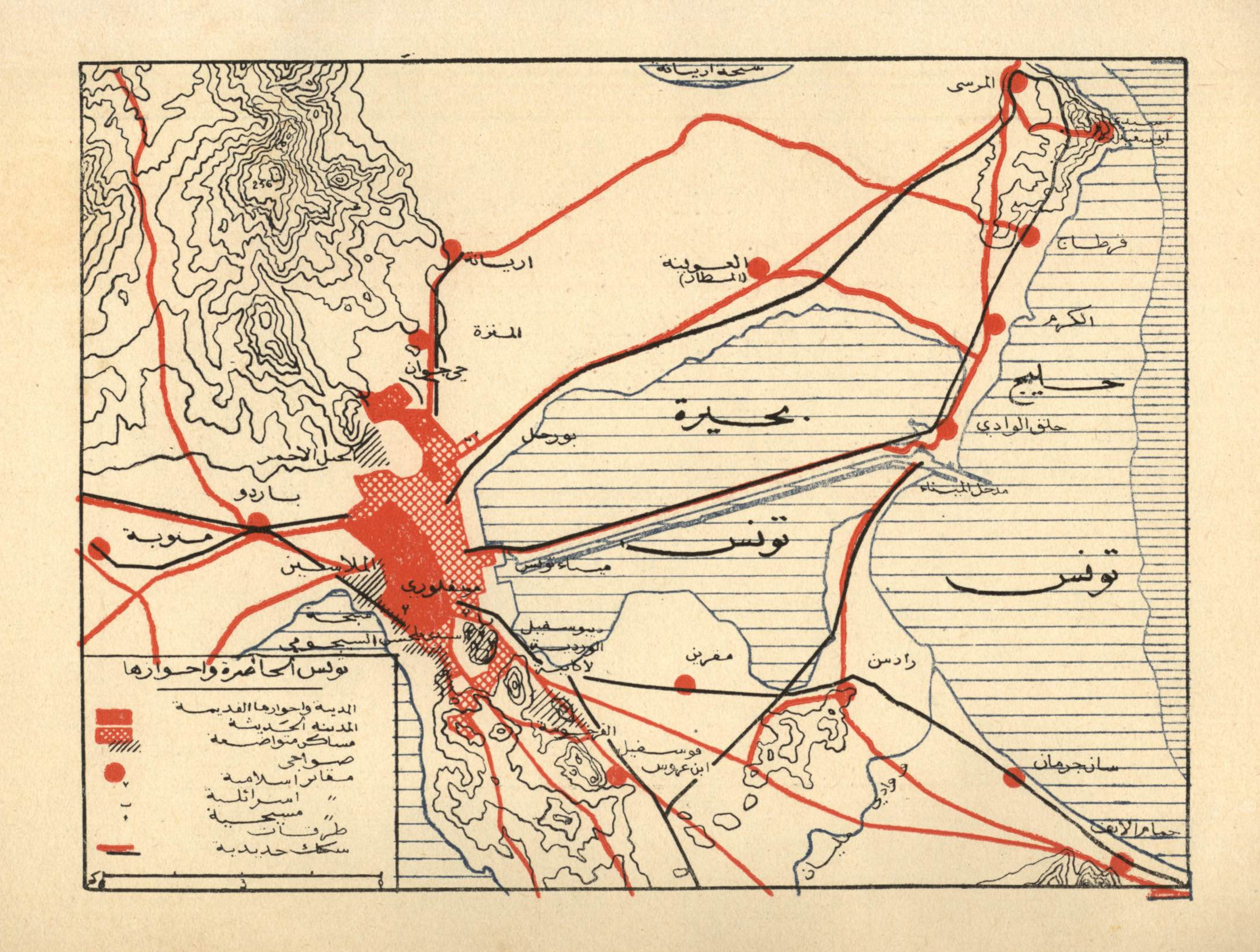
ولكن فى هذه الصناعة كما فى غيرها كسدت السوق منذ زاحمتها الصناعات الاجنبية من نمساوية وتشيكوسلوفاكية .

وبعد ما كانت مجموعة صناع الشاشية هى اقوى المجموعات تعد ٢٠٠٠٠ صانع سنة ١٧٢٤ (١) تضاءل امرها فهوى هذا العدد الى ٣٠٠ سنة ١٩٤٣ وفى ذاك مرآة عامة لانحطاط الصناعة التقليدية التونسية وصناعة الحياكة من حرير طبيعى او اصطناعى وقطن تعد رغم تدهورها اكثر ٢٠٠٠ صانع تنتشر انوالهم بين احياء الحلفاوين والسوق الجديد وسيدى ابى خريصان فيعكر هدو هذه الازقة الساكنة وقع الدف وضرب الانوال ، وهناك تصنع الفوطات والسفاسر والشينان والجباب ثم تبعث الى حوانيت الباعة بسوق اللفة تزينها بعديد الوانها المزركشة بجوار منسوجات الصوف الجريدية والساحلية وفرش جربة وطنافس القيروان المنورة المزدهرة .

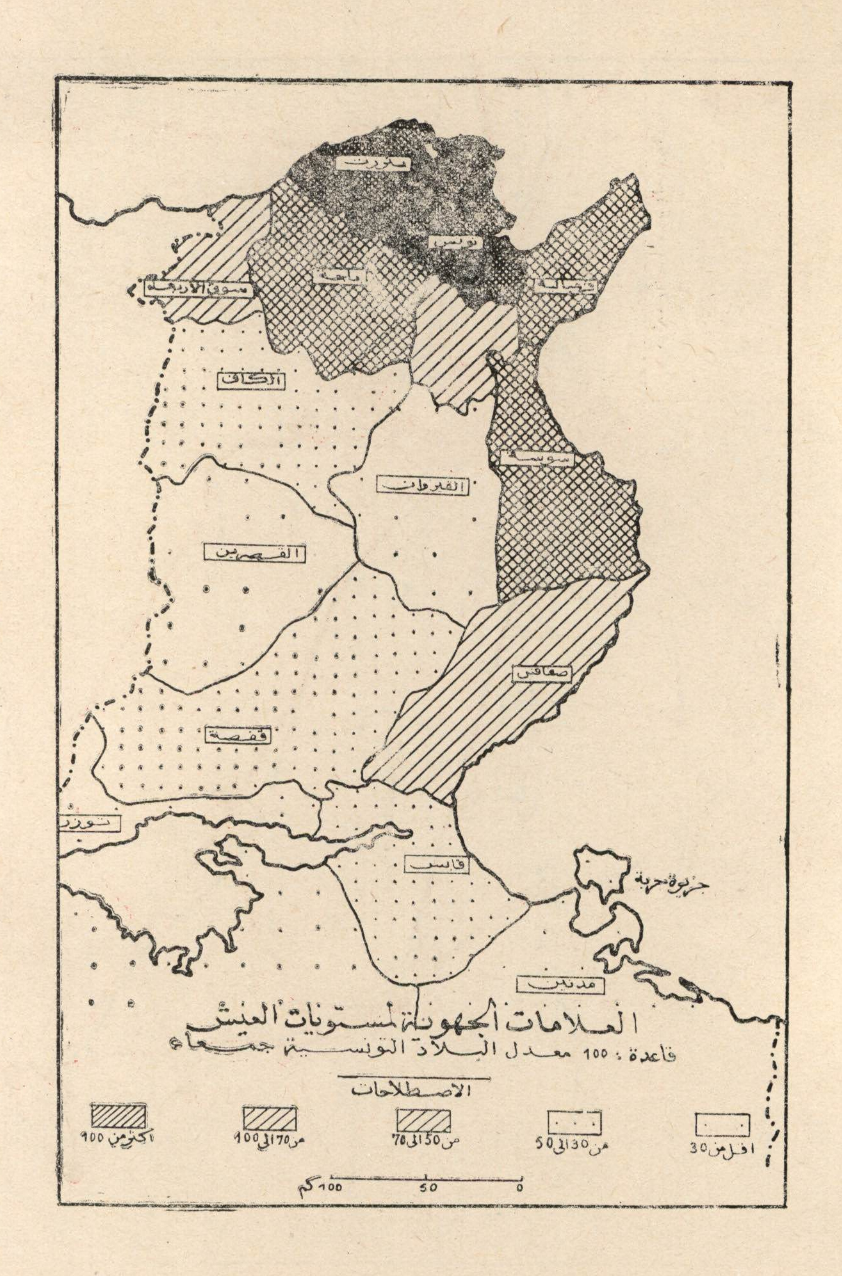
ولكن هنا ايضا اوقع هجوم مصنوعات الحرير الليونية والمنسوجات الفرنسية بمجموعة الحرايرية امر الضربات واقسى المحن وماذاك بقريب الزوال بالرغم عن كون المجموعة استعملت منذ ١٩٣٩ عدة انوال عصرية من نوع جكار .

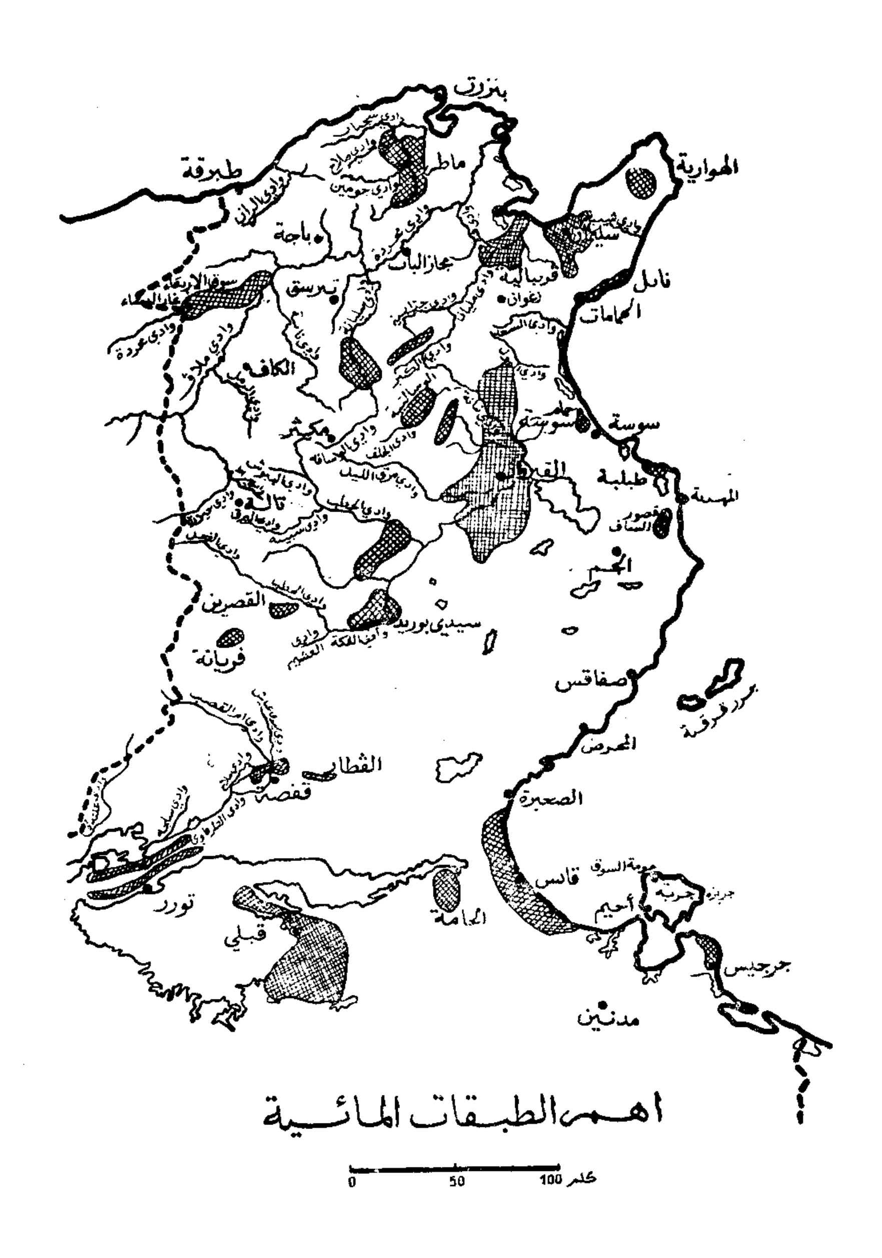
وهناك صناعات اخرى كان تضررها اقل كصناع الخياطة اليهود بسوق

(١) الحكيم بيسونال : « رحلة ببلاد البربر » (١٧٢٤) ص ٨٠



تونس الحاضرة واحوارها
المدينة واحوارها القديمة
المدينة الحديثة
مساكن متواضعة
ضواحي
مقابر اسلامية
" اسرائلية
" مسيحية
طرقات
سكك حديدية
سبخة اريانة
المرسى
اريانة
العوينة (المطار)
قرطاج
الكرم
المنزة
خليج
حلق الوادي
بحيرة
بورجل
الجبل الاحمر
باردو
مدخل الميناء
منوبة
تونس
تونس
الملاسين
ميناء تونس
رادس
مقرين
سانجرمان
فوسفيل
ابن عروس
حمام الأنف


بنزرت
تونس
باجة
نابل
سوق الاربعاء
الكاف
سوسة
القيروان
القصرين
صفاقس
قفصة
قابس
جزيرة جربة
مدنين
العلامات الجهوية لمستويات العيش
قاعدة : 100 معدل البلاد التونسية جمعاء
الاصطلاحات
اكثر من 100
من 70 الى 100
من 50 الى 70
من 30 الى 50
اقل من 30
0
50
100 كم



اهم الطبقات المائية

كلم 100 50 0

الترك وصناع البرانص بسوق البرانصيــة والخياطة بســوق الجزيرة وصناع النجارة ٠

اما صناع المعادن فاستقرت فى المناطق القديمة التى حلتها فى عهدالحفصيين فسوق الحدادين قرب باب الجديد تزعجه قعقعة السنادين ، وكذلك مصنوعات الاقفال والشبابيك العربيةوالالات الفلاحية تعرض امام الدكاكين خارج المدينة فى جهة باب سعدون وصناعة القصديروالنحاس تحل مراكزها القديمة بسوق النحاس بينما تحل نهج الكنيسة صناعة النقشعلى النحاس الاصفر او الاحمر فيخرج منها الطباق المختلفة الانواع والاشكال ، والاباريق والمبخرات المرصعة بالفضة ٠ وبنهج الكنيسة ايضا تفتح دكاكين بيع المصوغ : اما صنع الصاغة نفسها فيحتل سوق الصاغة وسوق القشاشين وسوق القوافى وهناك تصنع شباك الخيوط الفضية ويلحم الذهب والفضة بالجواهر والحجــارات الكريمــة فاذا منها الحلىالثقيلةالثمينةوخلاخل المعادنالثقيلة والاقراط الرزينة التىتتحلى بها امراة البدويات الجميلة تحت انوار الشمس البديعة ٠ وبسوق البركة التى كانت قديما سوقا يباع فيها الرقيق تعرض فى الدكاكين او بالدلالة خليطا من المصوغات ذات الذوق الاروبى وبدائع المصوغات العتيقة ٠

وتكفى هذه الجولة السريعة بين اســواق تونس لتبيــن ان تونس احتفظت بطابعها الجميل، طابع عاصمة صناعية تقليديةحيث حافظ الصناع بالرغم عن كساد السوق والبطالة والخصاصة على اساليبهم العتيقة التقليدية وما اشتملت عليه من ذوق فنى ٠

الا انه على بضع مئات من المترات من الالات القديمة المسيرة باليد ،فىهذه المدينة نفسها دعت حمى الربح ولوازم الاقتصاد الحديــث الى الرمــى برؤوس الاموال لصب الرصاص والالمينيوم والفنت وبناء الدواليب وانشاء مشاريــع عصرية للنسج وللمنتوجــات الكيماويــة ولفسفاط الكلس والمكــرر ، فهذا معمل صهر الرصاص لشركة بناروبا بمقرين يخدم فيه الرصاص التونســى فى جملته تقريبا ٠ وهذه معامل اخرى لصب المعادن ولاصلاح الالاتوللتركيب الالى ٠ وهذه صناعاتحزم البضائع فى اغلفة معدنية او من كاغنــوفى الاحواز الجنوبية عدة معامل للمنتوجات الكيماويــة ومواد الدهــن والمفرقعات والهواء السائل والمسمدات وفسفاط الكلس المكرر والاسمت ومواد البناء ، كل ذلك

بجبل الجلود وهذا التزاحم بين المعامل والمصانع كسا الاحواز الجنوبية صبغة احواز صناعية تشغل الان عدة آلاف من الشغالين ·

فهنا حينئذ يتحاذى جيلان من الصناعات يفصل بينهما تطور عدة قرون ، وقواهما متراجحة لا تتعادل فاحدهما وارث لعهد انقضى وثانيهما طليعة نظام فظيع تسيطر عليه الالات موحد القالب والوضع · ونحن لا نريد ، وان اردنا فنحن لا نقدر — ان نضحى باحدهما لفائدة الثاني·وفى الامكان حماية الصناعات التقليدية بوسائل تحفظية تقيها من ضربات الالية الصداعة ، ولكن ذلك لا يمنع الصناعات التقليدية من التطور ومن اقتباس طرق حديثة احرى نفعا واجدى ثمرة (انظر الابواب : طرق العيش فى القديم والحديث)

ان جميع المشاكل البشرية والاجتماعية والاقتصادية الناجمة عن مختلف الوظائف المدنية لعاصمة تونس لها مساس متين بعامة المشاكل التى تهم حياة البلاد نفسها ومستقبلها ، ومن ذلك تحوير الصناعات التقليدية وتصنيع البلاد والتكوين الفنى وسوق التشغيل والعوامل الصحية والثقافية والمادية التى هى اللحمة المكونة لمستوى المعاش ·

على ان التطور التاريخى للعاصمة التونسية الذى جعل من القرية الصغيرة التى كانت قبل عهد القرطاجنيين عاصمة من اولى عواصم البحر الابيض ونمو سكانها نموا خارقا للعادة والمكانة الرئيسية التى اقعدتها المدينة الاروبية فى اقتصاد البلاد وضيق المجال الذى تعرضه وظائفها المدنية على الجموع التعيسة البطالة كل ذلك ليوضح اشد الايضاح معنى هذه الجملة القديمة التى كتبها ا · ف ·قوطيى « اذا اردت ان تقف على مدينة عربية تضخمت تضخما فاحشا مثل تونس يجب ان تصل من جهة الشرق الى القاهرة ومن جهة الغرب الى فاس · والبلاد التونسية باجمعها معلقة باهداب هذه المدينة المتضخمة تضخما فاحشا »

وما زال هذا الفحش يقوى حتى وضع راسا من نمو متزايد على جثة يتزايد نحولها واضمحلالها · وهذا الخلل فى الاعتدال المرتبط بعصر الاستعمار الذى تجسم فيه استحواذ اقلية نزرة من الاجانب على القوى الحية للبلاد ليس فى الامكان اليوم ان يبقى ويستمر · ولا بد ان ينعدم هذا التمركز فى جميع الميادين فتحلى البلاد التونسية بجسد غزير القوة حسن الاتزان والتعادل فلا تبقى « معلقة باهداب هذه المدينة المتضخمة تضخما فاحشا »

القسم الثاني

المشاكل والافاق الاقتصادية

البـاب الاول

التـــــربة والمـــــاء

١ ـ التربة : اذا كان اشخاص يتمتعون بفضاء واحد يعيشـــون فيه فازداد عددهم شيئا فشيئا ليس لهم الا حل واحد : هو ان يستثمروا احسن الاستثمار من الوسط الطبيعي وكذلك ايضا من نفوسهم٠

وينبغي اعتبار هاذين الوجهين اذا ما عقد العزم على احياء البلاد ٠

ففيما يخص منتوجات الارض وما تحت الارض هناك ميدان جديـد ينشـا انشاء او يفسح في مجاله هو ميدان صناعات التحـويل ٠ فليس الان عـلى تونس ان تخضع لامر الاستعمار فتهب المواد خاما ثم تقتنيهـا مصنوعـا باغلى الاثمان ٠ ففي مقدورها ان تحول هي بنفسها كثيرا من ثرواتها وان تصير بلادا مصدرة للمنتوجات المصنوعة ٠

وانه لاجدى للبلاد ان تصدر الكاغذ عوض ان تصدر الحلفـا ، وان تصدر الفلين المخدوم عوض ان تصـدر الفلين الخام ، وقل مثل ذلك في حديـدنا وفسفاطنا وزيوتنا ومعظم صادراتنا ٠

لكن المهم قبل كل شيء هو ان يعتنى باستغلال الارض نفسها ، لا لانها تحل المحل الاعلى في اقتصاد البلاد ــ فما يقدر انتاجها الا بقـدر ٪ ٤٠ من الانتاج الوطني ــ ولكن لانها هي التي تشغل الاغلبية الساحقة من التونسيين ــ فنحـو ٪ ٨٥ منهم يعيشون من الفلاحة ومما يوضح فقر اهالي البرية هؤلاء ان لا يتمتعوا ولو بنصف المحصول العام ٠ فهناك خلل في التوازن بين وكثير الخطر : ٪ ٨٥

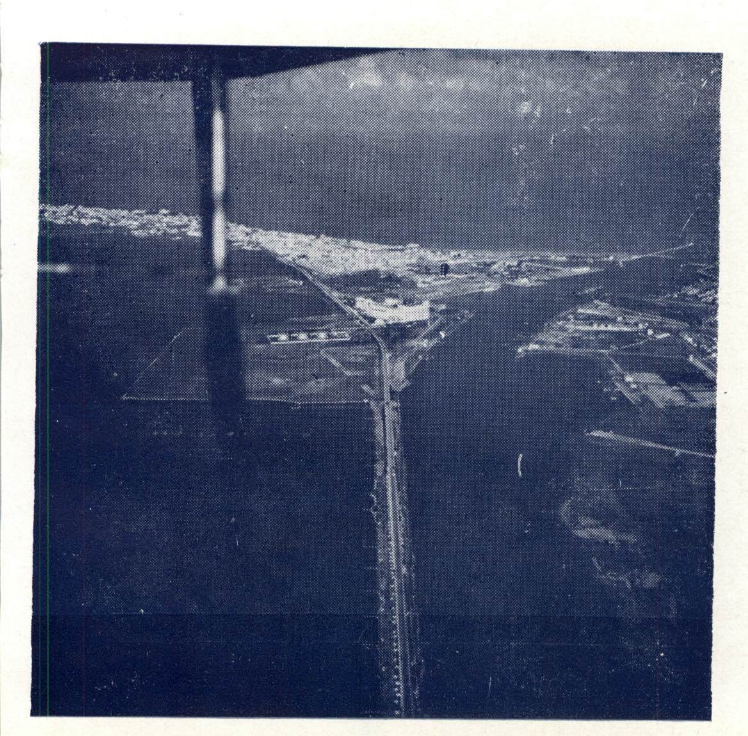
١ ـ راس سيدي ابي سعيد (ص ٦٦)



٢ ـ من اعلى سيدي ابي سعيد ، ويشاهد من بعيد جبل بوقرنين (ص ٦٦)



١ ـ ٠٠٠٠ على السهام الرملية الضيقة من حلق الوادى تتزاحم جموع متراكمة من ضيعات الاحواز ٠٠٠ » وفى مقدمة الصورة مدخل القنال (ص ٦٧)



٢ ـ القنال وميناء حلق الوادى ـ وفى الوسط السكة الحديدية التابعة لشركة تونس ـ حلق الوادى ـ المرسى TGM ويشاهد بطرفها المولد المركزى للكهرباء بحلق الوادى (ص ٨٢)

١ - تونس : حى باب الخضراء وعن بعيد المدينة الاروبية والبحيرة (ص٨٤)

٢ - تونس : ربض باب السويقة وسيدى محرز (ص ٧٤)



١ - المنزه (ص٨١)

١

٢- المرسي وراس قمرت

من السكان يتقاسمون ٪ ٤٠ من الثروات و ٪ ١٥ يتقاسمون الستين الباقية ولو لم تكن هذه النسب الا تقريبية فانها تفيد وجود اختلال فادح عقيم مضر بصحة البلاد المادية والادبية ٠

وعلى من يريد ان يقف على اصل الداء ان يدقق النظر فى وضعية الزراعة التونسية نفسها٠ على اننا علمنا منذ الان ان الحلول التى ينبغي ان يؤتى بها لتنمية المحصول الوطنى يجب ان ينظر فيها قبل كل شىء الى الناحية التى يعيش منها اربعة اخماس المواطنين اى الناحية الفلاحية ٠

فالمنتوجات الفلاحية تمتاز خاصة بعدم انتظامها الذى يتبع سوء الانتظام فى الامطار ٠ واستغلال الارض هنا مدرسة قاسية تلقن الصبر فالفلاحون يقولون : « الحرث دائما والصابة سنون » ٠ والمساحات المبذورة وعلى الخصوص الصابات المحصولة تتغير تبعا للمجموع المطرى وخصوصا لامطار الخريف وامطار اواخر الربيع والخط البيانى للانتاج فى الحبوب منحن عديد الاسنان كالمنشار يعبر على ان الصابة فى سنة من السنوات يمكن ان تساوى ثلث الصابة او ربعها فى السنة الموالية ٠

وعدم الاستقرار فى نتائج الصابات الذى يؤثر على السواء فى القمح والشعير والزيت اوجب الالتجاء الى نظام الادخار والاختزان احتياطا لسنى الجدب سنى الاجاحة والبقرات الجحاف فمواجل الزيت ومطامير القموح العظيمة التى كان الرومان يبنونها انما هى ضرورية طبيعية للبلاد ومن الجدير تعميمها ٠

ولكن اوضح مظهر يتجلى فى الفلاحة التونسية ان يتجاور فيها انموذجان من طرق الاستغلال متباينان اتم التباين فى وسائلهما ونتائجهما احدهما الانموذج العصرى والاخر الانموذج التقليدى العتيق ٠

الانموذج العصرى للفلاحة: هذه الفلاحة فى جملتها آلية بل قل احيانا هى امريكانية النوع ، تستعمل المحاريث الجرارة عديدة الصحون ، والقالبة للارض قلبا وموزعات الاسمدة والباذرات ذات الصحون والحاصدات الدارسات المجرورة او بعبارة واحدة هى تستعمل جميع الدواليب المتقنة المستعملة فى الزراعة الالية ـ وهى تستعمل حرث الربيع للاحتفاظ باكبر كمية ممكنة من ماء المطر وتستعمل الاسمدة الفسفاطية والبوتاسية والازوتية، وتزرع النباتات ذات السنوف لاختزان الازوت في الارض ، بذورها منتقاة وتستعمل

المواد المضادة للجراثيم او المنقية للاعشاب ترشهــا بواسطة الطائرات ٠ وفى الخلاصة هى تستخدم عامة الاساليب المستعملة فى الزراعة العصرية ٠

ولكن ما هى قيمة هذا الانموذج من الزراعة فى حياة البلاد ؟

فاذا كان مجموع الاراضى المزروعة او القابلة للزراعة تغمــر اربعة ملايين وسبعمائة هكتار يمتد هذا النوع من الزراعة على مليون واحد وثلاثمائة الف هكتار يتقاسمها عشرة آلاف من المزارعين ويستغل معظم الاراضى المستثمرة استثمارا عصريا فنيا مزارعون اوروبيون ٠ وتقــدر المساحة التى يستغلهــا المعمرون الفرنسيون والايطاليون بمليون هكتــار وكان عدد هــؤلاء المعمرين لزراعة الحبوب سنة ١٩٤٩ ثلاثة آلاف وسبعمائة وواحد وخمسين٠ اذا ان ربع التراث الوطنى فى يد الفين او هم ثلاثة آلاف من المعمرين

على ان هذه النسبة هى فى الواقع اقوى بكثير اذ انما اختار الاستعمار من الاراضى اخصبها واكثرها ريا – وهى تحل منطقة الاراضى السوداء بسهــول مجردة وشمالى الظهر التونسى ٠

ويتضح ذلك جليا بالنظر الى الانتاج – فمعدل السنوات ١٩٤٧ – ١٩٤٩ كان بالنسبة للاوروبيين :

الفارينة : الزراعة ٪ ٦٩ الانتاج ٪ ٨٠

القمــح : الزراعة ٪١٠ الانتاج ٪٢٦

فيكون جملة انتاجهم من نوع القموح ٪٤٦ بالنسبة الى مساحة قدرها ٪٢٢ (١)

وهكذا يكون نصف انتاجنا من القموح تقريبا (٪٤٦) بين ايــدى نحــو ثلاثة آلاف من المعمرين الفرنسيين والايطاليين وبضع شركات ضخمة للاستعمار ويكون النصف الثانى للصابة لاربعة اخماس الشعب التونسى ٠

فهل فى الامكان تحمل هذا الاختلال الفظيع فى التوازن لتوزيع ثرواتنــا وهل ذاك يوافق المنطق والاحساس البشرى ؟

وليس لاحد ان يتجاسر على ان يزعــم انه يمكننا مــن ناحية الانتاج فــى القموح ان نضع ٣٧٥٠ معمرا فى كف من كفى الميزان وفى الكف الثانية ٪٨٥ من سكان البلاد – وفى ذاك ان طال الامر ما فيه من الخطر اذ معناه الانتحار

(١) هذه الارقام مستمدة من كتاب ب٠ صباغ « البلاد التونسية » (الطبعات الاجتماعية ١٩٥١)

الحقيقى للاقتصادـ ولذا يتاكد علينا ان نبادر بانهاءهذه الماساة المنافية لطبيعة الامور قبل ان نشتت مجهوداتنا فى مناطق اخرى لا نجتنى فيهـا اكثـر ثمرة ولا نجدى فيها اكبر نفع ٠

ولا يكون استقلالنا السياسى شيئا اذا بقيت ثـروات ارضنا والثروات المختزنة تحت ارضنا كما كانت عليه في الماضى غنيمة فى يـد الاجانب واذا تمادى الاستعمار الاقتصادى على تفقيرنا واجتياح ما فى ايدينا

وليس فى المسالة اختيار بل تفرض علينا حياة البلاد نفسها ان تنظم منذ الان العدة لفسخ الاستعمار ٠

الانموذج التقليـدى للـزراعة : اما هذا النوع الثانى فاساليبه ما زالت عتيقة تمـاما : تنبش الارض بمحـراث عتيق يجـره ثيران او جمل وتبـذر الحبوب من قمح وشعير رشـا باليد فيردم البـذر ويدفن ويترقـب الفلاح ارادة الله ورحمته اى قطرات من المطـر ٠ فقـد لا ينتش القمـح وقد يجف هشيما وقد ينتـج على نسبة اثنين او ثلاثة في الهكتـار ويدوم الامـر هكذا عامين او ثلاثة او اربعة ـ والفلاح متصلب عنيد لا تنفعـه التجارب فيكـرر هفواته ويعيد غلطاته واعتقاده فى رحمة الله عميق لا يرى لها حدا وقد يكون الرابح فى لعبة اليانصيب هذه فيتراكم القمح الذهبـى فى اكوامه الجميلـة فينسى الشقاء وتنسى الخيبات ويشكر الله جل وعلا ويحمد ٠ فتذبح الشياه وتشوى اللحوم التى نسى ذكرها منذ عهد بعيد ، فيقصد الفلاح المدينة ويرود الاسواق مقتنيا ما يحتاج اليه ٠ فتنشط الاسواق من سباتها العميق ويشترى الفلاح قطع النسيج الناصحة الالوان ومصوغات الفضة البراقـة واحيانا ـ حين كان تعدد الزوجات جائزا ـ يتم الفلاح فرحتـه بالصابة باتخاذ زوجـة ثانية او ثالثة ٠

ومن سوء الحظ ان سنى الخصب هذه قليله والفلاح التونسى الصغيـر ـ خاصة فلاح الحبوب ـ حظه من مستوى العيش منحط افظع الانحطاط «فقيمة الانتاج الفلاحى فى الشمال تبلغ ٣٢٠٠٠ فرنك بالنسبة لكـل ساكن وهـى تنحدر الى ١٣٠٠٠ فرنك فى الوسط والجنوب » (١) ٠ وهذا بالطبع الانتاج

(١) لبيدى : « سكان تونس »

السنوى فى ذاك ما يصل بتلك الحالة المفزعة حد المجاعة وسنعود الى الموضوع فى باب « مستوى العيش والتشغيل التام »

ويحل ثلاثة ارباع هذه الزراعة التقليدية جهة الظهر التونسي وجنوبيه اعنى الجها تالطبيعية الفقيرة والتى تصب بها امطار قليلة الانتظام ولكن حتى فى شمال البلاد هناك نحو من ٪٤٠ من الاراضى تزرع بطرق بدائية قليلة الجدوى ـ وفى هذه الاراضى الخصبة المستثمرة استثمارا عقيما يمكننا ان نبدا ببذل مجهودات صالحة لتعصير الطرق الزراعية ٠

فبصفة عامة ان اراضى الفلاحة التونسية مقسمة تقسيما كبيرا يكون معدل مساحتها فى الشمال ٦ هكتارات وفى الوسط والجنوب ١٩ هكتارا وفى ذلك عرقلة كبيرة لاستعمال الالات الميكانيكية وفى التحسين الفنى اذ لا ياتى ذلك بنفع الا اذا امتدت الاملاك على شاكلة ضيعات الشمال العصرية التى يبلغ معدل مساحتها ١٢٢ هكتارا ٠

وفى الختام ينبغى ان يخصص فصل بغراسة الزيتون فهى اهم مورد لثروة البرية التونسية ٠ والست والعشرون مليونا من اصول الزيتون التى تتكون منها الغابة التونسية تمتد على مساحة تفوق ٧٠٠٠٠٠ هكتار تسعة اعشارها ملك للتونسيين وانتاجها له قيمة كبيرة ـ وان هو غير منتظم ـ وهو متمم اساسى للفلاحة التقليدية ٠ وفيه ما يفى لا بحاجيات البلاد من المواد الدسمة فحسب بل فيه زيادة على ذلك للاصدار قدرها تقريبا ٣٠٠٠٠ طن فى السنة وذلك ما يجعل البلاد التونسية فى الصف الثانى فى العالم بين الاقطار المصدرة لهذه المواد٠ على ان هذه الرتبة التى تحلها تونس انما تبلغها بكميات زيوتها كما تبلغها بنوعها

٢ ـ الانتاج

الحبوب (١) ـ اذا ما نظر فى احصائيات الانتاج فى الحبوب يقف الانسان مدهوشا حقيقة امام ضعف هذا الانتاج

يتراوح انتاج القمح الصلب قنطارات للهكتار الواحد فى المدة ١٩٢١ ـ ١٩٥٤ بين ٤،١ و ٥،٩ فى الشمال وبين ٠،٥ و٢،٢ فى الوسط والجنوب

(١) فيما يخص الحلفاء والاغنام ينظر ما ذكر قبل

وفى المدة نفسها تراوح معدل الانتاج للفارينة بين ٨ و ١٢،٧ فى الشمال وبين ٤ ، ٣ و ٥ ، ٦ فى الوسط والجنوب والشعير مر من ٤،٤ الى ٦،٩ فى الشمال ومن واحد الى ٤،١ فى الوسط والجنوب

وليس فى هذه الارقام ما يدعو حقيقة الى الانبساط والفرح وليس فيها ما يدل على حسن استعداد البلاد لزراعة الحبوب

واذا مـا فكرنا ان ما يدعى بالوسط والجنوب هو معظم الارض التونسية لا يمكننا ان نقف بلا احساس ولا شعور غير متاثرين لما تعبر عليه هذه الحالة بكل وضوح من التعاسة وسوء الحظ العامين ٠

فهكذا يتراوح معدل الانتاج للفلاح التونسى اذا حسب ذلك بالنسبـة الى ٢٥ عاما بين ٠،٥ و ٤ قناطر بينمـا يبلـغ المعدل الحالى بجملة فرنسا ٢٣ قنطارا من القمح فى الهكتار الواحد ٠

فكيف لا نتاثر من هذه النتائج التى يتفاقم ضررها اذ هـى تهم الاغلبيـة الساحقة من الاهالى التونسيين ؟ ولئن نتمادى على تجـربة زراعة الحبوب فى الظروف الحالية فذاك مما يدفع بنا سريعا نحو الهوة والحضيض ٠

وهذا الاندفاع التناسلى يضعف كل يوم عدد الافواه التى علينا ان نسد رمقها فاذا ابقينا مع ذلك ثلاثة ارباع التونسيين رهن انتاج معدله ٢ بالنسبة للقمح و٣ بالنسبة الى الشعير ان فى ذلك طغيانا عن الطريق وغواية تنـذر بالانتحار ٠ فصار تغيير الطرق المستعملة وقلبها قلبا تاما والتانس بزراعات جديدة ألام لطبيعة الوسط واجدى نفعـا ، وصار كـل ذلك شرطا اساسيا ضروريا حتميا لا لاحياء البلاد فحسب بل لتمكين اهلها من البقاء والحيـاة ٠

فتحوير فلاحتنا تحويرا تاما مبنيا على قواعد جديـدة شـارك فى وضعها فنيوا الارض وعلم المياه ودراسة المناخ وبحوث الانتاج هو عمل حيوى يسيطر على سائر الاعمال ويتقدمها فى هذه البلاد التى تحـل الاولوية فيها الاعمـال البرية ٠

فليس من الطبيعى ـ كما وقع لتونس المرار العديـدة ـ ان تصير ناحيـة تغلغلت الزراعة فيها الى اعماق نفوس اهاليها ناحية تستور ما تحتـاج اليه من الحبوب ـ والخط البيانى لانتاجنا الحالى (انظر صورة ٨) هو خط منكسر قد يمر بالنسبة للقمح من ٢١٤٨٠٠٠ قنطار (معدل ١٩٢١ ـ ١٩٢٥) الى

٥٤٨١٠٠٠ (معدل ١٩٥١ — ١٩٥٤) — وهذا الانتاج لايكفى دائما للاستهلاك المحلى (تقريبا١٥٠ كغ بالنسبة لكل فرد فى السنة) على اننا فى عهد الحماية قد نشاهد منظرا مؤسفا محزنا منظر بواخر مشحونة بالقمح التونسى مقلعة به فى حين كان معظم الاهالى محرومين منه شر الحرمان — وحيث لم يكن في استطاعة الجائعين من التونسيين ان يشتروا القموح التى انتجتها اراضى الاستعمار المستحوذ عليها ذهبت هذه القموح مع الصادرات وبقيت البلاد تذوق امرار المجاعة والاحتياج والاجتياح .

فهكذا كان يتضح — كما يتضح الان ايضا — الاختلاف الاساسى فى الشقة بين القسم الفلاحى العصرى الذى يشتمل خاصة على معمرين اثروا خارج اطار الاقتصاد التونسى وعلى حسابه وبين القسم التقليدى الذى يشتمل على المزارعين التونسيين وقد اختزل هذا القسم الى اقصى حد فهو يخبش اراضيا فى الغالب كالحة فيحرم الازدهار والخصب المتدفقة سيولها على مزارع الشمال العصرية فليس بين الشقين تضامن ولو بسيط وفى ذاك سبب الاختلال الفادح فى التوازن الذى يحمل اوزاره الاقتصاد البرى للبلاد ، وفى ذاك ايضا على الخصوص ضعف مستوى العيش فى الوسط والجنوب وانحطاط المستوى الغذائى فيهما انحطاطا مزمنا . وسنعود الى الموضوع عند ذكر تربية الاغنام ومستوى العيش مؤكدين منبهين على الاختلال الفظيع الذى منح الضيف المفروض فرضا او المدعو الثرى لحوم الشمال مخصصا لعائلات الجائعين عظم الوسط والجنوب تقضقضه . ومن حسن الحظ ان وجد الزيت فمكن الفلاحين التونسيين من البقاء والعيش

الزيت : تنشر غابة زياتيننا الجميلة رقعتها الخضراء وبياض اوراقها الفضية الواقية لها على معظم شواطئنا البحرية من بنزرت الى جرجيس (انظر خريطة الزيتون) ولكنها تمتد على الخصوص بجهة الساحل — فهناك حسن غرسها واعتنى بها اهم اعتناء وهناك احضر ت الزيوت باحسن الاساليب — ويتبارى اهالى سوسة واهالى صفاقس فى تحسين اساليب عملهم تحسينا مستمرا فليس لاحد ان ينكر ما وصلوا اليه من عجيب النتائج — فزياتين ساحل سوسة كثيرة الكثافة قريبة الواحدة من الاخرى وهى تستغل المساقى التى تمكنها من تضعيف المساحة التى تمتص بها الامطار ضعفين او ثلاثة

وبالعكس انه ليس لزياتين صفاقس مساق بل هى متسعة تبعد الواحدة

عن الاخرى ٢٤ مترا فتتمكن جذورها من الانتشار ، وهى تقلم فى صورة اكواب وتدق تربتها غبارا دقيقا وتجنى بكل عناية ويهتم باتقان عصر زيوتها وفى كل ذلك ما يوضح النجاح الباهر الذى نجحه غارسوا الزيتون بصفاقس

على ان فى الزيتونة كما فى الحبوب تبقى الصابة معلقة بالغيث النافع (انظر ص ٩) ويتراوح معدل الانتاج بين ٣٤٠٠٠ طن (معدل ١٩٢١ ـ ١٩٣٠) و ٥٥٦٧٠ طنا (معدل ١٩٥١ ـ ١٩٥٤) ويلوح ان هذا المعدل يستقر تقريبا فى نحو ٦٠٠٠٠ طن ولو انه فاق احيانا ٧٠٠٠٠ او ٨٠٠٠٠ وبلغ حتى ١٥٠٠٠٠ طن سنة ١٩٤٩ ـ فاذا اعتبرنا الاستهلاك المحلى الذى يقرب من ٣٠٠٠٠ طن بقى فائض صالح للاصدار يناهز ٣٠٠٠٠ طن بل هو قد بلغ فى صابة خارقة للعادة سنة ١٩٥٤ قدر ٤٥٠٠٠ طن قيمتها ٧٥٦٨ مليون فرنك . والصابة الحالية (١٩٥٦ ـ ١٩٥٧) قدرت بثمانين الف طن وتجرى فى ظروف مرضية اذ حددت الحكومة قيمة دنيا قدرها ٢٢٠ فرنكا للكيلو غرام لحماية المزارع من انهيار السوق ومن الخزعبلات الاعتيادية التى يقوم بها السماسرة .

ولهذه الثروة الزيتية اثرها العظيم فى الاقتصاد العام للبلاد خصوصا وانها فى جملتها تقريبا (٩/١٠) ملك للتونسيين وانها فى نمو مستمر كلما بلغت الغراسة الجديدة سن الانتاج .

وفيها دليل واضح ان التونسى ليس بالكسول الذى لا ينفع فيه دواء ـ حسب ما صورته دعاية سيئة النوايا ـ بل فى مقدوره ان يقوم بالعمل المتواصل وله فكرة التنظيم ويتذوق الاتقان فى العمل كلما ساعدته الظروف الطبيعية على اظهار مواهبه وعلى السعى سعيا موفقا ناجحا . واحياء البلاد بواسطة الزيتونة قام به التونسيون انفسهم وثابروا عليه وفى ذلك البيان الجلى لصلوحية التونسي وفيه فى آن واحد صورة مصغرة مما يمكن ان تكون عليه البلاد وما ستكون عليه باجمعها .

غراسة الكروم : وبالعكس ان الكروم التونسية في جملتها من خصائص الجالية الايطالية ، وهى تحل جهة العاصمة والوطن القبلى حيث اتقنت غراسة الكروم فانتج خمورا قوية فى درجة كحولها يرغب فيها لمزج الخمور الفرنسية ونسبة انتاجها مرضية ما عدا اذا كان الربيع مطيرا فتهاجم الكروم جراثيم

المديو ٠واكثرما انتشرت هاته الكروم حوالى سنة ١٩٤٣ فبلغت مساحتها ٥٠٠٠٠ هكتار وكانت ازمة تفوق الانتاج وكساد السوق ولم يتغلب عليها الا سنة ١٩٣٥ حيث ابرم اتفاق مع فرنسا ينص على وجوب قلع ١٥٪ من الكروم والاستيراد الى فرنسا لمقدار من الخمور التونسية معفاة من الاداء على ان الكروم التونسية تضررت كثيرا من مرض الفيلوكسرا مدة الحرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ ، وحوول منذ ذاك احياؤها على سيقان اميركانية بعد تحضيرالارض بعمليات قلب عميقة ، وسنة ١٩٥٤ كانت جملة المساحة ٣٦٠٠٠ هكتار منها ٢٥٠٠٠ من النوع الاميركاني ـ هذا وان كانت نسبة الانتاج تفوق ما كانت عليه قبل الحرب فلم تتمكن رغم ذاك من البلوغ فى المقدار الى مبالغ الصابات السابقة : ١٠٥٤٠٠٠ هل سنة ١٩٥٤ بينما بلغت ٩١٥٠٠٠٠ هل سنة ١٩٣٨ (انظر الشكل ٩)

وبجوار كروم الخمور هذه التى تفرض فى المستقبل حل مشكلة السوق التى ستصدر اليها هناك غروس صغيرة للعنب الصالح للاكل مساحتها تقريبا ٤٠٠٠ هكتار مقسمة تقسيما كبيرا لا تفوق فى الجملة مساحة القطعة منها الهكتار الواحد يملكها نحو ٢٠٠٠ من التونسيين شغفوا بخدمتها خصوصا جهة رفراف قرب بنزرت ، فكروم رفراف تاتى اكلها من العناقيد الجميلة من العنب المسكى العسجدى اللون قد ملىء شمسا حلو كالعسل وله ذوق زكى ـ ولذا رغب فيه للاستهلاك المحلى وللوسق ـ وانه ليجدر ان توجه الكروم التونسية الى انتاج هذا النوع وتنميته اذ سوقه مضمونة ثابتة

اشجار الرقيق : ان ظروفنا المناخية التى تتنازعها تاثيرات البحر الابيض وتاثيرا تالصحراء لهى الوسط الصالح لغراسة القوارص والتين واللوز والخوخ والبرقوق والرمان والنخيل ٠

وازدهرت غراسة القوارص فى بضع السنوات الاخيرة فبعد ان كان عددها ٤٥٠٠٠٠ اصل سنة ١٩٣٨ بلغت ٢٠٩٠٠٠٠ اصل سنة ١٩٥٥ ، وصار الوطن القبلى خاصة بين نابل ومنزل ابى زلفة والحمامات جنة متسعة الارجاء تسر الالباب بغضارة خضرتها وازهارها وثمارها ٠ ففى الربيع يتضوغ ما كمن من اريج ازهار البرتقال معتليا على روائح زهر اللوز ، فهو نفحات او يغمر موجات ثقيلة بالروائح المنعشة التى تبعث فى النفوس نشوتها ، هى الروح

المتعددة المتصاعدة من آلاف الاشجار طافية كالهالة اللامادية لا يرى لها شكل تحيط باجنة نابل . فمد النسيم البحرى وجزره يبعثان تارة شذى شجر الليمون الحامض واخرى ماء التين المز واحيانا تختلط نفحات البرتقال المنور الراخية للاعصاب المحللة بروائح الخرنوب القوية . وقد تقوى الرياح فاذا هى موجة من خليط العطور المسكرة الفاتنة ...

هذا وهناك غروس اخرى للقوارص انتشرت حول العاصمة مثل سكرة ومنوبة والمرناق وكذلك فى جهة بنزرت . والثمار التونسية من برتقال « مالطى » اشقر اللون ومن « لسان العصفور » الاحمر الوردى ومن مندرينة ومندرينة « صينية » وليمون وزنباع لها من ضخامتها ولذة طعمها ما يؤهلها لان تكون حفيدة التفاح الذهبى « لغرس الهسبريدس » . وكان انتاج قوارصنا سنة ١٩٥٤ فى اوج ازدهاره وبلغ ٠٠٠ ٤٣ طنا .

واما شجر اللوز فقد ازداد انتشاره (٣٥٠٠٠٠٠ اصل) منذ ان شرع فى غراسته خلال غروس الزيتون كما كان الشان فيما مضى بالنسبة للزيتون والخوخ . فاللوز والخوخ ينتجان بين سن الرابعة والخامسة عشر او العشرين واذا ما قلعا اذ ذاك كان الزيتون قد بلغ اشده واكتمل انتاجه ـ فهاتان من شانهما ان تنتشرا اعظم الانتشار فى جهة السباسب التونسية ، وعلى الاخص منهما غراسة اللوز

وجملة الاشجار المثمرة التونسية تنتج نحوا من ١٠٠٠٠٠ طن من الثمار (بادخال القوارص التى تبلغ وحدها نصف هذا المقدار) ويخصص نصف هذا المقدار للوسق . وهناك مشاكل تعترض وسق الثمار ، مشاكل الظرف والعرض والانتقاء يسعى « المكتب التونسى لتوحيد البضائع » الى حلها كى يضمن للبلاد التونسية زبناء مختارين بفضل حسن منتوجاتها

ويستعمل فى هذه الغراسة احيانا الفلاحة البعلية كما هو الشان بالنسبة للوز والخوخ والبرقوق والكروم وفى غالب الاحيان يستعمل السقى . واهم هذه الغراسات وابدعها بلا منازع غراسة النخيل بواحات الجنوب فهنا حقيقة ينتج اجتماع التربة والماء باعجب النتائج واحسنها

فبقطع النظر عما ينتجه ٠٠٠ ٥٠٠ ٢ نخلة حاملة للتمر من ثروة ذات قيمة للجنوب التونسى ، وعلى الاخص منها ٥٠٠٠٠٠ تنتج « دقلة النور » يوسق منها سنويا ٣٠٠٠ طن من التمر المختار المغلف فى اجمل الثياب ، ان هذه

المنخلات تدعو الى ثروة اخرى لا تقدر قيمتها هى جلب السواحيين لساحات الجنوب

٣ ــ الماء ينبغي ان ينظر الى الماء هنا كما فى البلدان الاخرى من نواح ثلاث ناحية الاستهلاك للاهالى والحيوانات وناحية سقى المزروعات وناحية انتاج الطاقة الكهربائية المولدة من الماء

ونحن نعلم ان البلاد التونسية فى باب الماء هى افقر بلدان الشمال الافريقى واقلها حظا فامطارها قليلة تهب ثلثى البلاد اقل من ٤٠٠ مم فى السنة ٠

وهذه الامطار الضعيفة القليلة الانتظام المتهاطلة دفقات كثيرا ما اثقلت كاهل النشاط البشرى والحيوانى والنباتى فى صورة نقمة جغرافية حقيقية٠ فتاثرت حياة اهل الوبر واهل المدر من الكلوم التى اصابتها من جراء ازمة الماء ، ومنها تاثر نظام الملكية والفن المعمارى الذى بنيت به المساكن ونوع الثياب وطبيعة الاشخاص نفسها وان الوقوف على هذه الظواهر التى لها ما لها من الاهمية التابعة لمشكلة الماء ليستدعي دراسة واسعة فسيحة ٠ (١) وكذلك الحلول التى حاول الانسان ان يحلها بها ونقتصر هنا على استعراض اهم عناصر المسالة المائية خصوصا من الوجهة الفلاحية ٠

ونسهل هذا الاستعراض مفصلين مميزين بين المياه الجارية والمياه المختزنة تحت الارض ــ ولكن بالنسبة الى كلا الفصلين يكون عملنا اساسيا فى ان نحصى احصاء تاما كيفيا وكميا لما وجد من نقط الماء ومن المياه الجارية وعلى الخصوص لما فى الامكان ايجاده اى فى الواقع ان ندقق الدراسة المائية الجيولوجية كى نضبط خريطة المياه السطحية والعميقة ، وبذلك فحسب يمكن الشروع فى العمل الجليل المزمع القيام به من احياء الاراضى بالوسط والجنوب

ومنذ عهد بعيد قد شرعت الادارة فى هذا العمل الرومانى الجبار لتجعل سجلا تضبط فيه الثروات المائية بالبلاد مرتكزة على الدراسة المائية الجيولوجية وعلى تحليل الرواسب الجافة والغزارة الخ ٠٠٠ وهذا عمل يستدعى مدة طويلة تعلق عليه آمال جسام على انه يمكننا منذ الان ان نستخلص منه امهات الافكار نجمعها لنؤلف منها خرائط مفسرة لطبقات المياه العميقة كما كان العمل مثلا فى جهة قفصة وسيدى بو على وحاجب العيون ٠

---

(١) انظر ص ٠ د ٠ تلاتلى « جربة واهاليها » صورة وصفية جهوية ص ٥٢ الى ٦٦ : مشكلة الماء : حلولها ٠

المياه الجارية — جريان المياه يستدعي ميلانا في الارض وتربة غير قابلة للانجراف ، وكل ذلك ليس بقليل بالبلاد التونسية • فشكل التل الاعلى وتضاريس الظهر التونسى وهضاب التل الشمالى والساحل اذا اضيف جميعها الى نوع التربة الغالب عليها الصلصال كل ذلك يساعد على غزارة الجريان وتلك آلة قوية جدا لجرف الارض عقيمة النتائج ـ ففي بضع ساعات واحيانا فى بضع دقائق تقلع التربة الزراعية الصالحة للحرث وتجرف معرية هيكل الصخور التى كانت تحتها فتتقلص مساحة المزارع اثر كل مطرة منتقصة عشرات من الهكتارات وفي ذاك تفقير للجهة يضاف اليها تفقير ثان ناشىء عن تجمع المياه فى المناطق التى لا يمكنها فيها ان تسيل وذاك موجود بكثرة فى هذه البلاد ذات القباب والجفان ـ فهناك اذا كفاحان ينبغى القيام بهما : مكافحة جرف الارض ومكافحة المستنقعات بواسطة القنوات • وان كان هذا العمل اساسيا بالنسبة لتونس فنحن لانطيل القول فى هذا الموضوع • اما مكافحة الجرف فيمكن القيام بها ببذل المليارات لانشاء سطوح متساوية الارتفاع كما اصلح جبل نحلى مثلا شمالى العاصمة وابتلع هذا الاصلاح فى ضمن برنامج خمس السنوات الثانى ٢٩٠٠ مليون من الفرنكات • ولكن لا يمكن الشروع الحقيقى فى احياء الارض الا بسياسة اساسها التشجير فى مناطق متسعة الارجاء وحيثما اجريت تجربة التشجير فانها اتت باحسن النتائج • فينبغى لهذا الغرض ان يؤمن المواطن ايمانا صادقا بصلوحية التشجير وان تحاط الشجرة باحساس من القداسة يبعث على احترامها والاعتناء بها، ويجب قبل كل شىء ان يقطع دابر عدوها الالد المعز، وهكذا يمكن ان تبعث جهات الوسط والجنوب الفقيرة التعيسة الى حياة جديدة بواسطة التشجير •

واما قلة القنوات فهى ليست تهم الجهات الشمالية المطيرة فحسب، كاخر وادى مجردة ، بل هى تهم ايضا مناطق اخرى قليلة الامطار الا ان المياه لا تتمكن فيها من المسيل، مناطق الوسط كسهل القيروان حول سبخة الكلبية وسبخة سيدى الهانى • فهناك عمل اصلاح حقيقى يشبه ما قام به الايطاليون لاصلاح اراضيهم اصلاحا تاما • فليس الغرض منه خط القنوات وتجفيف الارض فحسب بل هو يقرا لتطهير التربة وامتصاص الملوحة منها حسابهما كى تصير الارض صالحة للزراعة ثم ينظم سقى القطع الواقع انتشالها من

المستنقعات على ان هذه هى الناحية المادية للمشروع فحسب وكما سنرى ان الامر الصعب هو تكوين مستثمرين اكفاء لهذه الاراضى يمكنهم ان يجعلوا من ارضهم المسقية هذه موردا مهما للثروة والانتاج ·

فهناك مشروع عظيم لاصلاح الارض شرع فيه منذ نحو عشر سنين وهو مشروع احياء وادى مجردة · وفيه ضمانات عدة للنجاح : كمية الامطار مرضية والتربة وحلية ثرية حملها نهر مجردة ، والارض منبسطة ومياه الوادى غزيرة وهناك سوق قريبة لاقتناء البقول والثمار هى العاصمة كما ان هناك امكانيات الوسق متوفرة وبالجملة هذه عوامل شتي متنوعة كفيلة بالنجاح

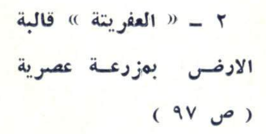
فشرعت الدولة فى بناء سد لتجمع المياه على واد ملاق وسد ثان تحت طوليرفيل بقصد سقى ٥٠٠٠٠ هكتار من الجهة السفلية من وادى مجردة كما شرعت فى بناء سد بنى مطير على وادى الليلجنوبى شرقى عين الدراهم وكان فى العزم اتمام هذا الجها زالمائى بمعامل كهربائية مائية فى امكانها بعث ٥٠ مليونا من الكيلوواطات فى العام — فى سبتامبر ١٩٥٣ تم بناء سد بنى مطير الذى فى امكانه ان يحتفظ بخمسة وسبعين مليونا من المترات المكعبة وهو يزود العاصمة بمائة الف متر مكعب من ماء الشراب يوميا· وبقية الاشغال فقد اتمت او هىبصدد الاتمام · وانشئتمصلحة لاحياء وادى مجردة القصد منها اصلاح الاقتصاد تماما بهذه الجهة ، ويهم اصلاح هذه المنطقة ٠٠٠ ٦٠ هكتار فاذا ما جففت هذه الاراضى شيئا فشيئا وجهزت للسقى يمكنها ان تعوض مزروعات الحبوب البعلية بمزروعات البقول والثمار — واجريت تجارب حسنة لزرع الارز والقطن ، ونحن نعلم ان الاراضى السقوية اذا خدمت خدمة متقنة قد تنتج انتاجا يساوى ٥٠ او ١٠٠ مرة انتاج المزروعات البعلية · فمصلحة احياء مجردة يمكنها اذا ان تقلب اقتصاد الشمال قلبا منشئة ما يضاهى وادى النيل فى مصر السفلية

على ان المشكلة فى اساسها هى ان نعلم من سيستفيد من رؤوس الاموال العظيمة التى ابتلعتها هذه المشاريع والتى تقدر فيما يخص البرنامج الثانى لخمس السنوات وحده ٣٢٠٠ مليون من الفرنكات· فبلا شك هى تجلب الفائدة قبل كل شىء للاستعمار وعلى الخصوص لالاف الهكتارات التى على ملك « شركة الضيعات الفرنسية » كما يستثمرها عدد قليل من اكابر الفلاحين



١ – « تنبش الارض
نبشا خفيفا بمحراث عتيق »
(ص ٩٩)





٢ – « العفريتة » قالبة
الارض بمزرعة عصرية
(ص ٩٧)



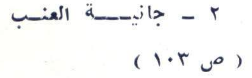
١ ـ الحصاد بالمنجل
(ص ٩٨)



٢ ـ جيش من الحاصدات
الدارسات (ص ٩٧)



١ - اعرابية تجني
الزيتون (ص ١٠٢)

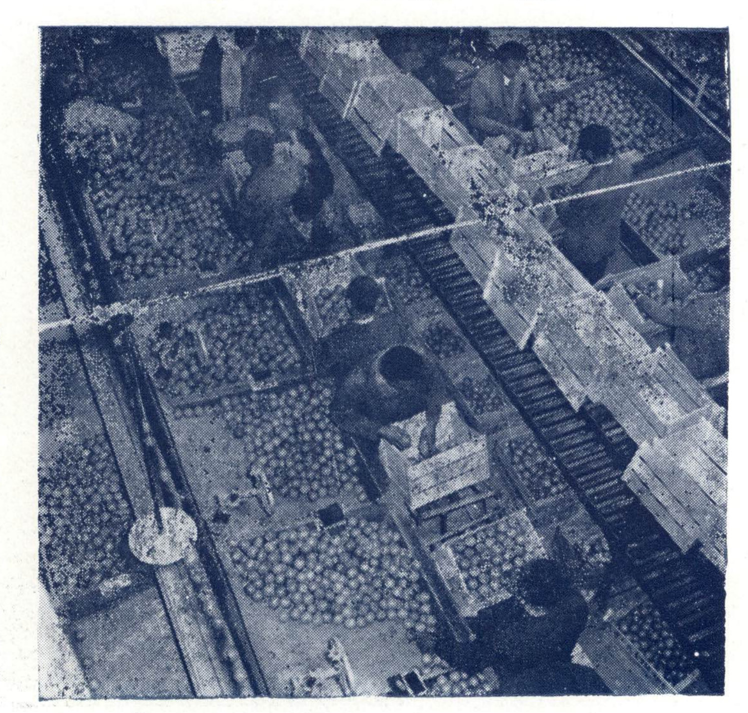


٢ - جانية العنب
(ص ١٠٣)

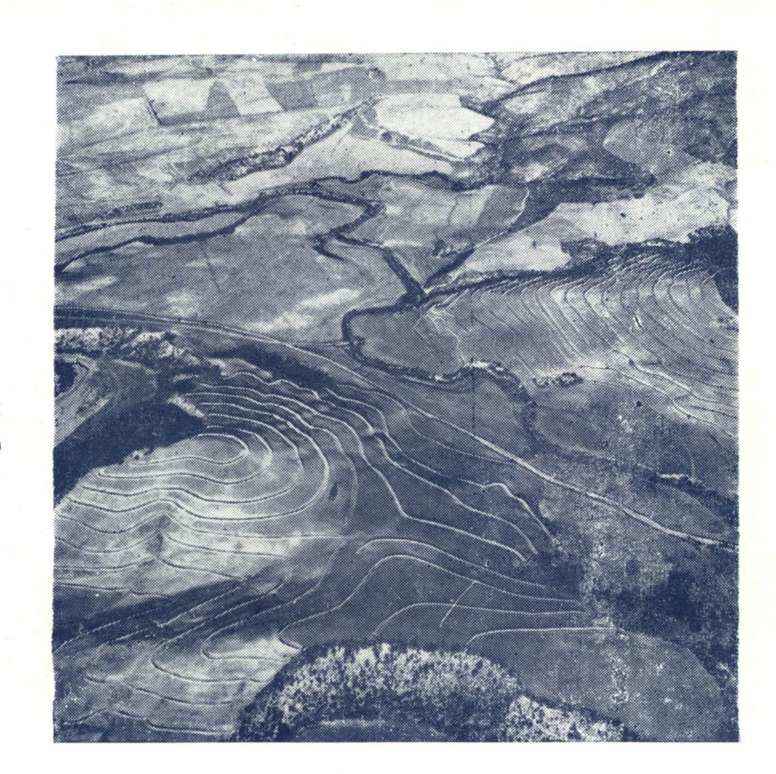




١ - التفاح الذهبى
« لغرس الهسبريدس »
(ص ١٠٥)



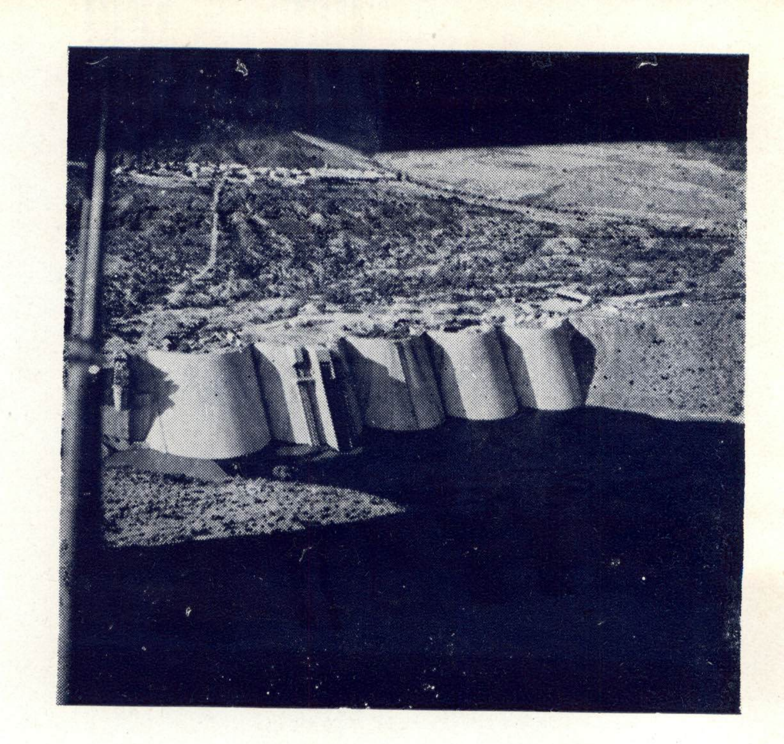
٢ - وضع البرتقال فى
الظروف المعدة للوسق
(ص ١٠٥)



١ ـ مكافحة الاجتراف
بواسطة السطوح المتساوية
الارتفاع (ص ١٠٧)



٢ ـ سد بن مطير
(ص ١٠٨)



١ ـ سد ملاق (ص١٠٨)



٢ ـ زياتين هنشير
النفيضة (ص ١١٢)

التونسيين وهى لا تجدى اى نفع لعشرات الالاف من السواعد البطالة ومن الافواه التى تترقب ما يسد رمقها بالقرب من هذه الجهة بالعاصمة وضواحيها وبلا شك لسنا نرمى الى الاندفاع بدون تبصر فى احضان اشتراكية عقيمة . بل من اللازم ان نستعمل اطارات من المغار سين التقليديين الموجودين فى الجهة نفسها بقلعة الاندلس ورفراف وغار الملح مثلا وان نضيف اليها ما يلزم من اليد العاملة الغير المختصة المتفننة . ففى الامكان هكذا لا ان تمون العاصمة ويضمن لها ذلك فحسب بل ان تبقى فواضل عديدة من باكورات الثمار والغلال صالحة للوسق .

على ان هذا التوفير العظيم للثروة الناشىء عن احياء وادى مجردة لا يهمنا الا بقدر ما يستفيد منه التونسيون ، وعدد كبير من التونسيين . فالثراء وتنمية الانتاج فيها لا محالة نفع كبير ـ هنا كما فى سائر البلدان ـ ولكن لا يتم هذا النفع حقيقة الا بقدر ما يمكننا من حل مشكل اجتماعى خصوصا وهذا مشروع قامت به الدولة التونسية نظرا للمصلحة العامة

وفى الواقع ان تكوين اناس قادرين على استغلال ماء غالى الثمن حق استغلاله لهو مشكل اصعب حلا واعوص من عملية التجفيف والسقى .

وفى هذا المعنى ان اهالى الجنوب ، وقد حرموا الامطار ، ليشعرون كثر من غيرهم بقيمة الماء وانهم ليقترون فى استعماله لصالحهم تقتيرا جديرا ان يحتذى

وفى الجنوب والوسط ليست مياه الامطار تذهب فى الجريان والسيل فحسب بل منها تمتلىء الصهاريج ، ويندر ان تجد فى هذه الجهات منزلا لا فسقية فيه . « ففى جربة لا تجد دارا ولا منزلا واحدا ولا مسجدا بدون فسقية او اثنتين او ثلاث (١) « وتملا هذه الصهاريج من الماء المستقى من السطوح او من المساقى المبنية على وجه الارض .

ففى هذه الجهات القاحلة الماء نادر له ثمن ـ ولو للشراب ولذا كان اهاليها اجدر من اهالى الشمال بتقديره حق قدره واستثماره على الوجه الاكمل .

وفى الختام ينبغى ان نلفت النظر الى انه ليست السدود الباهضة الاثمان هى الاجدى والاكبر نفعا بل هناك اعمال صغيرة بدوية لحفظ الماء فى الشعاب وقنوات فرعية ومجمعات للماء الراشح يستعمل فيها كلها وسائل اسرى

---

(١) « جربة واهلها » ص ٦٣ ـ ٦٦

الرومانية كما يشاهد فى السواقى الرومانية المستعملة حتى الان بسكـرة ، ولكل هذه الاعمال جل النفع باتفه المصاريف · ومن ذلك ان نحوا منخمسةعشر سدا صغيرا على اودية جهة قفصة والهمامة مكنت من جلب الخصب لالاف من الهكتارات

الماء فى الطبقة التى تحت الارض

قد اتفق جميع من اشتغل بالرى بالبلاد التونسية على الاعتراف بانالثروات المائية التحتانية قد تفاجؤنا بالاعاجيب الجسام وعلى كل ان لها من الاهمية اكثر مما نتوقع من النظر الى نظام الامطار (١) — وذاك على الخصوص انه فى بعض الجهات القابلة للانجراف تسربت كميـات ذات بـال من المياه فكونت فـوق الطبقات الصلبة الغير القابلة للانخراق طبقات مائية كبيرة الامتداد ، ولئـن تدرس البلاد دراسة جيولجيةمائية وان تسبر طبقاتها لاختطاط خريطة حقيقية لامهات الطبقات المائية فذلك عمل رئيسى جليل فيه من الاهمية لمستقبل البلاد ما فيه — اذ تذهب فى الواقع الاعمال سدى لو اريد اقرار الاهالى اقرارا ذابال او لو ازمع على احياء البلاد احياء منطقيا مع كوننا نجهل كنوز المياه التحتانية التى قد نعيش فوقها

وقد اجرت مصلحة الرى عدة تفتيشات وحفرت عدة آبار ارتوازية غزيرة · وعددت التجارب على اكثر من ١٢٠٠٠٠ من نقط الماء ودرست الوثائق الناتجة عنها وبوبتها ، ومنها يمكن ان تتكون لنا فكرة فى امكانيات الرى الكامنة فى البلاد

فاذا ما درسنا هذه الوثائق درسا اجماليا تبين لنا ان اهم الطبقات المائية (انظر خريطة الطبقات المائية الرئيسية شكل ١٠) ليست مثل ما يظن فـى الشمال بل هى فى الوسط والجنوب ، فمن ذلك ان اجمل الطبقات الارتوازية كائنة بجهة نفزاوة فى الجنوب الشرقى من شط الجريـد وخاصة فـى سهل القيروان · فهناك تجمع عظيم للمياه فى مساحة تناهز ١٥٠٠٠ او ٢٠٠٠٠ كم ٢ تكون عدة طبقات متراكمة الواحدة على الاخرى ، وعمـق الواحدة منهـا ٢٥٦ م وهى التى تزود مدينة القيروان بمـاء الشراب · وهناك طبقـة اخرى ذات بال تحف بخليج قابس تروى واحة قابس

---

(١) انظر مرسال قسلان : « الرى بالبلاد التونسية » ١٩٤١

ففي هـذه المناطق الثلاث على الخصوص ـ وان كانت الطبقات الصغيرة بسيدى بوزيد وحاجب العيون لها بعض الاهمية ـ هناك امكانيات لاحياء الارض قد تقلب المشكلة البشرية قلبا فى هذه الجهات .

وفى سهل القيروان الرباعى على الخصوص امكانيات جسيمة اذ بجوار الطبقة السطحية الغزيرة التى عمقها ١٥ مترا تقريبا وبجوار طبقة ثانية اشد عمقا هناك منطقة انتشار وادى زرود ومرقليل التى تمكن من سقى آلاف الهكتارات خاصة بالهوارب

اضف الى هذه النعم التى اغدقتها الرحمة الربانية على هذه الجهة نظاما عقاريا ملائما تدرك ما يفرض علينا اجراء تجربة لاقرار السكان تجربة مترامية الاطراف . فعلاوة عن الحبس الفسيح لسيدى سالم هناك هنشير سيدى عمر بوحجلة الذى يمتد على ١٠٢٠٠٠ هكتار (١) . فهذه المقاطعة الحقيقية هى ارض عروش من املاك اولاد ادير اوقفت تدريجيا منذ١٧٩٨على احباس الزوايا وتلك الظروف التامة متوفرة للسعى فى استعمار داخلى من شانه ان يطور تماما حياة جلاص والسواسى وان ياتى بالحل لمشكلة اقرار البدو فى هذه الجهة الفسيحة بواسطة الغراسة والسقى

على اننا نعيد ـ وفى الاعادة افادة ـ ان الماء وان كان هو الذى يبعث الحياة فى الارض لا يكفى بل الامر المهم الذى سيكون له اعظم الاثر هو الانسان نفسه اذ لا يتم نجاح التجربة الا بفضل عزيمته وكفاءته .

فمنذ عهد بعيد ، منذ سنة ١٩٣٣ ، انشئت « مجموعات لمصالح الرى » هى نفسها عاوضت « المجموعا تالنقابية للرى » التى احدثت سنة ١٨٩٧ . وكان على هذه المجموعات ان تساهم مع ادارة الاشغال العمومية فى اعمال السقى والاصلاح والوقاية ضد غرق الاراضى . ولا يمكن ان نقول انها قامت بعمل يذكر بالرغم عن المليارات النى دفنتها الادارة فى هذه المشاريع.على ان اهم ما قيم به من اعمال الرى الجليلة حتى ١٩٣١ اقتصرعلى بناء سد ضعيف القيمة على الوادى الكبير لتزويد تونس بماء الشراب وعلى اشادة سد ثان بالبطان على مجردة لسقى غابة الزيتون بطبربة ، كما اقتصر على حفر بعض الابار الارتوازية خاصة بالجنوب

(١) جان ديبوا : « تونس الشرقية » ص ٣٢٩ . وانظر تقرير منشيكور فيما يخص سيدى عمر بوحجلة فى المكتب العقارى ١٩١٠

وقد أحيت « مجموعات مصالح الرى » عددا من نقاط الماء ونشرت اعمال السقى بالمنخلات وباتصال مع مصلحة تربية الحيوان احدثت بعض مزارع سقوية لعلفة الحيوانات ، الا ان كل ما قامت به كان محدود الافق لا ينخرط فى سلك نظام عام مبوب تبويبا — فثارت المجاعة عدة مرات بجهات الوسط والجنوب الفاحلة ودعا ذلك الحكومة منذ ١٩٣٨ الى اختطاط نظام لاصلاح البادية سمى «مشروع البادية » · واوقفت الحرب الاعمال ثم استؤنفت سنة ١٩٤٥

وكان هذا المشروع « يعد بالجنة » فمن منشئات عظيمة للرى وقوانين عقارية وتنمية للاغنام ونشر للغراسة وتطور للسباسب · وفى نهاية مشروع الخمس سنوات كانت دار لقمان على حالها اذا استثنينا بضع اعمال صغيرة للرى · ولكن منذ ١٩٤٩ قرر مشروع الاربع سنوات المتوالية لتجهيز البلاد التونسية منح اعتمادات ضخمة للرى — فخصص له المشروع الاول ٢٧،٤مليارا والثانى ١٦ مليارا منها ٨،٣ للرى الفلاحي · ولوحظ فيهما الاستمرار فى اعمال احياء مجردة والشروع فى برنامج لمقاومة الطوفان ولنماء ثروات الرى وانشاء مناطق جديدة للسقى الخ ···

وتبذل الحكومة الان مجهودا جبارا لاحياء جهات الوسط والجنوب وانشىء منذ عهد قريب صندوق خاص بتنمية هذه الجهات (١)

ومنذ ١٩٥٤ اشترت الدولة التونسية هنشير النفيضة ذى ٣٠٠٠٠ هكتار وكونت «مصلحة النفيضة » التى تسعى فى توزيع قطعة على النزلاء وتنظيم اعمال الاحياء بهذا الهنشير · وشرع فى بعض التجارب الاخرى من هذا النوع او قد يشرع فيها قريبا · ولكن الاهم ليس فى وضع المصاريف الباهضة التى ترهق ماليتنا بل قل ليست هى ولو فى بعث الماء بالاراضى المحرومة منه بل الاهم الاهم هو ان تستقر اطارات من الفنيين والعاملين الاولين من شانهم وحدهم ان ينفخوا فى نفوس الاهالى المتعودين بحياة البدو منذ آلاف السنين حب الارض والشجر والماء فليس لرعاة رحلة ان يصبحوا بين عشية وضحاها مغارسين مستقرين — فتلك هى الصعوبة الكاداء التى تعترض هذا الاستعمار الداخلى وفى ذاك يكون فضله ومزيته وعلى ذلك يتوقف نجاحه · وفى آفاقنا الافريقية قد يكون الماء سرابا خلبا وعلينا نحن ان نجعل منه واقعا حيا منعشا

(١) انشاء الصندوق الوطنى لاحياء الوسط والجنوب : امر ٢٢ نوفمبر ١٩٥٦ للعنوان الاول · متضمنات عامة الفصل الاول ·

الباب الثاني

اساليب العيش فى الماضى

اولا : الرحالة المستقرون

الرحالة : نعم ان الراحل قد يستقر كما قد يتنسك ابليس الا انه قد يجعل من ذلك موقف انتظار وحلا للتحفز فقد يغرس الاشجار ويبنى بيتا من المدر الا انه يحتفظ ببيت شعره ويحفظ فى قرارة نفسه ازدراء للمستقر المتمدن وحبه للحرية التى لاقاها وحياة التوانى والكسل التى اعتادها حين كان راعيا متنقلا ٠

وقد يظن الظان ان الحوادث السياسية والثورات الاقتصادية والاجتماعية تغير المعطيات القارة للتاريخ والجغرافية ثم يلوح له يوما ما حين يظهر الانحلال فى السلطة المركزية مثلا او فى فترة من الفترات ينعدم فيها الامن ان هذه المعطيات التى اخمدت حينا باقية لم تتغير ولم يفل من قوتها ولا من الخطورة التى تهدد بها كان قد نحتت نحتا فى صخرة الابدية الجغرافية

وان من هاته المعطيات الثابتة التى ينبغى ان يحسب لها حساب لا فى البلاد التونسيةفحسب بل فىجميع البلاد بالبحر الابيض المتوسط تلك الضديةالتى قوتها آلاف السنين قد تختفى وقد تظهر وقد تستتر وقد تلوح للعيان بين البدو والرحالة واهل المدر المستقرين وما صح وثبت فى عهد قرطاجنة او فى زمن ابن خلدون بقى صحيحا ثابتا فى عهدنا هذا

وانما كان البدو رحالة لما فرضته عليهم الظروف المناخية وبالتبع النباتية

فى الترحال والتنقل . ففى مناطق السباسب بالبحر الابيض ليس اسلوب العيش الاعم هو ما اعتمد فيه على زراعة الحبوب كثيرة الغرر بل الخيالية احيانا بل هو فى تربية الاغنام الصغيرة من غنم ومعز : فهى راس مال متحرك يمكن نقله من مكان الى آخر بحسب الفصول . واذا ما جعل جفاف الصيف من المراعى قفارا خالية او اذا ما اقامت الاغنام طويلا بارض فاتت على ما فيها من الكلا والعشب ما بقى على الراعى الا ان يرتحل اى ان يكون بدويا متنقلا متبعا مواقع العشب ومواطن المرعى — وحياته كلها منظمة بالتتبع الى هذا العيش المتنقل فى طلب العشب والماء لقطعان اغنامه .

وهذا العيش كثير الغرر الذى يتحكم فيه ما للمناخ من عدم الاستقرار اثر تاثيرا كبيرا فى نوع مسكنه وفى عاداته ونظامه العقارى وحتى فى معتقداته الدينية .

فمن حيث السكنى اضطر الرحال الى سكنى الخيام باستمرار ومن المعلوم انه يسكن بيوت الشعر والوبر التى تنسجها النساء (١) فتنصب هذه الخيام او بيوت الشعر فى شكل دائرة ، وذاك هو الدوار ، تبيت الاغنام فى وسطها ويختلف هذا النظام الدائرى بحسب توزيع نقط الماء او اتجاه الصفوح التى يتلاعب فيها الهواء المرغوب فيها خاصة فصل الصيف — وللخيمة اتصال متين بحياة البدو حتى ان هؤلاء الاعراب فى بعض الجهات من تونس حين يتحولون الى انصاف رحالة اى الى فلاحين مستقرين جزاء من السنة ورعاة رحالين باقى الوقت يسكنون فى الغالب الخيام ولا يبنون الاكواخ الا فى القليل النادر

ويتغذى البدو من منتوجات اغنامهم التى يستعيضون بها ايضا ما يحتاجون اليه من المدن (٢) . « الحيوانات وخصوصا الغنم والابل هى المورد الاساسى لانتاج البدو وثروته فهو يتغذى من لبانها ولحومها ، ومن صوفها وشعرها ينسج ثيابه وخيامه وطنافسه ، ومن جلدها يصنع احذيته ومركباته

---

(١) انظر « كراسات الفن والصناعات بافريقية الشمالية » عدد ٤ سنة ١٩٥٥ « الخيمة بجهة القيروان » و« الخيمة بجهة قفصة » بقلم ب . برج « الارتحال والخيمة بجلاص » بقلم ش. مرطل

(٢) الم يكن اللفظ اللاتينى Pecus مدلوله الاغنام الصغيرة وفى آن واحد العمولة ؟

وحروج دوابه ولاقتنا ما يحتاج اليه من تمر وحبوب وآلات يكتفى بان يبيع لاهل الحضر الذين يتزود منهم بضع شياه او الصوف التى اجتزها منها » (١)

فالبدو يضطر دائما الى التنقل قصد الانتجاع ولذا لم يتمكن حب الارض من نفسه كما هو الشان بالنسبة للحضرى فهو مار يمر ولا يهمه من الارض سوى كلؤها لاملكها وفى ذلك ما اثر اثرا قويا على النظام العقارى فى معظم البلاد فبجوار اراضى «الملك» اى الاملاك الخاصة هناك اراضى العروش التىعلى ملك القبائل البدوية اونصف البدوية منذ زمن بعيد خصوصا بالوسط والجنوب كما كان هناك اراض محبسة مؤبدة لا يسوغ بيعها اوقفها مستحقوها على عدد من الورثة دون سواهم ، فما دامت الطبقة المذكورة فى رسم الوقف موجودة كان الحبس خاصا وبعد انقطاع المستحقين صارت الارض وقفا على مرجع دينى نص عليه رسم الوقف الاصلى وصار الحبس عاما تشرف عليه ادارة الاحباس

واستغل الاستعمار استغلالا فادحا النظام العقارى لاراضى العروش والاحباس العامة ونشر على عملية الانتزاع سترا قانونيا بانشاء وضعية الانزال التافه القيمة فى غالب الاحيان (امر ٢٣ ماى ١٨٨٦) فعملية السلب العام لاموال التونسيين لفائدة المعمرين كانت ضربة قاسية قاتلة لطائفة من الفلاحين التونسيين افلسوا بين عشية وضحاها ـ ومما زاد الامر خطورة ان استحواذ الاستعمار على هذه الاراضى افسد التعادل الجغرافى المتقادم منذ آلاف السنوات

«فقديما قبل انتصاب الحماية كان رعاة الوسط والجنوب رحالة او نصف رحالة . فبعضهم كان يتنقل فى طلب النجعة وكان البعض الاخر يرتحل في طلب الشغل نحو الجهات السعيدة بالشمال ، كثيرة الرى شديدة الخصب، نحو افريقية الشهيرة وكانت حركة الترحال تشتد كلما ازداد الضنك وكلما تعكرت حالة السنين الاقتصادية . فمنذ شهر فيفرى يشرع الرعاة فى الرحيل متقدمين بدوابهم وخيامهم نحو مراعى الشمال حيث يقضون الربيع ومعظم فصل الجفاف . وكان هذا الترحال الحيوى منظما نظاما منطقيا منذ غابر العصور كما هو الشان فى بلاد البحر الابيض ـ فكانت طرقات اعتيادية ترعى الاغنام

---

(١) ش. بران : « البحر الابيض المتوسط ص ٩٨ »

على حافاتها وكانت نقط للماء تقف عندها وكانت اراض للعروش تنتشر بها الاغنام وتنتجع مراعيها ٠

وكانت اراضي العروش هذه فسيحة جدا ويكون ما بقي منها بالوسط مقاطعات تامة كما هو الشان باحباس سيدى عمر بوحجلة التى تبلغ ١٠٢٠٠٠ هكتار واحباس سيدى مهذب التى تبلغ ٣٦٦٠٠٠ هكتار

واما رحلة اليد العاملة فقد كانت تشمل قديما فى سنى الاجاحة اكثر من مائة الف راحل من المثاليث والسواسى والمهاذبة واولاد سعيد وجلاص والهمامة وحتى من الطرابلسيين

وكانوا يتزاحمون على الشمال قصد الاشتغال بالاعمال الفلاحية من حصاد وجنى للزيتون ويرجعون على اعقابهم آخر الصيف حاملين بضع غرائر من الشعير او القمح الذى التقطوه وشيئا من الزيت ناقلين اسرتهم جمعاء على ظهور الاحمرة او الجمال

وفى سنى الاجاحة تختلط الرحلتان رحلة الانتجاع ورحلة الاشتغال وقد تبلغان اهمية قصوى ، ولكن فى افريقية من الخيرات ما يفى بحاجة عامة ابنائها

فكان هذا تعادل جغرافى بين الوسط والجنوب من جهة وبين الشمال من جهة اخرى ويفى خصب الشمال وريه بما يجد فيه جفاف الوسط والجنوب وتعاسته من الاعانة والانتقاذ من الشقاوة والاعواز

وتتم حركة التوازن هذه برحلة الانتجاع وبرحلة الاشتغال وهكذا لا يتبع سنى الجفاف واجاحة مجاعات واعوازات تبلغ حد الكارثة الفاجعة والمصيبة العامة

وانقرض هذا التعادل الطبيعى بفعل الاستعمار ٠٠ وللاحراز على اقطاعات الاستعمار كان على المستعمر ان يغتصب اراضى العروش والاحباس التى لا تباع واملاك الدولة ٠ فلم يرهق اهل القانون ضميرهم باى واعز او اى اعتبار اخلاقى واتخذت عدة اوامر بين ١٨٨٦ و ١٨٩٨ ليسهل التفويت فى الاحباس العامة وسنة ١٩٠٥ سمح امر باشتراء الانزال — وبذلك قضى الامر وتم ما كانوا يبغون

« وفيما يخص اراضى العروش فمنذ ١٩٠١ زعم « الحافظ » لاملاك الدولة انه ينبغى تحويل اراضى العروش الى املاك الدولة وخصص امر ٣٠ ديسامبر ١٩٣٥ جزءا من هذه الاراضى للقبيلة تحت اشراف الدولة فتضخمت املاك الدولة هكذا ثم قسمت قطعا للاستعمار

وكان من هذه الشعوذات القانونية ان كست الاغتصاب الجماعي صبغة قانونية ـ ومنذ١٨٩٢ اى عشر سنوات بعد انتصاب « الحماية » وزعت ٤٤٣٠٠٠ هكتار ـ اى مساحة مقاطعة فرنسية ـ على ١٦ معمرا او شركة خفية الاسم

ثم نما هذا العمل وازداد وازدهر وكانت نتيجة هذا الانتزاع الجماعي ان انتشرت طبقة ضعيفة من الفلاحين المفلسين وان تعذر بالخصوص الارتحال الى الشمال قصد الانتجاع

وكان لذلك نتائج مفزعة خصوصا سني الجدب • فغلت سواعد اكثر من مليون من الاهالي وتقيدوا فريسة للمجاعة وبجوارهم القريب اراضي اجدادهم التي لا تباع ولا تشترى منذ الابد تحمل صاباتها (١) وثرواتها التي هي ملك من املاكهم الى اناس اجانب عنهم »

واليوم ، في تونس المستقلة ، من الحتمي ان يرفع الظلم وان يصلح الخرق الناشيء عن اغتصابات الاستبداد التي ذهب ضحاياها الفلاحون والبدو والرحالون •

ومن الحتمي ان يرجع الى التوازن الجغرافي الطبيعي اذ ان يقصر مجال الترحال على جهات السباسب فيه ما يفسر ان تجتاح الاغنام في سني الجدب اجتياحا فادحا يؤدى بنصف عدده ، وتقدر هذه الاغنام بقيمة ثلاثين مليارا فيمكننا هكذا ان نتصور مقدار الكارثة التي تصيب المربين التونسيين للاغنام • وليس المقصود بالطبع ان تحول جميع الاراضي الخصبة بالشمال المنتجة للحبوب الى مراع ومسارح ولكن الغرض ان يدرس مشروع للترحال سنعود الى ذكره عند الخوض في مسالة تربية الاغنام •

وحياة الرعي المتنقلة هذه التي تاثر بها البدو في مظاهر عيشه باسرها تفسر قوة انتشار صناعة الطنافس التي ترتبط ادق الارتباط بحياة البدو ، فالطنافس تستعمل قبل كل شيء ما تنتجه الاغنام من الصوف ثم هي تكون عنصرا اساسيا من اثاث الخيام وهي لا تشغل حجما كبيرا وقت التنقل • والبدوى، وان تحضر، يتذوق دائما الطنافس الضخمة التي يلوح في زينتها تاثر محسوس بالرسوم البربرية • وان كتب لطنافس القيروان الشهيرة عظيم

---

(١) ص • التلاتلي : « على المجاعة ان تقف » في « تونس الشابة » ١٥ جوان ١٩٤٧

الازدهار فذاك في البدء تابع بدون شك لمجاورة منطقة البدو بالسباسب التونسية ·

واخيرا قد يمكن ذاكر ان يذكر للعرب الرحالة معتقدات دينية خاصة، فظروف عيشهم العصيبة ربت في نفوسهم تعصبا للمساواة قد يبرر مدىما لقيته من الاقبال من طرف هذه القبائل نزعات الخوارج المتطرفة · وكانت هذه النزعات فى نظرهم سلاحا من الاسلحة التى تمكنهم من مقاومة اهالى المدن المتخمجة واهل الحضر المناوئين لقطائع اغنامهم ·

على ان كل الفرص كانت صالحة لديهم لكى يشاغبوا الفلاح المتحضر الذى يدعى حق التضييق من مراعيهم بما يغرس من اشجار واجنة وما يزرع من مزروعات · والحضرى من جهته الذى يجعل همه فى استثمار الارض بعرق جبينه ليعتبر البدوى كعدوه الالد · والتاريخ الداخلى للمغرب يرتكز باسره على هذه المناوءة الظاهرة للعيان او الكامنة الخفية احيانا · فاذا ما قويت السلطة المركزية نشاهد دائما تغلب الحضر على البدو وتغلب الزراعة على تربية المواشى · واذا ما انحلت اواصر الحكومة وانعدم الامن فى البوادى تغلب اهل الوبر وخربت الحقول والاجنة وانزوى الفلاحون الى مداشرهم متحصنين فيها — وذاك مد وجزر مستمر دائما بين البدو والحضر ·

ففي الساحل التونسى فى عهد قرطاجنة او فى العهد الرومانى انتشر اهل الحضر مجتمعين فى القرى والمدن وازدهرت زراعة القمح وغراسة الزيتون وتضخم عدد السكان وعند انهيار الامبراطورية الرومانية رجع البدو من ناحية الغرب التى آووا اليها وكانت الغلبة لهم · ثم دفعوا فترة من الزمن ثم عادوا اشر من قبل وادوى وكان زحف بنى هلال فى القرن الحادى عشر فمحى الازدهار الفلاحى محوا بعد ما عونى اشد العناء لاشادته وانهالت امواج البدو متلاطمة بابواب المدن نفسها · وطيلة القرون الوسطى ظل خطر البدو الهدام مهددا لمعظم البلاد التونسية تجمهر غيومه فى سمائها ·

واليوم بالعكس وقد استحوذ الاستعمار على الاراضى واستتب سلطان مركزى قوى انزوى البدو متقهقرين امام غراسة الزيتون بالساحل ، وظهرت من جديد قرى ضخمة فلاحية واثر ما لقيته غابة الزيتون بصفاقس وسوسة

من الازدهار وعظيم النجاح قد شوهد ـ ويا للمعجزة ويا للغرابة ! ـ قد شوهد بعض البدو انفسهم يطوون خيامهم ويشرعون فى غراسة الزيتون ـ وقد وصف لنا جان ديبوا فى كتاب جليل خصصه بالساحل (١) مظاهر هذا الاستقرار بالمثاليث والسواسي وجلاص والمهاذبة وبقايا الفكرة البدوية بين هؤلاء العروش المستقرة فى الظاهر . ففى السواسى والمثاليث نشاهد على الخصوص الخيمة بجوار الكوخ المبنى من المدر على انه وان تعطلت رحلة الانتجاع بانقطاع المواشى قد بقيت رحلة اليد العاملة اقوى من ذى قبل .

ففى كل سنة تندفع عشرات الالاف واحيانا مئات الالاف من البدو العراة الحفاة متجهين نحو الشمال للاعانة على الحصاد او جنى العنب او الزيتون الا ان غريزة النهب باقية فيهم وقد شاهدنا ذلك فى السنوات الاخيرة سنوات الاضطراب . فادعى بعضهم حق التقاط الحبوب او حصادها بالقوة بل تعرضوا لالات الحصاد والدرس ومنعوها من العمل ليعاوضوها وظهر ابليس من مخبئه واثارت فترة انعدام الامن ما جبلوا عليه من ميل الى النهب والسلب وتجلى بكل وضوح ما تنوسى من المعطيات الجغرافية الازلية الدائمة . وفى ذلك كما ذكرنا عظيم الخطر، خصوصا ونحن نشاهد منذ خمسة عشر عاما تقريبا استقرار البدو المرتحلين قصد الاشتغال بجهات الشمال . ففى جهة بنزرت وماطر وتبرسق وباجة وقرنبالية وخاصة بجهة العاصمة يلاحظ استقرار عدد عظيم من الواردين على هذه الجهات . وينبغى التحذر من ذلك اذ فيه ما يهدد امن المزارع وامن المدن وفيه خطر على الازدهار الفلاحى لاثرى الجهات بالبلاد . ففى العاصمة وحدها وحول العاصمة يقدر الاعراب الذين استقروا هناك بين ١٩٣٦ و ١٩٤٦ بقدر ١٥٠٠٠٠ ، فانشئت هكذا طبقة فقيرة بالمدينة تعيسة فى غالب الاحيان هى تتخبط فى البطالة فتتكدس بخر ب الجبل الاحمر والملاسين (انظر فيما يلى باب مستويات العيش) .

فمن المتاكد اذا ايقاف الرحلة قصد الاشتغال او التخفيف منها وان يبحث عن حل عام لهذه المشكلة . وقد كان هذا البعض من غرض الحكومة حين قررت احياء جهات الوسط والجنوب .

(١) جان ديبوا : « تونس الشرقية » ص ٤٧٣ ـ ٥٣٢

اهل الحضر : اما اهل الحضر فلا نطيل القول فيهم اذ سنتعرض لاشغالهم وشواغلهم فى سائر فروع نشاطهم : من فلاحة وصناعة تقليدية وصيد للاسماك وتجارة وصناعات حديثة الخ ... على ان اهم ما اهتموا به دائما هو حاجتهم الى الحصول على الامن فى اجنتهم وزراعاتهم ومدنيتهم الحضرية فلذا لم يكتب فى شمال افريقية لحياة المدن والحياة البلدية من الازدهار والانتشار اكثر مما كتب لهما فى البلاد التونسية . وليس بالمغرب ما لتونس من عديد المدن ومن القرى الضخمة البرية حيث وجدت الحضارة الاسلامية وثقافة الاسلام وسطا ملائما اشد الملاءمة بين بلديين رقق حواشيهم ما مر بهم من سابق الاحتلالات ، فمدن كالقيروان وتونس وسوسة وصفاقس وقفصة بقيت فى اشد الفترات اضطرابا مراكز باهرة للثقافة حيث حافظت طبقة من البلديين المتمدنين على التقاليد القديمة وقوتها فيما يخص الصناعات والفنون والامور الفكرية . وان انتشار الحياة المدنية هذه وديمومتها ليسا هما فحسب طابعا خاصا للبلاد التونسية بين بلدان الشمال الافريقى بل فيهما من عناصر التقدم البشرى ما كان بدون منازع كفيلا بالنهضة التونسية الحاضرة .

وقد لاحظ جغرافى بارع (١) ما فى هذه الظاهرة الاساسية من طرافة قائلا: « على ان هناك ناحية مهمة ، وهى الوحيدة من نوعها ، بقيت فيها الحياة القروية العتيقة قائمة على ممر القرون بالرغم من احداث تاريخ اكتضت فيه الاضطرابات: تلك هى الناحية الشمالية الشرقية والشرقية من البلاد التونسية .

فهناك – وهناك فحسب – بين السهول والهضاب الرخوة تعددت القرى حيث تزدحم الدور آهلة يسكنها مئات واحيانا آلاف من السكان . وهناك فحسب يعيش من الاهالى من جعلوا من الغراسة وعمل الاجنة ومن الزيتون على الخصوص موردا ذا بال له من الاهمية ما يفوق اهمية الحبوب وتربية الاغنام . وهناك فحسب كانت الاملاك خاصة منذ عهد قديم وتقسمت تقسيما وهناك فحسب – ما عدى ما يخص القرى الجبلية والقصور – تجمعت مجتمعات من الفلاحين تشبه نظيراتها باروبا، متعلقة اشد التعلق بقراها واراضيها واشجارها»

وهذه الحضارة المدنية التى فيها قوة الهيكل الاجتماعى التونسى ازدهرت على

---

(١) جان ديبوا : « افريقيا البيضاء الفرنسية » ص. ٣٢٧

طول الساحل من بنزرت الى جربة مكـونة عددا عديدا من المداشر والقـرى الضخمة والمدن ·

وما كان منها بالشمال الشرقى فى جهة بنزرت وتونس وقاعدة الوطن القبلى اصطبغ صبغة اندلسية اثرت فيهـا منذ ان تعاقبت عليها موجـات اللاجئين الواردين من اسبانيا من القرن الثالث عشر الى القرن السابع عشر · وهناك سكان ناشطون تفننوا فى غراسة الاجنة وتربية الاشجار وفى الصناعات كما نشاهد براس الجبل ورفراف وتستور وغار الملح ومجاز الباب وطبربة وسليمان وحول هذه القرى منطقة من الاجنة متقنة العمل تحيط بها اسيجة من الصبير تسقى من آبار يعاوض فيها محركات السقى آلات السنى العتيقة وبالعكس ان المداشر جنوبى الوطن القبلى وبالساحل لا فضل لاحد عليها فى تكـوينها · فغرسوا القوارص على الشاطىء الجنوبى من الوطن القبلى وجعلوا من هذه الاجنة الفسيحة الارجاء مقاطعة تضاهى مقاطعة فلوريدا نبتت فيها زاخـرة حيوية ونشاطا مدن خلابة كنابل والحمامات ومنزل ابى زلفـة ودار شعبان ـ وامـا المجموعات الحضرية بالساحل فهى تعبر احسن تعبير عن مدنية حقيقية مدنية الزيتونة تترامى جذورها الى اعماق الازمان العتيقة ، وبقطع النظر عن سوسة والمنستير والمهدية وصفاقس التى تلوح فى مظهر المدن الضخمة والتى هى قبل كل شيء مواني ، تنتشر المداشر ببياض سطوحها وسط غابة الزيتون ·فليس هناك اجنة ـ ما عدى حول صفاقس ـ بل هناك بحر من الزياتين · وشغلت فكرة الامن الافكار فاجتمعت المساكن وتراكمت وبالرغم عن كون كثافة السكان تبلغ ١٠٠ و٢٠٠ فى الكم ٢، وقد تفوقها، بالرغم عن ذلك كانت المساكن متجمعة وهذه المداشر الضخمة الفلاحية لها بمساجدها واسواقها وحماماتها ميـزات المدن الاسلامية · وتلك صبغة مساكن وجمال والقلعة الكبرى والمكنين وقصور الساف وجبنيانة وعشرات اخرى من القرى ·

وبجربة بالعكس قد ادت العزلة واستتباب الامن نسبيا التابع لحياة الجـزر ان تفرقت المساكن فكانت ضيعات بيضاء منتشرة فى انحاء الجزيرة التى تكون واحة نخيل وزيتون ·

وان كانت مدن الشاطىء هذه قبل كل شيء مقر غارسى الاشجار والصناع وصيادى الاسماك ونخبة من اهل الفكر كانت داخل البلاد وعلى الخصوص عند

حدود السباسب والتل مدن هى فى اساسها مراكز لتبادل المنتوجات بين اهل البادية واهل الحضر وفى غالب الاحيان هى تحمل اسما هو اسم اليوم الذى ينتصب فيه السوق بهذه المدن كسوق الاربعاء وسوق الخميس فهناك تاتى الرعاة لتستعيض عن منتوجات اغنامهم منتوجات زراعى الحبوب وارباب الصناعات • ففى هذه الاسواق المتنوعة الالوان يقتنى اهل البادية منتوجات صناعات ادوات الفلاحة والطنافس والنسج والفخار والحبال وادوات النحاس بعد ان باعوا فيها غنمهم وصوفهم وسمنهم ودجاجهم •

واما شكل الدور وذوق بنائها ففيهما بعض الفروق بين الشمال والجنوب على ان هياتها العامة هى هى اذ فيها جميعا ما يفى بحاجيات واحدة وفكرة شاغلة واحدة • فالدار التونسية تولى وجهها الى الداخل وتفتح البيوت والنوافذ على ساحة وسطى كما كانت الدور الرومانية فى آخر عهدها • ومن الخارج هناك فتحة واحدة هى مدخل الدار • فالحياة العائلية تعرض عن الطريق العام بل هى تنتشر وتزدهر فى الساحة الوسطى • فتكتسب انهج المدينة — ما عدا الاسواق — من ذلك هياة رهيبة متزمتة مغلقة • وسقوف الدور مسطحة فى الغالب او هى مقببة والسطوح متقنة التبييض تستعمل كمساقى للصهاريج ومناشر يجفف عليها الزاد من تين وفلفل وكسكسى واحيانا فى ليالى القيض قد تستعمل للمبيت •

وهكذا فى الفترة الاعتيادية حين يستتب الامن يبقى كل عنصر فى اطاره الطبيعى فيتكامل الاقتصاد البدوى والاقتصاد المدنى تكاملا توافقيا ويبقى ازدهار احدهما مرتبطا بازدهار الثانى • فتلوح تربية الاغنام هكذا كعنصر اقتصادى اساسى لا بالنسبة للبدو فحسب بل وحتى لاهل الحضر •

٢ — اقتصاد الغابات والمراعى

تحل الاغنام فى الاقتصاد التونسى اولى المراتب وتقدر قيمتها باكثر من ٦٠ مليار من الفرنكات ويحل انتاجها الرتبة الثانية فى النشاط التونسى اى بعد انتاج الحبوب وقبل انتاج الزياتين والمناجم بكثير • فتلك حينئذ ثروة اساسية ولكن مما يزيد فى اهميتها ان كان معظمها (٩٥٪) ملكا من املاك التونسيين والغالب على هذه الاغنام ان كان معظمها من النوع الصغير لما فرضته عليها الظروف المناخية بالسباسب التى تكون معظم البلاد ، ففى سنة ١٩٥٤ احصى

٣٢١٥٠٠٠ من الضان ونحو المليونين من المعـز فى حين كان عدد البقـر ٤٥٦٠٠٠ تجتمع اكثرها شمالى الظهر التونسى وهذا القطيع الذى يعد نحو ستة ملايين من الدواب ذات القرون يكون اهم راس المال من الحيوانات ٠ على انه لا ينبغى ان نغبن حظ ما نجد من الابـل اى نحو ١٥٠٠٠٠ خصـوصا بالجنوب ومن الخيل اى ما يتراوح بين المائة الف والمائة والعشرين الفا خصوصا بالوسط والشمال ومن البغال اى ٥٧٠٠٠ منها خاصة بالشمال وحتى من الحمير — وقد يفوق عددها ٢٠٠٠٠٠ — اذ قد يتعذر جزء كبير من اقتصـاد بلاد البحر الابيض لو عدمت هذه الحيوانات وبقطع النظر عما للخيول العربية المرغوب فيها رغبة خاصة من الاهمية كما لجواميس طيبار من بين البقر ومـا للمهارى العادية من بين جمال الجنوب اننا سنقتصر هنا على معظم ما يتكون منه القطيع التونسى اعنى الدواب الصغيرة ٠

فنوع الضان التونسى من الجنس البربرى ذى الذيل الضخم فتحمل الغنم هكذا فى ذيلها ذخرا ذا بال من المواد الدسمة التى تمكنها من تحمل ما للمناخ من تصرفات عابثة تحرمها من مواد المعاش جزءا من السنة قد يكون طويـلا او قصيرا ٠ فهذه الحيوانات ملائمة اتم الملاءمة للوسط الطبيعى وهى صالحـة للجزارة يرغب فيها فى صورة لحم الحمل ولو فى السوق الفرنسية ٠

ومن سوء الحظ انالانتاجفى اللحومغير منظم لانعدام دورة البرد وهويختلف من سنة الى اخرى متاثرا بتغيرات عدد الغنم ، واما الصـوف فيستعمل ثلثـا الانتـاج الذى يقدر بنحو ثلاثـين الف قنطار للصناعة الصـوفية المحلية من برانيس وقشابيات وفرش وطنافس ومنسوجات وخيام الخ ٠٠٠

ومن الجدير بالذكر ايضا بعض العشرات من آلاف النعاج الصقلية بجهة الشمالتربىلانتاجها مناللبن الذى يجمع لحسابشركة تابعة لشركة روكفور٠

واما قطيعالمعز فبالرغمعناهمية عدده (١٩٣٧٠٠٠) سنة ١٩٥٤ فقيمتهاقلمن قيمة قطيع الغنم ٠ والمعزة التونسية تشبه معز البيرينات وهى تنتشـر على الخصوص بالجهات الصخرية او جهات الغابات الضعيفة من التل الاعلى الداخلى فهى بلبانها وشعرها وجلدها غنيمة للاهالى المعوزين العائشين بهذه الجهات ٠ وهى ليست هناك خطرا على الزراعة ، وانما يكون لها من سوء الاثر حينما تزحف على جهات الشمال هاتكة الغروس الصغيرة من الاشجار فتصير اذاك العدو الالد الذى ينبغى محقه بدون رافة ولا حنان ٠

وفي الجملة ان الوصف الاساسي للاغنام التونسية ــ وعلى الخصوص الضان ــ هو في شدة تغيرها . ففي بعض سني الجفاف هناك كوارث حقيقية تضعف القطيع قد تصل به الى نصفه . فقطيع الغنم كان سنة ١٩٤٢ يعد ٣٦٧٨٠٠٠ وانحط سنة ١٩٤٨الى ١ ٥٨٧ ٠٠٠ ــ وفي ذاك الانحطاط مصيبة للاهالى الرعاة من جهات الوسط والجنوب خاصة اذ تعد الاعمال القديمة لقفصة والقصرين والقيروان ومكثر ما يفوق نصف المجموع من قطيع الضان .

على انه لا يكفي ان نسجل هذه الكوارث وان نعزوها الى تصرفات السماء الحتمية ، بل ينبغي ان نتعرف الى اصل الداء لفهم ماهيته وكنهه والاصل كما شاهدنا هو ان قد غير النظام الطبيعي للرحلات في طلب النجع . واراضي المرعى بالشمال التونسي التي كانت هي وحدها من شانها ان توجد فيها المراعي الصالحة وقت الجفاف قد استحوذ عليها الاستعمار وصير منها اراضي للزراعة ــ فنتج عن ذلك ان حدد مجال المراعي ووقف عند منطقة السباسب فلا غرو اذا تاثر قطيع الغنم اشد التاثر بما للمناخ من سوء الانتظام وقد حرم من منطقة مراعيه الصيفية .

وهكذا يلوح الدواء بطبيعة حاله : وهو ان تنظم رحلة الانتجاع باحترام الظروف الطبيعية الواقعية ــ فلا يمكن ان يفكر في جل البلاد في تحويل تربية الاغنام المرتكزة على فسحة الفضاء الى تربية للاغنام مرتكزة على انماء عددها في اصغر فضاء ــ فعلى الحكومة اذا ان تنشيء في الشمال خصوصا ذخرا فسيحا من المراعي المكونة من المروج الاصطناعية او من مزارع القرط . ويكون نقل الاغنام بواسطة الارتال فتتحاشى هكذا مشيا قد يطول مئات الكيلومترات وقد هزلت فيموت منها الكثير في الطريق . ويستخلص بالطبع لفائدة الدولة اداء موظف على النقل وعلى مدة الاستقرار ، ويكون في ذلك غنم للكل وفيه ما يكفل وحده حماية هذه الثروة القومية المهددة اليوم بالاخطار والتي في وسعها ان تصير في المستقبل القريب مورد ثروة لجميع الاهالى الرعاة بهذه البلاد . على ان هذا التحوير اللازم لتربية الاغنام يوافق تماما ما يرمي اليه من تحديد مناطق المرعى تبعا لنشر غراسة الزيتون .

ويجد اقتصاد الرعاة البدو بالوسط والجنوب متمما ذا قيمة في جني الحلفا وهذا النبات خاص بالسباسب الجافة فلا يظهر الا في الجهات التي ينصب فيها من المطر ما لا يفوق ٤٥٠ مم في المعدل . فيكون خصلات غاصة قد تعلو نحو

المتر وتعم ما يقرب من ٠٠٠ ٢٠٠ ١ هكتار من المنطقة السبسبية الفاصلة بين الظهر التونسي وشط الجريد • وتقلع الحلفا بكل حرية وبدون رقابة وتحمل على ظهور الابل وتحزم حزما ضخمة بالقرب من محطات الارتال وفيها مورد ذو بال لهؤلاء الاهالي الفقراء ولو كان هذا المورد غير منتظم ، ومذ اكتشف احد فنيي ايكوسا سنة ١٨٦٤ انه يمكن استعمال الحلفا لصنع الورق صارت انقلترا اهم مستورد للحلفاء • على ان الصادرات التونسية من الحلفاء تتفاوت تفاوتا قويا فمرت من ٠٠٠ ١٥٢ طن سنة ١٩٤٨ الى ٠٠٠ ١٧١ طن سنة ١٩٥١ ثم انحطت سنة ١٩٥٥ الى ٠٠٠ ٥٠ طن • فتاثرت باختلال الاسعار حيث قويت الى ٤٠٥٩٦ فرنكا سنة ١٩٥١ ثم سقط الى حد ٧٦٩ ١٢ فرنكا سنة ١٩٥٤ المزاحمات التجارية فمر سعر الطن من الحلفاء من ١٢٥٠٠ فرنك سنة ١٩٥٠ فلا ينبغي اذا ان يقاس الانتاج بانتاج سنة ١٩٥١ الذى زود البلاد التونسيه بمقدار من العمولة يفوق ٥ مليارات من الفرنكات •

على ان انتاجا معدلا قدره ٠٠٠ ١٠٠ طن قد يمنح مدة ستة اشهر او هى ثمانية ما يفي بحاجيات الاهالي وتزداد قيمته اذا علمنا ان هؤلاء الاهالي هم جملة الاشقياء من الرحل او انصاف الرحل • فذاك اذا انتاج قيمته قبل كل شيء اجتماعية ، ولذا يتحتم منذ الان ـ علاوة على اتخاذ التدابير لحماية رقعة الحلفاء ـ ان يفكر في مشكلة تحويل الحلفاء الى عجين الورق • والعقبة الرئيسية التى تقف في وجوهنا في هذا الصدد هى ايجاد كميات كبيرة من الماء الخالص

واذا ما اقتحمت هذه العقبة يمكننا انشاء معامل الورق بجهة خمير مثلا فنساهم هكذا فيما يجب الشروع فيه من انماء ثروة البلاد •

وقد تكون الشواغل التى تشغل افكارنا من جنس هذه الشواغل اذا ما تعرضنا لثروات الغابات (١) • فللبلاد التونسية ١٠٩٦٢١٢ هكتارا من الغابات تشغل ٠٠٠ ١٤٠ منها اشجار الفلين وبالرغم عن ذلك ان البلاد لا تستثمر الا ثمرة ضئيلة من هذه الثروة : كخشب الوقود وعوارض السكك الحديدية واعمدة المناجم وخاصة الفلين • فانتاج الفلين الخام او المصنوع مكن البلاد سنة ١٩٥٥ من تصدير ٢٩٩ ١٠ طنا قيمتها ٦٩٦ مليونا من الفرنكات • على انه يمكن تونس ان تستمد قيمة اوفر من ثروات غابتها وقد يجديها نفعا ان تقتدى بالجزائر التى انتصب بها ٨٢ معملا لتحويل الفلين الى صمامات او

غيرها من الادوات ، وقد يكون من السهل على بلاد خمير حيث معظم اشجار فلينها ان تنشىء معامل لتحوير هذه المادة مستعملة لمحركاتها الطاقة الناشئة من المعامل الكهربائية المائية الكائنة عند سدود بنى مطير وملاق ٠

وفى ذلك ما يمكن من تشغيل اهالى خمير التعساء فيكون فى القيام بهـذا العمل غنم من الناحية الاقتصادية ومن الناحية الاجتماعية ٠

٣ ـ الصناعات التقليدية

ان اهم شاهد على انواع العيش فى الماضى التى تتقادم الى ما وراء القرون الوسطى وهى تشغل حتى اليوم عددا كبيرا من صناع ورثوا تقاليد ثرية غنية ببراعتها وذوقها الفنى ، هو بلا منازع شاهد الصناعات التقليدية ٠

ولعل من اجل ما تكتسى به تونس وكبار المدن التونسية رونقا وجاذبية هذا التعاكس العجيب وهذه المجاورة لمشاهد متفاوتة فى الازمان من معـامل متقنة اتم اتقان ومن حوانيت ضيقة يحلها صناع اساليبهم عتيقة مصطفة فى اسواق هى منظر من مناظر الف ليلة وليلة ومن ادوات مختلفة الالوان لمـاعة عطرة لها من الجمال والرونق الخلاب ما لصور الفن البدائية ٠ فعلى بضع مئات من المترات تخترق عصورا عديدة وقرونا مديدة تطور فيها فن الصناعات من القرون الوسطى التقليدية الى التصنيع المادى للقرن العشرين ٠

وتلوح الصناعات التقليدية كبقايا عهد طويل تمادى فى الواقع حتى عهد الحماية سعت فيه البلاد التونسية ان تعيش فى دائرة اقتصاد مغلق راغبـة فى القيام بشؤونها بنفسها متوجهة الى الخارج باقل طلب ممكن ٠

وتشعب نشاط الصناعات التقليدية ممتد الى سائر فروع الانـتاج وكـان يرمى الى ان يزود البلاد بجميع حاجياتها من الناحية المادية او الفنية فكان اوضح مظهر من مظاهر هذا الاقتصاد المغلق الذى استقر حتى الان فى بعض الجهات فى المستوى العائلى ٠

وفى اهل البادية الرحالة بقيت المراة ـ كما كانت فى عهد البونيقيين ـ هي التى تنسج الخيام والاقمشة الصوفية والطنافس البدوية المحففة الشعر (كما فى وذرف وقفصة وجلاص والفراشيش) وهن اللائى يصنعن الفخـار للاستعمال المنزلى (من الكوانين والطوابين والاقلال) ويشتغلن باعمال الخيزران وحبال الحلفاء ٠

وهذه الصناعات التقليدية البرية التى تشتغل بها فى الغالب النسوة ترمى الى ان تحور فى البلاد نفسها جزءا من انتاج الاغنام والفلاحة وما يجنى من الصابات وهي دائما تابعة لما يفى بحاجيات البلاد فكانت محافظة على اهم التقاليد البربرية العريقة المتقادمة الى آلاف من السنين . وتلوح لنا هذه التقاليد على الخصوص فى الزخرف الهندسي للطنافس والثياب والفرش والفخار (انظر متحف الفنون الاهلية بتونس) .

اما الصناعات المدنية فهى فى الغالب حسنت الاساليب البربرية بادخال بعض العناصر الاجنبية وخاصة الاندلسية منها ووسعت فى نطاقها . على انه يتجمع فى الاسواق بدون ميز انتاج الصناعات البدوية وانتاج الصناعات المدنية الا ان كل سوق قد خصصت عادة الى مجموعة مختصة بصنع فصل معين من الفصول وتحمل السوق اسم الصناع المباشرين لحرفة معينة . فنجد بتونس كما شاهدنا سوق الشواشية وسوق العطارين وسوق البلاغجية والحوكة والبرانصية والصاغة الخ ...

ومن سوء الحظ ان هذا الهيكل الصناعى الذى كان يفى بحاجة البلاد الاقتصادية وكان فى اوج ازدهاره حتى انتصاب الحماية تصدع والفلس لما انصب عليه من السيل الجارف من نوع من الاقتصاد هو الاقتصاد الاستعمارى اغدق على السوق التونسية تيارا طاميا زاخرا من المصنوعات الميكانيكية .

فلم يكن فى مقدور الصناع ان يقاوموا هذه المزاحمة الاجنبية القوية هؤلاء الصناع الذين حافظوا طيلة القرون العديدة على دقائق التقاليد لصنع الانسجة الحريرية المطروزة بالذهب وحروج الجلد المزخرفة الصنعة والمصوغ المنقوش .

وبعضهم تمادى على العمل والسوق كاسدة وبعضهم انقرض اثرا بعد عين ، ومن ذلك ان بعض المجموعات الصناعية كاملة انقرضت كما يشاهد فى سوق الغرابلية .

على انه رغم الانحطاط ورغم الافلاس التابع لتوريد المنتوجات الصناعية الاجنبية ، بقيت الصناعات التقليدية المحلية ـ وهى آخر حلية من حضارة تونس فى القرون الوسطى ـ بقيت هذه الصناعات قليلة النظير فى العالم لما قاومت به لحفظ بقائها وكيانها ـ نعم هى احيانا سايرت ذوق الوقت وقد وفقت او لم توفق لصنع بعض (المصنوعات الشرقية) قاصدة فى ذلك بيعها للسياح ولكنها فى سائر مظاهر نشاطها حافظت على ما اتصفت به من حذق

ومهارة فنية وحرص على الاتقان مما اشتهرت به المصنوعات التونسية طيلة القرون ومما يشاهد سواء فى طنافس القيروان الضخمة وفى النحاس المنقوش بتونس وفى طرز العدس بنابل وفى غيرها من المنتوجات النفيسة او المفيدة التى يحق لصناعتنا ان تفتخر بها ٠

على انه ليس من الصواب ان يظن انه لم يبق لهذا النشاط من القيمة سوى قيمة اعجاب السياح واتحافهم بالمناظر الطريفة ٠

بل هو بالعكس يشغل قسما مهما من السكان وفى الاحصائيات الاخيرة ما يؤكد ذلك ، فهناك بالبلاد التونسية ٢٣٠٠٠ معمل منها ٨٨٠٠ للنسج ، و ٤٨٠٠ لصنع الثياب و ٢٢٠٠ لصناعة الجلد و ٣٣٠٠ لصنع الخشب و ٥٠٠ للصناعات الفنية ، وبالجملة ان هذه الصناعات تشغل ٩٠٠٠٠ عامل ٠

واذا اضفنا الى ذلك الصناع العاملين بمحلات سكناهم سواء بالمدينة او بالبرية٠ وقد يفوق عددهم الخمسين الفا ــ كان المجموع من ١٤٠ الى ١٥٠٠٠٠ صانع يعيش بانتاجهم عدد منالتونسيين يتراوح بين ٥٠٠٠٠٠ وبين ٦٠٠٠٠٠ فندرك اذا ان مشكل الصناعات التقليدية ليس بالمشكل الثانوى بل تتبعه توابع اجتماعية ذات بال خصوصا وقد لا تنحصر قيمة هذا المشكل فىالعاصمة وحدها بل هى تهم البلاد باسرها ــ وما من مركز من المراكز ولا جهة من الجهات لا تمتاز بخاصية صناعية ــ فنسج الصوف والقطن والحرير يتجمع بجربة (نسج الفرش) وقصر هلال (المنسوجات القطنية الزرقاء للبدو) وتونس (نسج الحرير والفوطات والبرانص) وقفصة وفى عدة انحاء من الساحل ٠

وكانت جربة تعد سنة ١٨٧٥ عددا من الانوال قدره ٤٢٨ ينسج عليها ٢٥٢٤ من النساجين فانحط هذا العدد سنة ١٨٨٢ الى ٦٧٢ عاملا ولا يمكن ان نوضح ايضاحا اقوى من هذا اثر الحماية الاقتصادية الجديدة ، ثم رجعت صناعة النسج الجربية من دهشتها وسايرت الظروف الجديدة مع المحافظة على طابعها الخاص وهى تعد اليوم ٤٠٠ نول يعمل عليها ١٥٠٠ نساج ومعامل النسج لها كلها واجهة يونانية وتشتمل على انصاف قباب محمولة على اقواس والمنوال بدائى والنزق يجرى باليد ولكن اهل جربة عرفوا كيف يستخرجون من هذه الالة البسيطة بدائع المصنوعات رقة ورونقا وجمالا : فمن فرش صوفية مخططة ملونة ومن برانص ومن منسوجات صوفية وحريرية متقنة اتم الاتقان ــ ومن

سوء الحظ هنا ايضا كان للمزاحمة الصناعية الاجنبية اسوء الاثر احيانا ٠

اما الطنافس التى بقيت قاعدتها القيروان فلها طابع يشبه طابع آسيا الصغرى وفارس مع رقة فى اختيار الالوان اخرجت بدائع المصنوعات المؤتلفة الالوان (١) ٠ كما يوجد انتاج ثان للطنافس اقل زخرفا ومنطبعا بطابع بربرى في جهة وذرف وبنزرت وباجة ونابل ٠ وتنسج بنابل حصر مزينة بالاشكال الهندسية ٠ وبتونس تصنع الشاشية التى هى من اهم الصناعات التقليدية وبجربة يصنع الفخار المنزلى وبنابل الفخار الصينى الفنى ٠

ويتجمع فخار جربة بقلالة قرب مقاطع الصلصال ويجرى العمل على مدارات بدائية والافران توقد تحت الارض ٠ فيصنع هؤلاء الفخارون البرابرة جميع انواع القلال والجرار وادوات الطبخ وغالب هذا الفخار غير مطلى ٠ وهناك ٢٨٠ معملا تمكن من اصدار الفخار الى جميع انحاء البلاد التونسية « فلا تجد عند هؤلاء الفخارين من جربة حركة فى غير محلها ولا اشارة مخطئة او زائدة ولا اى خطا فى ضبط الخطوط الجميلة الخالصة التى تذكرها بفضل عظمة بساطتها بصناعة الخزف العتيق ببلاد مينوس وباسفايي ـ وذلك انه منذ قرون عديدة توارث الابناء عن الاباء ضبط سرعة الحركات التى تتولد بها من مادة صلصالهم المنتوجات المرنة التى تتشكل بها جرارهم الهوميرية » (« جربة واهالى جربة ص ١٨٠) ٠

وبنابل فخار ابيض للاستعمال المنزلى وهناك خاصة خزف مطلى مزركش يدعى « الخزف الفنى » وكان عدد المعامل سنة ١٩٤٢ يبلغ ١٠٨ بادخال معامل الآجر يشتغل بها ٨٢٠ عاملا قارا وقلفة ويستخرج الصلصال من «غار الطفل» وآلة المدار هى عين الآلة التى كان يستعملها المصريون منذ ٢٠٠٠ عام ، اما الزخرف وقد يناط بعهدة الشبان فتلوح منه براعة عجيبة وعبقرية حقيقية واصل الطلى من مادة الرصاص ويلون بعدة اصدئة معدنية اعدت فى افران خصوصية ٠

واذا ما كتب للفخار التقليدى المستعمل فى المنزل كما كتب للآجر ان تبقى سوقه نافقه فقد اعترضت الخزف الفنى واوعيته وزليجه ازمة قوية ، وكان

---

(١) « مذكرة فى احياء الطنافس والاكلمة بالبلاد التونسية » لج٠ ٠١ ريفو فى « كراسات الفنون » عدد ٤ ـ ١٩٥٥

للزليج الايطالى والاسبانى وللماعون الفرنسي كبير الاثر فى ذلك ·

ونقش الحجر بدار شعبان مكن من تحلية الاطارات لابواب المنازل بجميل زينتها لابالوطن القبلى فحسب بل وحتى بالساحل·وليس فى الامكان ان نعدد جميع المراكز وجميع المداشر التى تزدهر بها آلاف من المعامل الصغار لصنع الحديد وتخشيش الخشب وتزويقه وصنع الاثاث الصدفى والصبغ والطرز والشبكة وعمل الجلد والنحاس وصنع المصوغ · ويجب ان تخصص دراسة طويلة لذلك على انها ممتعة خلابة ·

وكل هذه الحياة الصناعية المتنوعة التى تفرعت واورقت وازدهرت بجميع انحاء البلاد تدل ـ ولو عند اقل التونسيين رقة ـ على ذوق فنى وحذق وبراعة يدوية حقيقة عجيبة · وهناك بالطبع جهات فيها استعداد اقوى مما فىغيرها ولكل بصفة عامة هذا النشاط يقيم الدليل فى آن واحد على تفنن الوسط التونسى وعلى ذوق صناعي كان له فى الماضى ـ وسيكون له غدا ـ اعمق الاثار على الاقتصاد التونسى ·

٤ ـ الصيد

بقى الصيد بما له من اساليب عتيقة ومن نظام فردى ومن تقاليد اجتماعية خاصة بقى هنا بالرغم عن بعض المجهودات التى بذلت لتعصيره نشاطا تقليديا فى جملته ·

ومناظر الصيد المصورة على الفسيفساء الرومانية الجميلة بمتحف باردو لتذكر بادق وصف ما نشاهد من مناظر الصيد حتى اليوم ولم تتغير اساليب الاقتناص ولا الشباك ولا نوع الاسماك ولا حتى النوع الانسانى المكون للصيادين · وهناك تقاليد للبحر الابيض حية مستمرة على مرور القرون هى اقوى حيوية فى هذا النشاط البحرى·

والوسط الطبيعى نفسه بالرغم عن بعض التغيرات للساحل بقى هو هو ·

ولم يكن البحر الابيض منذ القديم بحرا كثير الاسماك على ان عدد الحيتان يختلف اختلافا قويا بحسب الجهات ويعتقد اليوم ان العنصر الاساسى المؤثر على توزيع كمية الاسماك انما هو امتداد البطاح البرية تحت البحر · فهناك تجد الانواع القارة او المتنقلة مراعى متسعة خصبة ومناطق للصيد ممتازة ·

ومن هذه الناحية ان البلاد التونسية هى بلا منازع من اوفر البلدان حظا بين بلدان البحر الابيض ·

فمنحنى العمق التابع لرقم ـ ٢٠٠م الذى يقف على بضع مئات من الامتارمن الشواطىء الجزائرية يمتد احيانا الى ٤٠٠ كم من السواحل التونسية· فتتكون فى عرض الشواطىء التونسية ـ وخاصة على الحافة الشرقية بين الوطن القبلى وليبيا ـ بطاح برية قد تمتد فى عرض البلاد التونسية نفسها ـ ومما يزيد في قيمة هذا الحقل المائى الفسيح ان توجد فى خليج قابس وخاصة حول جزر قرقنة وجربة امواج قد ترتفع الى قدر مترين فتعجن ما تتغذى به الحيوانات البحرية عجنا وتمكن على الخصوص من انتشار مناجم خصبة من الاسفنج·

فالقعر قريب العمق والمياه نيرة فاترة والغذاء متجدد منظف بتلاعب الامواج وكل ذلك اعان على حياة حيوانية ونباتية غزيرة متنوعة ـ وهواة الصيد البحرى الذين مكثوا بنادى « البحر الابيض » ليعلمون ذلك حق علمه · وتفترش مروج فسيحة من انواع الاعشاب البحرية باسطة اشرطتها الطويلة المتشعبة ما باعماق سرت الكبيرة المرتفعة من اوحال رخوة ورمل دقيق منحصر بين شعورها الغضة ما ضرب بها من معاش حى منعش وعدد عديد من المجموعات العضوية الحيوانية والنباتية التى يتكون منها الزاد اليومى لما لا نهاية له من الحيتان والحيوانات اللافقرية وذوات القشور والاصداف

« فبجوار الاسفنج المستقر على جذور الزستار قنافد البحر الحريقة والمحار والقرنيط والسوبيا ـ وتختلط بجماعات الورقة المرفرفة المتنقلة الجموع المتجولة من البلاميت والسكمبرى والقاروص وبجوار الحيتان المفرطحة من حصير وغيره

وفى غيران الرواسب الكلسية الصخرية يسكن المنانى الضخم والتريليا الشهيرة النافعة الكسوة التى يبلغ عددها نسبة فريدة قرب قلالة ويصب القرنيط كتلته اللزقة المتعجنة فى العقور الصخرية او على مروج الضريع التى يعمرها كثير من السيبيا

« · · · وهذا التجدد فى طبيعة الغذاء وهذا الخلط اليومى هو الاساس فى انتشار الحيوانات البحرية

... ومجارى المد والجزر ساعدت اشد المساعدة على تكوين هذا المعدن من الثروة الذى لا ينضم من مراكز الاسفنج ـ فسمحت للمادة الحية ان تصل الى الاعضاء الثابتة من الاسفنج ومكنت من حمل الرواسب باستمرار وتصفية الماء منها » (١)

والحيوانات والنباتات البحرية التى تزدهر بخليج قابس هى تقريبا عينها مع تفاوت فى الكمية عى طول الشواطىء التونسية . ويجب ان نضيف الى ذلك فى الجباب العميقة بجزيرة جالطة الـ... الحمراوية الضخمة وبخليج تونس السريطينات البحرية التى تبلغ احيانا طولا ذابال (٢٠ صم) وشيئا من المرجان غير مستغل قرب طبرقة على الخصوص اسرابا مرتحلة من التن والحوت الازرق على الضفاف الشمالية من الوطن القبلى وبالساحل

فكل هذه الثروة المائية التى تتصور ايضا بغزارة فى عدة بحيرات مالحة مجاورة للشاطىء هل وقع استغلالها استغلالا مفيدا نافعا ؟ وما هو مدى ما استثمر منها السكان المجاورة للشاطىء ؟

وما هى وسائل الصيد واساليبه التى استعملوها ؟

تلك عدة اسئلة يجب ان نجيب عليها باختصار

يمكننا فى الجملة ان نقسم انواع الصيد (١) الى قسمين : قسم يؤخذ فيه الحوت من مصطادات قارة وقسم اساسه اقتناص السمك فى عميق البحر

فالمصطادات القارة اما « شرفية » او « زرائب » كما فى خليج قابس او طرق ومصائد لاقتناص التن او مراكز لاستغلال البحيرات

والصيد المتحرك او الصيد على الشواطىء اما صيد بالقلاع او صيد نارى او صيد لذوات القشور او صيد للاسفنج

والزرائب والشرفية تحتل جملة الشاطىء بين المحرص وجرجيس اذا لم يبعد قعر البحر اكثر من مترين واشد ما يكون هذا النوع حول جزر قرقنة وجربة وبالرغم عن كوننا نجد مصطادات قارة من هذا النوع منذ عهد قديم

---

(١) انظر دى فاج وبنرفرا « الصيد البحرى بتونس » ١٩٠٨ و٠١ قرافل صناعة الصيد على الشواطىء التونسية »

على البحيرات الشاطئية بالبحر الابيض (١) ان هذا النظام المستعمل على ضفاف خليج قابس نظام خاص بهذه الجهة . واساسه ان توجه الاسماك التى يحملها المد والجزر الى ان تتبع سياجا من خصاص النخيل مغروسة فى الرمل الواحدة حذو الاخرى . وهذا السياج فى شكل ٧ يتجه راس زاويته نحو غريق البحر وينتهى الى عشوش هى بيوت الاقتناص

ولكن هذا المحصر مازال متسعا فينبغى التضييق فيه للحصول بسهولة على انتاج الصيد

فتستعمل خديعة لا تخيب فى مفعولها هى ان يتراءى للسمك شبح الحرية فتفتح فتحة صغيرة وسط اسيجة الحصر الحالكة ويتسرب فى هذه الفتحة نور زمردى تنغمس فيه مروج فسيحة من الخز ، وذاك وطن الحرية ...

ولم يبق بعد مجال للتوقف والحيرة ، فيندفع السمك من هذه الفتحة الصغيرة وما كانت الا مصيدة اذ هى شبكة يمكن الدخول فيها (١)ويتعذر الخروج منها ... بوسائل السمك الخاصة »

ويمكن ان نحصى مئات من هذه المصائد الثابتة المكونة من سعف النخيل على طول الشاطىء الصفاقسى (٢) ومنها مئات عديدة حول جزر قرقنة وجربة ومن العجيب ان نعتبر هذه المصائد كاملاك خاصة والبعض منها كان احباسا موقوفة ـ وقد اثبت امر ١٩٣١ للحائزين ـ ولو كان ذلك من مشمولات الاملاك العامة البحرية ـ حق الحوز « الوقتى » .... لمدة ٩٩ عاما !

واما المطارق فهى شباك ضخمة مثبتة باوتاد على اتجاه عمودى على الشاطىء على الطريق المعتادة التى تمر منها هجرة التن ـ ويدفع هكذا بالتن من حجرة الى

---

(١) « جربة واهالى جربة » ص ١٥٦

(٢) ديبوا : « تونس الشرقية » ص ٥٣٤

اخرى حتى يصل « حجرة الموت » التى يتكون جدارها الاخير من شبكة يرتفع طرفها » فتتصاعد الشبكة المتحركة باستمرار فيلوح قطيع التن باجمعه ويضغط الواحد منها على الاخر فاذا هو يقبز قفزات الياس ... وتاخذ البحارة نشوة ناشئة عن منظر فريستهم فتزداد ضرباتهم سرعة وقوة ويصير الصيد مجزرة حقيقية . وهناك مزدحم من الناس لا يميز فيه بين الاشخاص ، وهى رؤوس تتحرك بعنف ، وسواعد محمرة ترتفع وتقع وخطاطيف تشتبك وتقترع وتلمع الاعين وتصرخ الافواه صرخات الانتصار وتتعالى جلبة التحريض والتشجيع »

(دى كاطرفاج)

وبالرغم عن كون كتا باعتق الاجيال الماضية نصوا عن هجرات التن فقد وصفها فيمن وصفها بليـن (جزء ٩، ١٧٢) واصطرابـون (ج ١٧، ١٨٣) وبالرغم عن كونها تبعها اقرار بعض المصائد الثابتة كثيرا ما كانت مجاورة للمصائد الحالية ، وبالرغم عن البحوث الحديثة (١) العديدة ، لقد بقيت هذه الهجرات مبهمة مجهولة بعضا ما فينتج عن ذلك نتاج من الصيد عديم الانتظام من فصل الى آخر . ومن شهر ماى الى شهر جويليـة عـلى الخصوص تتسرب اسراب هؤلاء الرحالة البحرية الى مصائد سيدى داود وراس الزبيب والهوارية والمنستير وكرنيليرا (بجـزر قـوريات) وبرج خديجة (براس كبوديا) . واهمها جميعا مصيدة سيدى داود وفى الشمال الغربى من الوطن القبلى التى تنتج وحدها اكثر من نصف الانتاج باجمعه

وقد التزمت استغلال هذه المصائد المثمرة شركة ذات بال « شركة المصائد التونسية » عوض ان تحتفظ الدولة بادارتها ، وتساندها معامل للتصبير

---

(١) دراسات هلدت على التن الاحمـر فى مجلة المعهـد البحرى لصلمبو اعداد ٥ و٧ و٩ و١٣ و١٨ و٢١ و٢٣

خاصة بسيدى داود (١) تستخدم مدة شهرين او ثلاثة اشهر مستضعفين فى الارض من اليد العاملة الاسبانية او المحلية قليلة العدد

والبحيرات التونسية كبحيرات بنزرت او اشكل تونس والبيبان لها فى القنوات التى تصل بينها وبين البحر مصائد قارة هى فخوخ حقيقية لاصطياد السمك (٢) فالعمل مختصر الى اقصى حد وكذلك اليد العاملة وذاك مما يزيد فى الارباح • وبعض المصائد كمصائد بنزرت وتونس واشكل تحت تصرف الدولة المباشرة بينما كانت مصائد اخرى كمصائد البيبان والكلبية التزمتها شركات خاصة

واما الصيد المتنقل او الصيد على الشواطىء فيستعمل اساليب عديدة

فمنها العتيق كالشبكة المحاطة بالرصاص التى تلقى على السمك قرب الشاطىء فيقتنص بها المنانى خاصة ويخدع السمك ويزاد فى جذبه نحو الشبكة بربط ذكر منه حى فى طرف خيط طويل ، ثم يترك يحوم بعض الشىء ويجذب متبوعا بعدد عديد من الاناث ، وقد يجعل الهوى على عيونها غشاوة تاتى بها بين يدى الصياد فيلتقطها بشبكته الصغيرة ـ على اننا نعترف ايضا انه اذا كان المربوط بالخيط انثى ويكون عدد الذكور التابعين لها اوفر واقوى ـ وتلك اساليب عتيقة جدا اذ يذكرها بلين ناصا على استعمالها بجهة نربون من بلاد الغول وبفينيقيا • وكان علماء الاخلاق ، فيما يذكر لنا ، يستنكرون هذه الاساليب

---

(١) منذ انتهاء الحرب لم يبق من المعامل فى الشمال سوى معمل سيدى داود ـ وبه يصبر ايضا ما اقتنص بالهوارية • ويوجه انتاج جزر القوريات نحو المهدية

(٢) الانتاج السنوى (معدل سنتى ١٩٥٣ و ١٩٥٤) فى الهكتار البحرى:
اشكل: ٥ الى ٦ كغ ، بنزرت (لا يقدر، ضعيف) تونس : ٤٠ الى ٥٠ كغ البيبان : ١٢ كغ ، الكلبية : ٤ كغ ـ وفيما يخص البحيرة الاخيرة يتسمم السمك بصفة عريضة ، اذ هى بحيرة مغلقة ، فتجف تماما فى سنى الجدب كما وقع من ١٩٤٢ الى ١٩٤٩ • وفيما عدا بحيرة بنزرت (١٠ م) وبحيرة البيبان (من ٤ الى ٦ م) يتراوح عمق البحيرات التونسية بين متر واحد ومترين

وتستعمل ايضا شبكة عظيمة مستديرة تدعى الدماسة او الجماعة ـ ويحجر استعمال الكيس ، وهو شبكة عظيمة جذابة ، اذا كان البعد عن الشاطىء اقل من ثلاثة اميال وتستعمل ايضا حول جزر قرقنة السلة خاصة لاقتناص اللانقوسط والفخ لصيد الفرنيط وشكله شكل نعارة على ان اهم الصيد على الشاطىء هـو ما كان على القارب او الصيد النارى او جنى الاسفنج

فالصيد بالقارب وانتاجه يساوى ما يقرب من ثلث مجموع الانتاج البحرى يستعمل اساليب فنية عصرية فتجر زوارق بخارية مجرفة عظيمة تجرف عباب الماء بين ٢٠ م و ٥٠ م . وهذا الصيد يقوم به على الخصوص صيادون ايطاليون ويحفظ السمك فى صناديق مبردة وذاك اهم مصدر تتموون منه السوق المحلية ويضعف الانتاج تبعا لنفاذ السمك فى تلك المياه وخاصة لما تعود به الملاحون من ارجاع مراكبهم كل مساء وذاك مما يحدد مجاريها ـ فلذا يمر الصيد بالمراكب منذ عامين ازمة قد تكون قاضية عليه هذا وعلى الخصوص ان كثيرا من الصيادين الايطاليين هاجروا البلاد منذ ١٩٣٩ ولم يعاوضوا حتى اليوم (بالنسبة لميناء صفاقس فحسب هذا العدد ٨٠٠)

والصيد النارى او باللمبارة ياتى بالسمك الازرق من سردينة والاش وسنمورة و السكمبرى والبلاميط ـ ففى الليالى الحالكة التى لا قمر فيها اذا كان البحر هادئا ، فى الفصل الجميل من افريل الى نوفمبر تخرج مراكب مجهزة بانابيب ذات مرايا عاكسة فتجذب الى سطح الماء السمك الازرق جاذبية تشبه المغناطيس . وتصل هذه الاسماك تعد بالملايين فى غريق البحر التابع للمهدية وسوسة فيلمع البحر لمعان الفسفور ـ ولم يبق اذا الا جمعها بواسطة شباك عظيمة دائرة ـ وترجع المراكب عند الفجر الى موانى الساحل ملاى من السردينة التي توجه الى معامل التصبير بالمهدية وسوسة وحتى تونس

واخيرا جنى الاسفنج خاصية من خاصيات خليج قابس ويتم ذلك عادة بواسطة الكماكي وهو فرش ذو خمس اسنان تمكن الصيادين على مراكبهم الصغار من قلع الاسفنج من اعماق تتراوح بين ١٠ و ١٢ م . ويتمكنون من ضبط مواقعها بواسطة سطل ذى قعر بلورى يسمونه المرآة

ويبيع اهل قرقنة واهل جربة اسفنجهم خاما وذاك ما يسمى « الصيد

الاسود » ــ واما الايطاليون واليونانيون فيصطادون على الخصوص بواسطة لباس الغوص او الشبكة الجارةثم هم فى المساء ينظفون اسفنجهم وذاك مايسمى «الصيد الابيض»٠واسفنج الصيد الابيض له من القيمة ثلاثة او اربعةاضعاف قيمة الاسفنج الناتج عن الصيد الاسود بواسطة الكماكى وكثيرا ما اخذ على هـــذه الاساليب للصيد ما هى عليه من العتاقة وقلة الانتاج ، ولقد كان بعضهم يـــود لو استعملت لذلك اساليب عصرية قوية المصاريف مستخدمة مراكب بخارية مجهزة باجهزة للسير مرتكــزةعلى الاصوات الصامتـــة الغيـــر المسموعة (١) وبالة تشير على مراكز الحوت وباجهزة للصيد عصرية وحجرات ببطن الباخرة مبردة الخ ٠٠٠ على انه ليس ذلك مما تحسن الرغبة فيه وان التجربةالمغربية ولو كانت تابعة لمعطيات اخــرى ــ لما يدعم وجهـــة النظر هـــذه ــ فتحسن اساليب الصيد وتعصيرها الى حد بعيد قد يكون لهما نتيجتان سيان عقمـا وفسادا : التنقيص فى عدد الصيادين باستعمال الالات الميكانيكية ، ومن جهة اخرى نفاذ الثروة السمكية باستغلالها استغلالا قويا ٠ وهناك مجال واحـــد يظهر فيه ان هذا التعصير ذو جدوى وهو مجال الصيد الفصلى وصيدالسمك الازرق، وليس معنى ذلك انــه لا ينبغى ان تؤخذ بعض التدابيـــر فى هـــذا الشان بل كما سنرى هذه التدابير ان كانت تهم الاساليب نفسها فهى تهــم اكثر من ذلك الظروف الطبيعية والحالة الاجتماعية والمظهر المالى للمشكلة ٠

فما هى حينئذ النتائج وما هى مكانة الصيد فى اقتصادنا وفى سوق اليد العاملة ؟٠

فحسب احصائيات ١٩٥٤ تقدر جملة عدد البحارة بقدر ١٤٠٠٠ يستعمل ١٠٠٧٠ منهـــم لصيد السمـــك و ٢٧٤٤ لصيد الاسفنـــج و٥٩٨ للصيـــد على البحيرات و ٦٠٠ فى مصائد التن ٠ وصيد الاسماك نفسه يستعمـــل ٧٠٣٠ بحارا للصيد على الشاطىء يستعملون ٢٠٠٠ مركبا و ١٠٨٥ للسمك الازرق و ٦٨٣ يستخدمون الزوارق بقطع النظر عن البحارة الصيادين لانواع ذوات

---

(١) هناك باخرة واحدة بالمهدية مجهزة بسابر مستعمل للاصوات الصامتة

القشور ـ على ان جميع هذه الارقام ما هى الا تقريبية اذ عدد الصيادين والعملة الذين يعيشون بنتيجة الصيد (معامل التصبير) هو يفوق بكثير الاعداد السابقة ويتفاوت تقسيم هؤلاء التجارة الصيادين على سائر موانى الصيد واهمها : صفاقس (٢١٤٧ صيادا) والمهدية وسوسة وجربة والمنستير وقابس وجرجيس وحلق الوادى وبنزرت وقليبية ويلوح من تطور الانتاج فى سائر الفروع نمو ذو بال وان كان يتفاوت بالنسبة لكل نوع

نتائج الصيد (اطنان) (١)

	معدل ١٩٣٦ ـ ١٩٤٠	١٩٤٥ ـ ٤٩	١٩٥٠ ـ ١٩٥٤
الصيد بالقارب	٢٩٢٠	٢٧٢٠	٢٨٧٠
الصيد النارى	١٥٩٠	٣٢٧٠	٤٥٤٠
الصيد الشاطئى	٣٣٥٠	٣٥٢٠	٣٩٢٠
الصيد على البحيرات	٧١٠	٤١٠	٧١٠
محاصر الشباك	٤٠٠	١٥٠	٨٥٠
الجملة	٨٩٧٠	١٠٠٧٠	١٢٨٩٠

فيلوح ان اشد النمو هو ارتفاع الصيد النارى ـ فبعدما كان انتاجه ١٠٠٠ طن سنة ١٩٣٩ صار ٣١٧٠ سنة ١٩٥٠ و ٦٠٩٠ طنا سنة ١٩٥٤

وهذا النمو العظيم مرتبط بمعامل التصبير للسردينة بالمهدية وسوسة ويزيده اعتبارا ان تجمعت المعامل بالساحل حيث عدد السكان كبير وحيث الموارد المالية قليلة ـ ولكن من سوء الحظ لا يستفيد منها الا نحو الالف من الصيادين وذاك عدد ضئيل ـ وفى الواقع انما يستفيد منها ارباب معامل التصبير ٠

(١) ج فيبار : « صورة الاقتصاد التونسى » فى « المجلة الاقتصادية والاجتماعية بتونس » ١٥٥ ص ١٦٤

على ان اهم ما يستنتج بوضوح من هذا الجدول الاختلال الكبير في توزيع الانتاج

فهذا الصيد الشاطئي الذى يستخدم اكثر من ٧٠٠٠ عامل اى نصف عدد الصيادين باجمعه لم ينتج سنة ١٩٥٤ الا ٢٦٧٧ طنا قيمتها ٣٥١ مليونا بينما اتى صيد القارب الذى لا يستعمل سوى ٦٨٣ صيادا بقدر ٢٦٨٣ طنا قيمتها ٤٦٦ مليونا ، ومجموع باقى الصيد ٨٠٢١ طنا قيمتها ٤٦٦ مليونا ، واخيرا جنى الاسفنج التى انتج ١٨٠ طنا بيعت بقيمة ٢٠٢ مليون من الفرنكات

ويتجلى الخلل فى نظام الصيد اذا فكرنا ان جملة الانتاج ١٣٩٠٠٠٠ سنة ١٩٥٤ غنم منها ٩٧٤٤ بحريا صيادا (للصيد الشاطئى وجنى الاسفنج) قدر ٥٥٣ مليونا بينما اختص الباقون وعددهم ٢٨٠٠ بقدر ٩٢٧ مليونا

وفى الواقع ان الاختلال اوضح واجلى

فصيد الشاطىء والصيد بالقارب يتقاربان في الانتاج وزنا وقيمة ـ ولكن بينما يستخدم الاول ٧٠٠٠ بحار فان الثانى يتجمع بين ايدى اصحاب ٧٣ قاربا • فالبحارة التعساء الذين يستخدمون القصبات او الشباك الواهية ليساهموا فى الصيد الشاطىء بقليبية والساحل والجنوب لا ينالون الا منابا حقيرا من المحصول • وفى غالب الاحيان يملك الزورق وجهازه ملاك صغير يختص بجزء من نتيجة البيع ويخص محركه بجزء وشباكه بجزء ويتكرم بالربع الاخير على من شقى وعرق لاقتناص السمك

ولا ينبغى ان نطيل البحث فيما عدى هذا النظام المختل لنفهم الاسباب العميقة للقلق السائد منذسنوات بين اوساطالبحارة الصيادين•فبجوار بعض الملاكة من الفرنسيين والتونسيين الذين يختصون بالارباح هناك عملة صيادون اخذت منهم الفاقة كل ماخذ ـ وفى ذلك من الخطورة ما فيه خصوصا وانه منذ رحل عدد عديد من الصيادين الايطاليين صار اكثر من ٩٠٪ من الصيادين من التونسيين

وبلغت الحال الى صورة منافية للمنطق من بلد له حقول فسيحة ثرية بحيتانها واسفنجها لو استغلت بصفة معقولة لاعاشت عددا عديدا من اليد العاملة ،ومن جماعةمن الصيادين يعيشون عيشا يقرب الاعواز•على ان هذه الحالة ليستخاصة

بتونس بل هي الصورة العامة تقريبا لعملة البحر ببلدان البحر الابيض المتوسط

ان اساليب العيش التى ذكرناها كلها اساليب الماضى وهى تمتد فى الوقت الحاضر بما كسبته من سرعة ومن اتصال للعادات ـ وذاك ما نرى مثلا فيما يخص الرحالين او اليد العاملة المتنقلة ـ الا انه اذا كان بعض صنع العيش كالغراسة ملائمة اتم الملائمة للاقتصاد الحالى فهناك ما اصيب بعقم وهو فى حشرجة الموت كزراعة الحبوب بالوسط وكالصيد الشاطئى كما نجد فروعا اخرى تجمدت كالصناعات التقليدية فهى تموت لما لحقها من الشيخوخة والهرم
فعلينا اذا بعث الحياة فى بواقى الماضى التى تتفاوت حيوية وانتاجا وجمالا خلايا بواقى ماض مازال يعيش فى حضرنا ـ نعم انه يمكننا فيما يخص اساليب للعيش الجديدة الناشئة من مجاورة العالم الصناعى الحاضر ومحاككته ـ تلك الاساليب التى سننتقل الى ذكرها ـ يمكننا فيما يخصها ان نتعرض لمشكلة العلاقات بين العمل وراس المال بالعين الغربية الرامية الى المساواة فيما يخص تطاحن الطبقات الاجتماعية ـ ولكن فيما يخص ظواهر الاقتصاد التقليدى

× × ×

العتيق ليس لهذه الاعتبارات معنى وقد نصل الى الفوضى اذا ما حطمنا الاطارات التى مرت عليها الاف السنوات. ولا نعنى انه لا ينبغى ان نعرض مشكلة توزيع الانتاج بكيفية احسن واقرب الى العدل ـ بل لا يمكن النظر الى ذلك بعين المركسية الغربية الاصطناعية التى يفكر بعضهم فى تطبيقها فرضا على الواقع التونسى الذى هو ليس من نوع اقتصاد البلاد الراسمالية بل نوعه اقتصاد بلاد ضعيفة فكت نفسها منذ زمن قصير من مخالب الاستعمار فبذر الجراثيم المسمومة لتطاحن الطبقا تـوغرس الحقد الاجتماعى عبث خطير ـ فالعرف سواء كان صانعا او فلاحا او صيادا هو فى غالب الاحيان شقى فقير كعاملة ـ واذا ما شاهدتهما لايمكنك ان تميز ايهما اتعس من الاخر
والاقتصاد التقليدى لبلاد البحر الابيض هو نفسه يرتكز فى الغالب على عدد من صغار الاعراف يساهمون بصفة مباشرة او غير مباشرة فى استغلال معملهم ـ ولا شبه بين ذاك وبين كبار المشاريع الراسخة ونظم الشركات العالمية
وتونس الجديدة بما لها من شغف بالرقى الاجتماعى لها من الشعور بالواقع ما يكفى لحسن اعتباره ومراعاة جميع من يعملون للازدهار العام المشترك



١ ـ قطعان الحيوانات
بالسباسب (ص ١١٤)

٢ ـ رحلة الانتجاع
(ص ١١٥)



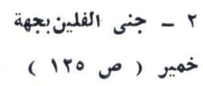
١ ـ اعراب رحل يشاركون في موسم جني العنب بالشمال



٢ ـ عنقود ... جميل



١ – يستقر الاعراب الرحل بفضل غراسة الزيتون (ص ١١٨)



٢ – جنى الفلين بجهة خمير (ص ١٢٥)





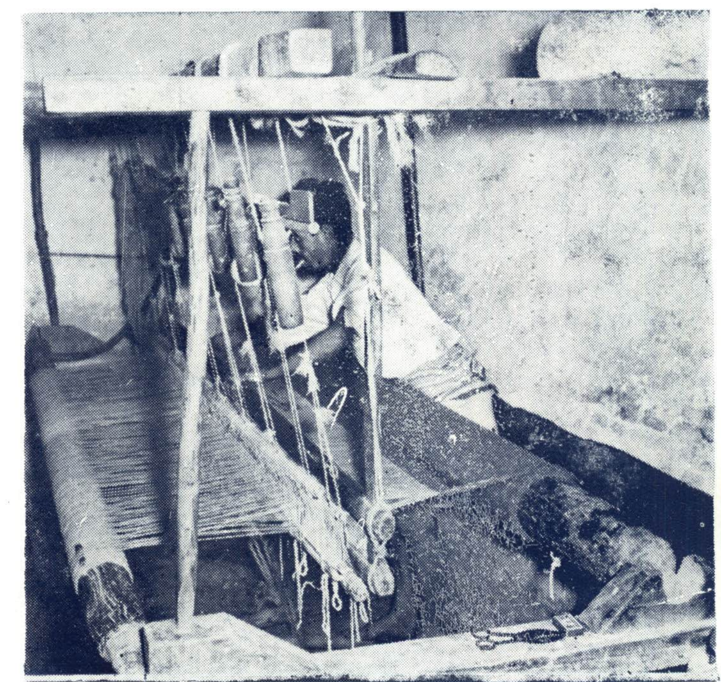
١ ـ جنى الحلفاء (ص ١٢٤)



٢ ـ نقل الحلفاء ، بالقرب من فريانة (ص ١٢٤)



١ ـ مولد طنفسة ،
بالقيروان (ص ١٢٩)



٢ ـ حائك على نسج عتيق
(ص ١٢٩)



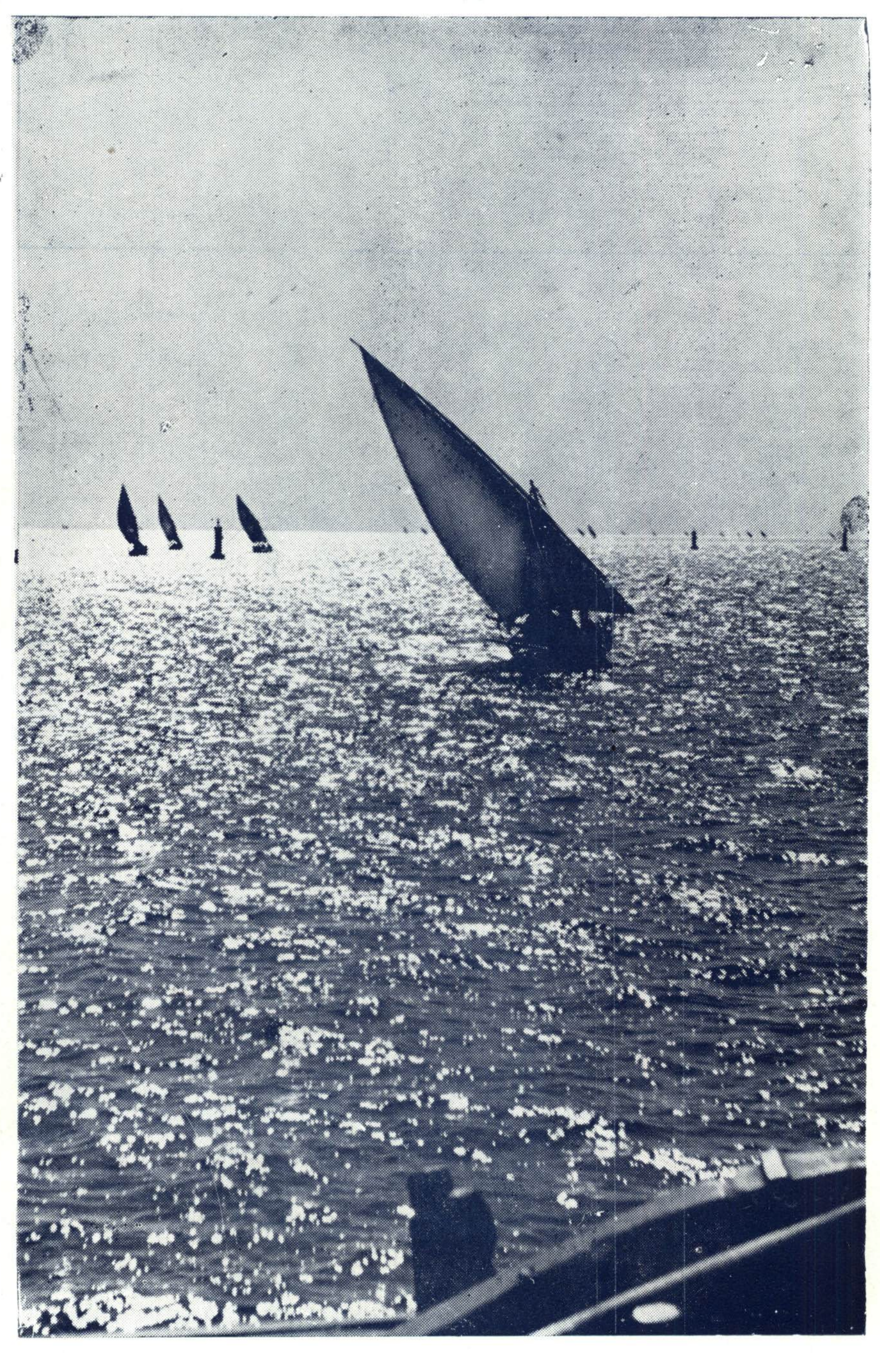
١ ـ « فخاخري » بنابل

(ص ١٢٩)



٢ ـ شاب ينقش الحجارة

بدار شعبان (ص١٣٠)



خروج القوارب للصيد فجرا بجربة (ص ١٣٦)



١ ـ مناظر من الصيد
(حسب فسيفساء بدقة)
(ص ١٣١)



٢ ـ تتصاعد الشبكة
المتحركة باستمرار .....



٣ ـ ... فيلوح قطيع
التن باجمعه (ص ١٣٤)

الباب الثالث

وسائل العيش فى الوقت الحاضر

ان وسائل العيش التى يمتد بها الماضى فى الوقت الحاضر كحياة الرحالة الرعاة وزراعة الحبوب والغراسة والصناعات المدنية والبرية وجنى الحلفاء والصيد على الشواطىء هى اساليب عتيقة للعيش وهى وان كانت لا تساير الطرق العصرية للانتاج فهى تهم الاغلبية الساحقة من التونسيين

وان كانت هذه المشاريع الصغيرة للانتاج التقليدى لا تمت بصلة فى جملتها للمنظمات المنطبعة بالطابع الراس مالى العصرى فان الصيغ الجديدة للنشاط التى انشئت من جوار الاستعمار او تحت تاثيره ما هى الا ظاهرة من اقوم الظواهر للنظام الراس مالى الغربى

وفى هذه الصيغ الجديدة للشغل التابعة لاحياء الثروات المنجمية ولصناعات التحويل صار المالك الحقيقى اى التونسى صار هذا المالك عاملا حقيرا يستغل ثرواته بنفسه لفائدة اجانب اصحاب رقاع ـ فباجر من اقل الاجور لم يكتف النظام الاستعمارى بانتزاع املاكه بل اجبره على استغلالها لفائدته وتسليم خيراتها اليه

والتراب التونسى خصب ثرى بالفسفاط والحديد والرصاص والزنك . فسنة ١٩٥٤ كانت قيمة هذه المنتوجات المنجمية الاربع تبلغ ١٣،٥ مليارا من الفرنكات اى الثلث الكامل من صادراتنا او بعبارة اوضح هى تبلغ اربعة اضعاف ونصف القيمة المتوسطة لصادراتنا من الزيوت خلال السنوات

الخمس الاخيرة ـ وتلك حقيقة عمدة اساسية لاقتصادنا ... لو كانت بايدينا ومن سوء الحظ قد فرط جلها منا

وسنة ١٩٥٤ كان عدد العمال المستخدمين فى المناجم ١٤٢٠٠ عامل وكان

مجموع اجرهم لا يبلغ اربع مليارات ومعنى ذلك انه اذا اعتبرنا هذا المبلغ من المصاريف يكون التراب التونسي سنة ١٩٥٤ قد اربح تسع مليارات من الفرنكات وذاك ما يقابل ربع الميزانية الاعتيادية للدولة التونسية تلك السنة

وانه لا يمكن العقل بحال ان يتصور ان الامة التونسية الفتية تتخبط فى ضيقات مالية عصيبة لتواجه اعباء تجهيزها فى حين ان ثروا تمناجمنا التي تمثل ربع الميزانية العامة تتضخم بها سهام سادة الشركة صفاقس ـ قفصة او جريسة ـ ولم يبق من اللائق ان يخصص للتونسيين سامى الفخر لاستغلال الثروات التابعة للمجموعة القومية لفائدة كبار الشركات الاستعمارية والراس مالية وكفى ما افرغت مضخة عهد الاستعمار من ارضنا طيلة سبعين سنة من فسفاطها وحديدها ورصاصها وباقى معادنها

واليوم ان حالتنا كدولة مستقلة تحجر علينا ان نمدد فى امتصاص دم البلاد وهى تحجر علينا ان نديم نظاما للاستغلال مضادا لمصالحنا ولسيادتنا وان تاميم خيرات الارض التونسية يلوح اذا من التدابير اللازمة لالصحة اقتصادنا فحسب بل لغرم عادل لما كان فضيعا من استغلالنا

وقبل ان نخوض فى المشكلة المهمة الخاصة بتصنيعنا وتحويل اقتصادنا من النوع الاستعمارى الى اقتصاد بلاد مستقلة من الجدير ان نحصى المعطيات الطبيعية للمشكلة اذ سننظر فيما بعد فى المعطيات البشرية او المالية .وهذه العوامل الطبيعية هى المواد الخام المستعملة فى صناعات التحويل كلها ـ وقد تعرضنا قبل الى ما كان منها اصله حيوانيا او نباتيا كالفحم والزيت والثمار والحلفاء والفلين والصوف واللحم والحوت والاسفنج ـ وبقى علينا ان نسبر الامكانيات الصناعية الكامنة تحت ارضنا وذاك مما يسوق حديثنا الى الوقودات والطاقة الكهربائية المائية والفسفاط والحديد والرصاص والزنك ويمكننا ذلك من ضبط ما لنا من حظ فى مستقبل صناعى للبلاد

١ ـ امكانيات التصنيع

الطاقة : في عالمنا الحاضر ترتبط فكرة البلاد الصناعيــة ذات البال ادق الارتباط بازدهار الصناعات الثقيلة وتلك نفسها تابعة للامكانيات من ناحية الطاقة فمن فحم ارضي اسود ومن « وقود ابيض » ومن نفط ـ وان التزعــم العتيد للولايات المتحدة وانقلترا والروسيا في الحيــاة الاقتصادية للعالم لهو ناشيء بدون منازع وقبل كل شيء عن تلك الذخيرة من الطاقة · وليس معنى ذلك بالرغم عن كل هذا ان البلاد الفقيرة من ناحية الوقود او ماكان منها يعوزه تماما الوقود عليها ان تترك كل نية في التصنيع فالعامل البشري يمكنــه ان يتداخل الى حد ما لا لمعالجة الفقر في الوقود ـ اذ ليس من المقدور معالجة ذلك علاجا يعتد به ـ بل لانشاء ظروف اصطناعية للتصنيع هي وان كانت تبقــي بعض الضعف في الهيكل الاقتصادي وبعض الارتباط بالغير في ذلك تمكن مع ذلك من استعمال عناصر اخرى ذات بال وخاصة منها اليد العاملة · وذاك ما يفسر ان بلادا فقيرة في الوقود كايطاليا او اليابان تمكنت من التصنيع تصنيعا صالحا باصدار منتوجات يد عاملة قنوعة غزيرة وبارعة ·

فاذا كان ما تحت الارض التونسية او ما لنا من الطاقة الكهربائية المائيــة قد يبعثان في النفس بعض القنوط والشعور بالخيبة ينبغي ان نحذر منذ الان من الحكم على امكانياتنا التصنيعية حكما لا استئناف فيه ولا رجوع

فالاستعمار قد جعل من ذلك نغمة مترددة لبسط يد اقتصاده على البــلاد وعلينا اذا الا نثق به وان نحترز منه· نعم اننا اذا تصفحنا خريطة لطبقات الارض بتونس لانجد كثيرا من العلامات التي تشجعنا وتبعث فينــا الامــل لاكتشاف مناجم من الفحم الارضي والتربة الاولية السابقــة للعصر الفحمي التي مــن شانها ان قد يكون في طيها الفحم الارضي لا تلوح على وجه الارض في اى ناحية من نواحي تونس · وما هو الا في سنة ١٩٣٣ حيث اكتشف (١) واصلاالى سطح الارض اثر صغير للعصر البرمي البحري (وهو آخــر العصر الاولى)

(١) صولينياك ودوفيل وبركالوف « اكتشاف البرمي البحري بجبل طبقة (اعلام موجهة لجامعة العلوم بباريس ١٩٣٣)

غنى بما احتوى عليه من الاثار الحيوانية والنباتية ، بجبل طبقة على بعد ٧٠كم جنوبى قابس قرب مدنين ، الا ان التفتيشات التى وقعت فى ذلك المكان لم تات بنتائج مثمرة ـ وكذلك كانت ايضا البحوث بناحية سوق الاربعاء ـ فهل علينا ان ننفض ايدينا نهائيا آيسين من اكتشاف الفحم الارضى بتونس ؟

كلا ليس ذلك بالحتمى ـ فالعصر الاولى التونسى بقى اليوم مجهولا . وينبغى اذا التحذر من الاستنتاج المنطقى ـ وليس من المستحيل ان تكون الطبقات التحتانية المفروشة تحت بطاح الطرية الطويلة (اول العصر الثانوى) والتى تخترق البلاد التونسية من الكاف الى بحيرة بنزرت تشتمل على تربة اولية فحمية وعلى كل قد يكون من المفيد التحقق من ذلك .

وهنا رواسب من اللينييت فى عصر النيوجان الوسيط (اول العصر الثلاثى) وقعت بالقرب من المنستير وجمال وجبنيانة ودوز وفى جبل عبد الرحمان القبلى ـ وهذا المنجم الاخير بالقرب من ام ذويل هو الوحيد الذى وقع استغلاله من ١٩١٦ الى ١٩٢١ ومن ١٩٤٠ الى ١٩٥١ حيث كانت البلاد التونسية فاقدة للوقود نظرا للازمات العالمية فمكن من تسيير المعمل المركزى للتوليد الكهربائى حلق الوادى ومن تسيير الارتال الا ان ما يحويه من الاوساخ كالكبريت وضعف امكانيته الحرارية وثمنه الباهض لم تمكنه فيما بعد من مقاومة مزاحمه به الفحم الارضى المستورد . والنفط ايضا قد بعثت كثيرا من الآمال وكانت منه خيبات مرة ـ وغب الحرب العالمية الاخيرة قسمت حمى البحث عن النفط البلاد التونسية الى مناطق تابعة لشركات فرنسية وهولاندية وامريكية وانقليزية ونسى تقريبا ان يفرض لتونس نفسها مناب مما اقتسم منها .

وهناك ايضا لم تات التفتيشات بنتيجة وكانت باهضة المصاريف ـ فمن ١٩٤٦ الى ١٩٥٥ صرف فى ذلك ١٨ مليارا من الفرنكات . ولم يقع الوصول الا الى جيب ذى بال من الغاز (٢٠٠ مليون من الامتار المكعبة) وتم ذلك بالوطن القبلى . ومنه تزودت مدينة تونس منذ شهر جويلية ١٩٥٤ منفقة كل شهر نصف مليو ن من الامتار المكعبة

الا انه هنا ايضا يكون من التسرع ان يشطب على النفط بتونس تشطيبا فبعض الاشكال الهيكلية بجنوب البلاد تذكر احيانا باشكال الجهات النفطية بالشرق الاوسط . وان اكتشاف كنوز ثرية من هذا « الذهب الاسود» بفزان

وجهة وزكلة لهو اشارة تبعث الامل وتشجع على متابعة السعي لسبر الارض وان في الامكان ان نفاجا بمفاجئات عظيمة ـ وان شركة البحوث والاستغلال للنفط بتونس تتابع برنامج بحوثها في اقصى الجنوب خصوصا حول الاراضي البرمية بجبل طبقة

وانه لينبغي منذ الان ان تنقح المعاقدات التي وقعت بين الدولة التونسيه وشركات البحث عن النفط وينبغي ان تحتفظ تونس بحقوقها للمستقبل فان عهد الاقطاعات والانتزاعات قد طويت صفحته طيا .

وبقي علينا ان ننظر في الطاقة الكهربائية المائية ـ ومن سوء الحظ لم تكن الطبيعة اقوى جودا علينا في هذه الناحية ايضا ـ فكميات المطر ضئيلة والهيكل الجبلي غير ملائم لهذه الطاقة ، والاراضي الصالحة لحفر المياه لاقيمة لها ـ ولم يكن كل ذلك ليمكن البلاد التونسية من معاوضة ما يعوزها من الوقودات الصلبة او السائلة « بالفحم الابيض » ـ وقد شرع في بناء ثلاثة معامل للتوليد الكهربائي المائي للاستفادة من سدود نبر على وادي ملاق ، وطوليبفيل (١) على مجردة ، وفرنانة على وادي بني مطير ـ وادي الليل ـ ويقدر اتمام تسييرها سنة ١٩٥٦ و١٩٥٧ و ١٩٥٨ فتعطي اذاك طاقات قدرها ١٨ و١١ و٢٠ مليونا من الكيلوواطات الساعية في السنة اى جملة ٥٠ مليونا من هذه الكيلوواطات

واذا ما وفت معاملنا الثلاثة بوعودها سنة ١٩٥٨ سيمثل انتاجها في الاكثر سدس الكميات الكهربائية المستهلكة بالبلاد في ذاك التاريخ . فما العمل اذا؟

ايكون الحل في تعديد المعامل الكهربائية الحرارية على شاكلة معمل حلق الوادي ؟ سيكون ذلك من البذخ الباهض الثمن ـ ففي شهر افريل ١٩٥٥ قدرت الشركة المركزية لحلق الوادي ـ شركة الترامواديات بتونس ـ سعر الكيلوواط بقدر ٣٦،٤٠ فرنكا بينما يقدر الكيلوواط بالدار البيضاء بسعر ٢٣،٥٠ فرنكا . وبالرغم عن هذا الثمن المرتفع الذي يرهق الصناعة التونسية

---

(١) تم تسيير هذا المعمل منذ ١٧ نوفمبر ١٩٥٦ . وقوته ٤٠٠٠ كيلوواطات وتوتره ٥٥٠٠ فولط ـ ويمكن مجموعة محركه المائي ودولابه الكهربائي ان تستعمل غزارات قدرها ٥٠ م٣ في الثانية

(١٩،١٠ فرنكا فيما يخص القوة المحركة) بلـغ الانتاج الكهربائى التونسى سنة ١٩٥٥ـباعتبار الكميات المستنتجة بالمعامل المركزية والكميات المستوردة من الجزائر (عقد الارتباط المشترك بين كلارفونتان وتاجروين) — ٢٣٢ مليونا من الكيلوواطات على اننا نشاهد منذ الحرب نموا متزايدا لهذا الانتاج — فمن ٨٢ مليونا سنة ١٩٤٥ ارتفع الانتاج الى ١٤١ سنة ١٩٥٠ ثم الى ١٨٠ سنة ١٩٥٣ والى ٢٢٠ سنة ١٩٥٥ (بقطع النظر عن الطاقة المستوردة من الجزائر) — واذا كان الاستهلاك المنزلى لم يتغير تغيرا محسوسا فقد نمـا الاستهـلاك الصناعى نموا جعله يتضغف اربعة اضعافه فى مدة قدرها ١٥ عاما — وان ذلك ليوضح اكثر من كل شرح مطول مدى ما اندفع به التصنيع فـى السنوات الاخيرة ٠

الا ان هذا التطور لايهم فى الواقع الا الحاضرة وجهتها وسهول مجـردة والوطن القبلى ، اعنى منطقة الاستعمار ، وبقيت سائر البلدان خاليـة مـن الكهرباء بحيث لا تجد الا بضع جزر للكهرباء محدودة المدى تستثمـر انتاج معامل مركزية يسيرها محرك دييزال بسوسة وصفاقس وقابس ٠

وليس فى هذه الصورة الاجمالية لامكانيات الطاقة ما يثيـر التشجيع — خصوصا اذا فكرنا ان هذا هو العامل الاساسى لكل صناعة للتحول — ويتضح ان ثرواتنا فى هذه المادة محدودة واننا محتاجون للخارج — وقد كلفنا هـذا الافتقار الى الخارج سنة ١٩٥٤ قدر ٤٤٠٠ مليون من الفرنكات اى اكثر مـن ٧٪ من جملة مستورداتنا (٥١٩٠٠٠ طن من المواد النفطية و ٧٢٠٠٠ طن من الفحم) — فقد يكون من الخطر ان نرمى بنفوسنا فى انشاءات صناعية عظيمة او ان نعلق فى الحال آمال قويةعلى الصور الحديثةللطاقة الشمسية او المستمدة من الرياح او من الطاقة النواتية ٠

على انه اذا اعوزنـا (عصب الحرب) لانشاء صناعة قوية عظيمة لا ينبغـى ان نياس من ذلك ولا ان نركن الى التسليم فنهدى ما لنا من المواد الخام بارضنا وتحت ارضنا على صورتها الطبيعية — فهناك من التحويلات ما تستدعى طاقة ضعيفة وكثيرا من اليد العاملة وما من شانه ان يرفع فى قيمة انتاجنا، وعلينا ان نولى وجوهنا نحوها ، وفى امكاننا ان نقوم بذلك خصوصا وان الطبيعـة

التى شحت علينا بالوقود قد تكرمت علينا بكثير من الثروات المنجمية كالفسفاط والحديد والرصاص ٠

الفسفاط : ان اعظم ثروة لما تحت الارض التونسية بل وحتى الشمال الافريقية هي بدون نزاع متمثلة في الفسفاط ، فهي كونت بالنسبة الى تونس في سنة ١٩٥٤ قدر ٥٣٪ من قيمة مجموع صادراتها المنجمية ، وهذه كما راينا تهب تونس ثلث صادراتها جمعاء (٧،١ مليارات من الفرنكات للفسفاط مقابل ١٣،٥ مليارا لسائر الصادرات المنجمية)

وفي ذاك ما يثبت المكانة الممتازة التي يحتلهاهذا الانتاج من الاقتصاد التونسي

ويتشكل الفسفاط التونسي في صورة طبقات يختلف سمكها من بعض ديسيميترات الى خمسة امتار مكونة صورة من الطبقة (النموليتية) البحرية بها آثار من كبير الاسماك ومن الزواحف مغمورة وسط رواسب من الحيوانات الرخوة ومن الاصداف داخلت مجموعات من المواد ومن الصوان ويعزىجميعها عادة الى الطابق اللندني من العصر الايوسيني وطبقات الفسفاط تخلل اكثر الاحيان طبقات من الصلصال وتكون مناجم متصلة وقع استغلالها على حافة سلسلة قفصة والمتلوي ورديف ومضيلة وام الاعراس كما استخرجت بمهرى زبوس قرب المكناسي — على اننا نجد بعض الجيوب من الفسفاط قليلة الامتداد في منعطفات تونس الوسطى ، وقع استغلالها بمراكز قلعة الجرداء وقلعة السنان وعين الكرمة والربيبة بين تالة والحدود الجزائرية (انظر خريطة المناجم الشكل عدد ١٣) وتختلف القيمة النسبية للفسفاط التونسي اى النسبة المائوية من الفسفاط الكلسي الثلاثي الموجود بالمعدن الخام — ففي مناجم قفصة تتراوح هذه النسبة بين ٥٨٪و ٧٠٪ وفي تونس الوسطى بين٥٨٪و٦٣٪

وشركة الفسفاط والخط الحديدى التابع لقفصة التي وهبلها مجانا حق الاستثمار للمذخرات التي لا تحصى من فسفاط المتلوى والرديف وام الاعراس لها انتاج يتراوح سعره بين ٥٨٪ وبين ٪ ٦٥ —وتنتج شركة القلعة الجرداء اسمدة سعرها ٥٨٪ و ٦٥٪ وكذلك الشركة التونسية للفسفاط بجبل المضيلة

الا ان الاتجاه العام الحالى للسوق العالمية للفسفاط هو ان يرفع في سعر الاسمدة ونسبتها ، فلمزاحمة الفسفاط الامريكي والمغربى الذى يبلغ سعره

٪ ٧٠ وحتى ٪ ٧٧٥ لزم ترفيع السعر التونسى فانشىء بالمتلوى معمل لغسل الفسفاط سنة ١٩٥٥ وكانت جملة الفسفاط التونسى المستصدر تقريبا يبلغ سعرها ٪٦٥ وتتوالى الجهود لترفيعه حتى ٪٧٥ ٠

وانتاج شركة صفاقس — قفصة الذى يمثل ٣/٤ ٪ الانتاج التونسى ترهقه مصاريف النقل (اكثر من ٢٥٠ كم حتى صفاقس) ومصاريف دق التربة الصلبة (بينما يقع الفسفاط المغربى فى تربة رخوة) ومصاريف الاستخراج واثراء المعدن — وان الظروف لتزيد فى اثمان المناجم بتونس الوسطى

وفى ذلك ما يفسر انحطاط حظ الفسفاط التونسى فى السوق العالمية (انظر المنحنى صورة عدد ١٢)

على ان هذا الفسفاط المستخرج خصوصا منذ بداية القرن العشرين بعد اكتشاف منجم قفصة من طرف فيليب طوما سنة ١٨٨٥ طالما حل الرتبة الاولى فى الانتاج العالمى

وبلغ الانتاج الغاية القصوى سنة ١٩٣٠ فمكن البلاد التونسية من انتاج ٣٣٢٦٠٠٠ طن تمثل ٪ ٢٦ من الانتاج العالمى باسره٠ولكن اندفاع الانتاج الاجنبى — اندفاع السهم — بالولايات المتحدة والمغرب والاتحاد السوفياتى كون مزاحمة عسيرة قاسية وتدهورا حقيقيا فى الصادرات التونسية ٠فحصر الضرر وللتمكن من المقاومة على السوق العالمية لزم انشاء مصرف شمال افريقيا للفسفاط يخصص لسائر الشركات حصصا من البيع ، فلم يمنع ذلك من تمادى الانحطاط اذ فى نهاية الحرب الاخيرة لم يتجاوز انتاجنا ٥٠٠٠٠٠ طن

على ان الحالة لم تلبث ان اخذت فى التحسن خصوصا بعد ان تركت فكرة الاستغلال الفسفاطات الضعيفة (٪٤٣) وان وليت الجهود نحو المناجم الغنية التى فى امكانها ان تزاحم مناجم فلوريدا وكوربقا بالمغرب والاتحاد السوفياتى فارتفع الانتاج التونسلى سنة ١٩٥٣ الى ٢٣٠٠٠٠٠ طن اى الى نسبة ٪٩،٥ من الانتاج العالمى ثم انخفض من جديد سنة ١٩٥٤ الى ١٨٢٣٠٠٠ طن

وتحل البلاد التونسية اليوم الرتبة الرابعة بين البلدان المنتجة ، اى بعد الولايات المتحدة والمغرب والاتحاد السوفياتى ويتاكد عليها ان تجاهد فى تحسين النوع وفى مسالة الثمن كى يمكنها ان تحتفظ بزبنائها ٠ واحسن

زبنائها فرنسا (٪ ٣١) وايطاليا (٪ ٢٣) واليونان (٪ ٦) وهولاندة (٪٧) على انه يطمعها دائما عروض المزاحمين ٠

وللتغلب على هذه الصعوبات ولارضاء الاستهلاك المحلى الداخلى شرعت شركات الفسفاط فى تحويل الفسفاطات الطبيعية الى اسمدة تستعمل مباشرة للزراعة ٠ فانتصبت ثلاثة معامل احدها فى صفاقس لانتاج الفسفاط القوى وآخر ايضا بصفاقس لصنع الفسفاط الرفيع الثلاثى ذى ٪ ٤٤ من الحامض الفسفورى وثالث بضواحى العاصمة ينتج الفسفاط الرفيع المشتمل على ٪ ١٦ من الحامض الفسفورى ٠

وسنعود الى هذه المعامل عند البحث فى صناعات التحويل ٠ على انه من المفيد منذ الان ان نلاحظ ان هذه الصناعات تفى الان جميع الحاجيات المحلية (٥٥٠٠٠طن من الفسفاط الرفيع) وتمكن من اصدار١٦٠٠ مليون من الفرنكات من المنتوجات المحولة ٠ وينبغى ان نتوجه نحو تحويل جميع فسفاطنا الى فسفاط رفيع ذى ٪ ٤٤ وفى ذلك ما يقوى فى قيمة انتاجنا على نسبة معتبرة ٠

المعادن : الحديد — واذا نحن نشاهد بالنسبة للفسفاط التونسى انخفاضا فى الانتاج ونضالا دقيقا كى نحتفظ على السوق العالمية بزبناء يزداد يوما فيوما تشرطهم فاننا نشاهد بالعكس فيما يخص الحديد نموا متواصلا فى الصادرات التونسية ، ونظرا لحسن نوع معدننا ، نلاحظ طلبات تضمن لنا سوقا تزداد ازدهارا شيئا فشيئا ٠

فاستخراج معدن الحديد الذى لم يفق سنة ١٩٤٧ قدر ٤٠٠ ٠٠٠ طن تبعا لتخريبات الحرب الاخيرة ارتفع بسرعة الى ٩٢٢ ٧٤٤ طنا سنة ١٩٥١ ولاول مرة تجاوز المليون طن سنة ١٩٥٣ (١ ٠٥٧ ٠٤٦ طنا) تمثل قيمة ٤٤٨٥ مليونا من الفرنكات (انظر المنحنى عدد ١٢) ٠

وهذا الانتاج المزدهر اتم الازدهار مكن المناجم التونسية ان تبلغ ١١٤٠٠٠٠طن سنة ١٩٥٥ وانما السبب فى ذلك ثراء الحديد التونسى وارتفاع الاسعار العالمية ٠

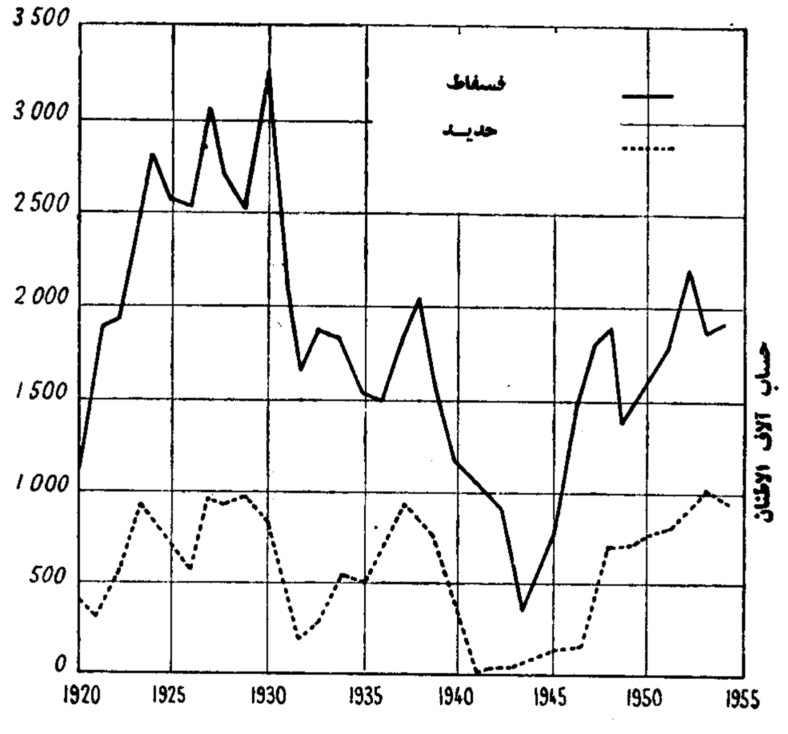
فالمعادن الحديدية التونسية تشتمل على اكاسيد حديدية خالصة ، لا يمازجها فسفور، عالية السعر اذ تشتمل تسعة اعشارها على ٪ ٥٧ من المعدن ٠ فيمكنها اذا ان تنظر باحسن معادن العالم ، ولذا رغب فيها رغبة خاصة من طرف

ارباب المعامل الامريكية وذلك لصنع فولاذ طيب النوع ، وبجوار هذه المحاسن الطبيعية الجسيمة نضيف ان استخراج هذا المعدن سهل ، كثيرا ما يقع على سطح الارض ، فكان ثمنه زهيدا وفي ذلك ما يعاكس ما للاثمان العالمية من تطور نحو الارتفاع ٠

وتبعا للاستهلاك العالمي المتزايد في الصناعات المعدنية ولنفاذ بعض المناجم ارتفع ثمن البيع للحديد التونسي من ١٧٥٠ فرنكا سنة ١٩٥٠ الى ٣٧٠٠ سنة ١٩٥٤ للطن الواحد ٠

وتلك عوامل عديدة تظافرت حينئذ لمنح الشركات القائمة على هذه المناجم مرابيح ممتازة قوية ٠

واهم هذه الشركات (شركة جبل جريسة)٠ فجبل جريسة ربوة حقيقية من معدن للحديد يتراوح سعره بين ٪ ٥٥ و ٪ ٦٠ يستخرج على سطح الارض



صورة عدد (١٢)

بعمليات اعتيادية للحفر وتقع هذه الربوة قرب الحدود يمتد بها منجم ونزة الجزائرى ، وهى تنتج اليوم ٪ ٩٠ من الانتاج الحديدى التونسى .

فاستخرج سنة ١٩٥٣ مقدار ٢٧٦ ٩١٤ طنا من جريسة بينما كانت جملة الانتاج التونسى ٠٤٦ ٠٥٧ ١ طنا . ولذا كانت هذه الشركة التى توجه معدنها نحو ميناء تونس – حلق الوادى على طريق السكة الحديدية الناقلة لفسفاط القلعة الجرداء فى طور ازدهار متواصل وكانت ارباحها (المعترف بها) ١٢٠٠ مليون من الفرنكات سنة ١٩٥٢ و ١٦٠٠ سنة ١٩٥٣ ، وهكذا كل سنة يغنم اصحاب رقاع (جريصة) – وهم رؤوس الشركات الفرنسية للصناعات المعدنية – مرابيح تفوق موارد جملة الصيادين التونسيين مثلا وعددهم ١٤٠٠٠ او تفوق انتاج مئات الالاف من الرعاة الرحالة ، واذا نظرنا ذلك نظرة موضوعية، ان هنالك حيفا اجتماعيا فظيعا جليا يؤكد وجوب تاميم الثروات التى تحت ارضنا تاكيدا حتميا مستعجلا .

وهناك كثيرا من المناجم الصغيرة، اقل اهمية، خصوصا والعمل فيها متناعس فى جبال مقعد بالشمال ، بالدوارية والتمرة ، تبعث بمعادنها على طريق السكة الحديدية الموصلة بين طبرقة وبنزرت ، او بقفصة بالجنوب بالمنجم الفسفورى الذى لم يستخرج معدنه بجبل العنق .

ويصدر جميع الانتاج الحديدى التونسى اذ لم ينشا اى معمل لصنع الفولاذ ، والزبناء هم انقلترا (٪٦٠) وايطاليا (٪١٨) وهولاندة (٪١٠) والمانيا (٪ ٥) . وفى ذلك ما يزودنا بعمولات عزيزة تفى بخلاص ثلاثة ارباع مستورداتنا من الوقود

على ان الخلل الناشىء عن فقدان الصناعة المعدنية بتونس ليعرض علينا مشكلة ذات بال سنعود اليها فيما بعد .

الرصاص والزنك وسائر المعادن : انتاج الرصاص والزنك يختلف من سنة الى اخرى ، على انه مكننا سنة ١٩٥٤ وسنة ١٩٥٥ ان نصدر ما تقرب قيمته من قيمة الصادرات الحديدية (٣ مليارات من الفرنكات) . ولهذا الانتاج ذبذبات ناشئة عن الاختلاف العظيم فى اثمان السوق العالمية ، فعدد مناجم الزنك العاملة سنة ١٩٥١ كان عشرة تقريبا بعد ان كان يقدر بثلاثة سنة ١٩٤٩

ثم هوى من جديد الى اثنين سنة١٩٥٥ ، ولم يقدر للزنك ان يصل من جديدالى المستوى الذى وصله سنة ١٩١٢ من كون انتاجه بلغ ٤٠٠ ٣٧ طن كما لم يكتب للرصاص ان يصل ما بلغه سنة ١٩١٣ من انتاج قدره ٠٠٠ ٥٩ طن ، وبعد انكساف تام تقريبا فى فترة الازمة الحالة سنة ١٩٣٢-١٩٣٣ او مدة الحرب ١٩٣٩ -١٩٤٥ ارتفع الانتاج تدريجيا فبلغ بالنسبة للرصاص ٤٢٩٠٢ من الاطنان سنة ١٩٥٥ وبالنسبة للزنك بلغ ٩١٧٥ طنا ٠

وهناك عدد عديد من صغار المناجم المعدنية بالشمال والوسط ، الا ان اهمها منجم الاخوات قرب قعفور فيما يخص الزنك (٢/٣ الانتاج العام سنة ١٩٥٤) ومنجم السمان غربى ماطر وجبل الحلوف وسيدى بو عوان غربى باجة فيما يخص الرصاص (انظر الخريطة المنجمية الصورة عدد ١٣) وتتقاسم الشركة الملكية الاستورية والشركة المنجمية والمعدنية لبنارويا جملة مستخرجات الرصاص تقريبا وتصنعها شركة بنارويا فى مصاهرها بمقرين ٠

وتصدر جملة انتاجنا تقريبا الى فرنسا ٠

وبين المعادن الاخرى ينبغى ان نذكر الاهمية التى لكبريات الحديد بعين قريش منذ ان استعملت صناعة الفسفاط الرفيع هذه المادة (٦٦٨٠ طنا سنة ١٩٤٧) على انه عدل عن استخراج هذا المعدن سنة ١٩٥٠

وفى الختام يمكننا ان نتمم قائمة المواد الاولية - وان كانت هذه المادة ليست بالمعدن - بذكر ملح الطعام ٠ ويستخرج هذا الملح من ملاحات صفاقس وسوسة والمنستير ومقرين ، فمكننا من تزويد صادراتنا بكميات مختلفة تناهز ٠٠٠ ١٠٠ طن (٠٠٠ ١٦٥ طن سنة ١٩٤٥) على ان معدل الثمن الزهيد وغلق باب السوق الفرنسية فى وجهه وعدم وجود اى صناعة محلية تستعمل ملح الطعام كل ذلك لا يبقى من الارباح الا شيئا طفيفا بالنسبة الى انتاج من شانه رغم هذا ان يتطور وان يزدهر بعض الشيء ٠

٢ - **التصنيع** : فى الوقت الحاضر ان الدول الصناعية هى التى تبلغسيادة العالم بفضل ما تضغط به من الاضغاط الاقتصادية - وبالتبع السياسية - على الشعوب العديمة الصناعات ، فهذه الشعوب المرغمة على ان تكون من زبناء البلدان الصناعية تضحى هكذا بشيء من استقلالها الاقتصادى فى البدء ، ثم السياسى وهذا النوع من الوصاية الاقتصادية وما تمتد اليه من وجوه السياسة

هو مظهر من اهم المظاهر للسياسة الحالية ، فلتخلص من بعض من هذا الخناق تطورت بعض الدول التي كانت حتى الان زراعية ـ كالبرازيل وتركيا والكندا واستراليا والهند وحتى ايطاليا ـ ورمت بنفسها في حياة صناعية اصطناعية الا انها لها مزية تحريرها نسبيا وتضمن لها بعض الاستقلال الداخلي من ناحية الاقتصاد ٠

ومن المعلوم ان التصنيع يرمي الى تحويل المواد الخام المستنتجة من الارض او المستخرجة من تحت الارض الى اشياء صالحة للاستهلاك ، الا ان هذا التحويل يستدعي توفر عدة شروط : المواد الاولية والطاقة الطبيعية والطاقة البشرية ورؤوس الاموال وسوق للاستهلاك ٠

ولهذه العوامل مفعول مختلف ، الا انه من الواضح ان انفع النتائج واحسنها هي التي تمكن من تخفيض الثمن اقوى تخفيض ، ولذا من التنقيص في ثمن المواد الاولية (الحيوانية والنباتية والمعدنية) وفي ثمن الانتاج (مصاريف الاطارات والفنيين وخلاص الادوات المستعملة ورؤوس الاموال) ٠

فاحسن الظروف للتصنيع المثمر كما تلوح اذا هي التزود بازهد ثمن من المواد الاولية ومن الطاقة الطبيعية ومن يد عاملة رخيصة حسنة الانتاج ومن الاطارات الفنية او العلمية المنشئة ومن رؤوس اموال بسعر طفيف ، والتمكن من سوق معتبرة للشراء ، وعلى الخصوص الوثوق من ارادة انشائية للشعب على انه من الملاحظ انه قليلا ما تجتمع هذه العناصر ، وانه حيث توفر لاروبا الغربية البعض منها في القرن الثامن عشر امكنها ان تكون مشعلا للحضارة الصناعية ثم انتقل المشعل فيما بعد الى دول اقوى نشاطا واوفر ثروة كالولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ٠

واذا كان تصنيع اروبا اصلا في انشاء طبقة ضعيفة حضرية قامت شيئا فشيئا بوظيفة سياسية لها الاثر الاعظم فكان اهم نتائجها الخارجية البحث عن الاسواق فيما وراء البحار ، وصارت قوة الشراء المحلية ضعيفة بالنظر الى الثورة الصناعية فصار من اللازم البحث عن الزبناء في الخارج لاصدار المنتوجات الصناعية للبلاد ولاقتناء المواد الاولية اللازمة للصناعة من البلدان المحتلة ولايداع رؤوس الاموال لفائدة بعض (الانتفاعيين الثقات) وبدا عصر الانتشار الاستعماري٠

ولكن كافة البلدان لم ترض ان تدر خيراتها على الغير كما اريد ذلك منها ،

وتضاعفت المقاومة ضد الاستعمار في سائر البلدان المستعبدة وزادها كفاح اقتصادى ان لم يكن له مظاهر جلية فقد كان بالرغم عن ذلك عاملا فعالا قويا ولنذكر مثلا ان الحركة التحريرية التى قام بها غاندى اكتست الصبغتين السياسية والاقتصادية ٠

لقد كان لعجلة الغزل ولمقاطعة المنتوجات الانقليزية من الاثر للوصول الى النتيجة النهائية على الاقل قدر ما كان من الاثر لسياسة مقاومة العنف ٠

واتبع شمال افريقية عين الطريق لمكافحة قانون (العهد الاستعمارى) وسعى كي لا يبقى مستعمرا الا يبقى ما يطمع فى استعماره ٠

فطيلة خمسة وسبعين عاما كان اقتصاد تونس مرهقا ارهاقا منظما ابقاه فى حال الطفولة بحيث الجئت الى اصدار موادها الاولية الى فرنسا على شكلها الخام والى التوريد من فرنسا عوضا عن ذلك موادا مصنوعة باغلى اثمان السوق العالمية ومنعت هذه الحالة الاقطاعية تونس من مجاوزة طور الاقتصاد الاولى المرتكز فحسب على استغلال الارض وما تحت الارض بحيث كانت تونس سنة ١٩٥٤ تبيع الطن المصدر بثمن هو سدس ثمن الطن المستورد ٠ وكان من بين المنتفعين من هذا النظام العجيب اقوى المضادين للتصنيع الشمال الافريقى ، فارباب المصانع الفرنسية الذين وطدوا العزم على الاحتفاظ بامتيازاتهم ، ضامنين لمعاملهم سوقا خاصة وراء البحار لم يكونوا ليرضوا بفكرة التصنيع لافريقية الشمالية ٠ وكان لهذه الفكرة مقام البدعة وتعهد سائر علماء الاقتصاد الفرنسيون باقامة الدليل عليها ٠ واحاجيجهم فى ذلك معلومة ، فقر كبير فى الوقودات ، وضعف اليد العاملة الغير المخصصة وعسر التمويل وصغر السوق الداخلية تبعا لضعف قابلية السكان للاشتراء وغلق السوق الخارجية فى وجه منتوجات غير قابلة للمزاحمة ٠ ففى الخلاصة قد حكم من البدء على كل سعى بالفشل المحقق ـ واذا ادت الحاجة الى ذلك كان كبار رؤوس الاموال مستعدين لان يعاونوا على اقامة الدليل على ذلك ٠

ولم يتمكن حتى من استغلال المياه المعدنية والحمامات لما قابل ذلك من تعصب من طرف مصالح بلدان المياه الفرنسية ٠

على انه رغم ذلك استشهد ببعض الشواهد السابقة وهذه اسبانيا او ايطاليا او سويسرة لم تكن احسن درجة منا ازاء التصنيع ومع ذلك هى ادركت التصنيع

وحصلت عليه . ومن ناحيةاخرى انه يكفي ان تحول بعض المواد تحويلا بسيطا فتكتسب المواد الخام الطفيفة الثمن من ذلك قيمة عظيمة ذات بال . فمصانع الفسفاط العالي الثلاثي بصفاقس ومصاهر الرصاص بمقرين ومعامل الاسمنت ومعامل تكرير الزيت ومعامل تصبير المواد الغذائية اى ان كل الهيكل الصناعي الذى بدىء بتشييده ليقيم الدليل على صلوحية التصنيع وحسن حيويته ولزومه الحتمى . وليس معنى ذلك انه لا توجد بعض العقبات فى وجه ذلك . الا انه يمكننا ان نحاذيها او ان نقتحمها كما فعل غيرنا قبلنا وقد كانوا فى ظروف مشابهة لظروفنا ، ثم اننا لو اردنا ان نبقى اقتصادنا فى الطور الفلاحي والمنجمى لما امكننا ذلك ، ان الاندفاع التناسلي وكثرة اليد العاملة ووعي الشغالين وتنظيمهم من جهة وضعف مستوى العيش من جهة اخرى كل ذلك يمنعنا من ان نتمادى على تسليم ثرواتنا فى شكلها الخام اى ان نتمادى بعبارة اخرى على وسق امكانية التشغيل بينما يعد البطالون عندنا بمئات الالاف.

فالتصنيع اذا قبل كل شيء هو بالنسبة الينا ضرورة اجتماعية متاكدة ، وعلينا ان ننظمه بالنظر الى الظروف الداخلية قبل كل شيء ثم بالتبعية الى مقتضيات السوق العالمية بعد ذلك ، ويمكن اتخاذ بعض وسائل الحماية لذلك اذ اقتضى الامر ذلك اذ لايمكن بلدا تفتح للعصر الصناعي ان يكافح بين عشية وضحاها على قدم المساواة ضد شعوب لها ماض طويل وتجربة جاهزة وتنظيم عميم فى هذا الشان ، ففى هذه المرحلة الاولى التى هى مرحلتنا اليوم لا يمكننا ان ندفع بانفسنا فى مشاريع الصناعة الثقيلة المستهلكة لكميات كبيرة من الوقودات . وانما نرمي الى الصناعات الخفيفة التى تمكن من تحويل انتاجنا الفلاحي والمنجمى ومن تضخيم قيمته والتى تمكن من تشغيل عدد عديد من اليد العاملة الغير المخصصة حيث لا ينبثق التخصص فى العمل اذا فقدت كل صناعة ولا يمكن ان يبعث هذا التكوين الفنى دفعة واحدة بصفة مرتجلة بل هو يتم شيئا فشيئا بصفة تدريجية . وانما تحـزمت مدارسنا الفنية والصناعية ، القليلة العدد من سوء الحظ ، والمتجهة اتجاهات غير ملائمة لحاجياتنا ولصعوبات الواقع التونسي ـ لتهيئة هذا التكوين الفنى .

وانما اوضح امكانية تصنيع تونس ـ وذاك فى الواقع هو نشاة هذا التصنيع ما كان من حرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ حيث عزلت شمال افريقية مدة عن فرنسا ، وشعر

اذ ذاك بفراغنا الصناعي وشرع في انشاء بعض المعامل بالوسائل المحلية لا لوفاء الطلبات المحلية فحسب بل لاصدار بعض المنتوجات كالمصبرات الغذائية نحو اوروبا الغربية التي كانت في حاجة اكيدة اليها — وقلبت الوضعية فصارت تونس مدة بلدا صناعيا منتجا وكانت فرنسا سوقا مستوردة للمنتوجات فنشا على الخصوص بتونس واحوازها القبلية — جبل الجلود — عدد من صغار المشاريع الصناعية المصطبغة بعض الشيء بالصبغة التقليدية • وبقي البعض منها بينما لم يتمكن غيرها من مقاومة هجومات المزاحمة الاقتصادية العالمية بعد الحرب • ثم شجعت تصميمات السنوات الاربع ما كان موجودا من المعامل وبعثت على انشاء غيرها من الصناعات • وهكذا نبلغ الآن اكثر من ٨٠٠٠ معمل(١) ينبغي ان تضبط وجهتها ، الا انها تجربة لفائدة تعميم الشكل الصناعي للحياة •

ويمكننا قصد التسهيل ان نميز النشاط التابع لما تحت الارض من النشاط التابع للارض اعني الزراعة وتربية الاغنام والغابات وحتى الصيد • وبالطبع سنقتصر هنا على مجرد نظرة عامة •

صناعات التحويل التابعة لما تحت الارض : ان الاستهلاك المتزايد للاسمدة الكيماوية لفائدة الزراعة واهمية مناجم الفسفاط بعثت منذ عهد بعيد على انشاء معمل للفسفاط الرفيع سعره ٪ ١٦ S. A. P. C. E. **بجبل الجلود** • فيخدم هذا المعمل الفسفاط الطبيعي او المخدوم ذا ٪ ٦٥ بكبريتات الحديد التونسية او الاسبانية ويفي هكذا بطلبات السوق المحلية (٥٠٠٠٠ طن) بل له بعض الفواضل للاصدار • وهناك معملان لتحويل الفسفاط بصفاقس متفاوتا النجاح ، فاحدهما يطحن الفسفاط طحنا دقيقا جاعلا منه فسفاطا قويا الا ان انتاج هذا المعمل اخذ في الانحطاط ، وكان غالب انتاج هذا المعمل متجها نحو الاصدار فانتقص بمقدار الثلثين في مدة خمس سنوات (الصادرات عام ١٩٥٥ : ٤٦٠٠٠ طن بينما كانت ١٤٣٠٠٠ طن سنة ١٩٥٠) • وبالعكس ان المعمل الثاني ، معمل S. I. A. P. E. الذي ينتج الفسفاط المكرر الثلاثي ذا ٪ ٤٤ من الحامض الفسفوري بخدمة الفسفاط الطبيعي الضعيف بقفصة ، هو في اوج الازدهار — وانتاجه المقصود منه الاصدار الى الخارج مكنه سنة

---

(١) من جملة ٨٣٩٢ معملا صناعيا هناك ٨١٧١ لا يتجاوز العملة بها الخمسين

١٩٥٤ ـ اى بعد مرور سنتين على انشائه ـ ان يصدر ٠٠٠ ٥٥ طن من الاسمدة الرفيعة المرغوب فيها بالرغم من ارتفاع ثمنها (١) ٠

فهذا مثال مهم للدلالة عن امكانية التصنيع المجدى الذى شرعت تونس فى السلوك اليه : تحويل مادة اولية ضعيفة تنفر منها السوق العالمية الى منتوج ثمين رفيع القيمة مرغوب فيه ٠ وحيث ان التجربة كانت ناجحة والحجة قاطعة صار من اللائق ان يتوسع فى نطاق هذه الفكرة مع الاحتياط بالطبع بان تضمن زبناء ثابتين واسواق قارة ٠ وفى الامكان ان تنشا عدة معامل على شاكله معمل S. I. A. P. E.

وفى ذلك ما من شانه ان يضاعف الارباح الناتجة عن اصدار فسفاطنا قدر ثلاثة او اربعة اضعاف ٠

ونظرا لاهمية هذه المادة فى اعيننا قد يمكن ان تكون هى المحور الرئيسى لتحويل صناعتنا كلها ٠

ومعدن الرصاص التونسي يخدم فى جملته تقريبا بمصاهر مقرين (بنارويا) فى سنة ١٩٥٤ : ٢٢٨٤٣ من جملة ٢٧١٩٠ ، وان هذه الشركة لتستورد ايضا من الخارج هذا المعدن لخدمته ، وفى ذلك مـا يمكن تونس من اصـدار معظم رصاصها مخدوما فى صورة كتلات خارجة من المصهر ـ على ان الرصاص يحول ايضا بمعامل محلية الى جعاب واكاسيد وحب رصاص للصيد ومادة للدهن ـ وهو يفى جميع الحاجيات المحلية وفى الامكان اذا وجد جهاز لائق ان ينتج صادرات ثمينة مجدية من المنتوجات المصنوعة ٠

ومعدن الحديد بالعكس لم يسع فى تحويله وهو يسلم الى الوسق فى شكله الخام وان فقدان صناعة الفولاذ بالشمال الافريقى لهى نقطة الضعف فى اقتصاد هاته البلدان ٠ على انه بتعدد السدود وانشاء المعامل المركزية للتوليد الكهربائى لم يصر من الخيال ان يفكر فى انشاء مصانع صغيرة للفولاذ تستعمل القوة المائية كما جرى بذلك العمل بجبال الالب مثلا فالمعمل المركزى للتوليد الكهربائى المزمع انشاؤه بجهة سد نبر كائن بجهة

(١) سعر الطن من الرفيع الثلاثى ذى ٪ ٤٤ : ٢٥٠٠٠ فرنك ، بينما يسعر الطن من الفسفاط الطبيعى ذى ٪ ٦٥ بقدر ٣٠٠٠ من الفرنكات ٠

ثرية بحديدها . وهو بملايينه العشرين من الكيلواطات الساعية يمكنه ان يبعث على انشاء معمل للفولاذ يسير بالكهرباء ويستعمل حديد جريسة . نعم انه ليس من المتوقع ان يؤتى بالمعجزات فى هذا الشان وسنبقى فى هذا الميدان تابعين للخارج ولكنه في الامكان ان نخفف وطاة هذه التبعية .

ومن جهة اخرى لا يمنعنا هذا التبع للخارج من ان ننشىء صناعات معدنية حيلية العامل الاساسى فيها اليد العاملة . واذا كانت الصناعات الثقيلة تميل الى الاستقرار بقرب مناجم الفحم فقد لوحظت فى سائر البلدان الصناعية حركة جاذبية نحو المدن ، اى نحو خزائن اليد العاملة ، فيما يخص الصناعات الخفيفة للتحويل ، وقد شرع فى بعض المحاولات الجيدة فى ذلك بتونس وكان نصيبها النجاح .

وانشئت بالحاضرة صناعة صغيرة للادوات المنزلية من الالومينيوم تنتج نحو ٣٠٠ طن فى العام فتمكنت من الوفاء بحاجيات السوق المحلية بل هى تصدر بعض انتاجها نحو افريقيا السوداء .

وقد صار استعمال الالات الفلاحية عاما وانتشر النقل بالسيارات فدعا ذلك الى انشاء عدة معامل للاصلاح الميكانيكى ولتركيب الالات بل وحتى لصنعها ، وذلك منذ الحرب ـ فبالحاضرة عشرة من المصاهر (من جملة ١٧) بدات تنتج قطعا من الفنت والابرنز والالومينيوم كانت قبل تستجلب من الخارج . وبعض هذه المعامل اكتست منذ الآن بصبغة المصانع الصغيرة . فهى لا تكتفى باصلاح الآلات الميكانيكية القديمة بل هى تصنع القطع الجديدة، ودارت دواليب معامل لصنع انابيب الفولاذ ولتطريق النحاس وجعله صفائح . وعدة آلات فلاحية ومضخات للسقى تصنع بالبلاد نفسها ، وانتشرت معامل لاوراق السيارات ولصنع المراجل وللبناء الميكانيكى .

ومن المحتمل ان تتطور صناعة الاصلاح هذه الى صناعة انشاء تؤول الى تشييد معامل تركيب القطع وجمعها وتحسين القطع المستوردة للدراجات والالات الفلاحية وحتى السيارات .

ومن هنا الى ذاك المتجه القريب فقد ازدهرت صناعة الاوعية المعدنية منذ انتشرت صناعة المصبرات الغذائية وتستهلك الادنان المعدنية لوسق الزيت

وصناديق المصبرات من الحديد الابيض مقدار ٣٠٠٠ طن من الحديد الابيض في السنة ٠

ويمكننا ان نضيف الى هذا من النشاط مصنع البلور بصواف المنتج للقناني وكؤوس التاى (١٥٠٠ طن سنة ١٩٥٣) ٠

وبجوار هذه المساعى الطيبة التى جهزت البلاد شيئا فشيئا ـ بالرغم عن آراء الفنيين ـ بصناعة معدنية صغيرة للتحويل ، نشات ايضا عدة صنائـــع مرتبطة من قريب او من بعيد بما تحت الارض اى صناعات كيماوية فاحتلت على العموم الاحواز القريبة من الحاضرة ومكنت من صنع الحامض الكبريتـــى (بالتبع لصنع الفسفاط الرفيع) وكبريتات النحاس ومواد لمقاومة امـراض الكروم ومواد للدهن ومفرقعات للمناجم والهواء المائع للحم التلقائى٠

واخيرا ينبغي ان نلحق بهذه المنتوجات جميع الصناعات التابعة لادوات البناء

فالبلاد التونسية فى هذا الباب مجهزة اتم تجهيز بل هى تتمكن من اصدار كميات ذات بال من انتاجها كما هو الشان بالنسبة الى الاسمنت ـ فكان بتونس معمل مهم للاسمنت بجبل الجلـود ولكن اندفاع التشييـد الذى وقع اثـر تخريبات الحرب والمشاريع العظمى للسدود انمت الاستهلاك من الاسمنت انماء قويا ـ وبالرغم عن انتاج كان ٦٠٠٠٠ طن سنة ١٩٤٥ فارتفع الى ١٦٢٠٠٠ طن سنة ١٩٤٨ قد وقع التفكير فى انشاء معمل ثان للاسمنت ٠

وتم بناء هذا المعمل ببنزرت واخذ فى الانتاج سنة ١٩٥٣ ، فتجاوز الانتاج التونسى للاسمنت سنة ١٩٥٥ قدر ٤٠٠٠٠٠ طن تاركا للاصدار السنوى نحو ٢٠٠ او ٢٥٠٠٠٠ طنا وبدىء هكذا عرض مشكلة صادراتنا الصناعية (١) ٠

وارتبطت بازدهار معامل الاسمنت وتبعته معامل الزليج والجعاب الاسمنتية فصار لها عظيم الرواج لجلب مياه وادى الليل الى تونس ولمشروع السقى بوادى مجردة ـ وينبغى ان يضاف اليها ايضا سائر فروع البناء كخزانات الحجارة ومعامل الاجر ومعمل الجير ببوتانفيل ومصانع الجبس ـ وان نمـو النشاط فى صناعات مواد البناء هذه لما يصور صورة صادقة صحة البلاد الاقتصادية والمثل القديم : (اذا كان البناء بخير فالكل بخير) صحيح المعنـى صادقه ٠

(١) سنة ١٩٥٥ اصدر ١٩١٠٠٠ طن من الاسمنت قيمتها ٩٥٩ مليون من الفرنكات وسنة ١٩٥٦ وقع بيع ٣٧٧٠٠٠ طن منها ٢٢٠٠٠٠ للموسق

وقد يقدر الازدهار الاقتصادى لبلد ما ووثوقه بمستقبله بالنظر فى منحنى رخص البناء (١) فلذا شرعت حكومة (تونس الجديدة) فى سياسة للبناء والتشييد عظيمة المدى وسياسة مكافحة ضد الاكواخ والمساكن الغير اللائقة وما ذلك الا مظهر من مظاهر التحسن العام لمتوسط المستوى من العيش التونسى الذى تعيره الحكومة اهم مجهوداتها ·

الصناعات التابعة للارض : واما هذه الصناعات فتعم بعديد الوانها التحويلات الصناعية لمنتوجات الفلاحة والغابات والانتاج البحرى، وانه لمن الطبيعى ان ينتشر هذا النشاط ويتضخم فى بلاد ما زالت الفلاحة فيها هى اساس سائر الثروات · وسنقتصر هنا على نظرة خاطفة لذلك وصورة عامة منه·

وسواء اكانت نظرتنا موجهة نحو القسم الغذائى او نحو قسم الملابس ان الشغل الشاغل لارباب الصناعات الجديدة هو فيما يظهر يرمى الى تزويد السوق المحلية قبل كل شيء ـ واذا كانت هذه النظرة صالحة فيما يخص بعض الفصول التى يوجد لها داخل البلاد زبناء عديدون يمكنون من تدعيم اركان صناعة قوية ، فانها بالعكس محدودة الصلوحية فيما يخص المنتوجات التى يكون مقتنوها محدودى العدد فى الاطار المحلى ·

فصار اذا من اللازم ان نفكر فى سير الاسواق الخارجية لنتحقق من وجود حرفاء فى الخارج للمنتوجات التى لايضمن فيها الحريف الداخلى من المساعدة على نشر الصناعة المنتجة لها ·

وسوق الاستهلاك الغذائى كانت هى الاولى التى مكنت باتساعها من تدعيم قاعدة التحول من الصناعة التقليدية الى الصناعة العصرية

فطحن الحبوب دعا الى نشر طواحن ضخمة منتجة للسميد يحل جلها حول

---

(١) من سوء الحظ يلوح بعض التوانى اليوم فى البناء ـ فارقام ١٩٥٥ توضح انخفاظا قدره ٢٥٪ بالنسبة الى ارقام ١٩٥٤ وفى الستة اشهر الاولى من ١٩٥٦ هناك عدد اقل من مطالب البناء ومن القيم المستعملة الا انه يلوح ذلك كعارض وقتى على ان سنة ١٩٥٤ كانت سنة استثنائية بلغت فيها المساحات المرخص فى بنائها ٥٢٤٠٠٠ م ٢ بينما كانت ٤٤٩٠٠٠ سنة ١٩٥٣ فيكون اذا من الطبيعى ان تعتبر ارقام ١٩٥٣

العاصمة ، وقد جهزت تجهيزا كهربائيا وهى تستخدم نحو الالف عامل وتطحن معدل ٨٠٠٠٠٠ قنطار (ثلثاها من الفارينة) اى اقل من نصف الاستهلاك المحلى واقل من ربع ما فى امكانها ان تقوم به من الطحن فالبلاد التونسية فى وسعها اذا ان تصدر ما تصدره فى قمحها الصلب ، المرغوب فيه بفرنسا كمادة اساسية للعجين الغذائى ، فى صورة سميد لا فى صورة حبوب .

وذاك تحويل بدائى تقدر تونس ان تقوم به ، على انه فى وسعها ايضا ان تقوم بالمرحلة الموالية لذلك اى مرحلة صنع العجين الغذائى . وبالفعل منذ مايقرب من عشر سنوات تضاعف عدد مصانع العجين وتضخم على انه لاينبغى ان نغتر بهذا العدد وهو يناهز المائتين . فكثير من هذه المصانع ذو صبغة عائلية ويقوم على ادارتها ايطاليون وهم كما هو معلوم اخصائيون فى فن تهيئة الدويدة والعجين ، وجملة انتاج هذه المصانع ٦٠٠٠٠ طن يستهلك معظمها العنصر الايطالى (المستصدر منها ٤٠٠٠ طن)

ووسق قمحنا فى صورة سميد وعجين غذائى وبشكوطو امر يسير من الناحية الفنية وفيه ما يقوى قيمة ميزاننا التجارى بمقدار لاباس به وما يمكن من استخدام بعض من اليد العاملة ، وانما المسالة ان نبحث عن اسواق مضمونة نرسل اليها بانتاجنا

ويمكن ان نضيف الى توابع الحبوب مادة البيرة التى يكفى انتاجنا فيها (١٠٠٠٠٠ هكل) لحاجيات البلاد على ان بين هذه الصنائع الغذائية يحل الزيت المنصب الاعلى بدون منازع ، فتقدمت البلاد التونسية فى الناحية الزيتية خطوات شاسعة ، وغابة زياتينها المنشئة الجميلة وكميات زيوتها الموسوقة وعلى الخصوص القيمة النوعية الممتازة التى تختص بها زيوتها الرفيعة ذكية الذوق كل ذلك يضمن لتونس مرتبة متفوقة فى السوق العالمية .

فالتونسيون منذ القديم صناع للزيوت ، وبعض معاصرهم كالتى نجدها بجربة تذكرنا برحى الزيت الرومانية وهى احتفظت باساليبها البدائية . فلهذه المعاصر التى كثيرا ما تكون تحت الارض ارحية من الحجارة يحركها جمل ويعصر الزيت بسواعد الرجال فيضغط على عجين الزيتون « شوام » يتصبب الزيت منها فى الجرار ، واذا كانت الطرق بدائية تدخل عليها التجربة الطويلة

انواع التفنن فالزيت الناتج عن زيتون حى جديد قليل الحموضة فنوع «اول عصرة » منه « والفضيخ » لاباس بهما

وهذه المعاصر المحركة بالدواب ، المنتشرة بالجنوب كله وبالساحل ، هى اكثر المعاصر عددا • ويعد منها ١٢٣٤ منجملة ١٩٩٢ معصرة ، ولكن المعاصر المجهزة بالجهاز العصرى من محركات نارية (٤٤٣) وحتى كهربائية (٢٩٥) هى التى تنتج معظم الانتاج فى الزيوت ، فنلحظ اذا هنا تعويض تدريجى للفنون التقليدية العتيقة بفن عصرى من النوع الصناعى •ولنا فى هذا التطور التدريجى وهذه « المساكنة السلمية » امثال محسوس يمكن ان ينسج على منواله للانزلاق من الفنون التقليدية الى التصنيع العصرى

ومهما يكن من الامر فالناتج زيوت رفيعة درجة حموضتها لاتتجاوز الدرجة الواحدة بل قد تنحط الى اقل من ٠،٥ لها من حسن النوع ومن الصفاء مايجعل لها المرتبة العليا بالاسواق العالمية — وامكانيات المعاصر التونسية فى عصر الزيتون لتخولها خدمة عظيم الصابات كصابة ١٩٤٩ التى انتجت ١٠٥٠٠٠ طن من الزيت ، وتقوم بهذا العمل فى آماد قصيرة حتى لا يصير الزيتون المخزون حامضا ، ولارضاء الحرفاء الاروبيين وذوقهم الذى لم يتانس بما للزيوت التونسية من طعم طيب ، تجهزت معامل للتصفية على اكمل وجه واستعملت المصافى والالات التى تعتمد على القوة المنفرة عن المركز ، منتجة زيوتا خالصة زكا طعمها وان كانت بطبعها لذيذة وفى الواقع ان هذه التصفية التى يراها المستهلكون الاروبيون تحسينا للزيت لاتبلغ ما للزيت (العجمى) التونسى وهو عصير ثمرة تحصل عليه فى غالب الاحيان بدون استعمال للحرارة — من طعم وشذا لا نظير لهما — والتونسى — المتذوق لزيت الزيتون المتفنن فى هذه المادة تفنن الصائغ — يفضل على هذه الزيوت المصفاة التى فسخت عنها شخصيتها زيوتا ابقت لها العصرة الاولى طعمها وروائحها — فيبدو اذا من الحسن ان يسعى بواسطة دعاية ملائمة الى تدريب المستهلك الاروبى وتهذيب ذوقه من جديد — بعد ان اثرت فيه زيوت الكاكاوية عديمة الذوق — كى يتذوق ويتلذ بالزيوت الرفيعة والعالية غير المصفاة ، مشتما شذا تربتها كما يتذوق الخمور الرفيعه

وينبغى ان نعترف ان «المصلحة التونسية لزيت الزيتون» برقابتها الصارمة لصنع هذا الزيت ولصفاء المنتوجات ، وبتفننها الذكى فى عرضها والدعاية

لفائدتها ، كان لها ابيض الايادى على الزيت التونسى الذى جعلته احسن زيوت العالم • وانتاجنا الذى يمكن من فواصل صالحة للوسق قدرها تقريبا ٤٠٠٠٠ طن مثلت سنة ١٩٥٤ قيمة ٧ مليارات ونصف من الفرنكات ـ يزداد شيئا فشيئا كلما بلغت مئات الالاف من الزياتين المغروسة سنويا سن الاطعام ـ وستكون بطبيعة الحال مع الاحتفاظ بجودة نوعها المورد الرئيسى لثروة البلاد المورد الذى تعم حقيقة نعمه على الشعب اجمعه •

ويضاف الى هذه الموارد الزيتية قدر ١٠٠٠٠ او ١٢٠٠٠ طن من زيوت الفيتورة المستخرجة سنويا لصنع الصابون داخل البلاد او فى الخارج ، وتقتصر صناعة الصابون التونسية على صنع ٥٠٠٠ طن تقريبا ولها امكانيات للتوسع خصوصا اذا نظمت عملها قاصدة الى الوسق ورامية الى تمكين البلاد من الاستغناء عن توريد كميات من الصابون تضاهى الكميات المصنوعة فيها

فالزيتونة اذا حيث تنشر جلبابها الواقى على اقل الجهات حظا من الناحية الطبيعية وحيث تحقق بجلاء ووضوح حسن استعداد البلاد لغراسة الاشجار هى شيئا فشيئا رمز ازدهارنا المنتشر كلطخة الزيت على سائر طبقات الشعب

ثم ان كمية من زيوتنا العسجدية لذيذة الطعم تستعمل فى صناعات التصبير تسبح فى صفائها الوضاء لحوم التن الوردية المقتنصة بسيدى داود والسردينة اللازوردية المهدوية والطماطم القانية المزروعة بمجردة السفلى ، يقيها غلاف مختوم من الحديد الابيض •

وشجع صناعتنا للتصبير الغذائى ما قته من اقبال من السوق الفرنسية فتضخمت فى اواخر الحرب تضخما عظيما • وكان لصادراتنا من مصبرات الثمار والمعجون ولب الثمار والعنب والطماطم والاسماك من الاقبال والنجاح ما دعا الى بعث بعض من الصناعات دامت وقتا محدودا ثم اغلقت ابوابها حين تقوت المزاحمة وضغطت عليها • وبالرغم على ذلك كانت صناعة التصبير التونسية تنتج سنة ١٩٥٤ مايقرب من ٣٠٠ طن من مصبرات الثمار والبقول• ونحن بالطبع على بعد بعيد من امكانيات الانتاج التى فى وسع جهازنا ان تنتجه اذ فى الامكان ان يبلغ ١٤٠٠٠ طن • وفى بعض المواد لايكفى ماتنتج للاستهلاك المحلى كما نشاهد ذلك فى مصبرات الطماطم حيث تفوق الطماطم المستوردة الكميات المصنوعة بالبلاد ـ وتلك امور غير طبيعية يجب القضاء عليها خصوصا وان سياسة زراعة البقول والثمار السقوية التى نتوجه اليها فى اطار متسع

الارجاء ، خاصة فى اطار احياء وادى مجردة ــ تستدعى مباشرة صناعة حسنة التنظيم ــ وان ارتباط الزراعة بالصناعة لاعلق واقوى فيما يخص باكورات الثمار والغلال منه فى غيرها • ومعمل التصبير للمنتوجات الفلاحية النباتية منها والحيوانية يلوح كمتمم طبيعى للعمل الفلاحى المنطقى • وقد شوهد فى كثير من الاحيان ان اسعار الطماطم وسائر البقول تتدهور تدهورا وقت الصابات الطيبة لما يبديه ارباب معامل التصبير من التلكؤ والتنطع • وحال كهذه من شانها ان تضر بالمنتج ، وبالتبع بصاحب الصناعة ، فصار من الصالح تنظيمها كى تتمكن الاسعار من الاستقرار وعلى ذلك يعتمد المجهود الحالى لفائدة الرى والامال التى تتعلق به • فما الفائدة من انتاج البقول بكثرة اذا لم تضمن لنا سوق معقولة منتظمة ؟

ومصبرات الاسماك بالعكس ازدهرت هذه السنوات ازدهارا استثنائيا بلغ اقصاه سنة ١٩٥٤ ــ واذا كان الانتاج فى التن لم يتغير شديد التغير (من ٥٠٠ الى ٦٠٠ طن) فقد ازداد الانتاج زيادة ضخمة فيما يخص السردينة والاسماك الزرقاء فارتفع من ١٠٤٥ طنا سنة ١٩٤٦ الى ٤٨١٠ من الاطنان سنة ١٩٥٤

ورتب صناع مهرة معامل مجهزة احسن تجهيز بالمهدية وسوسة فبلغ انتاج حقق السردينة مستويات لميرتفع اليها قبل (١) • فتمكنت صناعة التصبير التونسية من انتاج ٥٥٥١ طنا سنة ١٩٥٤ اصدر منها ما قيمته ٧٥٤ مليونا من الفرنكات • وبالرغم عن كون هذه المعامل فى استطاعتها ان تضعف انتاجها انه يلاحظ منذ ١٩٥٥ فشل خطير وانحطاط قدره الثلث من مقدار الانتاج فى السنة السابقة • وما ذاك جله الا من القلق السائد بين صيادى الاسماك الذى ذكرناه آنفا•والصيد النارى للاسماك الزرق (سردينة وصغار السردينة وسكمبرى) انتقص مقدار نصفه سنة ١٩٥٥

وبمعالجة الازمة التى يتخبط فيها الصيد التونسى يمكن فى آن واحد ان يؤمل توطيد حالة صناعة التصبير للاسماك •

ومن المفيد ايضا ان نذكر بين هذه الصناعات الغذائية الصناعات المتعلقة بالمنتوجات اللبنية • فهناك شركة تامة التجهيز (الشركة المركزية للبن

---

(١) يعالج الاسماك الزرق اليوم فى ١٨ معملا : ٨ بالمهدية و ٦ بسوسة و٣ بالحاضرة وواحد بسليمان • وهناك ١٤ معملا تقليديا معظمها بقابس •

بتونس) هي تجمع يوميا ٢٥٠٠٠ لترة من اللبن وتطهرها باسلوب بسطور . ويمتد نشاطها خاصة على جهة الحاضرة لاشتراء اللبن وبيعه .

وبالطبع ان هذا النوع من الصناعة يتبع امكانية تربية البقر كما يتبع مقدار استهلاك المدن لهذه المواد ـ وهو ذو بال فيما يخص جهة تونس .

ويكمل هذه الشركة شركة لصنع الجبن SOTULAIFROM (شركة تونسية للبن والجبن) لها ولاء (بروكفور)، تعالج لبن النعاج (الصقلية) بجهة ماطر ومنزل بورقيبة فتنتج نوعا من (الروكفور) التونسي شديد اللذة .

وفي الامكان ان تمتد هاتان الشركتان وان تنتشرا فتؤثران قويا على تربية البقر والاغنام بالشمال التونسي بشرط ان تتخذ تدابير تحفظية صارمة. نعم ان بلدانا منتجة للبن لم يكن حظها في هذا الشان اوفر من حظنا ـ وعلى الخصوص فرنسا ـ تتمكن سنويا من الاصدار الى تونس ما يفوق قيمة مليار من الفرنكات (١٢٥٠ مليونا سنة ١٩٥٤) من الجبن والزبدة واللبن المصبر او غبرة اللبن. فان كنا لا نزعم اننا سنصير مصدرين ـ على اننا شرعنا في ذلك فيما يخص الروكفور التونسي ـ ففي استطاعة تونس ان تقوم تماما بحاجياتها من المنتوجات اللبنية وفي ذلك غنم غزير لتربية الدوا ب وغنم غزيـر للاقتصاد مـن نايـة العمولات .

ويمكن ان يضاف الى الصنائع التابعة للانتاج الحيواني صناعات الجلـد والاحذية والصوف والاقمشة .

فالمدابغ التونسية لا وجود لها في الواقع اذا استثنينا المدابغ التقليدية ـ وكانت خيبات لاذعة في هذا الباب ـ على الاخص ما ادى الى غلق مدبغة منوبة ـ فتوجه بمعظم الجلود والفروات في حالتها الخام الى الوسق وفي ذاك ما يضطرنا الى توريد معظم الجلود المدبوغة او المصنوعة ، وينجر عن ذلك غرم مـركب ، قدره مليار من الفرنكات كل سنة ، والحال انه يمكن ان يتدارك الامر بعض التدارك . فالجلود تصنع في خمسة او ستة معامل للاحذية يمكن ان تصل بانتاجها الى مليون من الاحذية في السنة ، وجهازها عصري وهي تستعمل ٤٧٠ عاملا ، وليس الوقت لنا ببعيد كي نتوجه نحو اصدار منتوجها .

ويمكن البلغاجية ان يتعلموا الطرق الميكانيكية وان يندمجوا في الصنـاعة العامة للاحذية فيتم بذلك تحويل اليد العاملة التقليدية الى يد عاملة عصرية .

واما الصوف فيجنى منها سنويا ٣٠٠٠ او ٤٠٠٠ طن يستعمل ثلثاها للصناعة العائلية والبلدية •

وتستعمل هذه الصناعة التقليدية للنسج ٢٠٠٠٠ عامل تجمعوا خاصة بجهة العاصمة (وتخصصت فى الحرير الطبيعي او الاصطناعى) وبجزيرة جربة (الصوف والقطن) وبالساحل (القطن) حيث تفوقت مراكز المنستير والمهدية وخاصة قصر هلال • على ان المزاحمة التى يلاقيها الحائكون من الانسجة المستوردة من فرنسا جعلت حالهم ضنكة وكثير منهم ليس له فى اليوم اكثر من ٢٠٠ فرنك من الدخل • والسوق التونسية تستورد سنويا ما يقرب من عشرة مليارات من الفرنكات من المواد النسجية ـ فتلك كلها ظروف ملائمة احسن الملاءمة لانشاء منظمة حقيقية صناعية حيث لنا يد عاملة مجربة عديدة وسوق عظيمة مضمونة • وحيث ان معامل النسج من ناحية اخرى لا تستهلك طاقة قوية قد توفرت جميع الشروط لانجاح تجربة من هذا النوع •

وخيبة بعض المعامل ـ كمعمل (STUFIT) فى ظروف دالت دولتها وانقرضت ـ لا ينبغى ان يتاثر بها مشروع كهذا نفعه اولا تمكين البلاد من غنم ستة او سبعة مليارات من الفرنكات فى السنة (اذ يبقى من اللازم توريد بعض المواد) وثانيا تمكين اليد العاملة التقليدية من سوق نافقة تخفف عنها وطاة الازمة التى تتخبط فيها •

وقد احست الحكومة التونسية بما فى هذا العمل من جليل المصلحة من الناحية الصناعية فوضعت تصميما لتعمير صناعة النسج وارتات انشاء معملين مركزيين احدهما لتحضير النسج والثانى لاتمامه واتقانه الاول بقصر هلال والثانى بالحاضرة وهدفت تدريجيا الى تعديل الانوال التقليدية بانوال ميكانيكية ويمتد هذا التصميم على ثلاث سنوات ويتطلب من التمويل ما يقرب من مليار ونصف من الفرنكات وقد شرع فى تحقيقه ـ فشرع فى تشييد معمل قصر هلال ولم يتغافل عن مشكلة تكوين اليد العاملة • فوجه متربصون سيكونون الاطارات لصناعة النسج التونسية ارسلوا الى مراكز التكوين الصناعى بشمال فرنسا بينما تعمل منذ سنتين بالحاضرة وبالقيروان معامل للتدريب تتكون فيها اليد العاملة التقليدية وتلقن الاساليب الفنية الحديثة •

واذا ما تمادت تونس على هذه الخطوة المنظمة المدبرة ووسعت فيها لغنم

جميع العمال المدربين على النسج ستصير فى اقرب الاوقات قادرة على القيام بعدد عديد من حاجياتها من المنسوجات بل وستتمكن من اصدار منتوجاتها •

واذا ما اعتبرنا البلدان الجديدة كالهند الساعية مثلنا فى تحوير اقتصادها البدائى نلاحظ انها انما بذلت اهم مجهودها فى هذا الباب من الصناعة • وبعد ان كانت هذه البلدان مستوردة للمنسوجات ها هى تصير شيئا فشيئا من المصدرات لها •

وفى استطاعتنا ان نصنع مثلما صنعت هذه البلدان ولا حاجة فى اظهار الثروة التى ستنجر من ذلك لجزء غير ضئيل من الامة الشغيلة •

٣ ـ الخلاصة :

من هذه الجولة بين صناعاتنا التابعة لاستخراج المناجم وللتحويل تلوح لنا بعض العناصر تجعلها نرتئى الطريق التى تفرض علينا مصلحتنا وامكانياتنا ان ننتهجها واول حقيقة تتراءى لنا فى هذا الشان هى انه يلزم القضاء على اقتصادنا الاستعمارى كما قضى على النظام السياسى الذى انشاه فصرعوانهار

وان استقلالنا السياسى ليكون سرابا خلبا اذا ما بقى من تحته ارتباط اقتصادى وولاء لم يتغير كنههما ـ فهناك نوع من الفن برعت فيه بعض الدول الاستعمارية هو انها تترك البلاد مع كونها باقية فيها ـ

وهى ترخى جنبها من الناحية السياسية كى تحتفظ بميزاتها ومصالحها الاقتصادية ، والاستعمار ، منذ الفنيقين ، لم يبرح يرتكز اساسيا على الاغراض الاقتصادية فاذا بقيت هذه الاغراض ثابتة ، واذا بقيت الشركات الفرنسية تمتص ثروات مناجمنا ، واذا ما بقيت اراضى شمالنا السوداء المنتزعة لفائدة المعمرين تهب صاباتها الثرية لصغار القياصرة من الاستعمار وكبارها ، ماذا تجدى الحالة السياسية الجديدة ؟ وما من احد كالتونسى يقدر للحرية وللسيادة القومية اعز قيمها ، ولكن ليس معنى ذلك انه شخص نظرى تغذيه كبريات المبادى المذهبية فيسلم للغير خيرات هذه الدنيا ، وان كافح ليصير له من جديد زمام داره فانما كان كفاحه قبل كل شىء ليتمتع بالميزات المادية المنجرة عن كفاحه ـ ولا يصل به ما يكنه من احساس نحو الضيافة الى انيتخلى

عن ١٣٥٠٠ مليون من الصادرات المنجمية وعن ٤٦٪ من انتاج القموح فى حين ان معدل رده السنوى مازال من اضعف المعدلات بالعالم

والشرط الاساسى فى سبيل الاحياء الصناعى للبلاد انما هو قبل كل شىء فى تاميم ما تحت الارض وفى فسخ صبغة الاستعمار عن الارض ، وفى هذا العمل الحيوى ما يوفر من المالية ما يقرب من نصف الميزانية العادية التونسية، ولا يجدى شيئا ان نشيد مشاريع عظمى للتصنيع والرى اذا بقى المتمتعون بها هم الاشخاص الذين كانوا « يحموننا » بالامس ٠

هذا امر واضح جلى لا حاجة فى زيادة التاكيد عليه ثم ان فقرنا الكبير فى مادة الوقود يحجر علينا ان نفكر فى صناعة معدنية ثقيلة لها بعض الاهمية ، ولكن الموارد الكامنة تحت ارضنا ـ وان لم نحولها آلات وادوات مصنوعة ، انما ينجر لنا منها غنم كبير اذا عدلنا عن تسليمها فى شكلها الخام ، وبعض التحويلات التى لا تستدعى كثيرا من الوقود ولاتتطلب كثيرا من اليد العامله قد تقوى فى قيمتها قدرا محسوسا ، وماجرى به العمل من صنع الفسفاط الخام ، ومن صنع كتلات الرصاص والجعاب من المعدن نفسه ، ومن صنع الاسمنت وسائر مواد البناء ، يكون فى الامكان التوسيع فى نطاقة والنسج على منواله بالنسبة الى عدة مواد اخرى ، على انه ليس من الخيال فى شىء ان نفكر فى المرحلة الموالية ـ مرحلة البناء الميكانيكى ـ اما فى معامل لجمع القطع المفرقة ، واما فى مصاهر صغيرة كما تم ذلك الان بالنسبة للادوات المنزلية المصنوعة من الالومينيوم ، وفى هذا النوع من العمل تصير المادة الاولية الحقيقية هى اليد العاملة نفسها ،ويصير ثمن المصنوعات تبعا لمقدرة هذه اليد العاملة الفنية ولانتاجها ، وبذلك تعرض فى آن واحد مشكلة تخصيص العملة والقانون الاجتماعى والاسواق المصدر اليها ، فاذا كان فى الامكان فى السوق المحلية بواسطة تدابير تحفظية ـ قد تكون لازمة وان كان غير مرغوب فيها ـ قتل المزاحمة ففى الاسواق الخارجية يفرض علينا الكفاح فى مسالة الاثمان وفى تحسين نوع المنتوج

الا ان اهم مجهودنا الصناعى يبقى موجها الى منتوجاتنا الفلاحية والى تحويلها

وذلك لعدة اسباب ، فالفلاحة تشغل $\frac{٤}{٥}$ التونسيين وصار كل نمو فى ثروة هذا الفرع من النشاط له صداه فى سائر الامة .

ومن جهة اخرى ان تصنيع المنتوجات الفلاحية قد يوفر الشغل توفيرا مديدا ليد عاملة قليلة التخصص بدون ان يستهلك كميات وافرة من الطاقة . ثم ان مشكلة الاسواق قد يلوح من اليسير حلها فى هذا الباب ـ سواء فى الداخل او فى الخارج ـ نظرا لجودة المنتوجات التونسية ، وما تكلفه هذه المعامل الصغيرة من التجهيز نفسه قد لا يثقل كاهل ميزان التمويلات

فالبلاد التونسية اذا تتوفر فيها الظروف الملائمة لبعث صناعة كبيرة مرتكزة على الموارد الزراعية وعلى انتاج الغابات . فالقمح الصلب القوى بتحويله الى سميد والى عجين غذا ئى ، وزيت الزيتون ذى الجودة التى لا نظير لها ، الصافى صفاء دقيقا والجبن، ومصبرات الثمار الشرية بفيتاميناتها ،والمعاجين والالباب المجففة ، ومصبرات البقول وخاصة الطماطم ، ومصبرات التن والسردينة والشلبة ، كل ذلك من شانه ان يبعث انتاجا متسلسلا متواصل الحلقات فى عدة مصانع صغيرة مفرقة

وهذا الامتداد الحتمى للفلاحة بالتصنيع من شانه ان يكون تجربة ثرية مثمرة للبلاد اجمعها ـ فلسنا بارض مجهولة ـ فقد عالجت تونس هذه التجربة ونجحت فيها اتم نجاح ، وفى وسعها ان تتقدم على بصيرة من امرها لايشغلها شغل سوى ان تضمن لنفسها الحرفاء الاجانب ، ويظهر ان البلدان الصناعية من شمال اروبا تتعين لقبول منتوجات البحر الابيض الجيدة المفقودة منها وذلك فى مقابل آلات مصنوعة ووقودات تعوزنا

ويمكن ان يضاف الى هذه الصناعات الموجودة الان فى نطاق ضيق صناعات عديدة اخرى محورها الزراعة وتربية الاغنام والغابات

وما يمكن ان يشاد من المدابغ ومن معامل الاحذية ومعامل غسل الصوف وصبغها قد تكون ثانوية بالنظر الى ماقد تكتسيه صناعة الحياكة من عظيم الاهمية

ولتونس فيما يظهر محل وجيه فى هذا الباب ،وليست هناك مشكلة للبحث عن السوق اذ تلتهم السوق المحلية الان قيمة عشرة مليارات من المواد النسجية المستوردة .

وتلك صناعة ايضا توفرت فيها الشروط التى ذكرنا من كونها تستهلك كمية ضئيلة من الوقودات وتستخدم يدا عاملة ثم انها فى وسعها ان تحور الصناعة التقليدية للنسج القوية نسبيا والمتفننة بعض التفنن فى هذا النوع من العمل ٠

وفى وسع البلاد التونسية ان تكون بلاد نسج تقوم بحاجياتها وتصدر المنسوجات ، ومعنى ذلك ثراء عظيم خصوصا فى المراكز التقليدية الكاسدة اليوم ٠ ولكنه من اللازم تنمية الانتاج دائما فى سائر الميادين ومن اللازم سبر وجهات جديدة للنشاط فلا يمكن ان نغفل اى امكانية من امكانياتنا الكامنة فيمكن ان نرفع قيمة فليننا او خشبنا بتحويلات ابتدائية كما تم ذلك ببلدان اخرى من بلدان البحر الابيض المتوسط

على ان اقوى ترفيع فى القيمة يمكن القيام به هو ما يخص الحلفاء – فهناك منذ الان معمل لصنع كاغد التغليف والكاغد المقوى يستعمل عملية جمع المواد المتلاشية – ووجد هذا المعمل بمقرين حيث انتج سنة ١٩٥٥ مايقرب من ١٥٠٠ طن جلها من غرائر الكاغد المعدة للاسمنت ولمعمل الفسفاط الرفيع – وقد قرر انشاء معمل كبير للكاغد يستعمل الحلفاء ٠ ومن المؤمل ان يصنع ٢٥٠٠ طن السليلوز فى السنة اى انه سيستهلك ٦٠٠٠٠ طن من الحلفاء وسيستعمل ٣٠٠ عامل

وقد فكر ايضا فى صناعات للتحويل تستعمل مواد اولية مستوردة ٠ وشرع فى درس امكانيات انشاء معمل لتخليص السكر يعالج فيه السكر الاشقر المستورد ، ريثما تتم تجارب زراعة اللفت السكرى بجهة باجة (١)

وفكر ايضا فى انشاء معمل لتصفية النفط يستعمل النفط الخام المستورد من الشرق الاوسط وفى ذلك ما يخفف جزءا من مصاريف الشراء للوقود المائع

---

(١) عرض على الحكومة فى نوفمبر ١٩٥٦ مشروع لانشاء معمل لتخليص السكر بباجة ٠ وهو يؤمل انتاج ١٧٠٠٠ طن من السكر فى السنة اى ما يفى بحاجة البلاد ٠ وفى برنامجه معالجة ١٢٠٠٠٠ طن من اللفت السكرى اى ما يقابل زراعة ١٠٠٠٠ هكتار – واتت التجارب بعشرين طنا للهكتار الواحد نسبة سكرها ١٨٪ – وستستخدم هذه الصناعة الجديدة ما يقرب من ١٣٠٠ عامل

ومن جهة اخرى اذا تمت فكرة احداث ميناء حرة ببنزرت قد نتمكن من انشاء معمل كبير للتصفية الغرض منه الوسق

ففى مجر عصر الاستقلال حيث سيكون لجميع العراقيل والخضوعات الاقتصادية والانتزاعات ما كان للنظام السياسى الذى تسببه فيها من نصيب ومن سوء المصير هذه البلاد التونسية تنظم سباقا حقيقيا بين التضخم التناسلى وبين تنمية الانتاج - وفى هذا السباق يكون الحظ الاوفر بلانزاع للميدان الزراعى - ولكنه ينتج عما اسلفنا انه سيكون للصناعة دور تتزايد اهميته يوما فيوما - وسيكون لالاف العمال وعشرات آلاف العمال فيه منصب جديد وشغل حديث

وقد تلوح موارد جديدة وثروات مستحدثة تمكن من ترفيع مستوى العيش فى المجموعة التونسية

ولكن التطور المادى كالمصير السياسى للامة - وان كانت الظروف الطبيعية تحد منه بعض الحد - انما تصنعه وتخلقه عزيمة الامة نفسها - ويكون دوما للعامل البشرى القول الفصل - وقد عرفنا بلدانا حرمتها الطبيعة بخلت عليها بمواهبها فاصبحت مزدهرة بعزم سكانها وبفضل عبقريتهم ، كما لوحظت بلدان اغدقت عليها الطبيعة خيراتها فانهارت وهرمت بين يدى اقوام اخذ منهم الانحطاط كل ماخذ

وليس فى الشعب التونسى - على تقادم آلاف السنين من التاريخ - عنصر انحطاط فهو شعب شاب يطمح الى الحياة بجميع ما اوتى من القوة ٠

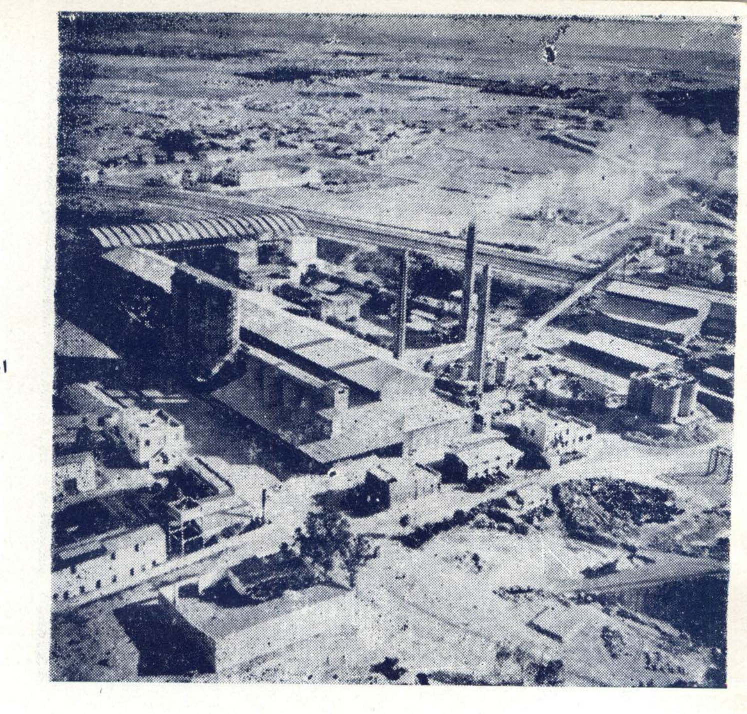
وقد حنكته مدرسة الاعواز ، فكان ممن قرروا العزم على اغتنام اقصى فائدة من جميع الامكانيات الكامنة ٠ وبالنسبة اليه سيكون العامل البشرى حتما عاملا ايجابيا فعالا وهو يعلم ان ما بقى عليه القيام به هو اصعب الامور وان الاستقلال وان كان نهاية وخاتمة فهو فى الان نفسه شروع وبدء



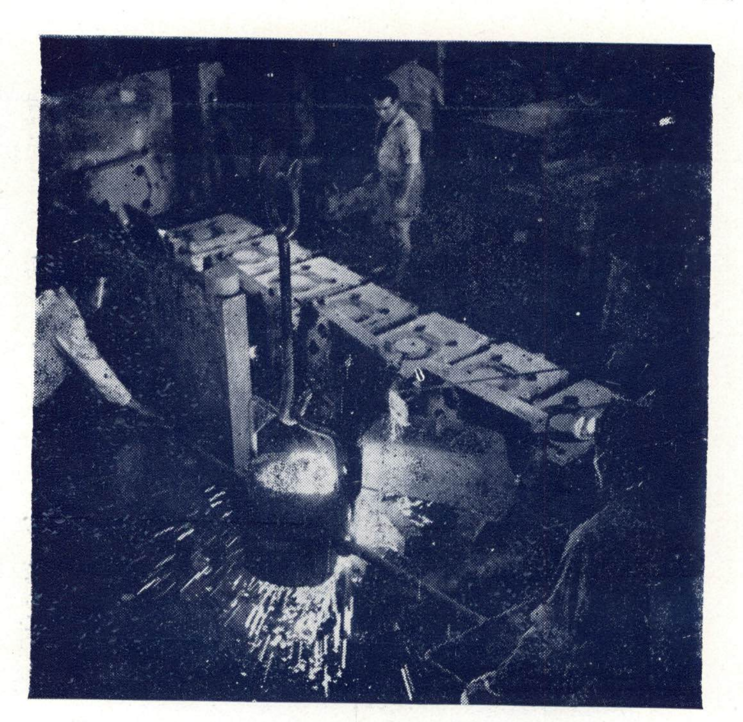
١ – جيب من التربة الرصاصية بالقريفة (قرب جالطة)



٢ – معمل بنارويا



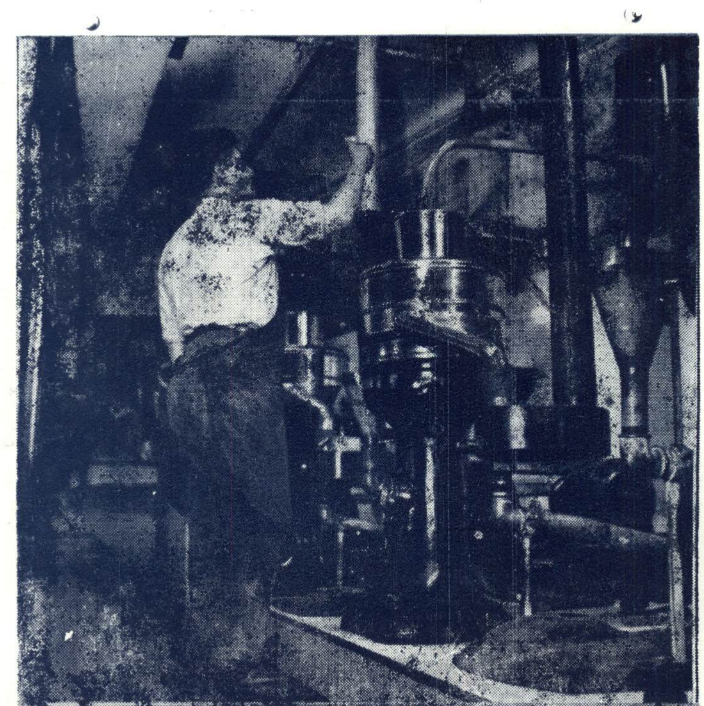
١ معمل الاسمنت بجبل
الجلود



٢ ـ افراغ قطعة بمصاهر
مقرين



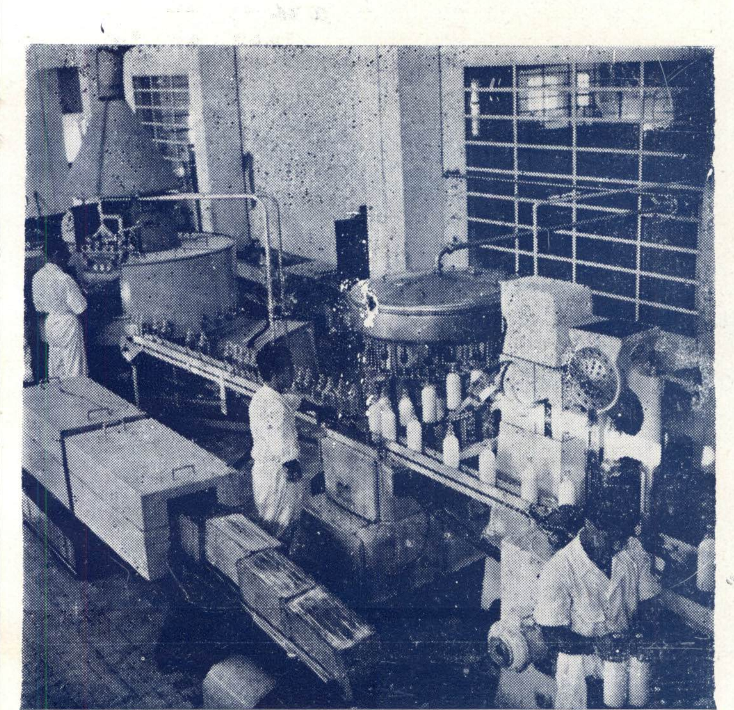
١ - رحى الزيتون
بمعصرة عتيقة



٢ - المنفرات عن المركز
بمعصرة عصرية



١ – معمل احذية «باتا»
بجبل الجلود



٢ – وقاية اللبن بطريقة
بسطور بالملبنة المركزية
بتونس

الباب الرابع

الدوران والمعاملات

ان اعرابى السباسب التونسية النائية ، حين يقصد السوق القريبة منه ، ممتطيا حماره ، ليبيع بعض البيض اوربطة من الحلفاء او جديا ، او ليشترى شيئا من التاى والسكر او من الاقمشة القطنية ، لا يخطر بباله انه يساهم فى التجارة العالمية ـ ومع ذلك بالرغم عن تفاهة مشاركته فهو قد انخرط فى سلك دورة فسيحة ـ دورة التبادل ـ التى تسحب فى سائر بلدان الدنيا الخيرات والمنتوجات وتعدد فروعها وتشعبها فى ميادين شتى من الاقتصاد العالمى تزداد كل يوم تضامنا وتكاتفا . وهو هكذا يتاثر دون ان يشعر بتغيرات السوق العالمية كما ، فى مقابل ذلك ، هو فى امكانه ان يؤثر على هذه السوق على نسبة طفيفة ضئيلة

ومن الواضح ان سائر منتوجات الفلاحة والصيد والصناعة التقليدية والصناعة العصرية التى استعرضناها قبل لا يستهلكها منتجها نفسه الاعلى نسبة ضعيفة، وهى تصلح ان تكون عمولة تبادل مقابل بضائع اخرى او مصالح اخرى . وتلوح هكذا كعناصر او كعوامل مكونة لنظام تجارى يختلف فاتساع مداه، تحوم كلها فى كنفه . وكيفية استثمار هذه العوامل اى جملة الحيل المستعملة للبيع او للشراء على احسن صورة تكون ذاك الفن الدقيق ، فن التجارة التى قد تكون نتائجها اهم من المادة المتبادل بها نفسها

وتبدو التجارة هكذا لاكنهاية حتمية لكل نشاط اقتصادى فحسب بل كحجارة

القوس للهيكل كله ، اذ قد يجدى ادراج منتوجات البلاد فى السلك التجارى من الثروة اضعاف ما يجدى الانتاج نفسه · فما الفائدة من الانتاج الكثير اذا كان ثمن البيع ضئيلا او اذا كانت سوق البيع كاسدة خامدة ؟ وقد تجد فى ذلك كل المجهودات المبذولة وكل التضحيات وكل تصميمات التجهيز المشيدة بعناء ، اما تتويجا لها واما خيبة الامال المعلقة عليها وانهيارها

ولهذا الموجب نفسه تعلقت قبضة الاستعمار دائما بهذه النقطة الحيوية ، علما منه ان من يقبض على تجارة بلاد انما يقبض فى الواقع على مصيرها الاقتصادى وبذلك على مصيرها السياسى· وهذا التسلط عبرت عنه منذ اقدم العصور فى تاريخ الاستعمار دورة تبادل تقصر البلد المستعمر (بالفتح) على ان يكون موردا للمواد الاولية وسوقا تورد اليها المنتوجات الصناعية لام الوطن · فهل خفت وطاة هذا التسلط على البلاد التونسية او هل هو باق يعمل فى ظل الاستقلال الملائم له ؟

فهذه كل المشكلة الاقتصادية التونسية بل هى كل المشكلة للعلاقات التونسية الفرنسية ·

والمشكلة هى هل ان تونس المستقلة ما زالت مستعمرة اقتصادية لفرنسا كذى قبل ؟ وفى صورة الايجاب ، هل يلائم هذا الوضع مصلحتنا ؟ وهل يتفق مع استقلالنا السياسى ؟

ويكون الجواب عن هذا السؤال بدراسة مبادلاتنا التجارية ويكون من المهم ان نعلم جنس هذه المبادلات ومقدارها وتغيراتها واتجاهها والنظام القمرقى الذى تخضع له وقبل كل شىء الدورة الداخلية والخارجية التى تغذيها· فسنستعرض اذا على التوالى وبسرعة نظام الطرقات وجهاز السكك الحديدية والموانى والاسفار البحرية والجوية ، ثم المبادلات الخارجية نفسها ·

١ ـ الدوران الداخلى

كانت البلاد التونسية كسائر الشمال الافريقى قبل الاحتلال الفرنسى تعيش فى نظام اقتصادى مغلق وكان لها قليل من وسائل النقل فلم تكن فى حاجة الى كبير الطرقات المعبدة · وقد خط الاندلسيون والتونسيون طرقات بشمال البلاد تنتصب عليها عدة جسور على وادى مجردة وتتممها شبكة لا باس

بها من المسارب اختط على انقاضها البعض من الطرقات الحالية خاصة بالوسط والجنوب .

وكان اختطاط هذه الطرقات الجميلة المعبدة المزفتة التى تميس ثعابينها وتلتوى بالفلاة التونسية موضوعا عزيزا يحن اليه مداحو العمل الاستعمارى ومطروه ، فيعلموننا هكذا ان للبلاد التونسية اليوم ما يقرب من ٦٠٠٠ كم من الطرقات المسماة (ببعيدة المدى) و ٣٠٠٠ كم من الطرقات الصغيرة و ٥٦١٦ كم من المسارب المصلحة ، وذلك امر حسن للغاية ونقف اجلالا امام هذا العمل .
ولكن قد لا يخلو من الفائدة ان نتساءل سؤالين : اين وجدت هذه الطرقات ومن يتمتع بها ؟

اذا نظرنا خريطة الطرقات (الصورة ١٤) يكون من السهل ان نلاحظ انه ان كانت شبكة الطرقات دقيقة متشعبة شمالى الظهر التونسى اى فى منطقة الاستعمار فانها تنحل وتضيع بل تفقد تماما تقريبا فى الوسط والجنوب . وقد شعر بذلك — ولكن بعد فوات الامر — غب الثورة الاخيرة التى قضت على الحماية — ويلوح اذا انه انما روعى فى نظام الطرقات قبل كل شيء مصالح الاستعمار والحاجيات الاستراتيجية — وفى جنوبى الظهر التونسى تحاشت محاور المرور تضاريس تونس الوسطى والجنوبية متسربة من تونس الى قابس وحتى طرابلس على ضفاف الشواطىء المنبطحة للبحر الابيض المتوسط . وهناك قرن واحد للاستشعار يبتدىء بسوسة ويمتد بعناء حتى القيروان وسبيطلة وقفصة راجعا نحو قابس على طريق القطار ، بينما يصل قرن آخر بين صفاقس وسبيطلة . وتبعد بعض المراكز فى هذه الجهات المباركة ثلاثين او اربعين كيلومترا عن كل طريق معبدة — وسيستدعى مشروع احياء الوسط والجنوب مجهودا جبارا لخط الطرقات كى يتدارك هذا السهو الطفيف — ويقرر مشروع ١٩٥٤—١٩٥٧ زيادة ١٢٥٠ كم تقريبا فى هذه الطرقات .

والسؤال الثانى الذى يخطر ببال السائل هو بدون شك : من يستفيد من هذه الطرقات التونسية الجميلة ؟ انما يستفيد منها ويتمتع بها من له الوسائل الميكانيكية التى تمكنه من استعمالها — ويكفى ان ننظر الى القوافل الطويلة من الاعراب الرحل العراة الذين ينسابون على غبار الطرقات لنتكهن على من يسدى نفع هذه التشييدات الضخمة . نعم ليست جملة التونسيين فى هذه الحال ،

ومنهم من يمتطى العربات والسيارات وعربات النقل الثقيلة الا انهم حقيقة ليسوا اكثرهم عددا ٠

وبقى معظمهم يتنقل على الاحمرة والبغال والخيل والابل والعربات التى يجرها الحيوانات بل وحتى تلك الحافلات التابعة لما قبل التاريخ التى تختم ما قامت به من عملها فى حياتها المحترمة للوصل الخطير احيانا بين الاسواق المبعثرة الضائعة فى الفلاة التونسية ٠

وقد يكون من المفيد لنعلم مقدار ما يتمتع به التونسيون من شبكة الطرقات ان نعلم نسبة نصيبهم من السيارات المنطلقة عليها ٠ فجملة ما نعلم هو انه فى سنة ١٩٥٤ كان عدد السيارات ٣٠٨٥٤ وعدد السيارات الانتفاعية للنقل ١٤١١٣ ، ويلوح من هذه الارقام نمو عظيم يقدر بنسبة ٪ ٦٠ بالنظر الى اعداد ١٩٤٩

وقد فكر م٠ لبيدى فكرة مفيدة هى ان تضبط خريطة لتوزيع السيارات الخاصة حسب الجهات (١) وبالطبع انه لا يمكن ان نستنتج منها جنسية المتمتعين بالطريق ولكننا نجد فيها اشارات ثمينة ٠ فمن ذلك ان جهة الحاضرة التى تعد ٪ ٦٠ من السكان الاوروبيين هى اولى الجهات بالنظر الى عدد السيارات فيها سيارة خاصة لكل ٥٠ ساكنا ، وجملة الجهة الوسطى والجهة الجنوبية لا يبلغ فيها عدد السيارات واحدة لكل ٥٠٠ ساكن (بالولايات المتحدة سيارة لكل ٤ من السكان) ولا يدل ذلك حقيقة على استعمال قوى لوسائل النقل الميكانيكية من طرف جماعة الرحالة والفلاحين بالفلوات التونسية كما لا يدل على مستوى رفيع للعيش ٠

وفى هذا الباب كما فى غيره كان على خادمى الدعاية للعمل الاستعمارى ان يتلمسوا الواقع الحقيقى قبل ان يتشدقوا بثنائهم واطرائهم حيث ان الامر المهم ليس هو ان نقف على عمل لم يكن فى نية احد ان يجحده ، بل هو ان نقف على مدى ما حصل لاهالى البلاد من غنم من ذلك العمل ٠

واما الخطوط الحديدية الخاضعة لعين الاهداف المذكورة فتبدو فى الجملة فى مظهر يشتابه مظهر توزيع نظام الطرقات وقد كان وضعها تابعا للمصالح

(١) ج٠ لبيدى : « البلاد التونسية بواسطة الخطوط البيانية »

الاستراتيجية او للمصالح الفلاحية والمنجمية الاستعمارية فكانت كثافتها تتزايد شمالي الظهر التونسي لتنهار بالوسط والجنوب . ومن جملة ٢٠٢٢ كم من السكك الحديدية بالبلاد التونسية وهب ٤٥٥ كم لشركة الفسفاط صفاقس قفصة و ٣٨ كم لشركة الاحواز (تونس ـ حلق الوادي ـ المرسى) وكان الباقي اي ١٥٢٩ كم تديره في القديم شركة السكك الحديدية التونسية ثم جعل منذ ١٥ فيفري ١٩٥٦ تحت الادارة المباشرة للدولة التونسية .

وينبعث من العاصمة محوران للخطوط الحديدية (انظر الصورة عدد ١٤) وتم اختطاط المحور الاقدم سنة ١٨٨٤ وهو يتوجه نحو وادي مجردة ويرتبط بالشبكة الجزائرية التي ترتبط بدورها بالشبكة المغربية . ويمر هذا المحور من المراكز الزراعية الثرية للاستعمار : سوق الاربعاء وسوق الخميس وباجة ومجاز الباب والجديدة . ومن هذا المركز الاخير انبعث منذ ١٨٨٤ فرع مهم يلتحق بماطر وبنزرت ثم منذ ١٩٢٢ امتد حتى طبرقة كي يمكن من ارسال حديد نفزة والمقعد نحو بنزرت .

والمحور الثاني يتجه من الشمال الى الجنوب ويصل على طريق الساحل العاصمة بسوسة وصفاقس وقابس . ولم يتم اختطاطه الا سنة ١٩١٦

ومن هذا الجذع المتجه من الشمال الى الجنوب تفرعت بعض الخطوط تختلف اهميتها،خاصة فرع صفاقس ـ قفصة الحامل لفسفاط المتلوي والرديف،وفرع سوسة ـ القيروان ـ سبيطلة ـ الرديف ، وفرع تونس ـ جريسة ـ القلعة الجرداء الذي يمتد بالجزائر نحو تبسة او نحو قفصة على طريق القصرين ، ومنه يرسل الحديد والفسفاط من التل الاعلى .

وبصفة عامة تشكو السكك الحديدية التونسية من عدم تجديد مواده ومن انعدام القيام باصلاحه ومن انعدام التمويل . فالشركة الحديدية كانت تعلم ان الالتزام الذي وهبها التمتع بالخطوط الحديدية كانت نهايته ١٩٥٦ ، وكانت تخشى الا يجدد لها الالتزام فلم تبذل ما يليق من المجهود للتجديد ولتعصير الالات ـ فتقادمت الادوات او حفيت تماما ولم يجدد الا البعض منها بمعاوضته بالات ديزال او بسيارات سريعة ومن ذلك عانت ادارة السكك الحديدية مزاحمة من الطرقات التي كانت في كثير من الانحاء تساير السكة الحديدية فضعف بذلك تيار النقل عليها ضعفا كبيرا فمن ذلك انه بين ١٩٤٥ و ١٩٥٤ انحط عدد المسافرين على النسبة الكيلومترية لمجموع الشبكة من ٦٧٤ مليونا

الى ٤٠٢ من الملايين . وهذا الانحطاط المحسوس الذى يؤكد هجران السكة الحديدية لفائدة شركات النقل على السيارات ضاعف النقص المالى للسكك الحديدية التى كانت تتقاضى من الدولة منحة سنوية تفوق مليارين من الفرنكات (١) .

وتم ما كان يجب ان يتم من تاميم هذا المشروع المفلس ، على الاقل فيما يخص الشركة الحديدية التونسية .

فهكذا بقيت الشركات المنجمية والفلاحية وغيرها ـ التى لها من الفائدة السنوية عدة مليارات ـ بقيت بسلامة قائمة تغنم ما يجديه هذا العمل المثمر بينما تكرم على الدولة التونسية بان ارجعت اليها احدى الشركات القليلة الخاسرة ، الشركة الحديدية التونسية .

ويكلفنا سوء المنطق المؤلم هذا عدة مليارات كل سنة . فيكون من الحسن اذا ان ينظر من جديد فى المسالة جملتها .

فالسكك الحديدية الناقلة لانتاج الجهات المنجمية ينبغى ان تعتبر كالات لاستثمار خيراتها ، وبهذه الصفة ينبغى ان تعتبر كجزء من كل . ولا يعقل ان تستعمل شركات منجمية فى عنفوان ازدهارها خطوطا حديدية خاسرة تتحمل الدولة وحدها خسارتها . وقد يكون من الطبيعى ان يؤمم المجموع او ان تحمل بعض الخسارة الناشئة عن النقل على من يستغلون الموارد الكامنة تحت الارض .

واما الخطوط التى تهم الجهات الفلاحية فحسب قد يكون من اللائق التنقيص من امتدادها فى الجهات التى يكون فيها الدوران على الطرقات له بعض الاهمية وتجهيزها بالات عصرية اشد سرعة اجدى بالاقتصاد ، وفى ذلك ما يدعو بالطبع قبل كل شىء برنامجا للتمويل .

٢ ـ الدوران الخارجي

اذا ما نظرنا نظرة بسيطة فى جهاز الدوران الداخلى يبدو لنا بكل وضوح انه انما قصد منه سحب الثروات التونسية لا الى المراكز الداخليه للاستهلاك بل الى الخارج اذ كانت اهم الطرقات والسكك الحديدية تتجمع نحو الموانى المصدرة خصوصا تونس وصفاقس وسوسة وبنزرت .

(١) ١٩٥٢ : ٢٣٧٣ مليونا ـ ١٩٥٣ : ١٩٦٢ مليونا ـ ١٩٥٤ : ١٨٥٠ مليونا ـ ١٩٥٥ : ١٨٦٢ مليونا ـ المجموع لاربع سنوات : ٨٠٦٧ مليونا .

والتيار التجارى الذى هو المحرك الحقيقى للاقتصاد الاستعمارى قد جعل من هذه المراكز اقطابا جاذبة للتبادل وبالتبع لذلك قد احلها بالبلاد محلا ممتازا من الحياة الادارية والصناعية والفنية والمدنية . واظهر الانتشار بلا منازع هو ما كان لمجموعة العاصمة التونسية التى تضاعفت تقريبا اثناء العشرين سنة الاخيرة فارتفع عدد سكانها من ٣٢٢٠٠٠ نسمة الى ٥٤٢٠٠٠ على ان هذا التضخم ليس فى عدد السكان فحسب بل هو ادق وادعى الى التخوف فى الناحية الاقتصادية اذ يقدر للعاصمة التونسية واحوازها ٪ ٧٥ من مجموع العمليات التجارية بالبلاد (١) ، كما يقدر انه يتجمع بحاضرة تونس ومينائها المقدم حلق الوادى ٪ ٨٩ من قيمة مجموع الواردات بالجمهورية

ولقد شاهدنا بالباب الثالث المخصص لحاضرة تونس انه بالرغم عن الغلطة الفنية الناصبة لميناء فى قعر مستنقع من الماء ، قد كان لهذا الميناء الاثر الفعال فى انشاء المدينة العصرية الاوروبية وامتدادها كما كان له بالتبعية اثره فى تضخم مجموع العاصمة

وبازاء اعمال التضخيم والتعصير التى قيم بها بتونس ـ حلق الوادى قد تمت اعمال مماثلة لها بموانى صفاقس وسوسة وبنزرت

وصفاقس اولى الموانى التونسية بالنظر الى كمية المبادلات وثانيتها من جهة قيمة البضائع ـ وموقعها احسن من موقع ميناء تونس يتمكن فيه اضخم البواخر من الارساء . ويتداول عليها مد وجزر بحيث يختلف ارتفاع الموجة بين ١،٥٠ م فى المياه الحية وبين ٠،٨٠ م اذا ما ركدت فتضطر البواخر المشحونة الى ترقب المد كى تقلع .

وبصفاقس قنال طوله ٣ كم يجمع بين الاحواض الداخلية وبين البحر وقد زيد فى عمق هذا القنال عقب الحرب الاخيرة التى صبت على الميناء عظيم التخريبات . وتجاوز عمق الميناء والقنال ٦،٥٠ م الى ١٠،٥٠ م ـ وجهز الميناء جهازا حسنا يمكن من شحن ٥٠٠ طن من الفسفاط فى الساعة ، وتستعمل ايضا لشحن الزيت والحلفاء والملح آلات ميكانيكية سريعة .

---

(١) لبيدى : «البلاد التونسية بواسطة الخطوط البيانية»

ثم انه فى الامكان ان تصير صفاقس لقربها نهاية القناة الموصلة للنفط الصحراوى المكتشف اخيرا بجهة العجلة نحو البحر الابيض المتوسط

والتيار بسوسة وبنزرت اقل منه بتونس وصفاقس • فبسوسة قد اضطر الى حماية احواض الميناء الصغيرة ضد الرياح الزاحفة من البحر بواسطة جدران قوية حامية ومحصرين فيتمكن هكذا من وسق المواد المنجمية والحلفاء والمواد الزيتية بصفة طبيعية • واما بنزرت فان لم يكن ما وراءها من البر ليمكن الا من اصدار بعض الحديد فموقعها بديع جعل منها ميناء من اجمل موانى القارة الافريقية•

ويتلخص ما لهذه القاعدة البحرية من عظيم الاهمية فى عبارة بسيطة • فجول فيرى حين كان يتجول على بحيرة بنزرت يوم ٢٣ افريل ١٨٨٧ صاح قائلا (حسب فصل من «مجلة العالمين» المؤرخة بغرة سبتامبر ١٩٠٢) :

«ان هذا الميناء وهاته البحيرة ليعدلان وحدهما البلاد التونسية جميعها • وان انا حزت تونس فانما كان ذلك لاحوز بنزرت» فهذا اعتراف لا يخفيه زخرف ولا تطليه محسنات بديعية •

وقيمة بنزرت لم تنقص منذ جول فيرى ، بل بالعكس فهبودياريتوس الفنيقية التى صارت بنزرت فى عهد العرب ، ذهبت اليها مطامع الدول الاروبية منذ فتح قنال السويس سنة ١٨٦٩ • فاهمية هذا الميناء ناتجة لا عن طبيعة الميناء نفسه فحسب بل عن موقعه الممتاز بالنسبة لعظيم الطرقات البحرية ، وقل ان يجتمع هذان العاملان فى مكان واحد •

فالاهمية الناتجة عن طبيعة المكان واضحة من السهل ضبطها • فبحيرتها العميقة ، التى يبعد قعرها ١٠ م ، والتى يجمعها بالبحر مضيق عميق مثلها ، لهى حصن معتبر وملجا لانظير له ، متسع بحيث فى الامكان ان يحوى جميع اساطيل العالم الحربية متجمعة فى آن واحد • وكانت هذه البحيرة فى آخر العصر الثلاثى تتصل بالبحر بمجرى واد • وفى بداية العصر الرباعى ارتفع مستوى المياه فهجمت مياه البحر الابيض على البحيرة العتيقة على طريق فيض الوادى ، فاتحفت الطبيعة هكذا شمال البلاد التونسية باجمل حلة :

بحيرة داخلية تتصل بالبحر بواسطة قنال عميق (انظر الصورة عدد ٤)

ومما زاد فى سعد بنزرت ان صادفت هذه الوضعية الممتازة الملائمة موقعا على البحر الابيض عديم المثيل ، موقعا كالذى بعث فى القديم على ازدهار قرطاج ـ فورثت بنزرت هذا الموقع مع مزية جديدة عظيمة هى فتح قنال السويس فكانت بنزرت على طريق بحرية من اهم طرقات العالم ، طريق الهند الشهيرة ، حبل الوريد بالنسبة للعظمة البريطانية ٠

فلذا ، ولما شعرتا به فى اهمية بنزرت ، وقفت انقلترا وايطاليا فى وجه فرنسا حين استقرت بالبلاد التونسية وتعرضتا فى انشاء ميناء حربى بهذه المدينة ٠ ولكن الحكومة الفرنسية ، سنة ١٨٩٠ ، جارت هذه الصعوبة الدولية ومنحت شركة خاصة حق اختطاط ميناء « تجارى » بهذا الموقع ٠ فكان بذلك قلق حقيقى باروبا ، زاده تسمما ما كان يضمره الوزير الايطالى كريسبى من مناوءة لفرنسا فاقام الدليل للور دسلسبورى على «ما لبنزرت منمكانة عظيمة فى الناحية الهجومية» (نوفمبر ١٨٩٠) مضيفا ان «بنزرت بندقية موجهة نحو قلب «ايطاليا» ـ ولم تكن اذاك امكانية حرب اروبية بمستبعدة ٠

ولكل اعمال انشاء الميناء تقدمت بسرعة ، خصوصا بعد سقوط كريسبى ٠ وكانت تشتمل على اشادةمقدمة للميناء يحميها رصيفان وعلى الزيادة فى حفر القنال القديم الجامع بين البحيرة والبحرعلى طول ١٥٠٠ متر فى عرض ١٠٠م وعمق عشرة امتار ، وهكذا زار سنة ١٨٩٥ هذا الميناء التجارى المزعوم جميع الاسطول الفرنسى للبحر الابيض المتوسط وارسى بالبحيرة

وصارت بنزرت حينئذ ميناء حربى ، ثم زيد فى امتداد هذا الميناء فصار عرض القنال ٢٥٠ مترا واشيدت داخل البحيرة دار الصناعة بفريفيل (اليوم منزل بورقيبة) بينما بنيت ببنزرت ثكنات ضخمة

وحققت حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ وحرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ مالبنزرت منمكانة فاسدت دار الصناعة بها المجهزة احسن تجهيز ايادى بيضاء لاصلاح البواخر الحربية او التجارية ، فجعلمن هذا الملجا للبواخرالعظيمة الشحنة ومن وظيفته كقاعدة للتموين وكقاعدة هجومية ميناء حربى من اعلى طراز ٠

ولكن الميناء الحربى خنق حقيقة الميناء التجارى فتضاءل التيار التجارى بل انمحى امام المصالح الحربية ٠ وهكذا بعد ان كان فسفاط التل الاعلى موجهافى البدء نحو بنزرت صار يوجه الى تونس ٠ فولت بنزرت وجهها نحو مناجم

الحديد بونزة بالتراب الجزائرى على بعد ١٥ كم من الحدود التونسية الجزائرية ولكن عنابة عارضت فى ذلك ونجحت فى معارضتها ، فلم يبق لبنزرت سوى معدن الحديد بالدوارية وبعض المنتوجات الفلاحية بتلك الجهة ، خاصة منها الحبوب

… ولعل من احسن نصيب لتونس فى المستقبل ان كان لها ميناء من اهم الموانى بالعالم » . (١)

وجهاز هذه الموانى الاربعة التى تتممها موان ثانوية للسفر على الشاطىء او للصيد كميناء طبرقة والمنستير والمهدية وقابس وحومة السوق وجرجيس ، يمكن من مبادلات خارجية ما انفكت تتضخم باسترسال فى الكمية فكانت تمثل سنة ١٩٥٤ (٤٦٦٨٠٠٠ طن) خمس التيار العام بموانى شمال افريقيا ، نامية قدر ١٨٪ بالنسبة الى ١٩٣٨

على ان وظيفة كل من هذه الموانى فى التيار التجارى تختلف كما وكيفا مما يمكن من تدقيق المظهر الخاص لكل ميناء ووظيفته الخاصة

فمن حيث مقدار الشحنة تحل صفاقس المرتبة الاولى بين الموانى التونسية وذلك على الخصوص بفضل الصادرات من فسفاط قفصة الرديف وعرضا من الحلفاء والملح والزيت .

فسنة ١٩٥٦ بلغت صفاقس ١٨٧٥٠٠٠ طن من الصادرات و ٢٥٣٠٠٠ طن من الواردات المتكونة خاصة من الوقودات والحديد والالات والسكر والشاى . وصفاقس ايضا كما راينا ميناء صيد ذو اهمية كبيرة .

وان حلت تونس مع مقدمتها حلق الوادى المحل الثانى فيما يخص الشحنة فهى فى المنصب الاول بالنسبة الى قيمة المواد المتبادل فيها فتونس اولى الموانى فيما يخص عدد المسافرين من الجمهورية اذ فى سنة ١٩٥٤ من جملة ١٧٢٠٠٠ (٢) مسافر دخلوا البلاد او خرجوا منها مر ١٥٧٢٠٠ منهم من مدينة تونس ،واهم

---

(١) ص التلاتلى ، «اهمية بنزرت العظمى» بصحيفة «تونس الفتاة» ٢٢ جوان ١٩٤٧

(٢) سنة ١٩٥٦ : عدد الداخلين ٩٣٨٠٠ وعدد الخارجين ١١٦٧٠٠ اى زيادة ١٤٪ بالنسبة الى ١٩٥٤

العناصر المكونة لهؤلاء المسافرين تتكون من الموظفين او الجنود الفرنسية وكانوا يتمتعون باجازات خالصة ليقضوا عطلهم بفرنسا ٠

وفيما يخص البضائع ففى سنة ١٩٥٦ كانت الشحنة المستوردة ٩٠٢٠٠٠ طن مقابل ١٦٤٤٠٠٠ طن مستصدرة ٠ واما من جهة القيمة فالمواد المستوردة سنة ١٩٥٤ بميناء تونس كانت تمثل ٨٦٪ من مجموع الواردات بالبلاد(١) وفى ذاك ما يوضح الوظيفة القومية الثقيلة التى يقوم بها ميناء تونس فى هذا الميدان

وتتكون الصادرات علاوة على المواد الثقيلة من معاون حديد جريسة وفسفاط التل الاعلى والرصاص المخدوم بمعمل بناروويا من عدة منتوجات فلاحية وعلى الخصوص الخمور والبواكير والقمح والصوف ومن بعض المنتوجات الصناعية

ثم ان مقدمة ميناء تونس هى اهم ميناء من ناحية الصيد ٠ واما بنزرت فما قيم به حديثا من انشاء معمل الاسمنت برتلاند قد زاد زيادة محسوسة فى تيار هذا الميناء الذى بلغ سنة ١٩٥٤ قدر ٢٦٤٠٠٠ طن بالنسبة للاصدار و ٤٣٠٠٠ طن بالنسبة للتوريد ، ونجد ضمن الصادرات علاوة على الاسمنت معدن الحديد والرصاص والحبوب ولكن كل ذلك بمقدار ضيل نظرا لقرب ميناء تونس المستحوذ على غالب التيار ونظرا لقوة الميناء الحربى ٠

واخيرا لميناء سوسة وظيفة صارت ثانوية بعد ان سيق البعض من تيار الفسفاط لفائدة صفاقس ٠ ويتكون اهم صادرات هذا الميناء من الحلفاء ومن زيوت الساحل والملح والصوف على انها لم تصل من الاهمية ماكان لها قبل الحرب

وتتصل الموانى التونسية اتصالا متينا خاصة مع فرنسا على طريق مرسيليا ومع ايطاليا على طريق نابلى وجانوة ، وشركات الملاحة التى تقوم بهذه الاتصالات شركات اجنبية ،خاصة فرنسية وايطالية ، اذ لم يكن لتونس حتى الان اسطول تجارى ٠ ولهذا النقص اثر خطير على الحمل وهو يثقل مصاريف النقل ٠ ويتاكد بكل وضوح اضطرار تونس الى اسطول تجارى ٠ فعلاوة على ما ينتجه من فائدة

---

(١) فى بحر العشرة اشهر الاولى من سنة ١٩٥٦ تصبب بتونس وحلق الوادى وصفاقس ٪ ٩٣ من البضائع المستوردة ٪ ٨٧ من البضائع المستصدرة

وعلى ما تتخفف به المصاريف التابعة للواردات والصادرات ، فالاسطول يمكننا من حرية الحركة اللازمة فى كل اقتصاد مستقل

وسكان الشواطىء الجنوبية، الذين ابلوا البلاء الحسن فى الناحية البحرية زمن القرصنة ، يتعين الاختيار فيهم لتكوين بحارة مهرة ، وهـذا امر مهـم ينبغى انجازه وقد جعلته الحكومة الحالية ضمن المهمات التى تشغل بالها ٠

على ان الملاحة ليست هى الوحيدة التى تضمن الاتصالات الخارجية ٠ فمنـذ نحو الثلاثين سنةظهر الطيران محتشما بمطار العوينةعلى بعد ستة كيلومترات من العاصمة ، وبقاعدة الطائرات البرمائية بابيروبور قرب حلق الوادى ٠ثم اخذ التيار الجوى شيئا فشيئا فى النمو ، مزاحما يوما فيوما التيار البحـرى مستجلبا الركاب وحتى البضائع القليلة الوزن السريعة الهلاك ، وغب الحرب الاخيرة حذفت قاعدة ايبروبور ولكن مطار المعوينة ــ وقدكانت له وقتالحرب وظيفة ممتازة ــ تضخم تضخما عظيما فلم يصر فحسب نقطة انبعاث نحوفرنسا او ايطاليا اوسائر بلاد الشمال الافريقى بل صار قاعدة عبور ومحط الرحـال لعدة خطوط جوية مديدة الشعاع

وازداد عدد الركاب حتى زاحم مزاحمةقوية النقلالبحرى فسنة ١٩٥٤كانت النسبة راكبين على الطائرة مقابل ثلاثة عبر لباخرة اى ان فى السنة نفسهـا كان عدد الركاب الذين امتطوا الطائرة ١٣٨٦٤ مقابل ٨٩٩٤ سنة ١٩٤٥

وهناك نحو الخمسة عشر مطارا ثانويا موزعة داخلالبلاد للبعض منها قيمة استراتيجيةمحضة بينما كانالبعض الاخر كصفاقسوجربة معابر نحوطرابلس٠

واما الحمل الجوى فلم يصر له من الاهمية ماكان يستحقه (١٥٠٠ طنتقريبا) ولو كانت تلكاحسن وسيلة لنقل الثمار والبقول البواكير المختارة التىيكون فى الامكان ايصالها فى اليوم نفسه الى الاسواق اللندنية او الباريسية ٠ واذا ما اتجه الانتاج نحو الاصناف المختارة والانـواع الممتازة قد يفكر اكثر فـى استعمال هذه الوسيلة السريعة للنقل ، ولكن فى هذا الباب كما فيما يخص الملاحة البحرية ، انه من اللازم انشاء طيران تونسى قد يخفف مصاريف الحمل وقد يكون موردا جديدا للثروة ٠

٣) المبـادلات

ان توسع الشبكة المكونة من الدوران الداخلي والخارجي ، وتقوية وسائـل الاستغلال للثروات المنجمية والفلاحية واحيائها ، كل ذلك بالطبع كان يتبعه تضخم عظيم فى حجم المبادلات وقيمتها فمجموع حركة الاصدار والايراد قدر هكذا من ١١ و ١٢ مليونا من الفرنكات الذهبية قبيل الحماية الى ١١٢ و ١٣٠ مليونا من عين الفرنكات سنة ١٩٣٨ ، وفى سنة ١٩٥٤ كانت قيمة الصادرات بعين الفرنكات الذهبية تقريبا هى ما كانت عليه سنة ١٩٣٨ بينمـا ازدادت الواردات على نسبة ٪٢٣ ، وذاك ما يمثل بالعمولة الحالية ٤٤٤٧٧ مليونا من الفرنكات للصادرات و ٢٦٨ ٥٩ مليونا للوردات . (١)

ويمكننا ان نعتبر بصفة عامة ـ بعـد تقدير المعاملات بعمولة ثابتـة ـ ان التجارة الخارجية التـونسية قد تضخمت عشـر مرات منـذ ١٨٨١ وما فتئت الواردات فى ازدياد ونمو بينما وقفت الصادرات منذ ١٩٣٨ ، وهذه ملاحظـة لابد ان تشغل بال بلاد نمو عدد سكانها منذ تلك السنة بقدر النصف ، فكيف لا تبعث الحيرة فى النفوس اذ بقيت البيوعات نحو الخارج قارة بينما ازداد عدد السكان بقدر ٠٠٠ ١٣٠٠ نسمة .

وهذا مشكل خطير سنعود اليه عند ذكر مستويات العيش على انه قد يكون من المفيد ان نلاحظ منذ الان ان الصادرات لا تتبع حتما نظام تطور الانتاج . فقد ينمو الانتاج وينمو الاستهلاك فى آن واحد فلا يتضخـم الفاضل المخصص للاصدار

ومهما يكن فى الامر فان تطور التجارة الخارجية التونسية التى تضاعفت عشر مرات فى ظرف ٧٥ سنة يلوح ضئيلا اذا نظر بتطور التجارة فى بلدان

---

(١) سنة ١٩٥٥ : الواردات : ٦٣٢٠٠ مليون ، الصادرات : ٣٧١٣٩ مليونا بالنسبة الى الستة اشهر الاولى من سنة ١٩٥٦ الـواردات : ٣٥٨٤١ مليـونا ، الصادرات : ٢١٦٤٥ مليونا

اخرى كاليابان حيث تضاعفت تجارة اليابان مائة مرة فى بحر الخمسين سنة الاخيرة ، ويلوح هذا التطور ضئيلا ايضا خاصة اذا حسب بحسب عدد السكان فينتج هكذا ان هذه التجارة بتونس تقرب من ٢٨٠٠٠ فرنك بالنسبة لكل ساكن (١٧٠٠٠ للواردات و ١١٠٠٠ لاصادرات) بينما يقابلها بفرنسا ٧٠٠٠٠ فرنك ، وتبلغ ارقاما مرتفعة جدا ببلدان كزيلاندا الجديدة او الكندا على ان هذا الحساب نفسه انما هو رمز نظرى اذ نحن نعلم كل العلم ان الثروات لم توزع توزيعا منتظما وان من كان انتاجهم موجها للاصدار قليلا ما يكونون من التونسيين.

ولكن قد يكون من المفيد ان نعلم تسبة هذه المبادلات الخارجية من مجموع الانتاج كى نتصور السوق الداخلية التى لم يتم ضبطها بعد

فحسب الحسابات الاخيرة ، من جملة ١٦٥ مليارا من الفرنكات التى هى جملة الانتاج القومى ، تمثل الصادرات نسبة ٢٧،٥٪

وهكذا تبقى ثلاثة ارباع الانتاج تقريبا ، اى نحو ١٢٥ مليارا ، تابعة لدورة الاستهلاك الداخلى ، اى انه بالنسبة الى كل ساكن تكون القدرة على الشراء محدودة ضيقة اذ هى تساوى ثلاثين الف فرنك فى السنة ، هذا بينما نجد فى الولايات المتحدة مثلا حيث مستوى العيش للمواطن المتوسط الحالة يفوق اربع عشرة مرة المستوى التونسى ، نجد هناك ٩٦٪ من الانتاج القومى تبتلعها السوق الداخلية .

فالتجارة الداخلية التونسية تجارة بلد ضعيف لم يستكمل تطوره مازال يعمل فيه جزء كبير من السكان فى دائرة الاقتصاد العائلى المغلق ، فيبقى منعزلا عن تيار المبادلات الداخلى ومما يؤكد ذلك ان ٪٦٠ من المشاريع التجارية تحوم حول مجموعة العاصمة التونسية اى فى منطقة من البلاد تاثرت باروبا ومن جهة اخرى ان من بين الخمسة والعشرين الف معهد تجارى التى وقع ضبطها فى الاحصاء الاخير ، هناك ٣٩ فحسب تستخدم اكثر من ٥٠ عاملا .
وانه ليلوح ضعف الهيكل التجارى — الذى يتمثل فيه فقر التيار الداخلى — بكيفية اوضح واجلى اذا ما نظرنا عدد السكان وعدد المراكز التجارية . فنشاهد

بتونس مثلا انه يقابل ١٤٧٠ ساكنا محل واحد لبيع الانسجة ويقابل ١٤٥٥٠ ساكنا محل لبيع الاحذية بينما نجد بفرنسا وبمقاطعة من مقاطعاتها المتوسطة ان العددين المقابلين للفصلين المذكورين هما ٤٠٠ و ٢٣٠٠ .

وهذه اشارة مفيدة الى قوة المبادلات المحلية بل والى مستوى العيش لدى التونسى المتوسط الحال ـ فلم يكن اذا للتجارة الخارجية تاثير محسوس فى النطاق الداخلى او على الاقل فيما يخص الاهالى التونسيين وان الكسب الناتج عن المبادلات الخارجية قد بقى بعيدا عن الاهالى جاهلا اياهم اتم الجهل ـ وهذا امر عظيم فى الميدان الاقتصادى يدل بوضوح على من هم استثمروا النظام الاستعمارى .

ولكن لنترك جانبا الدورة الداخلية ولنعد الى العلاقات الاقتصادية الخارجية فماهو هيكل المبادلات؟

وهل كان الميزان التجارى وميزان الحسابات فى فائدتنا ؟ ثم هل ان النظام القمرقى الحالى يمكن اقتصادا مستقلا من الازدهار كما يمكن من نصب التصنيع بالبلاد ؟ سنحاول الاجابة عن هذه الاسئلة الثلاثة فندقق هكذا عدة المظاهر التى تصطبغ بها التجارة التونسية الخارجية

٤ ـ هيكل المبادلات الخارجية

ان تموجات صادراتها لتوضح بكل جلاء الصبغة المزدوجة التى يصطبغ بها اقتصادنا المرتكز فى آن واحد على الزراعة وعلى الموارد المنجمية ـ وانا لنلحظ على الخط البيانى لتغيراتها تاثير كمية الامطار التى هى تحقق الصابات وتعين قدرة اهل الزراعة على الشراء ، اعنى فى الواقع قدرة كافة التونسيين ، ومن جهة اخرى انا نلاحظ على هذا المنحنى ايضا اختلال النظام فى الاسواق العالمية وفى ذلك ما يؤثر لا على قيمة المنتوجات المنجمية فحسب بل وحتى على قيمة الزيت والحلفاء مثلا

ولئن لاح على صادراتنا وتغيراتها ارتباطها بنظام مناخى متقلب عابث ،فان

قيمتها للطن الواحد لتفيد انها تتركب من مواد ثقيلة خام او ان هى خـدمت فبمقدار طفيف ، بينما تشمل وارداتنا خاصة على منتوجات تامة الصنع وآلات ودواليب تحل حجما ضئيلا وتبلغ اثمانا باهظة واذا ما نظرنا الى نسبة السعر للطن المستورد والطن المستصدر يلوح لنا بدون طويل شرح مستوى التصنيع ببلدما ويظهر لنا مقدا ما بذله من مجهود قصد التجهيز ويؤكد لنا اهم العناصر التى يتكون منها اقتصاده

وفيما يخصنا ـ معشر التونسيين ـ ان فى هذه النسبة ما يثبط العزائم بل يلوح منها ان الامر اخذ فى التفاقم والحالة فى التعكر • فبينما كان الطن المستصدر سنة ١٩٣٨ يمثل الربع من قيمة الطن المستورد ، صارت هذه النسبة الخمس سنة ١٩٥٠ والسدس سنة ١٩٥٤ واليوم هى فى الواقع السبع ـ على ان هذا التطور لم يكن منظما بل كان هناك زيادات او نقص حسب الصابات كما شاهدنا ، وخاصة فى الزيت حيث يبلغ فى حجم محدود ثمنـا مرتفعا • ولنا على ما سبق بعض التعليقات والملاحظات •

فقبل كل شيء لا يستفاد حتميا مما سبق ان البلاد لم تتصنع اذ قدشاهدنا قبل عكس ذلك ـ ولكن الصناعة مادامت لا تتجاوز حاجيات الاستهلاك القومى لا يظهر تاثيرها على الصادرات ثم ان بلدا جديدا يتجهز ، فـى فترة انتقـال اقتصادى شان البلاد التونسية ، ليضطر الى توريد آلات باهظة الثمن ، وفى ذلك ما يثقل كاهله وما يخل ميزانه التجارى ، الا ان هذا الخلل وقتى •

وانخفاض ثمن الطن المستصدر بالنسبة الى الطن المستورد لا يفيد بالضرورة ان اسعار منتوجاتنا آخذة فى الانحطاط بل قد يتبع ذلك تضخما فـى الالات العصرية المستوردة ، وزيادة فى مواد الاستهلاك المشتراة ، او قد يستدل من ذلك على نظام قمرقى غير ملائم

ـ وكل ذلك تابع لنوع الاشياء المتبادل بها •

وتجمع المصلحة التونسية للاحصائيات وارادتنا فى اربعة ابواب : الطاقة والمواد الاولية او نصف المصنوعة للصناعة والزراعة ووسائل التجهيز ومـواد الاستهلاك وهذه العناصر وان كانت مقتضبة تمكـن مـن تتبـع ما لحاجياتنـا الاقتصادية من تطور

الواردات

	١٩٤٩	١٩٥٠	١٩٥١	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥
الطاقة	٢٧٥٩	٣٣١٩	٤٤٤٩	٤٩٨٣	٤٤٨٨	٤٣٥٥	٤٧٦٦
المواد الاولية او نصف المصنوعة							
– للصناعة	٩٢١٧	٩٨٣٤	١٢٥٤٤	١٤٣٠٦	١١٧١٠	١٢١٢٠	١٢٩١٥
– للزراعة	٢٥٥	٤٠٧	٣٨٢	٤١٨	٤٠٤	٤٥٠	٦١٤
وسائل التجهيز							
– للصناعة	٦٣١٨	٧٤٩٢	١٠١٨٤	٨٦٣٢	٧١٧٢	٦٦٤٦	٦٧٩٤
– للزراعة	١٣١٦	١٩٧٨	١٥٥١	١٧٤٥	٢٥٧٠	١٨٨١	١١٥٥
مواد الاستهلاك :							
– مواد تدوم	٣٦٦٣	٥٢٢٨	٦٤٧٢	٧٤٣٤	٧٧٧٧	٧٨٥٩	٨٦٤١
– لا تدوم :							
– غذائية	٧٨٣٣	٨٢٠٥	١٣٢٥٤	١١٧١٩	١٠٨٢٤	١٠٧٩٦	١٣٦٥٤
– غيرها	١١٠٠٧	١٥٠٧٠	١٤٩٨٣	١٥٦٢٢	١٥١٧٦	١٥١٦١	١٤٦٨٢
المجموع	٤٢٣٦٨	٥١٥٣٣	٦٣٨١٩	٦٤٨٦٩	٦٠١٢١	٥٩٢٦٨	٦٣٢٠٠

فاذا اعتمدنا سنة ١٩٥٤ مثلا نلاحظ ان ٪٧ من وارداتنا تتكون من الطاقة و ٪٢١ من المواد الاولية الصالحة للزراعة او الصناعة و ٪١٤ من وسائل التجهيز و ٪٥٨ من مواد الاستهلاك

وفيما يخص الطاقة التى لها قيمة قارة ليس لنا من سوء الحظ موارد محلية تمكننا من التخفيض من هذه الواردات • واما المواد الاولية الصالحة للزراعة والصناعة فعوض ان يكون لها منحن تصاعدى شان البلاد التى تنمى انتاجها ، بقى مستواها هو هو لايتغير، اذ ينبغى ان نضيف ان قيمة فرنك١٩٥٤ ليست لها من قدرة على الشراء ما لفرنك ١٩٤٩ ولا يبشر هذا الركود بخير خصوصا وقد تضخم النسل تضخما عظيما •

على ان اقل العناصر تشجيعا هما عنصرا وسائل التجهيز ومواد الاستهلاك•

ان وسائل تجهيزنا التى بلغت اوجها سنة ١٩٥١ ما فتئت تنقص منذ ذاك التاريخ – نعم ان بلادا تشبعت بالجهاز الاولى العام والخاص قد تسمح لنفسها بابطاء وارداتها من مواد التجهيز او توقيفها تماما – ولكن ما ابعد ما نكون عن ذلك • وهذا التقهقر الذى قد يكون له وطاة ثقيلة على مستقبل اقتصادنا انما ينبى عن فتور الاوساط الراس مالية الفرنسية تجاه الحالة السياسية الجديدة الناجمة عن الاستقلال وان التباطؤ فى التمويل وهجر رؤوس الاموال الفرنسية للارض التونسية انما يلوح منه عين العزم على عرقلة التصنيع والفت فى ساعده واحباط احياء البلاد ، وانه لمن العبث ان نجحد وجود حالة بل وخطورتها حالة تعرض فى الواقع جميع المشكل التابع للعلاقات الاقتصادية التونسية الفرنسية ، حيث يربط الكل دور وتسلسل ضرورى حتمى لا مناص منه •

وليست تونس بمختارة – بل يتحتم عليها ان تصعد بانتاجها صعود السهم شان التصاعد الذى تشاهده فى نسلها • ولكن يجب عليها ان تحسن تجهيزها اذا ارادت الزيادة فى الانتاج ولذلك ينبغى ان يتضخم تمويلها برؤوس الاموال•

هذا هو الدور والتسلسل المتاكد الحيوى

وفى الظروف الحالية لايرتكز مشكل التمويل على معطيات اقتصادية محضة بل يظهر انه مرتبط بسلسلة من الاضغاط او قل من انواع الجبر اهدافها فى اساسها سياسية ،فان استعصت تونس او تقاعست قطع عليها الزاد، ولاتخفى الحكومة الفرنسية عملها هذا •

على ان هذه طريق من العبث سلوكها ، اذ لاسبيل الى التفويت فى اى جزء

من استقلالنا وان غلا الثمن المبذول في ذلك ـ واذا ما احجمت فرنسا عن تزويدنا بالمساعدة المالية اللازمة لنهضتنا فقد يصير من الضروري اعادة النظر في علاقاتنا الاقتصادية جملتها وقد تلتجىء تونس الى تعديل الموقف الذي اتخذته نحو المصالح المستلزمة من مناجم وعقارات ووسائل نقل وغيرها تلك المصالح التي وهبت لشركات فرنسية ، ولا يمنعنا ذلك ـ كما وقع اخيرا ـ من طرق باب المنظمات العالمية المخصصة لترفيع مستوى البلدان الضعيفة .

ومهما يكن من الامر ، ومهما تكن الوسيلة والطريق ، سيستمر سيرنا الى الامام لمنح البلاد هيكلا اقتصاديا يفرضه عليها كيانها نفسه

ولا يسعنا في هذا الصدد الا ان نعيد ما صرح به الرئيس بورقيبة اخيرا بنيويورك (١) « لم يمكنا الاستعمار من تكوين الفنيين اللازمين للبلاد ، ولا من جمع رؤوس الاموال التي نحن اليوم في حاجة اليها . ولتطبيق تصميمنا في سبيل الانتشار الاقتصادي ينبغي ان نتجه نحو الشعوب الصديقة وان نسالها ان تمدنا بالفنيين وبرؤوس الاموال ـ فللعمل البعيد المدى الذي شرعنا فيه نحن في حاجة الى تمويلات عظيمة . فلذا نحن ننوي اعطاء الضمانات اللازمة لرؤوس الاموال الاجنبية التي قد تزود بها تونس كما سيوقر لها الانتاج الحسن ...

وسيقيم ازدهار تونس الدليل لدى البلدان المستضعفة ان اسرع طريق نحو الرقي الاقتصادي والاجتماعي هو طريق التعاون بين الشعوب ـ التعاون الحر ـ اي دون نوايا خفية واغراض باطنة ، اغراض الاستعمار والسيطرة والاستغلال»

واما فيما يخص مواد الاستهلاك المستوردة فكان التطور من نوع آخر . فبينما كانت مواد التجهيز تنخفض ، تضخمت فصول الاستهلاك تضخما في القيمة بلغ حدودا مهولة . فمرت جملة مبلغها من ٢٢٥٠٣ ملايين سنة ١٩٤٩ الى ٣٦٩٧٧ مليونا سنة ١٩٥٥ اي ما يصور ٥٨،٥٪ من جملة الواردات

وما لدينا من الارقام التابعة للستة اشهر الاولى من سنة ١٩٥٦ يدلنا على زيادة قدرها ٪ ١٠٠ بالنسبة للسنة الفارطة (٢) ـ وليس في هذا التضخم

(١) نقلت هذا التصريح جريدة «البتي متان» في عددها المؤرخ بيوم ٣٠ نوفمبر ١٩٥٦

(٢) انظر التعليق بالصفحة التالية ١٩٢

ما من شانه ان يبعث الفرح والحبور بل هو اتلاف للعمولات ، اتلاف مضر ، يزيد الطين بلة والميزان التجارى تدهورا دون ان يعين شيئا ما على تنمية امكانياتنا فى الانتاج — نعم قد يلاحظ ان من الضرورة اولا كسب العيش ثم يفكر المرء فى التجهيز ، وقد يتعلل بالتضخم التناسلى الذى يفرض حاجيات من حيث الغذاء واللباس وغيرها ينبغى سدها فى الحال بالاتجاه الى الخارج ريثما تصير البلاد قادرة على القيام بها

وما لذلك من الصحة الا بمقدار ، اذ اذا نحن نظرنا فى نوع مواد الاستهلاك المستوردة نجد انه وان كان بعضها ضروريا فالبعض الاخر يشك فى ضرورته ، بل ان نظام التقشف المفروض على ماليتنا يجعل هذه الواردات مضرة مخلة باعتدال اقتصادنا

ففى سنة ١٩٥٤ مثلا من جملة ٣٤ مليارا خصصت لمواد الاستهلاك المستوردة لم يكن للسكر (٣٩٦٨ مليونا) والتاى (٦٧٠ مليونا) والقهوة (٦٧١ مليونا) التى هى عناصر اساسية للتجارة الداخلية بالارياف التونسية ، سوى مقدار ضعيف

وتستحوذ المنسوجات والملابس على نحو عشرة مليارات (الخيط : ٨٧٠ مليونا ، والاقمشة ٥٥٧٠ مليونا ، والملابس وتوابعها ١٢٣٠ مليونا والملابس الداخلية ١٣٣٠ مليونا ، والملابس القديمة ٢١٠ ملايين، اى فى الجملة ٩٢١٠ ملايين) كما خصص للمنتوجات اللبنية ١٢٤١ مليونا من الفرنكات وللتبغ ٥٣٤ مليونا .

واذا ما دققت الدراسة فى قائمة الفصول المعدة للاستهلاك ، ما كان منها يدوم ويصبر وما كان مما يفسد بمرور الزمن ، واذا ما نظر على الخصوص فى الحرفاء الذين يستهلكونها اتضح ان معظم الشعب التونسى اجنبى عن دائرة هذه السوق ومما يزيد الامر خطورة هو ان هذه الواردات من المواد المصنوعة

---

(١) قيمة الواردات من المواد المعدة للتغذية مرت من ٤٥١٢ مليونا بالنسبة للستة اشهر الاولى من ١٩٥٥ الى ٩٥١٧ مليونا للستة اشهر الاولى من ١٩٥٦ وتتصور هذه الزيادة التى قدرها ٪ ١٠٩ فى القمح (٨٠٠ مليون) اذ كانت صابة ١٩٥٥ ضعيفة جدا غير كافية ، كما تتصور ايضا — ويا للفضيحة المنطقية — فى الزيوت النباتية (١١٠٠ مليون)

المعدة فى جملتها للسكان الاروبيين ، ليست هى فحسب تعطينا فكرة مخطئة عن ميزاننا التجارى ، بل هى تهددنا بخنق صناعاتنا الفتية وتؤذنها بالافلاس.

لذا اتخذت منذ عهد قريب بعض التدابير التحفظية القمرقية لحماية بعض فروع الصناعات من المزاحمة الفرنسية كصناعة الصابون والبلور بصواف وصنع اغشية الكاغذ والورق المقوى - على انه قد يكون من المفيد حماية الصنائع الموجودة الان اوما من شانها ان تنشا بالبلاد فليس فى الامكان مثلا ان يزدهر اى معمل للاقمشة المحلية اذا لم تحمى السوق التونسية من هجوم الاقمشة او فصول الالبسة الفرنسية التي يكون ثمنها اضعف مما من شانها ان نصنعه .

واذا ما قصد احياء الصناعات التقليدية بالذات واذا فكر فى ضمان العيش لمئات لالاف من الاشخاص المرتبطة بها واذا ما كان الغرض وقاية المشاريع الموجودة ومنح تونس هيكلا صناعيا نواتيا ، انما يجب العمل بشدة فى هذا الباب باب الواردات من مواد الاستهلاك الصابرة وغيرها وذلك بوضع حدود ومضايفات قاسية خاصة فى الفروع التى يمكن فيها الصنع المحلى ان يحل محل تجارة التوريد - ويعرض علينا مستقبل اقتصادنا ان نتخذ تدابير لازمة للتحفظ والوقاية وان ادى ذلك موقتا الى ارتفاع فى الاسعار وانحطاط فى نوع البضاعة ويفرض علينا ان نخوض المعركة لقلب الاتجاه ولانماء الواردات من وسائل التجهيز الصالحة للزراعة والصناعة مع التحديد من الواردات للاستهلاك قدر اللازم المحتوم بالغاء جميع مواد البذخ الزائدة .

وانه ليتاكد هذا التقشف اذا ما علمنا ان صادراتنا واقفة لا تتقدم .

فالارقام التى ادلت بها المصلحة التونسية للاحصائيات تفيد ان هذه الصادرات غير منتظمة وان هناك بعض التقهقر سنة ١٩٥٥ ـ هذا على ان الستة اشهر الاولى من ١٩٥٦ تنبينا بتقدم على نسبة ٪ ٢٠ تقريبا بالنظر الى السنة الفارطة (١) وتنقسم منتوجاتنا الى خمسة ابواب فى جملتها : المواد الاولية للصناعة التى اصلها معدنى او فلاحى ، المواد الاولية للفلاحة ، وسائل التجهيز المنتوجات الغذائية وغير ذلك .

---

(١) الستة اشهر الاولى من ١٩٥٦ : ٢١٦٤٥ مليونا
الستة اشهر الاولى من ١٩٥٥ : ١٨٢٥٤ مليونا

الصادرات

	١٩٤٩	١٩٥٠	١٩٥١	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥
المواد الاولية للصناعة :							
– من اصل معدنى	٨٤٥٣	٨٤٣٠	١٤٤٩٨	١٥٣٤١	١٣٨٢٤	١٣٩٩٧	١٥٣٣٥
– من اصل فلاحى	٢٨٩٥	٣٤٩٩	٧٥٧٢	٥٠٧٥	٢٦١٦	٣٤٥٩	٣٣٢٠
– المواد الاولية للفلاحة	٢٠٦	٣٧٨	٥٨١	٨٣٢	١٢١٧	٢٢٣٥	٢٢٩٥
– وسائل التجهيز	١٥٦	١١١	٢٤٤	٦٦٦	٣١٥	٥١٦	٥٧٨
منتوجات غذائية	١٥٢٣٠	٢٦٧٠٨	١٤١٣٣	١٧٧٠٧	٢٠٤٣٥	٢٣٤٠١	١٤٩٢٨
– غير ذلك	٤٥٦	٧٠٠	٨٧٩	٥٥٩	٦٩٦	٨٦٩	٦٨٠
الجملة	٢٧٣٩٦	٣٩٨٢٦	٣٧٩٠٧	٤٠١٨٠	٣٩١٠٣	٤٤٤٧٧	٣٧١٣٩

وما يلفت النظر فى هذا الجدول للصادرات التونسية التفوق القوى للمواد الاولية التى من اصل معدنى وللمنتوجات الغذائية التى من اصل زراعى _ وقيمتها بالنظر الى معدل خمس سنوات ٪ ٩٠ من جملة البضائع المستصدرة_ وفى ذاك ما يؤكد ان البلاد التونسيةبقيت قبل كل شىء بلادا منجميةوفلاحية ترسل بمنتوجات ارضها وما تحت ارضها فى حالتها الخام ٠

واذا كان منحنى المواد المنجمية تصاعديا فمحنى الصادرات الزراعية خط منكسر وذلك ان المواد الاولى لا تتاثر بالمناخ تاثر الثانية به ٠ وبالرغم عما يتعلق بالسوق العالمية من غرر ورغم الازمات السياسية والاجتماعية فى السنوات التى بين ١٩٥٢ و١٩٥٤ لم تنفك صادراتنا من الفسفاط ومعدن الحديد والرصاص والزنك نامية بانتظام كما وقدرا مارة من ٨٤٥٣ مليونا من الفرنكات سنة ١٩٤٩ الى ١٥٣٣٥ مليونا من الفرنكات سنة ١٩٥٥ _ وتفيد الارقام التى لدينا فيما يخص صادرات العشرة اشهر الاولى من ١٩٥٦ ان هذا التقدم مستمر _(١) ففى سنة ١٩٥٥ من جملة ٣٧مليارا من الصادرات هناك ١٥ مليارا للمنتوجات المنجمية اى نسبة ٪٤١ ٠

ومن سوء الحظ مازالت ثروات تحت ارضنا على ذمة شركات اجنبية ٠ فهذه النسبة تدل على مقدار ما يفرط من ثروتنا من المتاع القومى ٠

وفى ذلك بالطبع ما يغنى عن طويل الشروح خصوصا وسنجد فرصة لعرضها عندما نتصدى للصناعات الاستخراجية _ ولكن اذا اضفنا الى هذه الصادرات ما هو راجع للجالية الاوروبية من القمح والخمور وسائر المنتوجات الفلاحية تبلغ نسبة تفوق ٣/٢ مجموع الصادرات

(١) جريسة : للعشرة اشهر الاولى من ١٩٥٦ : معدل شهرى ٠ ٨٤٥٩طنا مقابل ٨٢٧٠٠ سنة ١٩٥٥

قفصة : ١١٧٩٧٠ طنا مقابل ١٢١٩٢٩ فى الشهر ٠ ومن حيث القيمة مرت صادراتنا بين الستة اشهر الاولى ١٩٥٥ ومقابلها سنة ١٩٥٦ بالنسبة للحديد من ١٧٦٦ مليونا الى ٢٢٤٣ مليونا ، وللفسفاط من ٢٥٨٤ مليونا الى ٣٠٦٠ مليونا وللرصاص من ١٠٩٥ مليونا الى ١٧٠٠ مليون

وتنجلى بذلك بصفة غريبة الرسالة الاستعمارية ـ فلئن يذهب ثلثاالثروات التونسية المبيعة فى الخارج الى جيوب اجنبية فتلك هـى الاسس التقليديـة للاستعمار ، ولكن ان يستمر هذا الاستحواذ فى ظل النظام السياسى الجديد ففى ذلك تعد فيه من الخطورة ما يجعل الشعب التونسى لا يتحمل ان يكـون دائما ضحية له ـ وهذا الوجه منتجارتنا الخارجية ليكشف لنا بوضوح وباخصر وسيلة عن الطريق التى بقى علينا ان نقطعها لكى يكتسى استقلالنا لا معنى استقلالنا الاقتصادى فحسب بل وعلى الخصوص نهاية الاستغلال الجائر المشط الذى اودى بشعب كامل الى المجاعة باسم المدنيـة ، وسلـم الى «حماة» هـذا الشعب معظم ثرواته وموارده ·

واما المنتوجات الغذائية فباستثناء مصبرات الحوت التى انتجت سنة ١٩٥٤ قدر ٧٥٦ مليونا من الفرنكات كما انتجت ٧١٠ مليونا سنة ١٩٥٥ ـ فهى فى جملتها من الفلاحة · واذا ما تصفحنا جدول اهم صادراتنا فصلا فصلا يمكننا ان نتتبع تطورها بصفة ادق من ناحيـة الوزن ومن حيثيـة القيمة ـ ونضيف الى هذاالجدول ـ ليقع التنظير بين الموردين ـ مجموع الصادرات المنجمية

ان جميع المنتوجات النباتية الموسوقة (حبوب وبقول جافة وحلفاء وزيت وخمور وتمور وقوارص) او الحيوانية (جلود وفروات) تابعة للفلاحة ،ماعدا الحلفاء التى يمكن ان تعتبر كمتمم لحياة الترحال والبدو

وفى بحـر خمس سنوات (١٩٤٩ ، ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ ، ١٩٥٥) كانت هذه المنتوجات تمثل قيمة معدلة قدرها للحبوب والدقيق ٨٠٠٠ مليون من الفرنكات وللبقول الجافة ٨٠٠ مليونوللحفاء ١٥٠٠ مليون وللزيت ٤٢٠٠ مليونو للخمور ٢٠٥٠ مليونا وللتمور والقـوارص ٨٠٠ مليـون وللجلـود والفروات ٤٠٠ مليون اى فى الجملة نسبة ٤٧٪ من مجموع الصادرات

فالفلاحة التونسية اذا تمكن علاوة على الاستهلاك المحلى من فاضل مخصص للاصدار قدره نصف مجموع صادراتنا · وما يزيدنا ذلـك الا تاكـد امماكنا علمناه من قبل من المحل الممتاز الذى يحلـه النشاط الفلاحـى من الاقتصـاد التونسى ·

ومن عديد الانواع التى تنتجها ارضنا يحل القمح والزيت منصبين اساسين

اهم الصادرات

تعيين الفصل	الكميات (بالاف الطن)					القيمة (ملايين من الفرنكات)				
	١٩٤٩	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٤٩	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥
الحبوب والدقيق	٣١٣	٢٢٠	٣٣٦	٢٣٣	١٤٠	١١٧٦	٨٤٦٨	١٤٠٩٨	١٠٢٠٨	٥٤٤٠
البقول الجافة ذات القشور	٢٥	٣٤	٢٨	٢٩	١٥	٥٥٨	١٠٠٣	٨٨٢	٨٢٥	٤٤٩
الحلفاء	١٤٣	٩٠	٦٦	٧٠	٥٠	١٤٣٥	٣٤٨٦	٩٣٤	٨٩٩	٧٨٤
الزيت	٢٠	٢٠	١١	٤٥	١٦	٣٣٥٢	٣٧٥٥	٢٢٢٤	٧٥٦٨	٣٢٧٢
الخمور والعصير	٥٢	٣٨	٢٢	٤٦	٧٢	٢٤٧١	٢٠٢٥	١٢٣٥	١٨٤٣	٢٧٠٤
التمور والقوارص	١٢	١٧	١٢	٣٣	٢٢	٥٦٠	٧٩٨	٥٧١	١١٤٥	٩٣٣
الجلود والافرية	٠،٥	٢	٢	٢	٢	١٥٦	٤٤٩	٥٢٧	٤٧٣	٤٦٨
الفسفـاط	١٨٨٨	١٩٤٠	١٥٨٧	١٩٤٨	١٩١٨	٤٠٢٥	٦٠٤٤	٤٨٣٨	٥٧٩٢	٥٧٣٩
معدن الحديد	٧٤٨	٩٥٣	١٠٣٦	٩٠٦	١١٠٨	١٢٣٦	٣٥٢١	٤٤٨٥	٣٣٧٨	٣٧٨٥
الرصاص وامزجته	٢٠	٢٦	٢٧	٢٦	٢٣	٢١٧٧	٣٤٥٢	٢٦٧٤	٢٧١٨	٢٧٥٣
معدن الزنك	٦	٥	٢	١٤	١٣	٩٠	١٢٧	٣٠	٢٠٢	٢٥٠
بقايا الحديد القديمة	٤٨	٤٦	٣٥	٢٧	٤٣	٣٧٩	١١٠٩	٦٠٣	٣٢٤	٦٢٠

فيمثلان ثلثي صادراتنا الفلاحية ، على ان تغيراتها العابثة قد تصل بها من نسبة الواحد البسيط الى الاربعة (الزيت سنة ١٩٥٣ : ١١٠٠٠ طن وسنة ١٩٥٤ : ٤٥٠٠٠ طن) وتبعث فى التجارة الخارجية التونسية عنصر عدم الاستقرار واختلال فى النظام لا يمكن تداركه فتمر بالبلاد سنون متوالية من الخصب او من الجفاف والبقرات الجحاف ،وذاك هو شان البلدان الفلاحية فحسب التى تسيطر عليها تصرفات السماء

٥ ـ الاتجاه والميزان التجارى

انه اذا كان هيكل مبادلاتنا دائما هيكل التراب الاستعمارى الذى يهب مواده الاولية الخام ويشترى من الخارج الالات والوقودات ومواد الاستهلاك التى تعوزه او قل التى اريد ان يكون معوزا منها، فاتجاه التيار التجارى نفسه يؤكد ماكان يدعى « تعاونا وثيقا »وما هو فى الواقع الا بقية ، بل دعامة للولاء الاقتصادى الذى مازال يجعل من تونس منفسا يصب فيه فيض الصناعة الفرنسية وموردا مناسبا تقتنى منه المواد الاولية باثمان وضيعة

واذا ضبطت قائمة الحرفاء الاساسيين لتونس وزبنائها سنة ١٩٣٨و ١٩٤٨ و ١٩٥٥ يمكننا ان نتتبع تطور علاقاتنا التجارية مع الخارج

	الصادرات			الوارداث		
	١٩٣٨	١٩٤٨	١٩٥٥	١٩٣٨	١٩٤٨	١٩٥٥
فرنسا	٥٦٪	٤٩٪	٥٥٪	٦٢٪	٦٧٪	٧٥٪
انقلترا	١١٪	١٩٪	١٢٪	٤٪	٢٪	١،٥٪
ايطاليا	١٠٪	٦٪	٨٪	٢٪		٤٪
الجزائر	٥٪	٨٪	٥،٥٪	٤٪	٤٪	٣٪
الولايات المتحدة	٥٪	٢٪	٢٪	٤٪	١٢٪	٢،٥٪
المانيا	٣٪	٣٪	٢٪	١٪		١٪
هولاندة	٢٪	٣٪	٢٪	١٪	١٪	١٪
غيرها من البلدان	٨٪	١٠٪	١٢،٥٪	٢٢٪	١٤٪	١٢٪

فيلوح هكذا جليا ان فرنسا لم تقتصر على التضلع بالقسط الاوفر من تجارتنا الخارجية بل ما فتىء هذا القسط يتضخم حتى استحوذ على مجمل هذه التجارة وظهرت فرنسا بصورة الحريف الخاص ٠وان هي اشترت منا سنة ١٩٥٥ مثل ما اشترت سنة ١٩٣٨ تقريبا اى ٥٥٪ من جملة ما لصادراتنا من قيمة ـ وهذا فى نفسه امر لا باس به ـ فبالعكس اننا نراها يتغلب عليها الاشفاق علينا فتزيد فى وفرة ما نبتاعه منها حتى بلغت بذلك ثلاثة ارباع وارداتنا ـ وان فى هذا الاهتمام بنا المؤثر فى نفوسنا ، وفى متانة القيودالتى تربطنا ودقتها ، المزمع من ورائها ان تخلو السوق التونسية للسادة بوساك وشنيدار وغيرهما من قياصرة الصناعة الفرنسية ، ان فى ذلك كل مايبعث فى النفوس التخوف والروعة والفزع ٠ ويظهر انالاستعمار الاقتصادى عوض ان يتضاءل ويضعف يتمتع بحيوية جديدة فى عهد تونس المستقلة

وهذه النتائج الغريبة انما هى ناجمة عن الميراث الاقتصادى الذى اورثنا اياه نظام الحماية ، وخاصة عن الوحدة ثم عن الاتفاقية القمرقية

نعم ان فرنسا لا تشترى من منتوجاتنا اكثر مما كانت تشترى قبل وهى تجعل لنا حرية نشر منتوجاتنا لدى حرفاء لم يظهروا من الاقبال الا بمقدار خصوصا ونحن لا نستورد منهم الا النزر القليل ـ وبالعكس ان فرنسا تغدق علينا ـ وباضخم الاثمان ـ جمع نتاجها الفلاحى والصناعى ـ ونظام الامتياز هذا فيه ماف يه من دواعى الخنق لنا لا بابقاء صناعتنا فى المرحلة التاسيسية بل وحتى فى صورة مشروع فى النية القيام به بل بزيادة الخلل فى ميزاننا التجارى وزيادة النقص فى ميزانحساباتنا ، ذلك النقص الذىيجعل اقتصادنا رهينة لمنطقة الفرنك

واذا ما نظرنا فى احصائيات التجارة الخارجية وجدنا ان فى سنة ١٩٥٤ مثلا اتجهت تونس نحو منطقة الفرنكبنسبة ٨٥٪ من المواد الاولية اوالمصنوعة نصف الصنع ونسبة ٨٤٪ من مواد استهلاكها و٦٨٪ من مواد تجهيزها و٦٣٪

من الطاقة ـ وفى السنة نفسها هى وجهت نحو هذه المنطقة ٨٧٪ من منتوجات الاستهلاك (٩١٪ من الحبوب و ٦٩٪ من الزيت و ٩٩٪ من الخمور و ٩٨٪من القوارص) و ٤٤٪ من المواد الاولية او نصف المصنوعة ·

وتلك صورة فصيحة بينة تدل بوضوح ان اقتصادنا يحوم فى مدار المصالح المالية الفرنسية بل هو ملحق بسيط للاقتصاد الفرنسى · وليس هناك موجب اليوم لا بقاء هذا الولاء الذى يجعلنا بمعزل عن التيارات الثرية للتجارة العالمية

نعم ان انقلترا حريف حسن لنا ،تقدر حديدنا وفسفاطنا وحلفاءنا وثمارنا وهى تبعث الينا فى مقابل ذلك فحمهـا وبعض الالات ، وان ايطاليا تشتـرى منا زيوت زيتوننا وفسفاطنا ، والولايات المتحدة والمانيا والجزائر وهـولاندا وبلجيكا تشترك معنا فى مبـادلات تجارية لاباس بها · الا ان هـذه المبادلات مازالت طفيفة ـ وفى الحالة الراهنة ينبغى ان تميل ابرة تجارتنا الخارجيـة مشيرة نحو البلدان التى تلائم مصالحنا الخاصة ـ واذاكانت فـرنسا تحـل بينها المحل الاول ففى ذلك ما يدخل علينا الغبطة ، ولكن اذا كان الامر بالعكس فما علينا الا ان نتجه نحو اسواق اخرى · وقد شرع فى التنقيب عن اسواق جديدة تضمن لنا وذلك خاصة بالولايات المتحدة وباميركا الجنوبية

وبدات فكرة مهمة تتجسم وهى انشاء لجنة متنقلة تسعى لانفاق منتوجاتنا ولنشر تجارتنا ، على ان اهم مجهود ينبغى القيام به هو ربط العلاقات التجارية مع بلدان يتمم اقتصادها اقتصادنا اى بلدان غصت فيها المنتوجات الصناعية باسعار وضيعة وفى الامكان ان تبتلع جزءا من صادراتنا من الموارد المنجمية او الفلاحية ويظهر ان انقلترا والمانيا هما اللتان تتعينان لهذه الوظيفة ، ويمكن التفكير فى نظام بسيط لتبادل البضائع كما كان الشان بين المانيا ورومانيا وكانت هذه تتصل بعربات القطارات مقابل حمولتها من القمح ·

وقبل ان تتحرر مبادلاتنا هذا التحرر ، لا يسعنا الا ان نلاحظ بالنظر فى ارقام صادراتنا ووارداتنا فى بحر العشرين سنة الاخيرة انه كلما غرق تيـار تجارتنا فى منطقة الفرنك صار النقص فى ميزاننا التجارى افدح ، وبالطبع ان هذا النقص يختلف باختلاف السنوات اذ كما شاهدنا هو تابع لرقم الصادرات الذى يرتبط بدوره بذبذبات العوامل الجوية ·

وبصفة عامةيمكننا ان نقول ان قيمةصادراتنا تساوىثلثى قيمة وارداتنا(١)
نعم ان هذه النسبة قد تبلغ فى بعض السنوات الممتازة الخصبة حتى ٧٥٪ كما كان الامر سنة ١٩٥٤ ولكنها قد تنحط بالتبع الى الاجاحة او الى ظروف تجارية غير مواتية عقيمة كما كان الامر سنة ١٩٤٨ فانحطت الى ٣٦٪ اى اننا بعنا تلك السنة قدرا لا يتجاوز ثلث ما اشترينا ، والفترة الوحيدة التى كان فيها لميزاننا التجارى فاضل هى مدة الحرب ـ فخفت وطاة المزاحمة من طرف المعامل الفرنسية على البلاد التونسية وعلى سائر بلدان الشمال الافريقى فزودت تونس فرنسا لا بالمواد الاولية فحسب بل وحتى بالمنتوجات المصنوعة او نصف المصنوعة ـ ودام الامر كذلك سنة ١٩٤٠ و ١٩٤١ و ١٩٤٢ حيث عاثت الحرب فى البلاد سنة ١٩٤٣ فانهار نشاطها التجارى انهيارا تاما ٠ وعند « التحرير » عاد عهد الاستعمار لميزاته ورجع النقص لميزان المبادلات ٠ وبلغ هذا النقص سنة ١٩٥٥ قدر عشرين مليارا وادرك فى الستة اشهر الاولى من سنة ١٩٥٦ قدر ١٤١٧٧ مليونا من الفرنكات ٠

هذا وقد وجد هذا الخلل الخطير من ينتصر اليه ويدافع عليه، السيد فيبار(٢) الذى يكتب فى هذا الشان قائلا : « فيما يخص البلاد التونسية ان التخوفات

(١) ملايين من الفرنكات

	١٩٣٥	١٩٣٦	١٩٣٧	١٩٣٨	١٩٣٩	١٩٤٠	١٩٤١
واردات	١٢٣١	١٠١٤	١٣٢٤	١٥٥٨	١٤٨٣	١٣٥٩	١٠٦٠
صادرات	٧٧٢	٨٤١	١١٤١	١٣٥٣	١٢٦٦	١٣٢٨	١٥١١
	١٩٤٢	١٩٤٣	١٩٤٤	١٩٤٥	١٩٤٦	١٩٤٧	١٩٤٨
واردات	١٤٧١	٤٨٤	١٦٥٢	٣٥٨٠	١٠٧٦٧	١١٤٧٨	٣٤١٩٣
صادرات	١٦٠٣	٩٨	٦٥١	١٩٢٨	٣٨٨٩	٦٤٧٦	١٢٦٩٠
	١٩٤٩	١٩٥٠	١٩٥١	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥
واردات	٤٢٣٦٨	٥١٥٣٣	٦٣٨١٩	٦٤٨٧٩	٦٠١٢١	٥٩٢٦٨	٦٣١٩٩
صادرات	٢٧٣٩٦	٣٤٨٢٦	٣٧٩٠٧	٤٠١٨٠	٣٩١٠٣	٤٤٤٧٧	٣٧١٣٩

(٢) فيبار : « صورة من الاقتصاد التونسى » ص ٢٠٠

الناشئة عن الخلل التجارى فى غير محلها — وحيثان تونس لها عمولةمشتركة مع سائر بلدان منطقة الفرنك ، فليس الاعتداد بالميزان الخاص بتونس ، بل العبرة بالميزان العام لمنطقة الفرنك · واذا افرغ النقص من فكرة العمولة صار هذا الميزان الناقص فى فائدة تونس : فهى تتصل سنويا بقيمة ستين مليارا من البضائع بينما هى لا تعطى الا اربعين »

ونحن لا نقتنع بهذا التفكير لاسباب عديدة ، فلئن يقال انه من فائدة شخص ان ينفق اكثر مما يقبض لان هناك من يدفع عليه الفرق ، تلك فكرة عجيبة فى باب الاقتصاد · وبما انه لاوجود لعمل بدون مقابل فى المادة التجارية قد نتلجىء الى البحث عن الموجب الذى دعا ارباب المالية الفرنسيين ان يتكرموا تكرم « الاب نوال » مساعدين على تسديد النقص فى ميزاننا التجارى بمنحه عديد المليارات

وحيث قد تعودنا الا نثق بالمجموعات المبهرجة المزينة فهذه مجموعة لا نشتم منها خيرا ولانرى فى طياتها مايحمد عقباه ، وذلك لسببين رئيسيين

فمن جهة اولى لئن نرض بالبقاء تحت هذا الخلل بدعوى ان منطقة الفرنك تتحمل بدفع ما تخلد بذمتنا ففى ذلك ما يفرض علينا ان نبقى فى سياق عمولة وان كان بها بعض المزايا هى كثيرة العيوب ايضا · والاقتصاد التونسى فى جملته اقتصاد سالم ، فى عنفوان ازدهاره وذلك احسن ضمان لانشاء عمولة ثابتة — فلماذا يراد الحكم علينا بان نتحمل اردنام كرهنا ما يتبع تغيرات عمولة ما فتئت تفقد قوة شرائها بل ما يتبع حتى انحطاط هذه العمولة فى القيمة ؟

ثم اننا ان شجعنا ميزاننا التجارى على ان يبقى ناقصا دائما فنحن نشجع بذلك تونس على البقاء على اقتصاد ابتدائى اى على بيع المواد الخام دون تصنيع يقوى فى قيمتها بينما يتضخم عدد البطالين ، ونحن نحكم عليها ان تكون دائما مصبا للمصنوعات الفرنسية التى ليست اقل المصنوعات ثمنا · وبعبارة اخصر ان فى ذلك ابقاء تونس فى تبعية اقتصادية لا تلائم اليوم مصالحنا

وانه لما يؤكد هذه النظرة ان ميزاننا التجارى سنة ١٩٥٤ مثلا كان به نقص قدره ١٧٥٦٧ مليونا من الفرنكات بالنسبة الى منطقة الفرنك بينما كان

فاضل قدره ٢٧٧٥ مليونا بالنسبة الى منطقةالاسترلين وفاضل قدره ١٥٠٥ ملايين بالنسبة للعمولات الاخرى .

وفى الواقع قد نشارك السيد فيبار فى تفاؤله لو اصلح الخلل فى ميزاننا التجارى بواسطة ما يسمى « بالصادرات الخفية » فتعدل ميزان حساباتنا .

وكل يعلم المثل المشهور ، مثل المملكة المتحدة البريطانية التى تمثل صادراتها ثلثى وارداتها . الا ان الثلث الناقص كانت تعد له فى ميزان الحسابات « الصادرات الخفية » : فوائض رؤوس الاموال الموضوعة بالخارج وكراء البواخر وارباح شركات الضمان وشهادات الاختراع والسياحة والسمسرة الخ ..

وبالبلاد التونسية ان هذه العناصر سلبية اى انها تزيد الطين بلة عوض ان تعين على رتق الفتق . فالحمل لايجدى شيئا لتونس اذ هى يعوزها الاسطول التجارى بل هو مصدر نفقات زائدة ذات بال تمنح فرنسا مداخيل مثمرة .

فحسب الاتفاقية التونسية الفرنسية الخاصة بالملاحة البحرية لا يكون النقل بين البلدين الا بواسطة بواخر يرفرف عليها علم احد البلدين . وان انعدام الاسطول التونسى ليجعل من هذا الشرط فى الواقع امتيازا خاصا بالعلم الفرنسى فيما يخص التيار التجارى البحرى مع فرنسا . فبلغ هكذا اجر النقل بالبواخر الفرنسية سنة ١٩٥٣ قدر ٤٦٣٨ مليونا من الفرنكات

وهكذا الامر بالنسبة الى السياحة ـ فالبلاد التونسية من بلدان العالم التى لها اوفر حظ مما يجلب موجات السياحين الطامية ويحبب لهم البقاء فيها ويستهويهم ويخلب البابهم وفى ذلك مافيه من دواعى الثروة للاقتصاد القومى ـ فهذه لذة مناخها التابع للبحر الابيض المتوسط وهذا صفاء اديمها النير الوضاء وهذا جمال مناظرها الطبيعية واختلاف انواعها تجمع بين عظمة الواحات الصحراوية بتوزر ونفطة المشحونة باسرار الطبيعة ، وبين العزلة وسط الثلوج بغابات خمير ، وبين طرب الاستحمام على الشواطىء الخلابة كشاطىء الحمامات او جربة ، فكان فى ذلك ما يكفى ليجعل من تونس جنة على وجه الارض وليجلب اليها تيار السياحة يزيده قوة ان اجمل الحضارات بالعصور الخالية وبالقرون الوسطى نثرت على ضفافها الافريقية نصيبا وافرا من عظيم الاثار ، من قرطاجنة البونيقية الى القيروان التى شاهدت العصور الاولى للاسلام ، وهذه الثروة

التاريخية والجغرافية التى لم يجمع لها نظير فى العالم لا تبعد الابضع ساعات بالطائرة عن اهم العواصم الاروبية

ومن سوء الحظ ، بالرغم عن فترة ١٩٣٠ الى ١٩٣٨ التى كانت فيها السياحة بين ازدهار وخمود ، بقيت هذه الثروة بورا لم تغنم فلم تات الميزانية التونسية بنفع ولا جدوى — ولا يسعنا الا ان نتحسر على ذلك خصوصا وان بلدانا كسويسرا وايطاليا والشاطىء اللازوردى جعلت من السياحة صناعتها الرئيسية — على انه يلوح منذ وقت قريب ان المصلحة التونسية للسياحة اخذت تعمل على بعث هذا النشاط بتنظيم دورات طريفة تتخللها سلسلة من الانزال وزعت توزيعا محكما

هذا وان كنا لا نغنم شيئا من تيار السياحة المتجه نحو تونس فبالعكس التيار الخارج منها يكلفنا ابهض الاثمان — ففصل الصيف من كل سنة نشهد زحاما قويا وتهافتا على البواخر والطائرات من طرف المساكنين الاروبيين — خاصة منهم الموظفين والجنود الذين يتمتعون بالسفر الخالص المعلوم — ومنذ بضع سنوات من طرف بعض التونسيين الذين يقصدون فرنسا او ايطاليا — وقد شاهدنا قبل ان تيار المسافرين فى ازدياد متواصل وان هذا العدد سنة ١٩٥٤ بلغ ١٧٢٠٠٠ (بين خارجين من تونس وداخلين اليها) بالطريق البحرى وبلغ ١١٤٠٠٠ على طريق الجو

وتكون هذه الرحلات الجماعية (١) وما تستلزمه بالطبع من النفقات هروبا لرؤوس الاموال يعسر تقديره الا انه يبلغ بلا شك عدة مليارات تضاف الى الخلل الفادح الذى يتخبط فيه ميزان حساباتنا

وفى الامكان ان نتتبع ايضا سائر الصادرات «الخفية» الاعتيادية ، ولكن بلا جدوى فشركات الضمان الفرنسية والاجنبية تغنم ارباحا فائقة وكذلك صندوق التوفير —

على ان رؤوس الاموال الفرنسية الخاصة منها والعامة تدخل تونس اما فى باب

---

(١) يضاف الى تلك الهجرات الفصلية ، منذ بضعة اشهر ، هجرات بدون نية الرجوع من طرف الجالية الاروبية وخاصة الفرنسية ، وبلغ عدد المهاجرين فى بحر التسعة اشهر الاولى من سنة ١٩٥٦ نحو الاربعين الفا

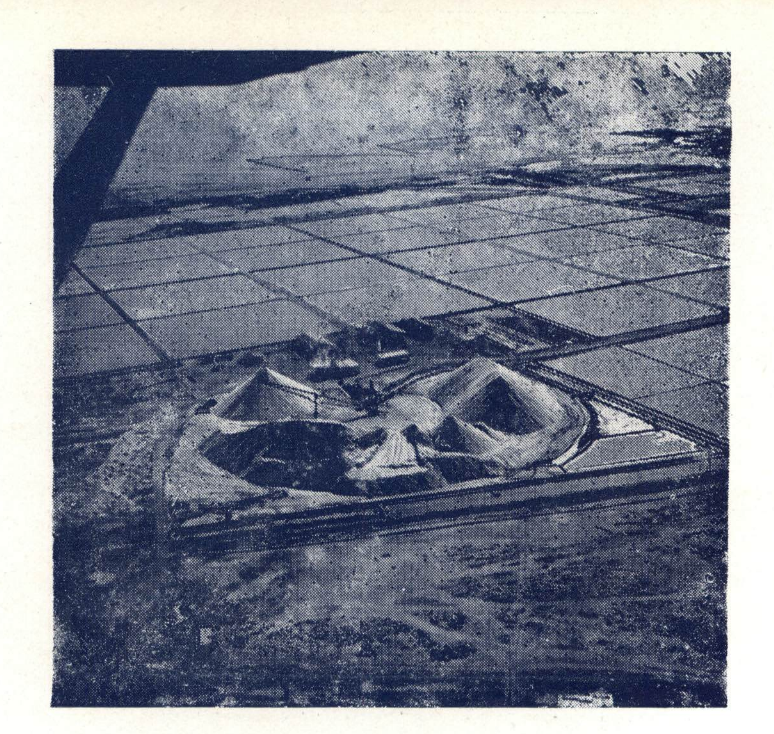


١ - ميناء سوسة

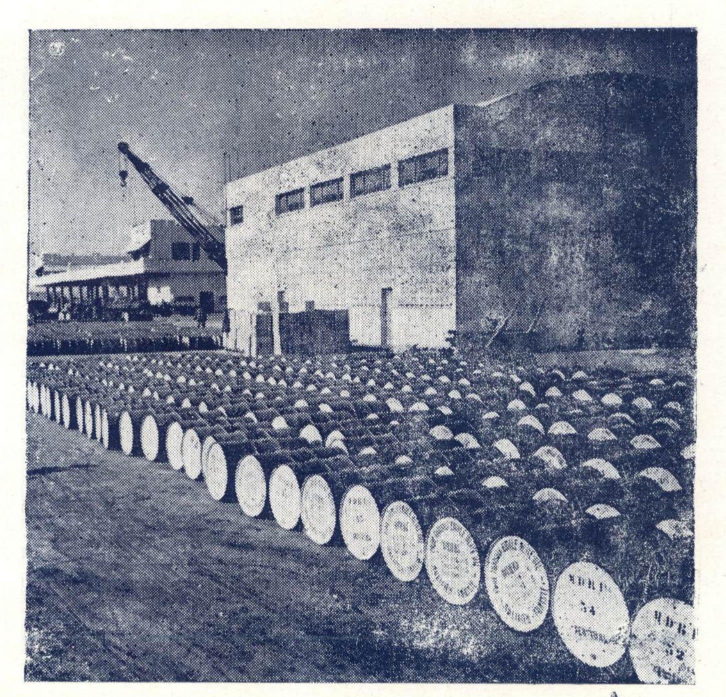




٢ - تصدير الحلفاء بسوسة



١ ـ مملحات صفاقس



٢ ـ وسق الزيت بصفاقس

التمويل او لخلاص جرايات الموظفين او فى صورة قروض ٠

ففى سنة ١٩٥٥ بلغت نفقات الدولة الفرنسية بتونس ٢٠ مليارا وبلغ مقدار القروض ١٥ مليارا ٠ واما التمويلات الخاصة بين ١٩٤٧ و ١٩٥٥ فقد بلغت ٦٥ مليارا من الفرنكات (بالقيمة الحالية) بينما بلغت التمويلات من الصندوق العام ١٣٧ مليارا من الفرنكات الحالية

نعم ان رؤوس الاموال هذه لا تبقى نهائيا بتونس فبعض رؤوس الاموال المخصصة للتمويلات العامة او الخاصة قد تجتاز الحدود بكل حرية والم تتوقف من ذلك بين ١٩٥٥ و١٩٥٦ ــ فيمكن اذا الاعتداد على الاخص بالنفقات التى تقوم بها الحكومة الفرنسية لتنفخ فى عالم المعاملات حيوية وتمكن من تعديل ميزان خلاصاتنا ــ الا ان تلك حيلة وقتية تتضاءل شيئا فشيئا كلما نقص بطبيعة الحال عدد الموظفين والجنود الفرنسيين

وفى الخلاصة اننا لا نظن ان خلل ميزاننا التجارى لا خوف من ورائه اذ ان الكيفية التى يرتق بها الفتق كيفية غرور تجعلنا دائما رهناء لرؤوس الاموال الفرنسية ــ فخلل يسد بالنفقات الفرنسية فحسب خلل فادح ينبغى التفكير فى علاجه اذا نحن لم نرد الرضوخ من جديد الى تبعية مالية كانت هى السبب فى جميع مصائبنا وكانت ثمرتها نصب نظام الحماية نفسه ٠

ولكن كيف يمكننا اصلاح هذا الثغر ورتق هذا الفتق ؟ فلا يمكننا بدون شك ان نفكر فى التحديد من وارداتنا التجهيزية التى لا تمثل سوى ١٤٪ من المجموع بل قد يتحتم الزيادة فيها لوقاية امكانياتنا الاقتصادية

وانما يمكننا اولا وبالذات التحكم فى ما نستورد من مواد الاستهلاك وفى هيكل صادراتنا نفسه

وليس من الطبيعى فى بلد فى درجة منحطة من التطور ينبغى عليه ان يوجه معظم مجهوده نحو مواد التجهيز التى قد تسنح له بادراك القافلة وتلافى مافاته من الوقت ، ــ ليس من الطبيعى فى هذا البلد ان تمثل مواد التجهيز ١٤٪ من جملة وارداته ومواد الاستهلاك ٥٨٪ منها ــ

وفى هذه النقطة يمكن ان يكون للحكومة اثرها الفعال ــ الا لا يظنن بعضهم اننا اذا حددنا من توريد مواد الاستهلاك قد يزيد مستوى العيش للطبقة الوسطى من التونسيين انحطاطا ، وقد كان من قبل وضيعا منحطا !

لقد شاهدنا ان المواد المستوردة من هذا النوع لاتهم الجماعات التونسية الا بمقدار على انها بالعكس تعمل على خنق التطور الصناعى وحتى الفلاحى للبلاد. فلا علينا ان نخشى من توظيف الاداءات الباهظة لا على مواد الترف فحسب بل وعلى المنسوجات والاحذية والصابون والجبن وبالجملة على جميع ما نقدر على صنعه اما فى الحال او فى المستقبل القريب

وينبغى ايضا ـ وتلك النقطة الثانية ـ ان نعمل فى اقرب وقت ممكن على قلب وضعية صادراتنا بالذات ـ وليس فى الامكان ان نرضى ان تكون فى سنة ١٩٥٥ قيمة الطن المصدر تقدر بقدر ١٢٠٠٠ فرنك بينما يقدر الطن المستورد بقدر ٧٥٠٠٠ فرنك

وتقوى قيمة الطن المصدر بتحويل المنتوجات الخام الى منتوجات مخدومة تامة او نصف التامة . وتؤول بنا المسالة اذا الى مشكل التصنيع الذى طرقناه آنفا على انه ليس الامر ان نتعرف معطيات هذا المشكل للتكوين الفنى بل هو ان نعلم هل الامر ممكن ماديا مع النظام القمرقى الحالى

فعلينا ان نستنير فى هذا الباب لنعلم هل لم تكن وحدتنا القمرقية وحدة وعاء الطين ووعاء الحديد وفى هذه الظروف هل لا نتوقع من مزاحمة الصناعة الفرنسية ان تميت محاولاتنا للتصنيع فى بيضتها

ونقتصر على ان نذكر ان الوحدة القمرقية نعرفها من قديم اذهيئ نظامها بالقانون الفرنسى المؤرخ بالتاسع عشر من جويلية ١٨٩٠ مخضعا الواردات الفرنسية بتونس الى اداء ٨٪ من قيمتها ووقع العمل بها طبقا للقانون الفرنسى المؤرخ بالثلاثين من مارس ١٩٢٨ فاقر هذا القانون فوائد يغنمها شق واحد وكانت البضائع الفرنسية تدخل تونس بكل حرية . فمحقت هكذا كل نية ولو طفيفة فى تصنيع البلاد . لقد كان الاقتصاد الفرنسى ـ ويا للمهزلة المنطقية! يحتمى من المزاحمة التونسية فحدد من كميات بعض المنتوجات التونسية المرسلة الى فرنسا كالخمر والتبغ وجعل الدخول حرا بالنسبة للمنتوجات التى لا خوف منها اوما كان منها ضروريا لازما . واتى قانون الابادة هذا بثمرته ، ويدين له الاقتصاد التونسى بهذا الشلل الصبيانى الذى لم يتمكن ان ينقه منه .

وانه من العجيب ان نلاحظ انه كفى ان تاتى حرب ١٩٤٠ لتخمد هذا النظام « النافع المفيد » لكى نشاهد بين عشية وضحاها ان الصناعة التقليدية نفقت

بعد ما كانت سوقها كاسدة والصناعة انتشرت وصار ميزاننا التجارى ذا فواضل لفائدتنا ! وبقيت هذه الامتيازات القمرقية حتى ٢٨ ديسمبر ١٩٥٥ حيث وقع بباريس بعد مفاوضات عسيرة على اتفاقية قمرقية جديدة بين تونس وفرنسا(١)

وهذه الاتفاقات المنصوص عليها فى اتفاقيات الحكم الذاتى المقرر فى ٣ جوان ١٩٥٥ (الفصل ١٢ من الاتفاقية الاقتصادية والمالية) اداة تطبيق اكثر مرونة اذ للجنة المشتركة المخصصة بضبط الاتفاقية القمرقية « فى كل وقت ان تكلف بطلب من احدى الحكومتين بعرض التعديلات التى يستلزمها تطور الاقتصادين» (الفصل ١٢ من الاتفاقية الاقتصادية ٣ جوان ١٩٥٥)

فتلك امكانية تطور ناشط وتحسين مستمر لاباس بها على الا يبقى هذا التصريح المتموج الالوان عديم المفعول فى الواقع ـ

ويلوح فى بروتوكول تطبيق الوحدة القمرقية المؤرخ بالثامن والعشرين من ديسمبر بعض الاهتمام بحماية الصناعة التونسية سواء من المزاحمة الفرنسية او الاجنبية عن الوحدة : «ويمكن اقرار بعض التعديلات الموقتة باتفاق الطرفين لنشر انتاج محلى (صناعى وفلاحى) من شانه ان يهم كافة البلاد المعنية بالامر»

ولهذا الغرض قد فكر فى عدة وسائل لوقاية الصناعة التونسية اما بتوقيف التعريفات القمرقية كى تتزود من الخارج بازهد ثمن او بالتحجير التام او بتحديد الكميات الواردة التى من شانها ان تزاحم الانتاج المحلى (ملح ، بيرة، اكواب الشاى ، مفرقعات، صابون ، اغشية من الكاغد والورق المقوى) مزاحمة خطيرة او بتوقيف العمل بالمعاليم القمرقية عند الخروج من فرنسا بالنسبة للبضاعات الضرورية اللازمة لبعض الصناعات الصغيرة (السكر المعد لمعامل المعجون ، النيلة المستعملة فى المصانع ، الزيوت الحامضة او الهدروجينية المستعملة فى المصابن)

ولا يسعنا الا ان نحبذ هذه التدابير الحكيمة ، على انها قد يؤاخذ عليها مؤاخذة خطيرة لكونها لا تهم الا وقاية النواة المحتشمة من الصناعة الموجودة الآن .

---

(١) انظر « بروتوكول تطبيق الوحدة القمرقية التونسية الفرنسية » بقلم ش ٠ ١ ٠ دالنق فى نشرة المجموعة العامة للتجارة والصناعة اكتوبر ـ نوفمبر ١٩٥٥ ص ٧١١ ـ ٧٢٨ و «الوحدة القمرقية بقلم ج٠ دى برنيس (الاكسيون) ٣٠ جانفى ١٩٥٦

ولا يمكن المستقبل الصناعي بتونس ان يقتصر على معامل المعجون او المصابن . وسلم طموحنا وامكانياتنا الصناعية اوسع من ذلك وافسح ـ فان لم تتخذ وسائل للوقاية محددة في الزمن وفي المادة لتمنع الاقتصاد التونسي الضعيف وتحصنه من الضغط المرهق الذي تقوم به الدواليب القوية للصناعة الفرنسية لم يكن في الامكان ان تنشا صناعات جديدة وستبقى الصناعة التقليدية ضئيلة في سباتها وسيبقى اقتصادنا اقتصاد بلاد مستعمرة ـ

فكيف يكون في الامكان مثلا ان تزدهر مشاريع معتبرة للنسيج اذا كانت البلاد التونسية تتصل دائما بكل حرية وبدون تضييق قمرقي بالمنسوجات التي تنتجها الصناعة الفرنسية العصرية المجهزة اتم التجهيز ؟

وقصارى القول لا يكفي ان نحمي الموجود فحسب ، بل من اللازم حماية ما في الامكان احداثه وما لا يمكن احداثه الا اذا اتخذت التدابير الحتمية لحمايته وانه لمن الممكن ان يحقق هذا الشرط الاساسي لتصنيع بلادنا ضمن الاطار المطاوع المرن للاتفاقات الحالية

على انه اذا اظهر ان لهذه الاطارات مالها من القساوة والضغط فما علينا الا ان نتخطاها لا لاننا نجد فيها بقايا اتفاقات تخلفت اليوم شوطا ببروتوكول ٢٠ مارس المقر للاستقلال بل لان احياء ثرواتنا واحياء بلادنا احياء منطقيا ذاك هو الامر الحيوي الذي علينا اعتباره بقطع النظر عن سائر الاعتبارات . ولكن هذا الاحياء نفسه يرجع بنا دائما الى العنصر البشري

ومن من شانه ان يتمتع بالنظام الجديد الذي استتب بالبلاد التونسية ومن كان العامل لانشاء هذا النظام هو انسان اثقلت كاهله شواغل اجتماعية مرهقة

البـــاب الاول

تكويــن النشء

١) نحــو اتجاه جديد

ان الاقتصاديين الفطاحل الذين انكبــوا ومازالــوا ينكبــون على المشاكــل الاقتصادية والاجتماعية بالبلاد وقفوا على اخلال خطيرة فى كافة الميادين وهى تابعة لنظام اثرى البلاد التونسية وافقر التونسيين

ولذا يتحتم على تونس التى ملكت اليوم زمام نفسها وسيطرت على امرهــا ان تدخل التونسيين من جديد فى دورة الاقتصاد الوطنى ـ ولابد ان تعــود للمجموعة التونسية جميع الثروات التابعة للارض اوما تحت الارض التى وقع انتزاعها لفائدة قياصرة الاستعمار

الا ان تونس اذا عقدت العزم على استغلال الخيرات التى ازيحت عنها لفائدتها نفسها ولفائدتها وحدها واذا هى عزمت على ارجاع مناجم الفسفاط والحــديد والرصاص واراضى الاستعمار الخصبة الى مالكيها الطبيعيين يتحتم عليها ان تعتمد على اناس اكفاء قادرين على استغلالها حق استغلالها

ومن الواضح ان نزع صبغة الاستعمار يستدعى حتميــا ليس فحسب ابقاء مستوى الانتاج الحالى بل احياء الامكانيات الوطنية احياء منظما متواصلا

وان نتيجة هذه المعركة الحيوية لتتبع قبل كل شىء تكوين الرجال

فلذا نحن نوافق بدون اى احتراز على ما صرح به منذ بضعة ايام فى حــق

فرنسا مقيمها العام سالفا بالمغرب جلبار (قرانفال) (١) « ان الامة قبل كل شيء هي الرجال •

فمهما كانت امكانياتها التناسلية وموقعها الجغرافي وثرواتها او مزاياها الطبيعية انه لا يكون لها من القيمة الا بقدر ما للافراد الذين وكل اليهم احياء هذه الثروات من القيمة والعزيمة والبراعة » فكل حينئذ مرجعه للانسان والانسان سيكون على نسبة وافرة ما كونته الثقافة التي لقنها •

فلذا نشاهد كاصل لكل نهضتنا وكاساس لجميع ما يشغل بالنا المشكلة الجوهرية التي هي ام المشاكل ، مشكلة بعث التعليم

ومهما كانت وجهة النشاط التي نتجه اليها سواء كان ذلك في الزراعة او تربية الاغنام او صيد الاسماك او الصناعات التقليدية او صناعات الاستخراج من المناجم او التحويل او وسائل النقل برا وبحرا وجوا او الجندية والبحرية والطيرن اي في ما يقوم عليه الهيكل الاقتصادي والاجتماعي والعسكري للامة ان افدح ما ينقصنا هم الفنيون الصالحون وهي الاطارات ذات الكفاءة التي في مقدورها ان تجعل من عظيم مشاريعنا للنهضة القومية حقيقة حية محسوسة ملموسة

فاذا اردنا الا تبقي برامج تجهيزنا وخطط انتشار اقتصادنا حبرا على ورق واذا اردنا ان يظهر استقلالنا في الواقع وان يجعل من بلادنا الصغيرة امة مزدهرة منظمة عصرية انه من هنا ينبغي ان نبدا

وان اتجاه التعليم يلوح هكذا من نفسه ويصطبغ بمعنى جديد •

فقديما في عهد الحماية كانت الثقافة تتبع الشخص ، واليوم لا يمكن تنظيمها الا بالنظر الى حاجيات الدولة ومصالحها

وقديما كان في الامكان ان يتصور غرض التعليم في التعليم نفسه والآن ما هو الا وسيلة وآلة حية في سبيل تطور الامة

واحب من احب وكره من كره ، واذعن لذلك او لم يذعن انصار « الحق في الثقافة » المتعنتون واولياء « غذاء الفكر » الذين يتهمون وجهة النظر هذه بانها « انتفاعية » ، فهم لا يمنعون الامور من اتباع السير الطبيعي وهم لا يصدون التعليم عن الانطباع على الحاجيات الحتمية الحيوية للبلاد

---

(١) الاكسبراس : ٢٦ اكتوبر ١٩٥٦

واذا كانت تونس الجديدة اكثر احتياجا الى المعماريين والمهندسين والاخصائين في الميكانيك وسائقي الطائرات فعلماء الدين والشعراء وهواة «التفكير الخالص» سينحلون من نفسهم في الضباب والغيوم

وكان بدون شك من فائدة نظام الحماية ان يشجع على الارتيـاض العقيـم الذي كان من شانه ان يحول الشباب عن التكوين الفني ، ذلك التكوين الذي لم يكن في حاجة اليه اذ كان يحال بينه وبين مناصب الادارة او التنفيذ في الادارة التونسية ، وحيث كانت الصناعات موصدة ابوابها في وجهه

واما اليوم حيث لم يبق لنا الا الاعتماد على نفوسنا وعلى كفاءتنا الخاصة في سائر الميادين • فيرمي التعليم قبل كل شيء الى سد الثلمة التي ابقتها الحماية اعني الى تكوين رجال شاعرين بالمسؤوليات وبالاعمال التي تترقبهم مستعدين لمواجهتها مواجهة فعالة وفي اقرب الآماد

على ان هذا التكوين السريع العميم للاطارات وللاخصائيين المبني على برنامج عام مدقق مضبوط الآجال يمكنه ان يتماشى مع الدولاب الاعتيـادي للتعليـم الدراسي ، الذي كان معهودا لتكوين الموظفين وخيرة رجال الفكـر • وفـي الامكان القيام بالمهمتين في آن واحد

على ان الشعوب الفتية كلها التي مرت من مرحلتنا الحالية آثرت المهمة الاولى اذ الدولة التي تشيد نفسها تحتاج قبل كل شيء الى البنائين المنشئين فـي جميع الميادين من قاعدة الهيكل الى راسه • والشبيبة التونسية واعية للرسالة التي هي رسالتها في هذا العمل الذي هو بعث الوطن واحياؤه

وهي تعلم انه في كل مكان وفي كل اوان انما الشبيبة هي الخميرة الاصلية والاطار لكل نهضة قومية ـ وهي تعلم ان الشبيبة ـ خاصة المثقفة منها ـ هي التي تهذب العامة وتنهضها وتضرب على وترها الحساس وهي التي تكون في الطليعة للسير بها الى تحريرها والى قلب كل مستبعد عنيد ـ وهي تعلم انه في الحركة العميمة البديعة في سبيل القوميات التي اودت في القرنين التاسع عشر والعشرين بكل نظام للضغط الجماعي كانت الشبيبة دائما في الصف الاول ـ

ولم تكن هي لتعلمه فحسب بل امتحنت به اشجـع امتحان • ففـي احلك الايام من ايام المعركة التحريرية والقمع المجرم ، في المدن وفي الجبال ، وفـي المقاومة المنتشرة كانت هذه الشبيبة في ذؤابة النضال ـ فالشبان ، من الاطفال

الى المراهقين ، هاجروا المدارس والمعامل والحقوا بحركة التحرير الوطنى ·ولم يفل العذاب ولا السجون ولا مراكز الاعتقال ولا الرصاص من عزمهم وايمانهم
ولتونس بحق ان ترفع الراس عاليا اذا ما ذكرت شبابها الصاعد

ولكن البعث الوطنى لايقف يوم اعلن بالاستقلال : بل هو يبتدىء ذاك اليوم نفسه

ولذاك الغرض نفسه قرر شباب الامس وشباب اليوم العزم كل فى منصبه على متابعة النضال السلمى للتشييد والتعمير

وهم تلقوا ممن ماتوا لتعيش بلادهم رسالة مقدسة هى ان يعملوا بكل جد واجتهاد نابذين كل انتقاد عقيم ، متقين التظاهر ، ينشطهم ايمان لا ينى ووازع من النفس لايكل ، كى ينهضوا بالتراث القومى ويشيدوا العزة الوطنية وعظمتها —

غير ان هذا الوازع وهذا الايمان لا يكفيان وحدهما ، وفى هذا النضال ان الاسلحة اللازمة هى التكوين الفنى فى جميع مناحى النشاط الاقتصادى والاجتماعى · وما يرغب من التعليم قبل كل شىء هو تزويد النشىء بهذه الاسلحة

٢ — استعراض الماضى

من اللازم قبل كل شىء ان نعدل عن الخرافة الكاذبة التى انشاها مداحو عمل الاستعمار ومطروه وعملوا على بثها بكل خشوع وهى ان تونس قبل الحماية كانت فراغا فكريا وتعليميا وان النور لم يشرق بها الامنذ نزلت بها فرنسا

وهذه الصورة الذهبية لم تكن من سوء حظهم موافقة للواقع ولا يمكن حقا ان يؤرخ عام ١٨٨١ السنة الاولى من عصر التعليم والعرفان
فالبلاد التونسية اشتغلت بالعلوم قبل ذلك فكانت طيلة ٣٠٠٠ عام مشعلا تعاقب عليه بعض من ابهر الحضارات البشرية واشعها نورا — ومنذ الفتح الاسلامى بافريقية اى منذ ما يقرب من ثلاثة عشر قرنا كانت تونس قطبا جاذبا للثقافة الاسلامية يشع نوره على الشرق والمغرب العربى
وليس من اطار عمل كهذا ان نستعرض تاريخ هذا النشاط الثقافى والفنى

ولكنه لا يمكننا الا نذكر ما كان للقيروان وتونس من جليل الاعمال كعاصمتين للفكر والفنون ، زمن « العصور القاتمة الحالكة » ... بالغرب المسيحى

فمنذ العصور الاولى للاسلام تجلى ذوق التونسيين وشغفهم بالعلم والفنون جلاء ساطعا

وجامع القيروان - وهو من اعظم المعالم التى يمكن الاسلام ان يفتخر بها - وقد بنى بعد وفاة النبى صلعم باقل من اربعين عاما يشهد على ما قدمنا منذ ثلاثة عشر قرنا

ويعترف بذلك مؤرخ فرنسى (١) قائلا : « والقيروان صارت بدورها فى القرن التاسع مدينة علم يؤمها الطلبة ويستقرون بها - فيجتمع حول شيوخ علم مشاهير اهل المدينة من عطارين وعملة فلاحين بعد اتمام عملهم منصتين معجبين ، ويقصدهم ايضا للاستماع اليهم طالبو العلم من اسبانيا ومصر وحتى فارس ... وذاع صيتهم مخترقا البحار وباقيا على مرور الازمان .. ومكنت دروس القيروانيين - وخاصة منهم سحنون الذى فسر كتابه المدونة خمسة تفاسير ضخمة (وآخرها مؤرخ بالقرن الخامس عشر ويشتمل على ١٢ جزءا) من انتصار المذهب المالكى انتصارا نهائيا ببلاد البرابرة حتى الاحتلال التركى» وتونس بجامعتها المنشاة بجامع الزيتونه (اواسط القرن التاسع) وآلاف طلابها ومدارسها واساتذتها الاعلام وعلمائها وادبائها وفنانيها وما اتصفت به منذ العهود القديمة من الظرف بلغت شهرة فى محلها . وكانت البلاد التونسية فى عهد الحفصيين مركزا عظيما للثقافة فى عصر كانت الثقافة فيه بغيرها فى سبات عميق . وذكر بعض الرحالة بعد ان زار تونس سنة ١٢٨٩ : «لولم انزل بتونس لقلت انه لم يبق للعلم اثر بالغرب » (١)

وبهذه المراكز العظمى للثقافة الاسلامية وكذلك بمراكز اخرى اقل شهرة كقفصة والمهدية وسوسة وصفاقس سادت شخصيات اشتهرت سواء كان ذلك فى التوحيد او الفقه او الحكمة او التاريخ او الطب او الشعر او الفنون

---

(١) جورج مارسى : «البربرية المسلمة والشرق فى القرون الوسطى» ص٩٢

(١) جورج مارسى : «تونس والقيروان» نشريات «مدن الفن الشهيرة» ص ٩٤

وبين هذه النجوم الزاهرة الساطعة على ممر العصور فاقت اسماء ابن الجزار في الطب وابن رشيق وابن شرف في النقد الادبي وسحنون وابن عرفة في الفقه وابن منظور القفصي صاحب لسان العرب وعدد عديد من غيرهم – على انه يسود الكل من اعلى قامته مؤرخنا العظيم واضع علم الاجتماع الحديث ابن خلدون ويرفعه مؤرخو الفرنسيين نفسهم الى مستوى واحد يضعون فيه حنبعل بين مشاهير الرجال بالمغرب ٠

وقبيل الحماية ببعض عقود من السنوات تواصل النشاط الفكري بالبلاد التونسية هو كما كان في الماضي –

واصلح التعليم بالجامعة الزيتونية سنة ١٨٤٢ وسنة ١٨٧٠ فتابعت القيام برسالتها التثقيفية « وكان بتونس ١٥ مدرسة ثانوية و ١٢٠ مدرسةابتدائية وكان بها ٣٠ استاذا جامعيا مرسما واكثر من ٨٠٠ طالب عالم ولم يكن حظ الآفاق اقل فكان عدد من المدارس الثانوية بسوسة والمنستير والقيروان وصفاقس وجربة وقابس والكاف وباجة وبنزرت وقفصة يرودها عدد من الطلبة قدره ١٢٠٠٠

وما منقرية ليسلها مدارسها الابتدائية«هذا ماخبر به المؤرخ ابن ابيضياف المعاصر لتلك الفترة » وكان التعليم بسائر الدرجات مجانيا تماما واختصت تونس وحدها ما يقرب عن ٢٢ محلا للطلبة تشتمل على ٥٠٠ بيت تخصص مجانا لايواء المعوزين من الطلبة

وسنة ١٨٧٥ افسح الوزير خير الدين في اطارات جامعة تونس وزاد في عدد المدرسين بالمدارس الثانوية بالآفاق وانشا بتونس مكتبة عمومية كبرى٠ وفي الثالث عشر من جانفي من السنة نفسها اسس المدرسة الصادقية وكانت تشتمل على فروع ثلاثة كان على التلميذ ان يحضر دروسها في آن واحد ، ١) قسم التعليم الثانوي للعربية (آداب) ٢) قسم العلوم التشريعية ٣) قسم اللغات الاجنبية والعلوم الصحيحة (حسابيات وطبيعة، وكيمياء وعلوم طبيعية) والتاريخ والجغرافية وقوانين سائر البلدان – وينص الفصل الخامس والاربعون من الامر المؤسس للمدرسة على انه بين فترات الراحة يجب اشغال التلاميذة بتمارين رياضية وتدريبهم على السلاح الابيض ٠

وخصص طبيبللمدرسة – وكان التعليم مجانا بالنسبةللبياتة وللخارجيين

ووقت الاحتلال العسكرى لبلادنا كان نحو ١٢ طالبـا من التونسييـن من مكفولى المدرسة الصادقية يزاولون تعلمهـم بباريس بليسى سان لـوى قصد الترشح للمدارس العليا وللمهن الحرة

وكان هناك نحو العشرين مدرسة (ايطالية او فرنسية) تابعة للكنيسـة تلقن من التونسيين من يريدون التثقف بالاساليب الغربية

وقصفت هذه النهضة العجيبة بمعاهدة المرسى سنة ١٨٨٣ ـ فالفصل الاول من هذهالمعاهدة يكل الىفرنسا مع ماليتنا العامة الاشرافالادبى علىمجتمعنا(١)

وهكذا بدا ـ بالرغم عن صلاح اساتذة عدة يشرف الجامعة الفرنسية ماجبلوا عليه من افكار حرة ـ بدا هذا الضغط الثقافى الذى ظهرت آثاره مـدة خمس وسبعين سنة فى شتى الميادين « وقضى على اللغة العربية بدون نزاع اذ كان من شانها ان تحفظ للشعب التونسى شخصيته وان تبعث على تقويتها وفـى ذلك ما يعرض لاستعمار البلاد صعوبات كاداء ـ

ومنذ ١٨٨١ غلل التعليم القومى بعراقيل حكومية لاتلين ..

ولم يخصص دانق من مال الدولة او من مال البلديات للتعليم العربى فالتجا الى وسائله الخاصة

... وما هى الا فى سنة ١٨٩٦ بعد معركة حامية الوطيس شنها العنصر المثقف بتونس حيث سمحت الحكومة لجمع من شبان التونسيين ان يستجدوا الشعب وان يؤسسوا معهدا للتعليم الابتدائى العربى الفرنسى وهـو معهـد الخلدونية .

ورضخت الحكومة لهذا الضغط نفسه فاضافت الى برنامـج بعض المـدارس الابتدائية الفرنسية دروسا ابتدائية للعربية ، الا ان هذا التعليـم كانت لـه

---

(١) مقتطف من «تونس الضحية» المنشور سنة ١٩٢٠ ـ كتابلم يذكراسم مؤلفه ويعزى الباب الخاص بالتعليم ص ٣٣ الى ٥٠ والـدى الصادق التلاتـلى (١٨٧٣ ـ ١٩٥٠) وكان اذاك متفقدا للتعليم العربى الابتدائى ـ فبصفتهتلك اولا ثم كمقرر لميزانية التعليم العمومى بالمجلس الكبير قد دافع طيلة خمسين عاما على قضية بث التعليم بالبلاد ونشر العربية فى وقت كان فيه للنضـال ما فيه من الصعوبات (انظر مجلة التعليم العربى فيفرى ١٩٣٠)

صبغة التعليم الاختيارى كدرس للغة اجنبية اذ لم يوزن له وزن فى امتحانات انتهاء التعلم » (١)

وكانت الحياة المدرسية والجامعية للبلاد التونسية فى عهد الحماية نضالا مستمرا تتوالى فيه المطالب السلمية واعتصابات الطلبة والاساتذة والمظاهرا تبما اعتادت ان يصحبها من القمع الدامى ومن عسف الشرطة والسجن كى تنقذ الشخصية التونسية شيئا فشيئا من الادماج الاستعمارى الذى امل ان تغرق فيه

* وكم مرة شوهد طلبة جامع الزيتونة يتظاهرون بسلام مطالبين بمجاراة برامجهم للعصر وتحسين محلات درسهم وسكناهم فيلاقيهم الجنود برصاص بنادقهم تاركين عددا من الاموات على بلاط انهج تونس ؟ ان شبيبة الطلاب التونسيين عند مدافعتها قدم بقدم على التراث الفكرى للبلاد هى تعلم انها تدافع عن روح الشعب نفسها « تلك التى يبقى بها الشعب هو هو وان فقد استقلاله » تلك التى يسميها فلاسفة الالمان «فولكسخيت» وتربطنا ربطا متينا غامضا بالمجموعة القومية ولو كانت الظروف تعبث بها عبثا

وقد وقف عزم خيرة التونسيين عرضة لهذه السياسة المخادعة التى ترمى الى الادماج بفرنسة التعليم ونبذ العربية نبذا

وابى الاستعمار ان تذكر له تربية وثقافة سوى التربية التى يقوم بها فى « اراضيه » . فقص من الميزانيات الدراسية حتى الميزانيات التى ليست تابعة للدولة كميزانية المدرسة الصادقية التى كانت تزودها احباسها — واخذ من اوقاف هذه المدرسة قدر ٨٠٠٠٠٠ فرنك من الذهب اشترت بها الدولة التونسية سنة ١٨٨٩ مدرسة سان شارل الثانوية التى كانت تحت اشراف الاباء البيض فجعل منها الليسى الصادقى اولا ثم حول اسمها سنة ١٨٩٣ الى الليسى كارنو

وكذلك فعل بالمدرسة الثانوية للبنات ولعدة معاهد تدريسية اخرى

وكما جرى العمل فى الطرقات والسكك الحديدية وكهربة البلاد ان المدارس المشيدة من الميزانية التونسية اختارت قبل كل شىء مناطق الاستعمار

« واشيدت مدارس لاحظ لنا فيها كثيرة العدد فى مراكز الاستعمار فبقيت

---

(١) عين المصدر ص ٣٩

مغلقة لقلة التلاميذ اذ لم يكن فى المركز حتى ذلك الوقت ساكن افرنسى ـ وعشنا فترة جهل حالك تواصلت حتى سنة ١٩٠٨ • وبعد مضى ٢٧ سنة من انتصاب الادارة الفرنسية امكننا ان نعد عددا من التلامذة لا يبلغ ٣٠٠٠ تلميذ يزاولون التعليم فى مدارس الحكومة » (١)

وحوالى ١٩٢٠ كان عدد التلامذة المسلمين ١٠٦٩٠ بينما كان مجموع التلامذة اربعة اضعاف هذا العدد واذا كان التعليم مضيق التقسيط واذاكانت الثقافة لم يكن ليعتبرها « ارباب النفوذ » صالحة للاصدار لفائدة «الانديجان» اهل البلاد فان البرامج قد غربلت غربلة دقيقة او كما كان يقال فى عهد الطزار بروسيا « غسلت ببيض الحوت »

والمدرسة الصادقية بعد ماكانت فى الاصل غرسا لخيرة التونسيين صارت معملا لصنع المترجمين ومستكتبى الادارة • واجتهد فى تكليف المعلمين الفرنسيين «المستعربين» بتلقين العربية ـ واختزل التاريخ القومى اختزالا او صور بصورة مشوهة ـ وابقيت الزيتونة باساليبها العتيقةالكلامية زعما منهمانه لم يلتجا الى ذلك الا احتراما للتقاليد •ولم تفتح ابواب المليسى كارنو الا بمقدار فى وجوه التونسيين واما الاندراج فى سلك التعليم العالى فمما نصح حثيثا فى هجره (٢)

على ان احسن وسيلة تمنع من تكوين نشاة مثقفة باللسانين وتستاصل الخطر المتجسم فى المثقفين التونسيين الذين وردوا من منابع الحرية الغربية كانت ان توصد ابواب ادارة بلادهم فى وجوههم ايصادا محكما ـ ودامت المعركة سنين كى يقبل التونسى كدخيل غير مرغوب فيه فى تلك القلعة ـ ولا يمكن زاعما ان يزعم ان قد عومل هناك معاملةالكرام ـ وكان المثقفونالبطالون ادهى خطرا لصفو الاستعمار فتحوشى الخطر بانجعل منحاملى الشهائد الجدد

---

(١) « تونس الضحية » : التعليم ص ٤٤

(٢) لقد نصح المقيم العام بيرتون سنة ١٩٣٦ الى بعض التونسيين الذين اخذوا وجهة الترشيح للاستاذية بفرنسا ان يقلعوا عن وجهتهم ذاكرا انه لن يقبل ان يدرس التونسى لابناء الفرنسيين التاريخوالجغرافية او لسان بلادهم ومن سوء حظه كنا عددا قليلا من التونسيين لم ننتصح بنصائحه

العجلة الخامسة لركاب الدولة ـ ومما شوهد تونسى خريج مدرسة الفنون العديدة بوليتكنيك يراسه مدير فرنسى لا يحمل اكثر من شهادة البكالوريا، وشوهد واحد من المهندسين الاول التونسيين يطرق جميع الابواب طالبا التشغيل فضاعت مساعيه سدى ـ ويعجب بعضهم اليوم ـ تعجب الملائكة من كون البلاد التونسية بنقصها الفنيون ! بل لم يكف عزمهم على غلق الادارة فى وجه التونسيين بل عقدوا ايضا العزم على غلق باب المحاماة (١)

فظن هكذا انه اغلقت الابواب فى وجوه حاملى الشهائد ينضب معين التعليم ويوقف هذا التيار فى طلب العلم الذى يحرض القرآن نفسه عليه ٠

وان يجعل النور تحت المكبة فذاكحساب خاسر ! ولمينجح ذاك العمل ابدا فكان الضغط من طرفالفكر العام التونسى وقد توقد احساسا وطنيا ومن طرف بعض الاوساط الحرة الفرنسية ومن بعض الجنود العظام الذين ناضلوا فى سبيل رسالة التعليم بتونس ، ثم فيما بعد من طرف الاوساط النقابية التونسية ، فرخت الحكومة جنبها ٠ ومنذ ثلاثين عاما تحرك دولاب التعليم ببطء فى البدء ثم تسرع شيئا فشيئا منذ انتهاء الحرب اى منذ عشر سنوات فقط ـ وانتشرت بعض المدارس بالارياف التونسية وتضخم عدد التلامذة وصارت العربية من جديد ـ خصوصا بفضل القسم التونسى الثانوى ـ اللغة القومية وتسلل التعليم التونسى من غياهب الماضى فلاح شيئا فشيئا بوجهه الحالى ٠

لكن من سوء الحظ انالعرقلة المكونةفى السنوات الثلاثين اوالاربعين الاولى من عهد الحماية كونت هوة واختلالا عظيما بين امواج الاجيال الصاعدة وبين بعض المحظوظين الذين سمحلهم بالالتحاق بالمدارس ٠ وبالرغم عن المجهودات الحديثة انه ليرهقنا ثقل العبء الاول ومن سوء الحظ قد حكم علينا بتحمل عواقبه لمدة مديدة اخرى

---

(١) الم يكتب فكتوردى كرنيار ،حامل لواء الاستعمار ،ومن اشاد لهالاستعمار تمثالا : « يحل اهالى البلاد منصبا عادلا فى حجراتنا الفلاحية الفرنسية ، ذلك المنصب الوحيد الذى يليق بهم : منصب الشاوش » ؟

٣ ـ الهيكل الدراسي

ان العدد العديد من الوان التعليم واصنافه التي كانت منتشرة بالبلاد التونسية قد زادت تنوعا وخصبا منذ ان امضيت الاتفاقيات التونسية الفرنسية في الثالث من جوان ١٩٥٥

وما ذاك في الواقع الاخصب نسبي اذ قسمت اسرة التعليم التونسي قسمة مجحفة الى عنصرين عنصر يرجع النظر فيه الى وزراة الثقافة الوطنية التونسية وعنصر صار تحت تصرف الارسالية الجامعية والثقافية الفرنسية

فبقطع النظر عن الاخطار البيداغوجية والثقافية والاجتماعية التي تهدد الشبيبة من هذا التعليم ذي المراسين فمن الحسن ان يدقق مدى ما تتفق به هذه الثانوية في الادارة المدرسية مع بروتوكول ٢٠ مارس ١٩٥٦ اي مع السيادة التونسية

على انه لم يضبط الفاصل بوضوح بين المنظمتين ففي قائمة المحلات المخصصة للارسالية وهي تشمل ٥٧٦ محلا و١٦٥ محلا للسكنى تابعة للتعليم الابتدائي وتسع ليسيات ومدارس ثانوية للتعليم الثانوي والفني لم يضبط كما نص عليه الفصل ١٣ من الاتفاقية الثقافية ما هي المعاهد التي سلمت بصفة موقتة، ومجانا وما هي التي سلمت بصفة نهائية وبصفة ملك خاص . واضف الى ذلك الالتواءات العديدة في كيفيات التطبيق

والاتفاقية التابعة للتعاون الاداري والفني والفصل التاسع من الاتفاقية الثقافية تنصان « ان الحكومة الفرنسية تلتزم ان تجعل على ذمة الحكومة التونسية جميع الاعوان الذين تطلبهم الحكومة التونسية » (الفصل الرابع من اتفاقية التعاون)

ومع ذلك ان عددا كثيرا من وظائف التعليم الابتدائي والثانوي والفني بقيت شاغرة بالرغم عن الرغبة التي اظهرتها الحكومة التونسية لاستخدام الموظفين الفرنسيين كما ينص الفصل الرابع عشر من الاتفاقية الثقافية « انه تنظم في المعاهد التابعة للارسالية لفائدة من يرغب في ذلك من التلامذة تعليم ملائم للبرامج التونسية »

ومع ذلك فقد الغي العمل هذه السنة بالقسم السادس التونسي بمعهد كارنو التابع للارسالية اي انه سيتبع ذلك تدريجيا حذف الدورة التونسية من هذا المعهد

فكل هذه الصعوبات التى يتضمنها النظام الثانوى تحث بحجج بليغة على مراجعة النظر تماما فيما يخص العلاقات الثقافية التونسية الفرنسية على اسس مسايرة لوحدة السيادة ولنظام الاستقلال التونسى

ويمكننا ان نميز بين عديد الانواع التى ينقسم اليها التعليم الذى يتلقاه الشباب التونسى مجموعتين متغايرتين اتم التغاير : احداهما امتداد للماضى وذاك التعليم التقليدى والاخرى متصلة التشعب تزداد دوما حيوية وذاك التعليم العصرى

فالتعليم التقليدى هو تعليم الكتاتيب وجامع الزيتونة • والكتاتيب كانت فى القديم عظيمة الانتشار ،فكانت مدارس قرءانية يتعلم فيها الصغار القرآن ومبادى الكتابة والقراءة مما يؤهلهم للانخراط فى فروع الزيتونة وبالرغم عن كونها هجرت لفائدة المدارس العصرية ان الكتاتيب بقيت يرودها ابناء الطبقات البسيطة او المتدينة وجملتهم تناهز الاربعين الفا (على ان العدد الحقيقى مازال مجهولا) • وبدات حركة التعصير فيها فى اكتوبر ١٩٥١ اذ اضيف الى تعليمها الحساب والاخلاق وحفظ الصحة الخ ••• على ان هذه التجربة بقيت مشكوكا فى نتائجها لما فقد المؤدبون القائمون عليها من التكوين البيداغوجى •

وكانت تجربة المدارس القرآنية العصرية اجدى وانفع • فهى انشاها اولياء التلامذة او بعض المحسنين فسعت فى التوفيق بين الثقافة الدينية التقليدية وبين النظريات العصرية للتعليم سواء كانت ادبية او عملية • وبرنامجها علاوة على كونه يمكن من الترشح لامتحان الدخول الى الزيتونة هو قد اقتفى اثر البرنامج العام للمدارس الدولية الابتدائية ليمكن التلامذة من مجابهة شهادة انتهاء التعليم الابتدائى ومناظرة الدخول للقسم السادس التونسى • ومنذ فقدت هذه المدارس صبغة المعاهد الخاصة وقامت الدولة بمنحها الاعانة المالية برقابتها ازدهرت كبير الازدهار خاصة بجهة صفاقس فكان عدد تلاميذها سنة ١٩٥٥ ما يفوق ٣٨٠٠٠ تلميذ

على ان اعظم معلم للثقافة التقليدية بقى فى الجامعة الزيتونة الجليلة (١)

---

(١) انظر « الشبيبة التونسية والدراسات التقليدية » فى مجلة (ابلا) اكتوبر ١٩٥٦ و (الشبيبة التونسية والدراسات) مجلة ابلا ١٩٥٣

فهذه الجامعة بعديد فروعها الابتدائية والثانويــة التــى نشرت بكبــريات العواصم داخل البلاد تشمل ما يقرب من ١٥٠٠٠ تلميذا وينقسم التعليم فيها الى ثلاث دورات ، الابتدائية والثانوية والعليا

ويقبل التلامذة فى الدورة الابتدائية بالامتحان ويقضون بها اربع سنــوات ثم يتجازون فى نهايتها امتحان الاهلية

والدورة الثانوية ذاتها بتونس بينما الدورة الابتدائية قد تقضى فى فروع داخل البلاد — ومدتها ثلاث سنوات وتكلل بامتحان التحصيل

واما المرحلة الثالثة ، مرحلة التعليم العالى ، فتدوم ثلاث سنوات وختامهــا شهادة العالمية التى تخول لحاملها ان يجابه مناظرة التدريس بالجامع الاعظــم

والجامعة الزيتونية كانت طيلة القرون مصدر الفقهــاء والقضاة الشرعييــن والعدول وشيوخ التدريس العربى • فكانت الحافظة لقــوى البلاد الفكــرية وكان لها صيت عظيم اشع حتى الشرق والغرب حيث كانت الطلبة تتزاحــم وافدة على الزيتونة للانصات الىفطاحل شيوخهــا — واما مادة التدريس فكانت تهم قبل كل شىء علوم العربية (البلاغة والنحو والصرف والادب) وعلــوم الدين (التوحيد وتفسير القرآن والحديث والتجويد) والعلــوم التشريعيــة (الفقه واصول الفقه)

واما العلوم الصحيحة من حساب وهندسةوهيئة وجغرافية فلم تكن تدرس الاعرضا

وفى عهد الحماية ، تفرنست الادارة والتعليم ، على الاقل فى العقــود الاولى فاغلقت الابواب فى وجوه الزيتونيين وعاشت الجامعة فى سبات — لكنها عند تجدد النشاط السياسى واللغوى والثقافــى ، انتعشت الزيتــونــة وطالب تلامذتها منذ ١٩٢٠ باصلاح دروسها فيما يخص المواد المدروسة فيها كالتاريخ والجغرافية وطالبوا باضافة علومجديدة وبارجاعالقيمة لشهاداتهم • فاغمضت الاعين عن هذه المطالبالشرعية الطفيفة فى مشمولاتها ولم يتم اصلاحالزيتونة الاشيئا فشيئا مقسطا تقسيطا وتحت ضغط مظاهرات احيانا دامية

واخيرا ، عقب اضرابات ١٩٥٠ ، وقع الاتفاق على نشر العلــوم الصحيحة يدرسها اساتذة اخصائيون (تابعون للمعاهد الثانوية العمومية) وعــلى ادخال تعليم اللغات الحية ضمن البرنامج وانشاء شعبة جــديدة للتحصيل العصــرى

تشبه الباكالوريا التونسية وخصصت اعانات مالية للتخصص فى كليات الشرق الادنى كى تتكون نواة من المدرسين المخصصين فى المواد الجديدة

ثم وضع امر ٢٩ مارس ١٩٥٦ التعليم الثانوى الزيتونى (الدورة الاولى والثانية) تحت اشراف وزارة الثقافة القومية (الفصل الخامس) وقصر امر ٢٤ افريل ١٩٥٦ الجامع الاعظم الى وظيفة معهد عال بينما اختص التعليم الثانوى بالفروع

ويدرس الحسابيات والطبيعة والكيمياء والعلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافية والفلسفة جامعيون لغتهم العربية تثقفوا بالغرب او بالشرق

وهبت روح جديدة نفخت فى معقل السنة العتيق فبعثت فيه حيوية الشباب (١) — وعاوض المدارس القديمة حى زيتونى عصرى تماما

ووجه الزيتونة الجديد ملائم لصورة تونس الجديدة : وهى تولى وجهها نحو المستقبل بدون ان تنبذ ماضيها نبذا

واما التعليم العصرى فيمكن تقسيمه الى ابتدائى وثانوى وفنى عال

فالتعليم الابتدائى يشمل بتونس عدة اصناف وهناك اولا المدرسة الفرنسية اخت المدارس التى تعترضنا فى كافة البلديات الفرنسية (٢)

وهناك على الخصوص المدرسة العربية الفرنسية وقد كانت قبل مدرسة فرنسية تدرس فيها العربيةفصارت اليوم مدرسة عربية تدرس فيها الفرنسية وسميت اليوم المدرسة الابتدائية العمومية ، وصار للعربية فيها الاولوية بل صارت هى لغة النقل لكافة المواد او هى تحاول ان تصير وسيلة التعبير فيها (٣)

واضف الى هاتين الصورتين من التعليم الابتدائى المدارس القرآنية العصرية التى ذكرناها آنفا والمعاهد الحرة التى يديرها اهل الاديان ولم ينخرط فيها الا القليل النادر (٤)

---

(١) ينبغى ايضا ان نذكر بين المعاهد التقليدية معهد الخلدونية الذى انشىء سنة ١٨٩٦ وعدد الطلبة فيه محدد قليل

(٢) ١٠٥٥١ تلميذا مسلما فى ١٩٥٤

(٣) ١٤٦٢١٢ تلميذا سنة ١٩٥٥

(٤) ١٣٤٨ تلميذا تونسيا وخاصة البنات

واما الامتحانات التى تتوج هذا التعليم الابتدائى فهو على سبيل التقريب عين الامتحانات الفرنسية اى الشهادة الابتدائية وامتحان الدخول للاقسام السادسة على ان هذا الامتحان الاخير يشمل علاوة على الشعبة المعتادة لمن يترشح للتعليم الدراسى او العصرى او الفنى على شعبة تونسية ينخرط فيها من يترشح للتعليم من الانموذج الصادقى

ورجال التعليم الذين عهدت اليهم شتى فروع التعليم الابتدائى قد انشئوا نشاة ثقافية ذات آفاق متباينة متغايرة - فمن حاملى التحصيل الى ارباب الباكالوريا الى حاملى شهادة انتهاء التعليم بالصادقية الى المحرزين على شهادة البروفى العالى المكونين بمدرسة ترشيح المعلمين .

ويكون هذا المعهد الاخير معلمين للفرنسية او للعربية او للسانين - ونظير به بالنسبة للبنات معهد ترشيح المعلمات .

وهاتان المدرستان - اللتان كان عليهما بالطبع ان تكونا جميع الاطارات اللازمة للتعليم الابتدائى - لم يتخرج منهما فى ظرف ثمانى سنين (١٩٤٩ - ١٩٥٦) سوى ٧٨٢ معلما ومعلمة ، وذاك ما يعاد لتقريبا نصف حاجياتنا السنوية من المعلمين والمعلمات .

وفى ذاك ما يبرر ان فتحت وازرة الثقافة العمومية فى جوان ١٩٥٦ مناظرة وظفت اثرها جيشا يعدد ٤٥٦ معلما ومساعدا .

على انه قد يشك فى قيمة هذه الوسائل الاستثنائية من الناحية الصناعية البيداغوجية بالنسبة لمربى المستقبل وقد يتوقف فى الحكم والاختيار بين الكمية والكيفية .

واما التعليم الثانوى فهو عين التعليم الثانوى بفرنسا ، برامجهما واحدة وفروعهما واحدة وكذلك شهائدهما - على انه قد انشئت منذ ١٩٤٤ دورة ثانوية جديدة سميت الدورة التونسية نسخت فيها دراسات المدرسة الصادقية فهذا التعليم مع كونه يكون الشاب التونسى على النظم المعهودة بالمدارس الثانوية الفرنسية يوفر له ثقافة عربية لا باس بها اذ تخصص للدراسات العربية حصة قدرها ثمانى ساعات فى الاسبوع .

ولاقى هذا التلقين القوى المزدوج للسانين بل وحتى للثقافتين اقبالا عظيما من طرف الشباب التونسى .

فتضخم عدد التلامذة بالمدرسة الصادقية من ٤١٠ سنة ١٩٣٩ الى ١٣٥٠

سنة ١٩٥٥ (بادخال فرع خزنة دار) في حين ان تحول التعليم التونسي في عمومه ، بالاقسام التكميلية والمعاهد الثانوية (ومعهد لويزرني مييى هو نظير الصادقية بالنسبة للبنات)من صفر سنة ١٩٤٤ الى ما ينوف ٦٠٠٠ سنة ١٩٥٥

وهذه الدورة ـ التى وافقت حقا الحاجيات التونسية والواقع التونسي ـ توجت بامتحان شهادة انتهاء التعليم بالمدرسة الصادقية (الموافقة لمستوى الجزء الاول من الباكالوريا) او بالباكالوريا العصرية التى سيكون من شانها ان تعوض بالبكالوريا التونسية (١)

وللتعليم الفنى درجتان : درجة ابتدائية ودرجة ثانوية فالدرجة الابتدائية ترمى الى تلقين مباد من شانها ان تكون يدا عاملة من الذكور مخصصة في بعض الصنائع اليدوية (كالبناء والنجارة وعمل المعادن) او يدا عاملة من الاناث موجهة نحو الصناعات التقليدية

ويتم هذا التلقين الصناعي فى شبكة من مراكز للتكوين الصناعى ومراكز لتلقين الصناعات وثلاث مدارس صناعية ـ ومجموع تلامذتها ـ سنة ١٩٥٥ ـ ٥٤٣٩ تلميذا تونسيا (٢٤١٢ من الذكور و ٣٠٢٧ من البنات)

وهذا العدد قطرة من بحر بالنسبة لحاجياتنا وبالنسبة خصوصا للبرنامج المستقبل لاحياء اقتصادنا ـ والى هذا التعليم الفنى بفرعيه الابتدائى والثانوى ينبغى ان نوجه مجهوداتنا وعظيم عنايتنا (٢)

ولم يكن للتعليم الفنى الثانوى حظا وافرا ـ فهناك ثلاثة معاهد فنية ثانوية خاصة معهد اميل لوبى ـ (٣) وثلاث مدارس صناعية وفروع فنية تابعة للمعاهد الثانوية الدراسية • فلم يبلغ عدد تلاميذها سنة ١٩٥٥ الا ١٣٠٧

---

(١) تم هذا التعويض سنة ١٩٥٧ (تعليق المعرب)

(٢) وللتكوين الصناعى السريع للعملة التونسيين الشبان ارسلت الوزارة التونسية للشئون الاجتماعية منذ ١٥ افريل ١٩٥٦ عدد ٧٥٠ شابا الى مراكز التكوين الصناعى بفرنسا

(٣) نقلت تسميته الى « المدرسة القومية الفنية » ١٩٥٧

تلامذة ـ واذا اعتبرنا ما تضمن الامتحانات مـن الرواسب فجملـة الاطـارات المخصصة المكونة فى هذه المعاهد ضئيلة هزيلة جدا

وان هذا النفور عن القسم الفنى والصناعى ليعزى الى عنصرين اساسيين: عنصر نفسانى والاخر واقعى تطبيقى ٠

فالاوساط التونسية الثرية وحتى غيرها لها ـ والحق يقال ـ نفرة طبيعية من المهن اليدوية وحتى الفنية ٠ ولم تكن لتختص وحـدها بذلـك ٠ بل تلك فكرة منتشرة جدا عريقة فى القدم ٠ وانها لتذكر بذاك الكتاب العجيب الذى بعث به احد الكتاب بمصر الفرعونية منذ ما يقـرب من اربعـة آلاف عام الى ابنه ٠ فلم يكن فى ذاك الكتاب اى حظ لاى مهنة يدوية، بل لم يكن صاحب الكاتب ليعجب ويهتز الا لصناعة الادب :

« الم تتصور حياة الفلاح الذى يعمل بالارض ؟ ان قابض الاموال لعلى المرقا كى يجمع العشر من صاباتـه ٠٠٠

ولم يكن ارباب الصناعات اوفر حظا من الفلاح ـ انى رايت الحداد فى عمله امام هوة اتونه ، فاصابعه الخشنة كهنات من جلـد التمسـاح ٠٠٠ والنقاش يقعد القر فصاء ، منذ طلوع الشمس ، فتقسم ركبتاه وظهـره ٠ ٠ ٠ والحلاق يعمل حتى الليل فلا يذوق طعم الراحة ولا يتكـىء الا وقت العشـاء ٠٠ واما البناء ، فانى اذكر لك كيف يرقبه المرض ،اذ هو عرضة للرياح ، يعلوما ليهكل بنائه من عرصات ، متعلقا برؤوس الاعمدة الشبيهة باوراق اللوطوس فتحفى سواعده بالعمل ، ويختل هندامه ويتشعث ثيابه ، ولا يتمكن من الاغتسـال والتنظيف الامرة فى اليوم ٠ واذا احرز خبز يومه اوى الى منزله فيشبع صغـاره ضربا ٠٠ والحائك لا يترك منزله ، وتعلو ركبتاه الى مستوى بطنه ٠٠٠

وساعى البريد حين يغادر الاهل ويتغرب يوصى ، لما يخشاه من الحيوانات الضارية ومن الاعادى ٠ وحين يقفل راجعا الى مصر ، لا يصل جنة داره حتـى يضطر للسفر من جديد ٠٠٠

والصباغ يتضوع من اصابعه ريح كريهة ، ريح السمك النتن ... »

وتطول هذه السلسلة الى يختم الكاتب ملخصا كتابه اثر هذه الصورة التى ليس فيها ما يستهوى الالباب : « انى شاهدت القساوة ، والقساوة فى كل مكان ! لذا اهيب بك ان تجعل لبك للادب . لقد تمعنت من الاعمال اليدوية ، وحقا انه ليس منها ما يفوق الاداب فلذا اريد ان احبب الاداب اليك — وهى امك واولج محاسنها فى دما غك — فهى اهم من جميع المهن — ومن غنم منها منذ نعومة اظفاره انما ذاك المبجل ... »

فليس فى الامكان ان يقال ان فى هذا الكتاب دفاعا حارا على التعليم الصناعى او الفنى — وهذه اللوحة نفسها هى التى فى الامكان ان يرسمها حتى اليوم بعض عدول الافاق او بعض (المثقفين) او (المتثيقفين) !

ولكن ما قضى على هذا التكوين حتى الان هو ان هذا التعليم التطبيقى يعوزه فى الواقع وبالضبط فكرة التطبيق فلم يكن متجها نحو الحاجيات الواقعية للاقتصاد التونسى (١) وما ذاك ايضا الا نتيجة لفقدان الصناعة التونسية فلم يكن لهذا التعليم العالى يتمثل فى معهد الدراسات العليا بتونس وهو حقيقة جامعة مصغرة (٢)

فعند تاسيس هذا المعهد سنة ١٩٤٥ اندمج فيه ماكان موجودا قبل من عناصر التعليم العالى كمدرسة اللغة والاداب العربية (قديما مدرسة العطارين) ومركز الدراسات القضائية الذى كان يمكن من الاستعداد للسنوات الاولى من اجازة الحقوق ، واخيرا مركز التربص للصيدلة .

ومنذ ان ضم معهدنا الوطنى هذه الشعب امتدت فروعه الى سائر ميادين العرفان

---

(١) ينبغى ان يضاف لهذا النوع من التعليم مدرسة الفلاحة بسمنجة

(١) جملة عدد الطلاب سنة ١٩٥٦ : ١٣٤٢ طالبا

فبجوار الاعداد للاجازة للسان العربي وشهادة الدراسات العليا للعربيـة وبجوار اجازةالحقوق يمكنهذا المعهد منالاحراز على عدةشهادات فيالدراسات الادبية وفى التاريخ القديم والجغرافيةوعلم الطبيعة والكيمياء والعلوم الطبيعية والرياضيات وشهادة الطبيعة والكمياء وعلم الحياة الممهـــدة للطب وبعبـارة اوجز مكن هذا المعهد من الاحراز على مجموعة من الشهادات التى يحرز عليهـا بالجامعات الفرنسية

على ان العنصر التونسى لم يكن فيه عديدا اذ كان مجموع الطلبة المسلمين فى جانفى ١٩٥٦ ، ٣٦٢ بين طالب وطالبة ويقسم هذا العدد بيـن الحقـوق والاداب العربية والعلوم • وبقى شباب الطلبة التونسيين يؤثـرون الجامعات الفرنسية اذ يبلغ عددهم بها ٥٠٠، بينما يزاول نحو الاربعين منهم تعلمهـم بجامعات الشرق الادنى •

وبقى معهد الدراسات العليا تحت اشراف جامعة باريز وصـار الامـر امر مستقبل هذا المعهد نفسه منذ وقع على بروتوكول الاستقلال بتاريخ العشرين من مارس ١٩٥٦ اذ نمت فكرة جامعة تونسية ما يتوقف بعثها الى الحياة فـى الواقع الاعلى الاطارات ، حيث من سوء الحظ لا يمكن انشاء الاطارات •

ولنلاحظ اخيرا ليتم هذا الوصف الهيكلى السريع انه يمكننا ان نضيف الى التعليم العالى المدرسة القومية للادارة التى ستغرس فيها بذور اعلى الموظفين التونسيين فى المستقبل، والمدرسةالعليا للفلاحة (قديما : المدرسةالاستعمارية) والمدرسة العليا للتجارة ومدرسة الفنون المستظرفة

٤ ـ المعطيات الكمية

ان مشكلة التعليم بتونس لم يقع بسطها كما يجب لامر فى نفس يعقوب وقد عرض منها وجهها الحسن اى قد احصى عدد التلامذة المقبوليـن بالمدارس ورجى من وراء ذلك ان نسنى روعة ما فى الوجه الثانـى اى مئات الالاف مـن

الشبان الذين لم يكتب لهم ان يلتحقوا بالمدارس فاغلقت الابواب كلها فى وجوههم وحكم عليهم بالانخراط فى سلك مدرسة الشوارع والتعاسة والجهل والشر

ونحن انما تهمنا هذه اللطخة العظمى من ظل الجهالة وذلها المنتشرة على البلاد والمترامية اطرافها على مستقبلها

وانما يهمنا قبل كل شيء ان نعلم الى اى حد قد امكن الوقوف فى وجه الداء وصرعه لا ان نشرف بكل حنان على تقدم حركة التعليم وايواء التلامذة الى المدارس اى على الوسائل التى من شانها ان يقاوم بها هذا الخطب

فكل مشكلة التعليم هناك — ولكن ماذا يجدى ان ننوم برقى الوسائل اذا ما كان الداء اسرع ركضا واشد عدوا ؟

فالداء هو ذلك الجمع الحالك من محرومى التعليم — والمسالة هى ان نعلم هل ازداد عدد هذا الجمع ام هل انتقص ؟

ومن دراسة تطور هذا المنحنى ، منحنى عدد الاطفال الذين بلغوا سن التعليم ، يمكننا ان نقدر صلوحية الوسائل التربوية المستعملة بالبلاد

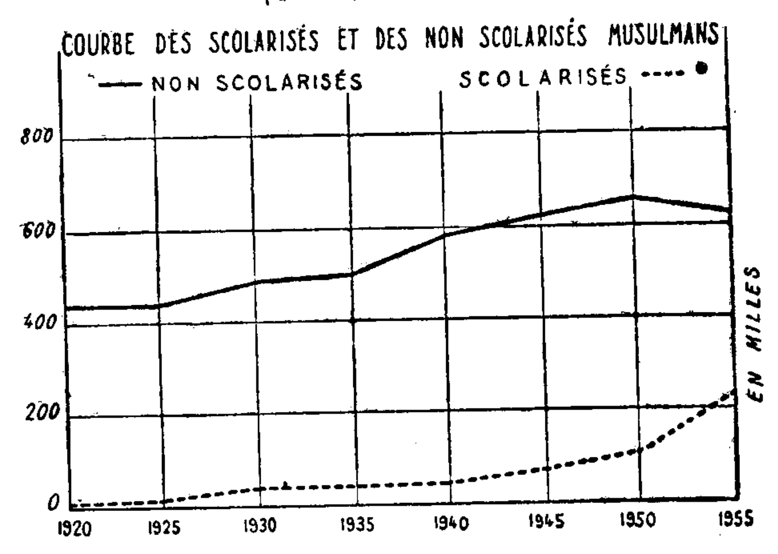
ففى سنة ١٩٥٦ من بين امة مسلمة قدرها ٣٣٨٣٠٠٠ نسمة يعد الاطفال الذين بلغوا سن التعلم — اى من يتراوح عمرهم بين ٦سنين و١٤ سنة — بقدر ٨٤٠٠٠٠ طفل تقريبا • فيمكن لقائل ان يقول ان عدد المترشحين للتعليم يمثل ربع الشعب باكمله فاذا ما اتخذنا هذه النسبة الهيكلية الباطنة التى كانت فى جملتها هى هى وقت الاحصائيات السابقة يمكننا ان نتتبع خطى تطور الجمع المترشح للتعليم ، فاذا طرحنا عدد المرسمين فعلا فى سلك المدارس نتحصل على عدد المعلقين المحرومين من التعليم ويمكن اذا رسم الخط البيانى لهذا التطور •

ويمر منحنى المحرومين هكذا من ٤٤٠٠٠ سنة ١٩٢٠ الى ٦٥٠٠٠٠ سنة

١٩٥٠ بينمايتطور عدد المرسمين بالمدارس اذاك من ١٢٠٠٠ الى ١١٣٠٠٠(١)

منحنى الاطفال المسلمين المرسمين بالمدارس

والمحرومين من التعليم



فالحالة واضحة اذا جلية

كلما غنمت الامية ٢٠٠٠٠٠ منخرط جديد لا يغنم التعليم الا ١٠٠٠٠٠

ولا يستدعى الامر حسابا ماهرا ليتكهن عاقبة هذه المتوالية

كلما مر يوم يزداد عدد ضحايا الجهل ، الذين يكونون عبئا ثقيلا ، بسرعة هى ضعف سرعة تقدم المرسمين بالمدارس

والوقفة الضئيلة ، او الانخفاض الذى وقع بين ١٩٥٠ و ١٩٥٥ (٦٥٠ مقابل ٦١٦) لا يغير ان شيئا من الصورة العامة لهذا التطور مدة ٣٥ سنة

(١)	١٩٢٠	١٩٢٥	١٩٣٠	١٩٣٥	١٩٤٠	١٩٤٥	١٩٥٠	١٩٥٥
الاطفال المسلمون المحرومون من التعليم	٤٤٠	٤٤١	٤٧٦	٥١٠	٥٧٦	٦٣٠	٦٥٠	٦١٦
المرسمون بالمدارس	١٢	٢٤	٣٥	٤٢	٤٧	٦٦	١١٣	٢٢٤
الذين بلغوا سن التعليم (آلافا)	٤٥٢	٤٦٧	٥١١	٥٥٢	٦٢٣	٦٩٦	٧٦٣	٨٤٠

فالمشكلة اذا ان نبحث عن اسباب العلة المتفشية الزاحفة وصار من الحيوى ان تجندل وتصرع

والاسباب بسيطة جدا ناجمة عن الاحصائيات نفسها

ولم يتم بعد ضبط نتائج الاحصائية العامةلسنة ١٩٥٦ ولكنهم يقدرون عدد المواليد فى السنة بقدر ١٢٠٠٠٠ وعدد الاموات بقدر ٦٤٠٠٠

اى ان ميزان الولادات والوفيات يرجح سنويا بقدر ٥٦٠٠٠ حسب اخصائيى الاحصائيات ، وينبغي ان يضاف الى ذلك ٩٠٠٠ ولادة لم يعلم بها(١) فيكون قدر الرجحان السنوى ٦٥٠٠٠ ويكون من الخطل ان يعتمد هذا الرقم لضبط برنامج لبعث الاطفال للمدارس

انما المهم هوعدد الاطفال الذين يبلغون السنة السادسة ويريدون ان تفتح امامهم ابواب المدارس ويقدر هذا العدد بقدر ٩٠٠٠٠ — نعم انه يبقى من ١٢٩٠٠٠ ولادة ١٠٠٠٠٠ طفل يبلغون السنة الخامسة • فلفض مشكلة التعليم ينبغي اذا ان يرسم فى المدارس ، علاوة على المخلف الذى قدره ٦١٦٠٠٠ طفل محروم ، ٩٠٠٠٠ من صغار التونسيين يبلغون كل سنة سن التعليم — هذا فيما يخص الحل الراهن المتاكد — او اذا اريد ان يضحى بالمخلف ينبغي ان تفتح المدارس سنويا فى وجه ٩٠٠٠٠ من التلامذة الجدد — فيتم حل المشكلة تقريبا فى ظرف تسع سنوات اذ يتجاوز اذاك المحرومون من التعليم سن التعلم — ونقول « تقريبا » اذ فى ظرف ٩ سنوات لم يكن عدد الولادات هو هو بل هو قد يزداد ازديادا فادحا ، بين امة متكالبة على التناسل ،مما جعلها تضاعف عددها كل ٣٥ سنة — فاذا اعتمدنا زيادة منظمة قدرها ٢٪ — وذاك ما يوافق الواقع تقريبا — ينمو عدد المترشحين للمدارس نموا منظما يصل بنا سنة ١٩٦٤ الى عدد ١٠٧٨١٧ شابا مترشحا للتعليم اى معدل سنوى لهذه الفترة يقارب ١٠٠٠٠٠ تلميذ جديد كل سنة

وهذا هو الرقم الذى ينبغى ان نعتمده فى جميع المشاريع التابعة لنشر التعليم فى العشرة اعوام المقبلة •

فما هى اذا السرعة المستعملة اليوم لايواء الاطفال بالمدارس ؟

---

(١) لبيدى : « الاقتصاد التونسى » ص ١٩

انا اذا اعتمدنا معدل العشر سنوات الماضية نرى ان هذا العدد يبلغ بالنسبة للعنصر الاسلامى ١٢٨٠٠ فى السنة – وامكن فى السنوات الخمس الاخيرة الاسراع بذلك حتى بلغ ١٦٠٠٠

وتعلقت همة الحكومة التونسية هذا العام ببذل مجهود عظيم فازداد عدد التلامذة بقدر ٢٥٠٠٠ وذاك مجهود يذكر فيشكر خصوصا اذا نظرنا الى وسائلنا الضعيفة من الناحية المالية ومن ناحية رجال التعليم .

ولكننا بالرغم عن ذالك مازلنا بعيدين كل البعد عن عدد الذين بلغوا سن التعليم وبقى الفرق عظيما مزعجا .

ولقهر كارثة الامية ليست الا وسيلة وحيدة ناجعة هى ان يفوق عدد التلامذة الجدد عدد الصغار الذين بلغوا سن التعلم

فالامر اذن ان نستعد لايواء ١٠٠٠٠٠ تلميذ جديد كل سنة ومن سوء الحظ ان مشروعا عظيما كهذا يتطلب اشادة ٢٠٠٠ قسم جديد كل سنة وتكوين ٢٠٠٠ معلم جديد ليبتلع جملة ميزانيتنا ابتلاعا .

فصار من الواجب التفكير فى حلول قريبة من متناولنا وليس علينا ان نخشى ان نتخذ وسائل عامة قد تلوح ثورية لمن شغف من رجال التعليم بالنظم التقليدية وبالسنن المعهودة .

على انه علينا قبل ان نخوض فى هذا المتجه ان نرتب بعض المظاهر الاخرى من المشكلة التدريسية .

لقد ذكرنا تخنزر المحرومين من التعليم واما الشباب الذى منح التعليم فما هو عدده وكيف يتوزع على دورة التعليم ؟

فمن مجموع التلامذة الذين بلغ فى نوفمبر ١٩٥٥ عدد ٢٩١٠٠٠ كان عدد التلامذة المسلمين ٢٤٤٢٠٨

وبالنظر الى مجموع الشبان الذين بلغوا سن الدراسة وهم ٨٤٠٠٠٠ يمثل عدد التلامذة نسبة ٪ ٢٦ اى اننا اذا وجدنا ٢٦ طفلا مسلما يزاول تعليمه نجد بجوارهم ٧٤ يجوبون الشوارع .

نعم ان التقدم فى هذا الباب قد كان محسوسا اذ كان عدد المحرومين لعشر سنوات مضت يبلغ نسبة / ٩٠

ولكن اذا نظرنا بين هذه النسب التابعة للاطفال المسلمين وبين مايقابلها

بالنسبة الى غيرهم كانت الهوة عظيمة وازداد الامر تفاقما كلما صعدنا في سلم التعليم . ففى الدورة الابتدائية تبلغ نسبة التونسيين المسلمين ٪ ٢٢ من مجموع الاطفال الذين بلغوا سن الدراسة (عدد التلامذة ١٩٢١٥١) بينما نسجل ١١٠٢٠ تلميذا يهوديا من جملة ١١٣٠٠ طفل اى ان النسبة تقرب من ٪ ١٠٠ وسجل ٤١١١١ تلميذا اوروبيا من جملة ٤٣٧٠٠ طفل وتلك تقريبا عين النسبة السابقة .

وفى الدورة الثانوية من جملة ١٥٥٧٤ تلميذا يزاولون تعلمهم بالليسيات والمدارس الثانوية والاقسام التكميلية نجد ٦٤٧٤ طفلا مسلما و ٨٧٢ بنتا (بقطع النظر عن الميدان الفنى الذى جمع فيه ١٣٠٧ تلاميذ مسلمين) . اى ان معدل التلامذة المسلمين الذين امكنهم اجتياز عقبة امتحان الدخول للاقسام السادسة هو على نسبة واحد من ٢٧ تلميذا سجلوا بالتعليم الابتدائى .

واما التعليم العالى الذى هو يتوج الهيكل كله فنتائجه بالرغم عن وثبته فى السنوات الاخيرة مازالت ضئيلة فاترة تحبط الامال .

والبلاد التونسية التى بلغ عدد سكانها المسلمين ٣٣٨٣٠٠٠ نسمة لايتجاوز عدد طلبتها ٨١٢ — نعم ٨١٢ — بينما يجتمع للاوروبيين وعددهم ٢٥٤٠٠٠ واليهود وهم ٥٧٠٠٠ عدد من الطلبة قدره ١٠٦٢ (١) — فبعبارة اخرى ان غير المسلمين من السكان بتونس الذين يمثلون جزءا من اثنى عشر جزءا من السكان المسلمين لهم من الطلبة اكثر من المسلمين بكثير .

فهل فى الامكان ان يوضح باكثر جلاء افلاس نظام التعليم الذى لم يقتصر على كونه ضحى بثلاثة ارباع الشبيبة التونسية بل هو عدد العقبات المادية وحدد من عدد المعاهد الثانوية بحيث بلغت تونس بعد ٧٥ سنة من « رسالة تمدينية » الى رقم قياسي جعل لها فى الجملة والكل فى الكل (اى بادخال معهد الدراسات العليا والكليات الفرنسية) ٨١٢ طالبا بينما لو طبقنا النسبة التى خصصت لغير المسلمين لكان لنا ١٤٨٠٠ طالب ؟

وتلك نتيجة تستغنى عن الشرح تمكننا من الحكم على صلوحية العمل الدراسى — وليس هذا العمل فحسب فصلا معدا للدعاية يعتمد فيه على

---

(١) نستمد هذه الارقام من ارقام التقرير الاقتصادى للمؤتمر الوطنى السادس للاتحاد العام التونسى للشغل من ٢٠ الى ٢٣ سبتمبر ١٩٥٦ ص ٨١

الخرائط المصغرة والتصميمات والتمثيل البياني للتنويه « بالعمل الاستعماري» وتبرير وجوده . بل فيه رهينة مستقبل الاجيال الصاعدة اى انه فى الواقع يقر مثال البلاد نفسه ـ فكيف يمكننا ان نتحمل هذه الخيبة وهذا الافلاس ؟

وكيف نتحمل ان ٩٦٪ من جملة المسلمين الذين يزاولون التعليم يقفون فى مستوى الشهادة الابتدائية ؟

وكيف نتحمل الايكون ولو ثلاثة من الطلبة بالنسبة لكل ١٠٠٠٠ ساكن ؟ (١)

وهل بعد هذا يمكن حقيقة ذكر التعليم والثقافة والعمل المدرسى ؟

فلم يكن همنا فى هذا الشان تكوين شواش حاملين للشهادة الابتدائية بل كان الامر كل الامر تهيئة الجموع الغفيرة من الرجال الاكفاء الذين تحتاج اليهم تونس كل الاحتياج والذين يعوزونها اليوم امر الاعواز

الا ان هؤلاء الرجال كانوا خطرا ووبالا على النظام الاستعمارى ولم يكن من حسن السياسة البعث على الاكثار منهم .

ولكى يطمئن هذا النظام وكى ينعم براحة البال جعل قامع بين التعليم الابتدائى والتعليم الثانوى يوقف عامة التلامذة والعمل المدرسى الذى تبجح به وافتخر به فى صلب الكتب انما كان فى الواقع دولابا عظيما لانتاج حاملى الشهادة الابتدائية .

وفى هذا الميدان ميدان التعليم ، كما كان الشان في سائر الميادين حيث اوصدت الابواب وصدا سواء فى الصناعة او فى الوظيفة العمومية وجدت الدولة التونسية الفتية نفسها امام حالة عسيرة عديدة الصعوبات متشعبة العقبات ، وهنا القى على عاتقها عمل جبار ومجهود مرهق اشد ارهاقا منه فى سائر اقسام الحياة الدولية . فبوسائل مالية وبشرية محدودة جدا صار عليها ان تسد فراغ الماضى وان تكون بالتبع للحاجيات الاقتصادية والاجتماعية ذالك الذخر العزيز المقدس الذى هو الشباب التونسى .

---

(١) ما زالت التشجيعات الرسمية للطلبة المعوزين ضئيلة ـ وقد لاحظ مدير معهد الدراسات العليا الم . روش فى خطاب افتتاح السنة فى ١٥ ديسمبر ١٩٥٦ انه فيما يخص سنة ١٩٥٦ وزعت ٤ ٤اعانة مدرسية لطلاب هذا المعهد

٥) لمحات على المستقبل

استعرضنا فيما سبق بعض مظاهر مشكل التعليم وخاصة ما يهم منهاقسم الاطفال الذين بلغوا سن الدراسة وقد فرض فرضا ان تتراوح هـذه السـن السادسة والرابعة عشرة

وفى الواقع ان المشكلة لافسح واشد خطورة اذ هـى تهم جمـع الشبان الذين لا يتجاوز عمرهـم عشرين سنة اى نصـف السكـان التونسييـن • فالشبيبة كل لا يتجزا والمسؤوليات التى تفرضها ايضا كل لا يتجزا • وان لم يبلغ صغار التونسيين سن السادسة من العمر المفروضة فرضا فلا ينبغى ان نعتبر بالنا خاليا مما يشغله من الشواغل التى تهمهم، ولئن يتجاوز ايضا الحد الاقصى من العمر اى ١٤ عاما ـ اوقع تقييدهـم فى المدارس ام تـدرج اسماؤهم فى قائمة التلامذة ـ فلا ينبغـى ان يتحـرر الفكـر مـن الاهتمـام بمستقبلهم • وفى الواقع لئن كانت مشاكل الشباب التونسى مختلفةمتغايرة بحسب السن وبحسب الميادين المتنوعة التى تعرض على النظر فان هـذه المشاكل متداخلة متازرة يرتبط بعضها بالاخر وتتكامل اجزاؤها اذ هى تهم عين الاشخاص فى مراحل متوالية من مراحل تعليمهم •

وعلينا اذا ان ننظر الى هذه المشاكل من هذه الناحية وهذا الاتجاه ، ناحية الشباب •

فمن بين الشبان الذين لا يتجاوز عمرهم الثامنة عشرة نميز ـ اصطلاحا ـ ثلاثة اقسام : الصغار الذين لم يبلغ عمرهم السادسة والاطفال بين السادسة والرابعة عشرة من العمر والشبان الذين يتراوح عمرهم بين الرابعـة عشرة والثامنة عشرة •

١) الصغار : فيما يخص الصغار الذين لم يتجاوز عمرهـم السادسـة ان المشكلة انما هى فى الناحية الصحية وفى وسائل الاحتياط والوقاية مـن الامراض الصبيانية ففى هذه الاجسام الناحلة اللطيفة يمكن الجـوع وشظف العيش وعدم اعتبار القواعد الصحية من حصاد الصبيان الصغار ومن تنمية نسبة الوفيات •

وهذه الارقام قاسية : ففى الفترة التى بين ١٩٣٦ و١٩٤٦ كـان مـعدل الوفيات قبل السنة الاولى والوفيات عند الولادة بالنسبة للاهـالى المسلميـن

بتونس ٢٧٦ بالنسبة لكل ١٠٠٠ ولادة (٥٣ وفية عند الولادة و ٢٢٣ وفية قبل العام) وفيما يخص الجنوب والوسط كان هذا الرقم ٣٥٠ تقريبا (بصفاقس : ٣٢٦) ...

وفى الفترة التى بين ١٩٥٠ و ١٩٥٤ كان لهذه الكارثة ـ وان تقهقرت بعض الشىء ـ معدل ٢٣٧ من الضحايا لكل ١٠٠٠ ولادة بين مسلمى تونس (٤٥ عند الولادة و ١٩٣ قبل العام) ويفوق المعدل هذا الرقم بكثير بالنسبة لاهالى داخل الجمهورية

فهكذا يموت ثلث او ربع المواليد التونسيين قبل نهاية السنة الاولى من عمرهم .

وليس الشان ان نعلم ان هذه النسبة للوفيات بفرنسا لا تفوق ٪ ٦ وبانقلترا هى لا تتجاوز ٪ ٥ بل الامر هو ان نبحث عن اسباب هذه الوفيات وان نتخذ الوسائل للوقاية منها .

ان السبب الاول هو صحة الاباء والامهات ووسائل عيشهم . ففى بلد ضرب فيه السل والسلطان وحمى المستنقعات والرمد اطنابها كيف يمكن تحاشى العدوى وبقايا الضعف التناسلى المنجرة للمواليد .

ثم ان الحياة السائحة او فى ظل المنازل الخربة القذرة والتعاسة الفيزيولوجية والخصاصة المزمنة التى كثيرا ما تبلغ حد المجاعة كل ذلك ليس مما يهيىء الصغار لمقاومة الاوبئة والاخطار المحدقة بهم

فاول دواء اذا للداء الفاشى داء ، الوفيات الصبيانية ، انما هو فى معالجة الاباء والامهات انفسهم ومراقبة الام وقت الحمل بواسطة عيادات متكررة كى يقف الطبيب على الوصمات الوراثية ، وهو قبل ذلك وبالذات فى رفع المستوى الحيوى ـ وبذلك يمكن الحصول منذ الولادة على جنس سليم قوى من شانه ان يقاوم الاخطار التى تهدده

وعند الولادة يكون العمل الاساسى للمرضات والمعاونات الاجتماعية تلقين الام واجبات الامومة والرضاعة ـ اذ مازال علم تربية الصغار مفقودا يجب بعثه بعثا ـ واذا ما كانت الام معاهة او ضعيفة او فى حالة من التعاسة خطيرة هنالك دواء وحيد ، هو ابعاد الصغير عن امه واعطائه لبيوت الارضاع ومثاوى تربية الصغار كما ذلك الشان فى سائر البلدان ...

ومن ابقى من الصغار في كفالة او ليائه فينبغى وقايتهم من جميع الامراض المعدية او غيرها التى تترصدهم كالاسهال وعقر المصارين « وابو طابق » (١)

ولا يمكن تحاشي ذلك الا بانشاء مراكز للوقاية داخل البلاد كلها ومراقبة موارد المياه ومقاومة الحشرات الناشرة للجراثيم ومراقبة نوع الاغذية واذا ادت الحاجة الى ذلك توزيع لمجتين يوميا لفقراء الاطفال مكونتين من اغذية ملائمة لسن الصغار ٠

وتكون تلك وظيفة مكتب مركزى لصحة الصغار يكون عمله رئيسيا في مختلف الميادين لانقاذ الطفولة التونسية ٠

(٢) الاطفال الذين يتراوح عمرهم بين السادسة والرابعة عشرة

علاوة على المشاكل الصحية الحادة القومية فيما يخصهم ايضا هناك شواغل اخرى تشغل البال خطيرة تخشى عواقبها ٠

يشرع الطفل في تكوين فكره ويتهيا لوظيفة الرجل ٠ فهذا هو العمر الدقيق المريع ٠

لقد وضع الطفل في وسط ضعيف وخص له حظ محدود ولقد التجا احيانا الى التشحذ للحصول على قطعة من الخبز ، او الى الاختلاس ، مبعدا عن جميع المدارس وعن مراكز التكوين الصناعي المخصصة لعدد صغير من المحظوظين ، وهو يسعى في العمل للحصول عما يسد به رمقه وفي ذاك ما تكون به نجاته

تلك الحالة التعيسة التى يتخبط فيها ٦٠٠٠٠٠ من الشباب التونسى وقد كان فيهم قوى الاستعداد لكى تتفق شخصيتهم في جميع الوان الوظائف والمطامح التى تحول الدولة الصغيرة الى امة عظيمة

ولقمع الداء ينبغي ان تتخذ التدابير القاسية : فيفرض على جميع التونسيين الذين بلغ عمرهم السن الدراسية دون ان يجدوا مقعدا في مدرسة ما — وثلاثة ارباع الشباب على هذه الحال — ان يحضروا مجتمعات عديدة للشباب يجدون فيها المطعم والعلاج الطبي وانواع الرياضة مع مبادىء التعليم وبها يلقنون الصناعات ٠

---

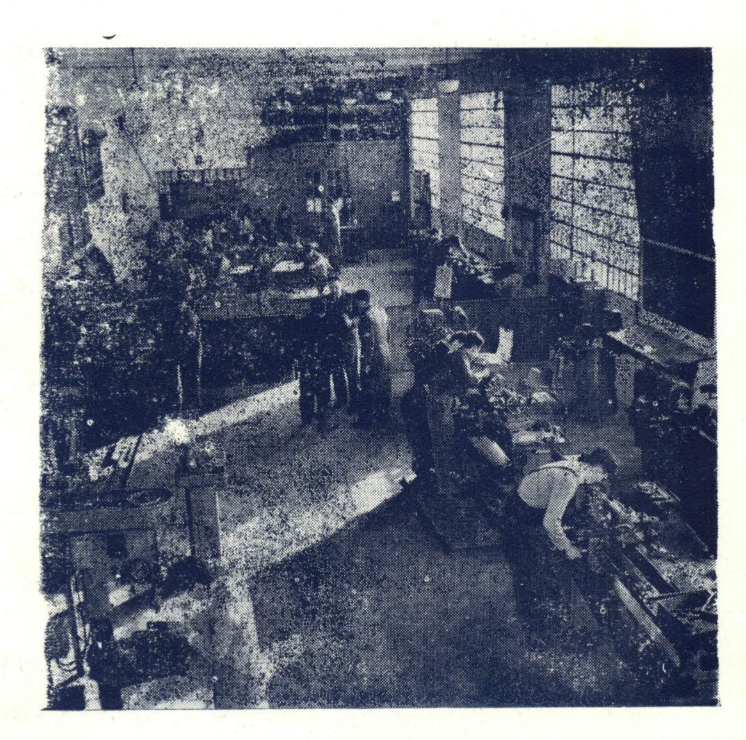
(١) من جملة ١٠٠ وفية من الصغار الذين لم يبلغ عمرهم العام الواحد ٤٣٪ تابعة للاسهال وعقير المصارين الطفيلة و ٪ ١٨ تابعة لابى طابق و ٪٣٠ تابعة لعيوب في الخلقة او لضعف تناسلى



١ – بيت الطعام بالحى
الزيتونى الحديث



٢ – بالمدرسة الفنية
بصفاقس





١ ـ ماساة صعود
الرحالة نحو الشمال



٢ ـ عند ما يغرق بحر
الزياتين تحت وارف
اوراقها معظم الاراضى
التونسية ناشرا اثره الازدهار
وكثافة السكان ...

وليس الشان ان يقع الاستمرار على زيادة عشرة الاف او خمسة عشر الفا في عدد التلامذة اذ يبلغ السن الدراسية سنويا نحو المائة الف طفل : تلك هي قصة النملة التي تصعد قدما وتنزل قدمين قصد الوصول الى اعلى الجدار •

ان الحل لمشكلة تكوين الشباب لهو في تنظيم مجتمعات عظيمة للشباب في ظل مأو من النمط الامريكي يمكن اقامتها في نصف يوم يجرى العمل فيها بوسائل عصرية شديدة السرعة

وفي هذا العمل الذي يرمي الى تحقيق آمالنا في الشباب ينبغي ان تكون الاولوية للذكور فهم دائما العنصر المحرك لمستقبل مجتمعنا •

ثم ياتي دور البنات (١)

نعم ، هنا كما في سائر الميادين ، ان العقبة الكاداء انما هي في تكوين الاطارات والمعلمين • وليس في الامكان ان ينبتوا بين عشية وضحاها •

ولكن لكي نتدارك ما ضاع من الوقت صار من الحتمي ان نشجع التوجيه نحو وظائف التعليم وفي آن واحد ان نستعمل رجال التعليم الموجودين احسن استعمالا ، ويمكن ان تستعمل الاذاعة والسينما استعمالا نافعا لتدارك ما نقص من العدد وللاتصال باكثر عدد ممكن من المستمعين

على انه ليس الغرض الحصول على تعليم منقوص ضعيف المستوى ـ اذ يكون الاولى اذاك العدول عنه تماما ـ بل نرمي الى الاقتباس من طرق التثقيف الجماعي التي جربت في بلدان اخرى واتت بالفائدة ، مثلما كان الشان بالصين التي استعملت عين المعلمين لتكوين اكثر عدد من التلامذة •

وفي الفترة الانتقالية التي نجتازها ، حيث يجب بسرعة سد الفراغ الفادح الذي تركته نظام الحماية في الميدانين الاقتصادي والاجتماعي ، يجب ان نستعمل الاشخاص والاشياء استعمالا يمكننا ان نغنم منها جملة مايمكن غنمه •

فلذا كان الحل الذي عرضناه من استعمال مجتمعات الشباب التي تستدعي

---

(١) تكون البنات اليوم من جملة المسلمين المزاولين للتعليم ربع الذكور بالنسبة للتعليم الابتدائي (٤٩٤٦٥) وما يقرب من عشرهم بالنسبة للتعليم الثانوي (٨١٢)

وسائل مالية وبشرية محدودة وتمكن من التعليم الجماعي هو الحل الملائم اتم الملائمة للظروف الحالية٠ وقد يجدينا نفعا عميما ان تعمم الانجازات التى تمتبابن مطير وغيره ٠

على انه يكون من الخطا ان يظن الظان انه ليس فى الامكان ان تظهر فى هذه المجتمعات للشباب نخبة مثقفة ، فليس الاختيار ممكنا فحسب بل هو لازم حتمى ٠

فلدينا منذ عدة سنين لتيسير التوجيه الصناعى للشبان وسبر استعدادهم جمع من الوسائل السيكولوجية الفنية المستعملة استعمالا علميا وقد اتت بنتائج لا باس بها (١) وبالبلاد التونسية مركزان مجهزان تجهيزا صالحا لهذا النوع من الاختبار ، احدهما فى كتابة الدولة للشؤون الاجتماعية وثانيهما تابع لكتابة الدولة للثقافة القومية ٠

واستعمال هذ ءالطرق فى مجتمعات الشباب قد تمكن من العثور على الاستعدادات ومن التمييز بين مطامح الشبان — على ان هناك نسبة من الخطا لا يمكن تحاشيها فيما يخص العنصر البشرى — كما تمكن من توجيه من كان من الشبان له احسن الاستعداد نحو المراكز الصناعية او نحو مراكز الثقافة العامة — وقد يلوح ما عرضنا فى مظهر الهيكل الجاف فحسب على انه ليس فى عزمنا هنا عرض برنامج مفصل ٠

ويكونلهذا التعليم التونسى المقصود منه الجماعاتعلاوة على الفوائد الواقعية التى تتصور فى انجازه الهادى منافع منها التوفيق بين مواهب الشخصية الفردية وطموحها وبين حاجيات امة فتية تنظيم وضرورياتها الحتمية الاكيدة وليس الامر ان يفكر فى تكوين الفنيين بالجملة وبقمع المواهب الشخصية الكامنة بل الشان بالعكس ان يهيا كل فرد حسب مواهبه ليكون عنصرا عاملا مشيدا لمعالم الهيكل العام

وتبعا لهذا الهيكل ينبغى ان تنظم اغراض تعليمنا واساليبه وروحه وان ترتب ترتيبا

(١) انظر «الاستعدادات الصناعية» فى مجلة « ابلا» ج ١٩ ، ١٩٥٦ص١٧٢

على انه كذلك سيكـون البناء المزمع اشادتـه بحسب ما يجعـل منـه بناءو مستقبلنا ٠

فلا ينبغي ان نغفل عن كون تغير الافكار باوروبا الغربيـة الذى بلغ بهـا الى حركة النهضة العظيمة انما شرع فيه بتغيير التعليم ـ فالعلماء المتشبعون من روح الانسانية حين شنوها حربا شعواء على الطرق القديمة السوفستائية والمنطقية العتيقة التى لم يكن منها سوى تكوين بعض المتشدقيـن البارعيـن فى المجادلة وحين جعلوا مجالا فسيحا للنقد ولحرية البحث عن الحقيقة قد كانوا ابرع الصناع فى الثورة الفنية والفكرية والعلمية التى كان مفعولها انجددت حضارة الغرب وبعثت خلالها اشعة من النور الباهر الساطع ٠

فليتنا نعتبر بهذا المثل الذى ضربنا كى ننفخ فى تعليمنا الروح الجـديدة التى ينبغى ان تصطبغ بها تونس الجديدة ٠

٣) **الشبان** من بلغ الخامسة عشرة من العمر ولم ينـدرج فى سلك التعليـم **يكون من الواجب ان يوجه نحو مراكز التكوين الصناعى السريـع قبـل ان يستخدموا كمتربصين فى المشاريع العامة او الخاصة ، ومهما يكن مـن الامر فانه من المتحتم ان يلقن هؤلاء الشبان اقل ما يمكن من المعلومات كيلا تتضخم بعددهم صفوف العملة اليوميين والبطالة الاميين تلك الصفـوف المتراصـة الهائلة ٠**

ومشكلتهم لهى عين مشكلة اليد العاملة وملاءمتها لضروريات الامةالجديدة وهى ايضا عين مشكلة التشغيل التى سنتعرض اليها فيما يلى

فجميع الشبان التونسيين الذين بلغوا سن العمل من حقهم ان يتوفر لهم العمل الذى يضمن لهم عيشهم ، ومن حقهم ان يضعـوا نشاطهـم فى خدمـة استغلال الثروات القومية كى يشيدوا مجتمعا صالحا لا يكون فيـه الاختـلال بين مستوى العيش وبين الثروات المستقلة اختلالا فضيعا فادحا ٠

وتلك مشكلة التشغيل التى سنعود اليها اذا ما طرقنا باب التشغيل التام

على انه مهما كانت الطرق والاساليب والبرامج ان رفع قيمة شبابنا لهو الامر المنفرد بالاولوية وهو الاساس لسائر ثرواتنا

واذا ما انقذنا اكثر من ستمائة الف شاب تونسى من التعاسة التى تترصدهم واذا ما رفعنا الجهالة والامية عنهم فجعلناهم رجالا استنارت عقولهم وصاروا واعين اتم الوعى نكون قد حولنا مجرى مستقبلنا وقد خططنا نهج القدر الذى قدرناه لنفوسنا ٠

وبالنظر الى هذا الهدف تكون سائر الاعتبارات ثانوية وبالعرض ٠ ولقد قال بول فاليرى : « انما الحوادث زبد الامواج : وما يهمنى الا البحر نفسه » والبحر فى نظرنا انما هو الشباب التونسى وعظيم آماله

الباب الثاني

مستوى العيش والتشغيل التام

لعل اصدق صورة تتصور بها درجة التطور الاقتصادى والاجتماعى ببلد ما وتتخلص فيها على احسن وجه فى آن واحد قيمة الثروات الطبيعية بهذا البلد ومدى ما استنتجت منها عبقرية رجالها هى بلا شك مستوى عيش السكان بهذا البلد ـ فظروف الحياةالتى يحياها افراد الامة ـ سواء المادية منها او الروحانية ـ تلوح فى الجملة كالحاصلة او المقام المشترك للنشاط الزراعى والصناعى والتجارى والاجتماعى والثقافى ينسق ذلك كله العمل السياسى الذى يقوم به المسؤولون على هذه الامة

فيكون الهدف الذى ترمى اليه مجهودات جميع الحكومات التى لاهم لها سوى الصالح العام للمجموعة التى تمثلها انما هو استتباب الرفاهية لجميع المواطنين وانما هو ان يضمن لهم حياة عزةوكرامة لاتمسهايد الحاجة ولاتلمسها الفاقة بسوء

ولم تكن الحكومة التونسية الحالية لتغفل عن هذا الواجب الاساسى ولقد وضحالرئيس بورقيبة ذلك حيث قال : «ان غرضنا لباق ـ مهما كانت الاعاصير ومهما قويت الامواج ـ هو هو يرمى الى البلوغ الى الاهداف التى حددناها من اول يوم ، اى تدعيم سيادتنا بالمشاركة الصادقة مع فرنسا ومع سائر الاقطار وترفيع الشعبالتونسى الىمستوى الرفاهيةوالازدهار الاقتصادىوالاجتماعى»(١)

---

(١) مقتبس منخطاب المجلس التشريعى «البتى ماتان» ١٥ ديسامبر١٩٥٦

فلذا كان للبحوث التى ترمى الى كشف اللثام عن مستوى عيش التونسيين اهمية كبرى فى اعيننا من نواح ثلاث

فهى تمكن من ان يقدر حق قدره ما قامت به الحماية طيلة ثلاثة ارباع القرن من عمل بشرى ٠

وهى توضح توضيحا قاسيا محزنا واقعا جغرافيا ملموس المعالم او قد سعى من اعتادوا التطبيل والتزمير للتنوية بالاستعمار فى اظهاره على غير ما هو عليه٠

وهى على الخصوص تفيدنا بمعلومات قيمة كى نتصور مدى ما تبلغ عظمة العمل الذى علينا ان نقوم به كى نتمكن من انقاذ شعب من الناحية الحيوية الجسمانية — شعب بلغ به مستوى العيش الى شفا التعاسة الشاملة العامة

ولهذه البحوث فى الختام مزية اخرى — بالنسبة لمن يجهل الواقع الشمال الافريقى او من بقى لا يتاثر به ولا تخترقه مقتضياته — الاوهى ان تنفتح امام بعض الضمائر آفاق تمكنها من ان تتفهم المسارب البعيدة التى انتهت بتونس كما انتهت بالجزائر والمغرب الى الحالة السياسية الراهنة

على ان معرفة هذه المعطيات الاساسية ليست باليسيرة اذ هى من جهة عسيرة التقدير ومن جهة اخرى هى دائما متحولة متطورة

فمستوى العيش لشخص ماوالرفاهية المادية والادبية وحتى الفنية الجمالية ليس كل ذلك تبعا حتميا لموارده او «للاغذية الارضية» التى اغتذى بها هذا الشخص

فتلك اذا فكرة من العسير الوصول الى تقديرها وقيسها ٠ والحد المتفق عليه لهذه الظاهرة : «مستوى العيش هو مجموع خيرات الاستهلاك والمصالح التى فى الامكان ان يحصل عليها الشخص » (١) ، فلا يعتبر هذا الحد الا الناحية المادية فحسب ، بل هو يفترض ان هناك علاقة متينة بين العناصر الجسمانية وبين الرفاهية علاقة تلتحم بها ظروف العيش وتندرج فى سلكها الافكار السيكولوجية الشخصية

وهذا الحد الذى يعرض اعراضا عن سائر الخيرات التابعة للسعادة المنزلية وللمصالح الاساسية كالتعليم والامن والنظام الصحى لهو مخطىء اخطاء تبعا

(١) هـ ٠ بروس « مستوى العيش بفرنسا »ص٨ ويضيف الكاتب «وخيرات الاستهلاك هى المطعم والملبس والمصالح هى النقل والمسكن ومناظر التنزه»

لصورة تفسيره الاجمالى الذى يريد ان يقدر بارقام واقعا اوسع تشعبا

ان تصور مستوى العيش بواسطة ما ينفق لاقتناء بعض المواد او بعض المصالح لتصور سطحى قليل التعمق ، واذا ما طبق هذا التصور على وسط البحر الابيض المتوسط وخاصة على الوسط التونسى قد يؤدى بنا الى استنتاجات غير كافية . ففى هذا البلد اكثر مما هو واقع فى غيره من البلدان تتصور الحياة بالمنظار الداخلى الباطن اكثر مما يمكن تصورها من الظاهر الخارجى . فيتحول سلم القيم ويتغير . وكثيرا ما يتقدم الامر المتمم الزائد على ما هو لازم حتمى . وقد ينعم احدهم باشتراء باقة من الياسمين يتجمل بها بوضعها فوق اذنه فى حين انه قد يعوزه ما يسد به رمقه وقت العشاء ، وقد يترفه بعضهم باقتناء عصفور يشدو ويترنم فى حين ان منزله عار من الاثاث اللزومى او قد يتلذ بتذوق كاس من الشاى وهو صفر اليدين معدم لا يجد قوت يومه

نعم انه لا ينبغى ان نجعل من هذه الظاهرات قاعدة يمكن الوقوف عليها دائما او نظن ان تلك صيغة من العيش عامة شاملة بل ينبغى ان نعتبر هذه الملاحظات كى نخفف ما تصطبغ به النظرة الخارجية من كثرة التاثر بالكم والعدد والوجهة المالية .

فلئن نحكم على غذاء بجملة وحداته الحرارية فان فى ذلك ما ينزع عنه صبغته البشرية المتعلقة بالشخص وما يجعل قيمة واحدة للنفوسط ولكيلو غرام من البقول الجافة . ولا يمكن ان يعتبر الحكم على مستوى العيش بواسطة الظواهر الخارجية للغنى او الفقر الا كفاتحة للبحث المباشر وعنصر من عناصر الحكم والتقدير كى يسعى الباحث الى الاقتراب من الواقع البشرى المتغاير المتعدد الالوان والاشكال الذى لا يمكن حصره فى عبارة او تحديده بمعادلة

هذا وان اسلوب البحث المستعمل عادة من سبر بعض المجموعات المتخذة كشاهد او كانموذج اجتماعى واستنتاج بعض الاستنتاجات من ذلك وتعميمها على مجموعة عديدة او محدودة قد يفلت من حلقاته ما يفترضه مجتمع ما من الفروق . فهذه الاساليب الاميركية من نوع اساليب « قالوب » التى ترمى الى اظهار فكرة وسطى او مستوى من العيش اوسط قد يعسر تطبيقها فى بلدنا هذا حيث ان الطابع الشخصى بها قوى متغلغل فى النفوس

الا انه من العبث ان ننكر انه مهما كان لنتائج هذه البحوث من القيمة النسبية قد تمدنا فى هذا الميدان البكر بمعلومات نفيسة قريبة من الواقع وبتوجيهات عامة تمكننا من وضع بعض الاشارات والعلامات لمعرفة المواقــع التى نصلهــا ولتقدير مستوى قيمة الاشياء النسبية

وما قام به بعض البحاثة ، جماعات او وحــدانا (١) منذ خمســة عشر عاما تقريبا ، من البحوث النزيهة المخلصة قد تزودنا بجملة من المواد فيمــا يخص معدل الانتاج وطرق العيش فى الوسط الحضرى او البدوى وفيما يخص اهــم عنصر لمستوى العيش : مشكل التشغيل

وهذه المواد وان كانت محدودة بعد تمكننا من ان نتصــور هذا الموضــوع الذى يمت بصلة لكيان المجموعة التونسية نفسه

ثم اننا ذكرنا آنفا ان مستوى العيش فكرة متطورة متحولة — فهى دقيقــة الصلة بوسط بشرى دائما فى نمو — وتضغط الاجيال الصاعدة على الاشخاص الموجودين فاذا هم فى ازدحام وتزاحم تقف فى وجوههم عقبات متنوعة وتعترضهم صعوبات متعددة • ويوما تلو يوم يصير مشكل الخبز اى قوت اليوم ومشكل الرفاهية المادية والادبية اللائقة مشكلا عويصا اشد مراسا واعصى حلا •

وانه لفى الامكان ان تحول الشواغل التى تهاجم المجموعات للسلم العائلى

فالا سرة كلما تضخم عدد ولاداتها عليها ان تنمى دخلهــا تبعا لما لهــا مــن الصغار الاحداث الذين عليها ان تمو نهم وتبعا للحاجيات المتنوعة التى يثـيرها وجود هؤلاء الاحداث • فاذا ما ارادت ان تستبقى مستوى عيشها ومستــوى عيش ابنائها انه لا مناص لها من ان تزيد فى انتاجها كلما تضخم عددها خصوصا

(١) الدكتور أ برنى : « بحث فيمــا يخص القوت بتونس » تــونس ١٩٣٩
الدكتور م• وزان : « مشكل القوت بتونس » (تونس الطبية افريل ١٩٤٩)
ب صباغ : البلاد التونسية (المطابع الاجتماعية ١٩٥١)

— « الحوار الدولى فى مستويات العيش بتونس » وبمعهد الدراسات العليا بتونس قد نشر منه الجزء الاول : « بحث عن الشغالين بجهة العاصمــة تحت ادارة ب • صباغ (١٩٥٦) والجزء ان التابعان للوسط البدوى لم ينشرا بعد•
ج• لبيدى : اهالى تونس ••• التقرير الاقتصادى للاتحاد العام التونسى للشغل

وانه ليس من المفروض عليها ايضا ان تـوفر لهم المسكـن والملبس ووسائـل حفظ الصحة والتعليم ووسائل الارتياح وبعض من المدخرات للايام العصيبة • ولمواجهة هذه الحاجيات الجديدةوكي يمكن الاسرة ان تحتفظ لعيشها بالمستوى المعهود صار من الحتمي عليها ان تضخم مواردها لهذا الغـرض ، واما اذاكانت الاسرة تشعر ان حالتها وضيعة حقيرة واذاما اقرت العزم على تحسين عيشها فان المجهود الذى يستدعيه ذلك منها يكون اشد واقوى ، اذ هو يرمى فـى الواقع الى نوعين من الترفيع : ما منه يتبع التحسين فى مستوى العيش وما يتبع الحاجيات المتزايدة لاسرة تعدد افرادها •

ومن سوء الحظ هذه هى حالة الاسرة التونسية العظيمة المتعددة المتضخمة

١ ـ الانتاج المعدل

ان النفقات التى بها تتكيف الظروف المادية للحياة انماهى ناتجة عما بيـن يدى المرء من الموارد اذ تتقولب ميزانية الاسرة وميزانية الفرد وتنظم حسب ما لديهما من وسائل الانتاج

فمعرفة الانتاج حينئذ هى عنصر اساسى لتدقيـق مستـوى العيش فـى مجموعة اجتماعية ما • ولكن المشكل كله هو ان تضبط الموارد جميعها ضبطا دقيقا • اذ انه اذا كان هناك بعض المجال للتجربة فى وسط محدود فهى تصير من الصعوبة بمكان بل قد تتعذر اذا اتسع نطاقها او اذا ما شـرع فيها فـى السلم القومى •

على انه قد كان هذا عين العمل الذى سعت فيه المصلحة التونسية للاحصائيات فهى قد نشرت منذ عهد قريب « الحسابات الاقتصادية للبلاد التونسية » فيما يخص سنة ١٩٥٣ ـ ومن الجلى ان نتائـج هذه الحسابات انما تنطبق على هـذه السنة بمفردها وانه لمن الخطا ان تستمد منهـا نتائج الحاضـر وهو بطبيعتـه مخالف للماضى مغاير له

وللوصول للانتاج القومى عدت مصلحة الحسابات الاقتصادية جملة انتـاج مجموع المشاريع بادخال قيمة ما تسديه الادارة من المصالح ـ فكـان الانتاج القومى بهذا التقدير ١٦٥،٣ مليارا من الفرنكات سنة ١٩٥٣ وكان حظ الزراعة فى ذلك ٣٩٪ وحظ الصناعات ٢٨٪ وحظ التجارة ٢٧،٥٪ والباقى يتبع عدة مصالح

وحيث اعتبر الانتاج القومي « كمجموع جملة الانتاجات لاهالي البلاد مضاف اليها ما لم يوزع من الفائدة التي غنمتها المشاريـع » لحسابات معـدل الانتاج كان من الكافي ان يقسم الانتاج الكلي على عدد السكان فكان الحاصل ٤٦٥٠٠ فرنك في السنة

فلو فرض ان كافة التونسيين لهم عين الموارد لكان معـدل انتاجهم سنـة ١٩٥٣ قدره ٤٦٥٠٠ فرنك

ويكون من الحسن ، قبل ان نتقدم بك ، ان نلاحظ ان هذه الفكـرة نفسها ، فكرة معدل الانتاج ، لا معنى لها في بلد كان فيه التوازن بين الثروات مختلا اختلالا فادحا · فذاك نظام الحصان والبقرة · وكما يلاحظ تقرير الاتحاد العام التونسي للشغل : « كما ان شيخا عمره ٧٨ سنة وصبيا في الثانية من العمر لا يعادلان كهلين عمر الواحـد منهما ٤٠ عاما (وان المعـدل الحسابي مـوافـق لذلك) فكذلك اننا لا نفهم شيئا منقولنا الانتاج السنوي لشخصين ٣٠٠٠٠٠ فرنك حيث كان للاول ٥٨٠٠٠٠ فرنك وللثاني ٢٠٠٠٠ »

هذا وان حساب الانتاج القومي نفسه قد غض الطرف بالطبع عن الاستهلاك الذي لم يتجاوز الاطار العائلي فلم يكن له اثر في دورة المبـادلات وفي انتـاج البلاد ، فالبدوية التي تلتقط تحت دجاجها البيض اللازم لطبخ (شكشوتها) لم تقيد هذا المورد في جدول الانتاج القومي · وكذاك الشان بالنسبة الى عـدة منتوجات صغيرة التي تساق الى الاستهلاك دون ان تبقـي اثـرا في ميـزان الانتاجات العامة ·

فهل في الامكان اذا ان يقال ان الرقم ٤٦٥٠٠ فرنك ، ـ المخطىء في مبدئه نفسه ، اذ هو معدل يتساوى لديه ارباب الارض وما تحت الارض التونسيـة والعملة الذين يسدون اليهم عملهم ـ هل يمكن ان يقال ان هذا الرقم يطابـق واقعا بشريا يتسرب كالثعبان بين شبكات الاحصائيات ؟

على انه اذا فرض لهذا الرقم عامل للخطا واذا اعتبر كفكرة تقريبية فحسب قد يمكن من بعض المقارنات ومن بعض التنظيرات الحبلى بالمعاني والمعازي ·

فاذا فرض مثلا ان معدل الانتاج التونسي يرمز اليه برقم ١٠٠ يكون رقـم الولايات المتحدة ١٤٣٠ ورقم سويسرة ٧٣٨ ورقم بريطانيـا العظمـى ٦٠٧ ورقم فرنسا ٥٤٣ وتطول هذه القائمة الى ان تبلغ اليـونان حيث يكون الرقـم

١٣٦ والمغرب الاقصى حيث الرقم القياسي ١٢٩ والجزائر حيث الرقم ١٢٢ وبلاد خط الاستواء (اكواتور) حيث الرقم ١١٠ وفي النهاية يكون لتونس رقم ١٠٠

فلا يمكن لقائل انيقول ان لتونس فيزمرة القوميات حظاموفورا ٠ وميزانها العائلي من اضعف الموازين في العالم ٠

على اننا لو تقدمنا خطوة ونظرنا في الطبقات الاجتماعية لوجدنا ان هذا الانتاج المعدل يفوق بكثير الانتاج الواقع ولكان الحال مفزعا مريعا ٠ ونحن نقتبس لك من كتابة حديثة للسيد لبيدى : «اهالى البلاد التونسية» ، هكذا الجدول الذى فيه من دواعى الاعتبار

	تونسيون	اروبيون	المجموع	معدل الانتاج الفردى
الطبقة الثرية	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٥٠٠٠	من ١،٥ الى اكثر منمليونين
الطبقة ذات الحالة المرضية	٢٨٠٠٠	٣٠٠٠٠	٥٨٠٠٠	من٣٥٠الىاكثر من٤٠٠٠٠٠ف
الطبقة الوسطى والضعيفة	٢١٠٠٠٠	١٨٠٠٠٠	٣٩٠٠٠٠	من ٤٥ الى ١٧٠٠٠٠ ف
الطبقة الفقيرة	٤٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠	٤٥٠٠٠٠	من ٦٠ الى ٧٠٠٠٠ ف
الطبقيةالفقيرة جدا	٢٧٠٠٠٠٠	—	٢٧٠٠٠٠٠	من١٦٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠ ف
الجملة	٣٣٤٠٠٠٠	٢٦٣٠٠٠	٣٦٠٣٠٠٠	

وهكذا من مجموع الاهالى التونسيين وقدره ٣٣٤٠٠٠٠ نسمة هناك ٢٠٠٠ لهم انتاج يفوق مليونا ونصفا ، اى ان هناك سيدا ثريا بالنسبة الى كل ١٦٧٠ تونسيا ، وبذاك تتضاءل الخرافة القائلة بالاقطاعية التونسية ٠ وبالعكس هناك ٣٠٠٠ اروبى ثرى من بين ٢٦٣٠٠٠ اى ان النسبة هى واحد لكل ٨٨

اروبيا ـ وفى هذا الاستنتاج ما يكفى لتعيين المحظوظين تعيينا واضحا فصيحا ولتعيين من قد كان هو الغانم من النظام الاستعمارى ٠

ولعل الباقى من دراسة هذا الجدول هو الذى ياتى بمعلومات اوسع وادق٠ فالطبقة ذات الحالة المرضية التى لها من الانتاج اكثر من ٣٥٠٠٠٠ فرنك فى العام ، هذه الطبقة تتصور فى تونسى واحد مقابل ١٢٠ وفى اروبى واحد لكل تسعة منهم ٠

واخيرا ان الطبقة الفقيرة جدا التى يتراوح انتاجها بين ١٦٠٠٠ وبين ٢٠٠٠٠ فرنك لا ينطوى فى سلكها ولو اروبى واحد ويتزاحم فى صفوفها المتراصة ٢٧٠٠٠٠٠ من التونسيين اى ٤/٥ الاهالى التونسيين باجمعهم ٠

فهل فى الامكان ان يلخص بطريقة اقسى ميزان نظام من الانظمة ؟

وهل فى الامكان ان يتخيل هجاء امر او مرافعة مغرقة الذع ؟

فكيف بدعوى الافكار الانسانية سمحت نفوس نفر من البشر ان يزجوا بثمانين فى المائة من الشعب التونسى فى اتعس شقاوة ، كى ينعم كمشة من المستغلين المستثمرين ، وذلك فى ظرف ٧٥ عاما من « الحماية » ؟

نعم ، فهؤلاء ٢٧٠٠٠٠٠ من التونسيين ، مازالوا « محميين » سنة ١٩٥٣، ولا يتجاوز انتاجهم الفردى ١٦٠٠٠ فرنك فى السنة اى هو يقل عن ٥٠ فرنكا فى اليوم ، فكيف كانوا يتمكنون من العيش بل قل كيف كانوا يتمكنون من تحاشى الموت جوعا ؟

وهل يمكن ان نتصور بكل سكينة وكل راحة فى البال مدى ما بلغته هذه الكارثة القومية ؟

ومع ذلك فكلما خطونا خطوة كأن قد افسح فى حدود هذه التعاسة التى لا يتخيلها العقل ٠ فهذه دراسة نشرها معهد الدراسات العليا خاصة « بتراب اولاد سيدى عون » (١) تذكر ان ٥٢،٤٪ من «الملاكة» انتاجهم السنوى ٧٢١٦ فرنكا انها لتكاد الارض ان تميد بالمرء ! ٧٠٠٠ فرنك فى السنة ! اى اقل من ٢٠

---

(١) « ارض العروش بسيدى عون » ٠ للمساهمة فى دراسة المشاكل البشرية بالسباسب التونسية ، تحرير السادة بسيس ومرتلوودى منتتى وبو فيلى ـ ١٩٥٦

فرنكا فى اليوم لكل «ملاك» ! وليس ذاك معدل عام بل هو بحث خاص قاصر على مجموعة معينة • فكيف لا ينزع المرء وكيف لا يتوجع ؟

ولكن ، حسب ما يقولون ، ان سنة ١٩٥٣ كانتخصة خصابة رائعةوكانت صابة زيوتنا قد بلغت اقصى ارقامها القياسية (٨٠٠٠٠ طن) وكذلك كانت صابة القمح والشعير والحلفاء •

فكيف الحال اذا فى سائر السنوات اذا ما اوصدت السماء ابوابها طيلة اشهر عديدة ، ناشرة زرقة صافية لا امل فى تعكرها ، حيث يحرق الجفاف جميع النباتات ، وحيث تموت المواشى وحيث يسعى الانسان حثيثا فارا من شبح المجاعة الجهنمى ، ذلك الشبح الذى لا يفارقه ظله قيد انملة !

كل من عاش بالبلاد التونسيةسنة ١٩٣٦ (التى يسميها البدو «عام الروز» لما اجرى فيها من توزيع الروز على الاهالى) وسنوات ١٩٤٤ و ١٩٤٥ و ١٩٤٧ و ١٩٤٨ يعلم حق العلم ما يتمثل هنا فى كارثة المجاعة •

ونحن نطالع ما حرره قلم متصرف ادارى فرنسى حامل لدكتورا الحقوق ولم يكن معروفا بلينه نحو منظوريه (لويز هوسى : نظام اراضى العروش واقرار الاهالى بالبلاد التونسية » ١٩٣٩) فنجد الشهادة التالية :

« ان الاهالى البدو فى حالة عراء كثيرا ما يكون كاملا تاما — فلا تقتصر المدنية على خط الطرقات واشادة السدود وانشاء الجسور ، بل عليها ان تمد الاهالى ببعض من الرفاهية ورغد العيش • وان اتعس السكان حظا واقلهم نصيباهم بدون منازع سكان السباسب الجنوبية التونسية » (ص ٢٠٤)

« وقد تمكنا بارم ، بمنتصف الطريق بين قابس ومدنين ان نشاهد قرية محرومة من ماء الشراب ، وتقنع السكان ببعض من الماء الراكد ، ثم حيث ان الصابات المتواليةكانت رديئة قد افتقرت الجهةوشاهدنا السكان ياكلون الجذور المقلوعة من الارض ، ومن كان له من حسن الحظ ان يملك شيئا من الشعير فهو يقليه ويلتهمه بدون زيت ، بالطبع، اذ ليس له ما يمكنه من شرائه — ويشترك الجميع فى هذا النوع من الغذاء من الرضيع الى الشيخ » (ص ٢٠٧)

« واذا لاحظنا ثلاثة من الاجيال نشاهد ان التيار الاجتماعى فى الاسرة الواحدة تنازلى عوض ان يكون تصاعديا » (ص ٢٠٩)

« ان مستوى العيش لدى سكان الجنوب منحط للغاية ، بل انه من

الصعب ان ينزل الانسان اسفل منه » (ص ٢١٠) ٠٠٠ وفى الامكان ان تعدد الشواهد المستمدة من هذا الكتاب الذى يرجع تاريخه الى سنة ١٩٣٨

فماذا يكون قول المؤلف بعد ذلك بعشر سنوات ، بعد مصائب الحرب المهولة وبعد جفاف دام سنين ، زعزع الامة وزرع الموت فى كامل الجهات الشاسعة ؟

سنة ١٩٤٧ حين ضربت المجاعة اطنابها ومات الاعراب الرحل آلافا وهم يحاولون الالتحاق بما كان فى نظرهم جنة تطعمهم من جوع ، ارض (افريقية) الخصبة ، كانت الخطة الرسمية الا يذكر هذا الداء الذى فى ذكره ينشر الرعب والفزع • ولم يكن الامر امر مجاعة ، حسب الصورة الرسمية ، بل هو «تعاسة مستمرة لدودة» وهو «انحطاط مزمن فى الغذاء» •

اى ان تلك عادة اعتادها هؤلاء البدو، ـ كغيرها من العادات ـ ، من ان يمكنوا انفسهم ان يموتوا جوعا •

عادة مالوفة ، لا اكثر ولا اقل !

وحيث ان فرنسا تحترم العادات ٠٠٠٠٠

وقد تطرفت حتى فى هذا الاحترام ، اذ ادى بها الى رفض باخرة مشحونة قمحا ، « الاميرة فوزية » ، بعثت بها مصر ، فلم يرخص لها بانزال حمولتها الخطيرة ، التى تشتم منها الاخوة الاسلامية ،بل قل الاخوة البشرية على الاطلاق

وفى الندوة الصحفية التى دعا اليها السفير مونص فى ٢٠ جوان سنة ١٩٤٧ ، حين وجهت اليه بكل سذاجة هذا السؤال : هل ان الرفض لم يكن تعديا على الذاتية التونسية ، لم اسمع منه سوى سكوت الحذر •

كانت المجاعة موضوعا غامضا ، موضوعا يحجر الخوض فيه او التعرض اليه ولو مجرد تعرض •

وذاك انه فى الواقع لما ينبه الضمير وما يوجعه ان يذكر الحبل فى دار ٠٠ سفير • ان هذه (التعاسة المدودة) لم تكن ناشئة عن الانتزاع الجماعى لفائدة قياصرة الاستعمار ، المسلط على هؤلاء الاعراب الرحالة الحفاة العراة الذين يفرون دوما ، كقايين ، عين المجاعة •

فكلما كانت امطار الخريف او الربيع ضئيلة فكانت الصابة مجاعة تزاحم اهالى الوسط وجزء من الجنوب فارين فى جملتهم • وبدات ماساة ذوى الاسمال البالية مرتحلين نحو الشمال ٠٠٠ فهم يحملون متاعهم الحقير ، يصحبهم

كلابهم النحيفة ، وفراخهم المسلوبة من الدم وعظيم املهم ،وتلك بداية الرحلة المحزنة ، رحلة مشاة المجاعة • وهي مراحل متعددة نحو شمال الظهر التونسى نحو بطاح مجردة الثرية ، نحو مملكة الاستعمار •

اذ ان الاستعمار - الذى لا يضيع ابدا الشمال - قد اقتطع اعز القطع من الاراضى التونسية ، ما كان منها انتاجها اضخم ، بباجة وماطر وسوق الخميس •

على ان هذه الظاهرة من التفقير المنظم التى يكون من آياتها فى السنوات الجحاف هجرة عامة ، هى من ادق صور الترحال ، يلوح انها ناشئة عن سببين :

- السبب الاول هو بالطبع الجفاف الذى يتسلط كعاهة مزمنة على الوسط والجنوب التونسى • على ان لفظ « جفاف » ليس فى محله ، اذ لم يكن هناك نقص فى جملة الكميات المطرية بل هناك خلل كبير فى توزيعها على الفصول•

ولايمكن مداواة هذا الداء المناخى ، مالم يصر المطر الا صطناعى حقيقةواقعة بتونس (١)

- واما السبب الثانى فليس من امر السماء بل هو من امر البشر • وهو يدعى الاستعمار •

وقد اشرنا قبل الى عديد الشعوذات الشرعية وغير الشرعية التى احالت ما يقرب من مليون من الاراضى السوداء التونسية بالشمال الى نحو ٢٠٠٠ معمر ، قاصرة ٤٠٠٠٠٠ من الفلاحين التونسيين على خبش ما بقى من السباسب القاحلة •

ولا يمكن اى عالم بالجغرافيا ان يجحد ان الاستعمار ، حين اقتطع احسن قطعة من التراث التونسى ، انشا خللا فادحا عميقا ، بل ركز قطيعة عكرت ما كان قبل من النظام التوافقى فرمى بمعظم الاهالى الفلاحين والرعاة فى هوة الافلاس والفقر •

فحين تحولت هذه الاراضى الشمالية - التى كان يجد فيها معظم التونسيين قوتهم ، خصوصا فى السنين العصيبة - حين تحولت الى ايدى الاجانب ، اضطر الفلاح التونسى الى استغلال منطقة الوسط والجنوب ، المخصصة فى الاصل لرعى الاغنام يتنقل فيها الاعراب قصد الانتجاع ، فكان فى ذلك الخطر على البدو الرحالة •

وهكذا دحض تسعة اعشار المزارعين التونسيين وجميع الرعاة الرحالة نحو الجنوب ، ورمى بهم خارج نظام طبيعي كان يمكنهم فى الماضى من مجابهة سنى الاجداب حيث تبخل عليهم السماء بغيثها النافع .

ففقد رحالة السباسب ما كانوا يرجون به من اغاثة الشمال وارتبط مصيرهم باراض قحلة فصاروا فريسة سائغة سهلة للتغيرات المطرية يحصدهم الجوع حصدا من آونة الى اخرى ..

وان من يزعمون ان المجاعة داء مزمن بالبلاد يعلمون حق العلم ان هذا الزعم باطل جزاف . ولو كانت المجاعة داء مزمنا لاصابت كل الناس على السواء ... ولم يشاهد شبحها قط فى ميادين الاستعمار الغنية الثرية .

ولمن يريد ان ياتى بالدواء الناجع لهذا الداء ان يحيى — كما ذكرنا آنفا فى باب تربية الاغنام — ذلك التضامن الجغرافى الذى كان يجعل من البلاد التونسية كلا ثرواته متكاملة .

وبقطع النظر عن النظام القانونى لاراضى الاستعمار انه ليس من المعقول من الناحية البشرية المحضة ان ينعم مزارع الشمال بموارد تتراوح نسبتها بين ١٥ و ٢٠ بينما مزارع الوسط لا يحظى بجمع صابته — ولا يتحمل ان فلاح الكروم بالشمال يجمع الملايين فى حين ان فلاح الوسط يضطر الى التشحذ وبينما الرحال لا يجد نجاته الا فى الفرار .

وقد يكون من اللائق ان يتضح هذا التضامن فى « صندوق للتعديل الفلاحى » فكل مزارع مثلا — مهما كانت جنسيته — اذا تجاوز رده نسبة ١٥ ، وكل زارع كروم اذا زاد انتاجه على كذا هكتوليترات فى الهكتار يكون مجبورا بتسليم نصف مازاد على هذه النسبة الى « صندوق التعديل الفلاحى »

وتكون وظيفة هذا الصندوق ان يوزع على الفلاحين والمربين للاغنام — مهما كانت جنسيتهم — الذين لا يتجاوز انتاجهم نسبة ثلاثة مثلا او الذين اضمحلت قطعانهم ، يوزع عليهم اعانات مناسبة لمقدار بذرهم وللحاجيات الغذائية لعملتهم

هذا وليس فى عملية التعويض البسيطة هذه ما ينافى ما فكر فيه من حل بعيد المفعول من طرف « صندوق احياء الوسط والجنوب » بل قد تمكن من تزويده ومن اعانته على حل المشكل العويص ، مشكل اقرار الرحالة واحياء السباسب وفى ذلك ما فيه من الاثر على القضاء على البطالة المتمركزة حوالى

المدن المحيطة بها فى الاكواخ الناشئة كالفقاقيع ، وتلك نتيجـة الاقتـلاع من الارض من مجموعة الفلاحين الشحاذين وجملة « الفلاحين بـلا ارض » حسب تعبير ج · دراش ·

هذا وان الانتاج القومى كالانتاج الفردى هما الموردان الاساسيان للنفقات فى باب مواد الاستهلاك والمصالح الاجتماعية ·

فيكون من الصالح اذا ـ كى نضبط بكيفية ادق عديد مظاهر المستوى فى العيش ـ ان نعلم توزيع هذه النفقات واهميتها النسبية من خلال الميزانيات العائليـة ·

٢ ـ هيكل مواد الاستهلاك

فى بلاد يكون لعدد ٢٧٠٠٠٠٠ من سكانها انتاج سنوى يتراوح بين ١٦٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ فرنك ويفوق انتاج ٦٣٠٠٠ من هؤلاء السكـان ٤٠٠٠٠٠ فرنـك لاتاتى دراسة معدل الميزانية بثمرة مجدية ولا يكون لها معنى ذو قيمة وهـى لا تتفق عند التطبيق مع الواقع الملموس ـ ولكن هذه الدراسة قـد تقرب الى الفهم سلم التقدير الذى تحله هذه الميزانية ·

فهكذا يعلمنا المشرفون على الاحصائيات (١) ان التونسى الوسط ـ وهـو اسم بلا مسمى ـ ينفق من نسبة ١٠٠ فرنك من الانتاج فرنكين اثنين لمختلف الاداءات المباشرة و ١٣ فرنكا لعـدة مصالح (من نقـل واداءات غير مباشـرة ومصاريف صحية الخ) و ٧٨ فـرنكا للمقتنيـات الغذائية والمـواد الصناعيـة للاستهلاك ويدخر لحسابه الخاص ٧ فرنكات ·

ولكن هذه الصورة انما هى صورة نظرية خيالية فهنالك بين مختلف الجهات بالبلاد وبين مختلف الطبقات الاجتماعية وبين عديد الجنسيات من عظيم الفروق فى مستوات العيش ما يجعل كل محاولة للوصول الى صورة وسطى فاشلـة خالية من كل مدلول

وقد حاول بعضهم ان يتتبع الاستهلاك السنوى لكل مساكن بالنسبـة الى المواد الاساسية كالزيت او السكر ـ فلوحظ هكذا ان استهلاك الزيت من كل ساكن قد رتفع من ٨ كغ (فى العشر سنوات ١٩١٧ ـ ١٩٢٦) الى ٩ كغ فى

(١) ج· لبيدى : « البلاد التونسية حسب الخط البيانى »

المدة ١٩٤٧ ـ ١٩٥٤ (١) ٠ واذا علم ما للزيت من وظيفة رئيسية في غذاء التونسي انه لا يمكن ان يقال ان هناك تحسنا حقيقيا ذا اهمية ٠ وبالعكس ان استهلاك السكر بين الفترتين قد ارتفع من ٨،٤ كغ الى ١٤،٤ كغ ٠ على ان هذا الارتفاع في الكمية لا يفيد بحال تحسنا في ظروف المعاش اذ هو مرتبط ارتباطا متينا بتحضير الشاى الذى تضاعف استهلاكه تضاعفا تقريبا بين الفترتين (فمر من ٤٠١ غ الى ٧٢٠ غ) ٠ واذا علم كبير الشغف بالشاى الذى استهوى التونسيين ـ ولو اتعسهم حظا ـ منذ ثلاثين عاما انه لا يدرى هل في هذا التطور نعمة لهم او نقمة عليهم ٠ فبعضهم يعتبر معاقرة الشاى ككارثة عظيمة (٢) وبعضهم يطبل ويزمر مغنيا بفضائل هذا الشراب وخاصياته المنشطة (٣) ـ ومهما يكن من الامر فليس هنالك حقيقة عنصر اجابى يفيد ارتفاعا في مستوى العيش للتونسي الوسط ٠

هذا وان تعذر ان يلوح من الاحصائيات المقتصرة على المعدل النظرى اى استنتاج قطعي او تقريبي فبالعكس ان البحوث الحديثة المتعلقة بمستويات العيش في الوسط المدني او البرى تمكنت فيما يظهر من ضبط الواقع وحصره حصرا

مستوى العيش في الوسط المدني

من الجدير بالملاحظة قبل كل شيء ما لعاصمة تونس من مكانة رئيسية تحل المحل الارفع ٠ فيلاحظ الحكيم م٠ وزان ملاحظة قيمة (١) : « بينما لا تمثل تونس سوى ٪١١ من جملة السكان (٣٦٥٠٠٠ من جملة ٣٢٠٠٠٠٠ ساكن) هي تستحوذ على ٪٣٧ من اللحوم (٦٧٠٠ طن) و ٪٣٢ من البقول والخضر (٥١٠٠٠ طن) و ٪ ٣٨ من الثمار (٢٦١٠٠ طن) ونحو ٪٦٠ من السمك الطرى (٥٧٣٣ طنا) ٠ وفي المعدل تستعمل تونس ⅓٪ مجموع المواد بالبلاد التونسية

---

(١) عن ج٠ لبيدى « اهالى البلاد التونسية »

(٢) الحكيم م٠ وزان « المشكل الغذائي بتونس » (بتونس الطبية) افريل ١٩٤٩ ص ٣٠٥

(٣) ر٠ صباغ : « بحث عن اجراء جهة تونس » ص ٤١ تعليق ٣

(١) الحكيم م٠ وزان : الكتاب المذكور ص ٣٠٣

وفي ذلك ما ينقص من الحصة التابعة لسائر الجهات تنقيصا ذا بال »

وما قيل في مواد التغذية هو اصح بالنسبة للملابس ولادوات رغد العيش وللظروف الصحية وللنقل والتعليم ووسائل الراحة او بعبارة اخصر جميع العناصر المكونة لما يدعى مستوى العيش ٠

فالحاضرة واحوازها تختص بما يقرب من نصف المصالح والمواد الاستهلاكية التي ينسج منها مستوى العيش

على انه يكون من الخطا ان يظن ان هنا ايضا ـ في هذا المجال الضيق ـ بعض التعديل الاجتماعي يبرر وحدة المعدل ـ فبحاضرة تونس ـ كما بسائر البلاد التونسية ـ مشتبك من مستويات العيش تتجاور فيها افضح الشقاوة والتعاسة مع اقبح الترف والبذخ

ويلوح ذلك قبل كل شيء في انواع الاجناس ـ فاذا وضعنا نفوسنا في اطار الحصص الغذائية الحرارية نلاحظ ان المحرومين منها (اقل من ٢٤٠٠ وحدة حرارية في اليوم ينقسمون بتونس الى الانواع التالية : ١٠٪ عند الفرنسيين و ٢٦٪ من الايطاليين و ٢٦٪ من الاسرائليين و ٣٦٪ من المسلمين(١) ـ ثم ان الحصة الحرارية لا تفيد الا فائدة تقريبية فيما يخص الحصة الغذائية ٠ انه يهتم اهتماما متزايدا بالتوازن الغذائي اي بالترتيب الداخلي لمجموع الوحدات الحرارية بين بعض المواد الصالحة للوقاية التي تمنع الجسد من نقص خطير من المواد الغذائية فاذا نظرنا الى توزيع المواد الزلالية الحيوانية اللحوم والسمك والبيض واللبن والجبن) بين سائر المجموعات العنصرية بالحاضرة وقفنا على ملحوظات مفيدة جدا : المسلمون : ٢٠ غ في اليوم ، الفرنسيون : ٦٥ غ٠

فهذا الاستهلاك من المواد الزلالية الحيوانية الذي هو بالنسبة للفرنسيين ثلاثة اضعاف قيمته بالنسبة للمسلمين التونسيين يتضح منه بجلاء الفرق الفادح بينهم في مستوى العيش ٠ وفي هذا ما يؤكد ما وقفنا عليه من ميزانيتهما في باب المداخيل ٠

---

(١) حسب بحوث المصلحة التونسية للبحوث العلمية ومعهد الدراسات العليا ومصلحة الاحصائيات الملخصة بالمجلة الاقتصادية والاجتماعية بتونس جويلية ١٩٥٢ ص ٤٣

ولكن ما هو القسط المخصص من هذه الميزانيات للمصاريف الغذائية ، فهناك دليل كبير الفائدة ٠

فقد تقرر بعد عدة دراسات على الاغذية فيما يربو عن ثلاثين بلدا ان نسبة النفقات الغذائية من عامة النفقات تزداد كلما صار الانتاج وضيعا (١) وهذه القاعدة القريبة من العامة — التى تقرر انه كلما كان الانتاج وضيعا كانت النفقات الغذائية قوية — هذه القاعدة تصح فيما يخص البلاد التونسية

وقد تكون اداة يسيرة تمكننا — اذا علمنا هذه النسبة — ان نتحصل على نسبة تقريبية من مستوى العيش ، وفيما يخص مجموعة الحاضرة التونسية يلوح من البحث المذكور ان النسبة المائوية المخصصة للغذاء فى الميزانية العائلية اقوى من ٪٩٠ لدى ٪٥٦ من المسلمين ، وهى بين ٦٠ و ٪٩٠ لدى ٪٣٦،٣ منهم بينما بين الفرنسيين من ١٠٠ شخص هناك ٣٠ يخصصون لغذائهم اقل من ٪ ٦٠ من ميزانيتهم و ٤٢ يخصصون بين ٦٠ و ٪ ٩٠ ٠ ونلاحظ على وجه الشبه ان النفقات الغذائية بالولايات المتحدة تستغرق ٪ ٣٠ من الانتاج العائلى ٠ فالامر الاوضح اذا هو ان ٪ ٥٦ من المسلمين التونسيين ينفقون اكثر من ٪ ٩٠ من مداخيلهم فى النفقات الغذائية — فما يبقى اذا لمجابهة نفقات اللباس والمسكن والتاثيث والمساعدة الصحية والنقل وتربية الابناء وسائر حاجيات الحياة ؟ ومن الممكن ان يتخيل الانسان ما ينطوى تحت هذه المشكلة من المئاسى اليومية ٠

فالبحث « على ماجورى جهة تونس » التى قام به ب ٠ صباغ بمعية بعض المساعدين فى اطار « الحوار العالمى حول مستويات العيش بالبلاد التونسية » يميط الستار بعض الشىء عن هذه الناحية المؤلمة ٠

ومن جملة ١٠٠ تونسى مسلم وقعت دراستهم (والمقصود من التونسيين هنا لعملة) كان ٩،٣ فى « رفاهية نسبية » و١٦،٩ فى «ضنك» و ٢٠ فى « ادقاع يشرف على الغرق » ، وفى الحال نفسه يتوزع الاروبيون على هذه الاقسام على النسبة التالية : ٤٤ فى رفاهية نسبية و ٢٤ فى ضنك و٢٤ فى فاقة و٨ فى تعاسة وصفر فى ادقاع يشرف على الغرق ٠ (ص ٧٤)

واذا فكرنا ان المدروس هو قسم اجتماعى بعينه لا بد ان ننتبه الى هذا الاختيار الذى تؤثر به التعاسة ان تحل بالوسط الاسلامى

ولكن ما يوجد تحت هذا العنوان ، عنوان التعاسة والغرق الذى يتخبط فيه

٪ ٥٤ من التونسيين المسلمين الذين وقع الاهتمام بدراستهم ؟ وهذا هو الجواب الذى اتى به لهذا السؤال (ص ٧٤) :

«التعاسة : قسم يتراوح دخله بين ٤٥٠٠ فرنك و٢٥٠٠ فرنك (شهريا) ـتستغرق النفقات الغذائية ثلاثة ارباع الانتاجات . على ان القسط الغذائى وان اتى بعدد من الحراريات الكافية هو بلا شك قليل الانتظام : فيعوزه ما يصلح من عناصر للافراخ وما يساعد على النمو وما يقوى مقاومة الامراض ـ ويندر ان يشترى فى هذا القسم ثياب جديدة وهنا يعاوض بائعى الثياب القديمة تاجر الكسوات الحاضرة الجديدة . والمسكن ينيره عادة مصباح يستعمل النفط ، هو كوخ قد يحسن باستعمال الحجر والقالب والاجر ، ولكنه مهما يكن من الامر منزل غير صالح فى منطقة عقيمة لا تقرا لاصول الصحة حسابا . وهنا يرتفع عدد الاموات عند ولادة نتيجة لعقم التغذية ولرداءة المسكن . وتتضاءل دواعى الراحة بل هى قد تنعدم انعداما

الادقاع المشرف على الغرق : نسبة تقل عن ٢٥٠٠ فرنك وتتراوح النفقات الغذائية حول ٪ ٧٥ فى المائة من النفقات جملتها

ولا يصل الغذاء القدر الكافى ولو من ناحية الكمية . ويعاوض عقم التغذية انعدامها والاعواز العضوى ، ويندر ان يخصص مال لاقتناء الثياب وما الكسوة الا اسمال بالية ، والمنزل احقر ما يكون كوخ من « الطوب » ينيره النفط يتكدس فيه الرجل والمراة والصغار . ويجتمع الكل حول الكانون تغلى عليه مغلاة التاى .... ويدفع مقابل ذلك خصاصة واحجاف خطيرين ـ ولا يولد طفل من ثلاثة او اربعة اطفال الا ليموت فى الحال . وتلوح الحياة نفسها كقمار مستمر ومخاطرة دائمة . »

مستوى العيش فى الوسط البرى ، فكيف يكون الشان اذا فيما يخص الارياف التونسية وخاصة فى المناطق القاحلة المعوزة بالوسط والجنوب واذا كان مشهد هذا الادقاع بحاضرة تونس يباع بقدر ٢٥٠٠ فرنك فى الشهر ، كيف يمكن ان يوصف حال ٢٧٠٠٠٠٠من التونسيين حظهم الشهرى يترواح بين ١٣٣٠ فرنكا و ١٦٦٠ فرنكا ؟ واى عنوان يمكن ان يعنون به هذا الغرق الجماعى ؟ واذا ما جبنا السباسب التونسية نذكر بكل الحاح هذه الفقرة من لا برويار : « يشاهد بعض الحيونات الضارية موزعة على الفلاة

سوداء مسلوبة من الدم ، قد صهرتها الشمس ، متمسكة بالارض تحفر فيها وتخدش، جادة مثابرة ٠

لهؤلاء الحيوانات صوت مركب ، واذا ما قام احدها على سوقه اذا له وجه بشرى ، وفعلا ، هؤلاء هم م نجنس البشر ، ياوون ليلا الى جحور يعيشون فيها بالخبز الاسود والماء وجذور النبات ، وهم يعصمون بقية البشر من عناء الزراعة والحرث والجنى لكى يعيشوا ، وهم حقيقون الا يعوزهم هذا الخبز الذى هم زرعوا قمحه ٠ »

فماذا يكون قول لا برويار لو مرت سياحته ، لا «بفرنسا اللذيذة» ، ولكن بالفلوات التونسية بالسباسب الوسطى والجنوبية ، فى سنة من سنى الجدب ؟

وهناك بحث قديم (١٩٣٧ ـ ١٩٣٨) قام به بنزاهته المعهودة الحكيم برنى يتعلق بغذاء الفلاحين التونسيين، وفى هذا البحث ما ياتى ببعض التوضيحات فى هذه المادة ٠ فمن جملة ١٠٠ عائلة وقعت دراستها ، كان ١٥ فى حالة انحطاط من الناحية الغذائية انحطاط ثابت واضح (١٥٠٠ الى ٢٠٠٠ وحدة حرارية) و ١٧ فى تعاسة شاملة (اقل من ١٠٠٠ وحدة) ٠ وسبر الحكيم عدة عناصر اخرى مما اداه الى ان يلاحظ وجود مجموع فى وحدات الحرارة قدره ٤٣٠ (الملاحظة عدد ١٢) ومجموع قدره ٤٠٥ (ملاحظة ١١) و ٣٣٠ ملاحظة ١٤) و ٢٨٠ (ملاحظة ١٣) فكان استنتاجه وجود « مجاعة هائلة لا يمكن ان يتصورها الخيال »

وهذه الوحدات الحرارية التى يذكرها الحكيم برنى ليست ناشئة عن فخذ العجول اوجبنة شانطيى ٠

وهذا الدكتور وزان يوضح لنا محتوى الوجبة الغذائية : « ونبلغ الى الدرجات الوضعية من الاجور ، حيث نجد ارقاما منحطة جدا ، تحاذى الالف وحدة من وحدات الحرارة ونتصور فى هذه الحالة ان بعض النباتات التى كانت مخصصة عادة للاغنام كالهندى والقرط وبعض ذوات البصل كان لها من يهواها من بنى البشر ، خصوصا فى بعض فترات المجاعة والبطالة » (١)

ومما يؤكد هذا الانحطاط الفادح فى مستوى العيش فى الوسط السبرى

---

(١) الحكيم م٠ وزان « المشكل الغذائى بالبلاد التونسية » ص ٣٠٤

(٢) فى « البلاد التونسية حسب الخط البيانى » باب « الاستهلاك »

ما نشاهد من المكانة الاولى التى يحلها الغذاء فى الميزانية العائليـة ـ فحسب ج· لبيدى ٪ ٨٥ من سكان داخل البلاد التونسية يخصصون ٪ ٨٠ من انتاجهم للنفقات الغذائية · وتتاكد هذه النتيجة حسب بحث حديث(سبتامبر ١٩٥٥) قيم به فى جهة النفيضة فيلوح منه ان ٪ ٩٠ من العائلات المدروسة لا تنفـق فى النفقات المختلفة (ما عدا الغذائية) ما يربو على ٤٠٠٠فرنك سنويا لكل « وحدة من وحدات الاستهلاك » (١) · هذا مع كون الانموذج الـذى وقعت دراسته كان نسبيا من وسط ارفع مـن المتوسـط ، اذ كـانت النفقـات السنوية المعدلة تقدر فيـه بقـدر ٣٤٧٠٠ فرنك ، وقـد شاهدنـا ٤/٥ مـن التونسيين ينتظمون فى سلك النوع الذى يتراوح انتاجه السنوى بين ١٦٠٠٠ و ٢٠٠٠٠ فرنك ·

وعلى كل حال ان جدول توزيع النفقات السنوية الى وحدات استهلاك الذى ضبطه ج ·لبيدى ليجدينا بعض العناصر تمكننا من تقدير مستوى العيش فى الوسط البرى ـ فعامل الفلاحة مثلا المشتغل يوما فيوما لـه من النفـقات فى السنة قدر ٢٨٤٠٠ فرنك وهو يخصص ٪ ٨١ من ميزانيته للقوت (٪ ٥١ منها للحبوب) و ٪ ٤ للباس و ٪ ٥ للمسكن و ٪ ٣ للمعالجة وحفظ الصحة و ٪ ٧ لنفقات مختلفة ·

وان الفقر المنهك لدى صغار الفلاحين التونسيين ، خاصـة فـى اراضـى الوسط والجنوب ، ليتجسم لا فى نوع الغذاء فحسب وغالبا فى انعدام القوت بل وحتى فى ظروف السكنى · فمن لم يشاهد او لم يشرف على هذه الاكواخ التعيسة المصنوعة من التراب المضغوط عليه المغشاة بالتبـن ومـن اغصان الاشجار ، حيث تجمعت اشخاص عراة جائعون ؟ ولا يجدى شيئـا ان نطـيل الحديث عن مزايا حياة الخباء ، خباء الرحالين ، فجمال الرسم نفسه لا يقف امام التعاسة والشقاء ·

وقبل ان نذكر بعض العناصر اللامادية التى تدخل فى تكويـن مستـوى العيش قد يكون من الصالح ان نتعرض الى توزيع مستويات العيش على الجهات

(١) الاستهلاكات مبوبة الى « وحدات استهلاك » حسب سلم تابع للسن

البلاد التونسية — وذاك سعي عسير — اذ كما ذكرنا ان مستوى العيش ليس من «المعطيات البديهية» ، التي يسهل قيسها ،ومن جهة اخرى ليست العلامات التي من شانها ان تسهل معرفتها في متناول الباحث اليوم بالبلاد التونسية على ان م· ج · لبيدي تمكن بفضل بعض المعطيات (١) من خط خريطة جهوية لمستويات العيش بتونس ان لم تكن قد استغرقت عامة المسالـة ، فهي لها على كل حال مزية اذعرضت المشكل وهيات الجواب عليه (انظـر الشكـل ١٦)

واذا ما نظرناها بهذه العين ، هي تمكننا من عدة ملاحظات مفيدة ·

فاذا فرض ان الرقم الوسط لمستوى العيش بتونس هو ١٠٠ نلاحظ فروقا قوية في توزيع العلامات الخارجية لسير العيش على سائر الجهات ·

وان المنطقة المحظوظة بلا شك هي جهة ولاية الحاضرة · وقد لا حظنا قبل هذا التضخم بالعاصمة فيما يخص مواد الاستهلاك الغذائي — ويتاكد هـذا التضخم بالنسبة للعلامات التابعة للترف · وسنرى ان الاختـلال افضـع بالنسبة للحياة الثقافية والصحية ·

وليس من الضروري ان نعيد دائما القول ان ذلك ناشيء عن وجود معظم السكان الاروبيين بمنطقة تونس ، وهم — كما اوضحت ذلـك جليا ارقـام الانتـاج السنوي — هم اعلى مستوى في المعاش من عامة السكان التونسيين

ثم ان الرتبة الثانية يحلها ما كان سابقا اعمال بنزرت وماطر ومجاز الباب ويبرز ذلك في آن واحد بوجود هذا المعقل للاستعمار وبما لهـذه الاراضـي الجميلة من ثروة طبيعية وخصب في القموح ·

على ان اهم عنصر ليس هناك · بل هو يحل في مستوى من العيش لاباس به نسبيا (من ٧٠ الى ١٠٠ من السلم العام) على كافة الجهة الساحليـة مـن بنزرت الى جنوبي صفاقس ، بينما يتضح فقر الوسط والجنوب — وهذا الضبط الموقعي للرفاهية العائلية بالساحل والوطن القبلي ليذكرنا بصفـة مدهشـة خريطة توزيع الزيتونة وكثافة السكان ·

واذا قربنا ثـلاث الخرائط الواحدة من الاخـرى (الاشكال ٥ و ٦ و ١٦) لاحظنا ان البلاد التونسية في الجملة يمكن تقسيمها الى قسمين : قسم يكون فيه اكثر من ٥ اصول من الزيتون في الهكتار (اعمال بنزرت وتونس وسليمان ونابل وسوسة والمنستير والسواسي وجبنيانة وصفاقس) وفي هذا القسـم

تفوق كثافة السكان ٥٠ نسمة فى الكم٢ وهو ايضا القسم الذى يفوق فيه مستوى العيش الرقم ٧٠ من القياس العام

والقسم الذى لا يتجاوز فيه عدد الزيتون الخمسة اصول هو الذى تقل فيه الكثافة عن ٥٠ نسمة فى الكم٢ ولا يتجاوز مستوى العيش فيه الرقم ٧٠ ٠ وان اقل الجهات زيتونا (الوسط والجنوب حيث يوجد اقل من اصل واحدفى الهكتار) هى افقر الجهات سكانا (اقل من ٣٠ فى الكم٢) واحقرها حظا (رقمها القياسى اقل من ٥٠)

وهناك ارتباط جغرافيذو اهمية كبرى ٠ونحنقد اكدنا القول قبلفيمايخص التوازى الموجود بين كثافة الزيتونة وكثافة السكان ، اى فيما يخص اهمية الزيتونة كعنصر لاقرار السكان

ولكن ما يتضح الان من هذا الانطباق بين الخرائط ان هذه الشجرة المباركة ليست تعين على زيادة الكثافة فى الحياة البشرية فحسب بل هى تمكن من مستوى من العيش لاباس به نسبيا ـ وذاك امر من اليسير فهمه ، فلو لمتكن الزيتونة مورد ثروة لائقة لما كان لها مالها من الجاذبية على العنصر البشرى ـ وان من جاب الساحل وسبر حياته ،حياة جبح مرخ زاه، فصل جنى الزيتون ، حينيجرى السائل الذهبى من المعاصر، ويحلسرور العيششعبا ناشطا منظما شاعرا انه يبنى اسبابرفاهيته العائلية ٠٠ ثم رمى بنفسه بمهامه السباسب بجلاص والهمامة والقصرين واولاد عون واولاد عيار ، حيث تحول جلبابالغابة الساحلية الجميلة الى ارض بيضاء قاحلة ، لا يوجد فيها سوى قليل من الشعب ونادر منالكلا وسوى بعضالحسلات منالحنفاء ،حيث يسرعالسير بعضالاعراب الرحالة سائقين امامهم قطعانهم العجاف من الاغنام ، وحيث ضاع كل اثر من الحياة المدنية المنظمة ، ٠٠٠ هناك يفهم المسافر ما للزيتونة من قيمة كمحور لكل حضارة ومدار لكل مدنية ٠

فلا نزيد تأكيدا على ما لهذه الشجرة من الوظيفة الاساسية وما سيكون لها من القيمة فى البلاد التونسية

نعم ، ان التصنيع التدريجى هو عامل حسن للازدهار الاقتصادى والاجتماعى ولكنه لا يمكنه ـ رغم التمويلات الضخمة ـ ان يستخدم اكثر من بضع الآلاف ـ او فى احسن افتراض ـ بضع العشرات منالآلاف من العملة الجدد ، اذ يقدر

في المعدل انه ينبغي استعمال راس مال قدره مليون من الفرنكات لجنى ما يلزم من العمل لعامل واحد

بينما سياسة الزيتونة ، اذا ما سلكت سلوكا منطقيا ، هي وحدها الكفيلة بعد مدة ، بحل مشكل التضخم التناسلى للاهالى التونسيين ، اذ هى تمكن من اقرار الملايين من التونسيين وربطهم بالارض وتمكينهم من حياة مادية لائقة كريمة . وهنبعل الذى لم يكن من اعظم العبقريات العسكرية فحسب بل كان سياسيا ملما بما للواقع الاقتصادى الافريقى من شخصية قد لاحت له قيمة الزيتونةالاجتماعية بهذا البلد ويظهر انهسلك سياسةالتشجير الى اقصىحد(١)

هدانا الله لعين الطريق ووفقنا الى اتباعها الى اقصى حد ممكن !

ـ ٣ ـ ما لمستوى العيش من العناصر الصحية والثقافية

اذا كان اربع اخماس الاهالى التونسيين ـ مثل ماشاهدنا ـ معوزين من الناحية الغذائية ، اوهم محتاجون اتم الاحتياج واذا كان مسكنهم حقيرا كثيرا ما يكون منافيا لظروف الصحة ، وبالجملة اذا كانت تلوح عليهم العلامات الظاهرية لمستوى العيش الوضيع الحقير فهل هم يتسلون بما لهم من الجهاز الصحى والثقافى اللذين فى امكانهما ان يتداركا هؤلاء الاهالى وان يحمياهم من فضائع المرض وازمات الجهالة ؟

فهذا الهيكل الصحى والثقافى للبلاد قد يمدنا بالجواب على هذا السؤال .

ففى سنة ١٩٥٥ كان الجهاز الصحى بالبلاد التونسية يتلخص من جهة الاشخاص فى ٥٦٦ طبيبا (منهم ١٨٢ تونسيا) و ١٨١ صيدليا (منهم ٨٢ تونسيا) و ٨٢ طبيبا للاسنان (منهم ٣٧ تونسيا) ـ واما عدد الاسرة البيضاء المعدة للمرضى فى المارستانات والمصحات فقد يبلغ سنة ١٩٥٤ عدد ٥٠٤٤ سريرا .

وان هذه الارقام كافية وحدها لاقامة الدليل على ما للجهاز الصحى من القيمة

---

(١) « قد شحن هنبعل معظمالبلاد الافريقية بالزياتين » حسب اوريليوس فكتور (٣٧أ وقدرواه عنه صطيفن قزل « التاريخ القديم لافريقيا الشمالية » جزء ٤ ص ٢٧

الواهية ، على ان توزيع هذا الجهاز حسب الجهات ليلوح منه بكيفية افضع هذا الفقر المدقع ٠

فنكتشف هكذا بكل تفجع انه من جملة ٥٥٠ طبيبا كانوا بالبلاد التونسية سنة ١٩٥٤ اختصت عاصمة تونس واحوازها بعدد ٣٥٦ منهم اعنى ٪٦٤ - اوبعبارة اخرى ان العاصمة واحوازها التى تمثل ٪١٧ من جملة السكان كان لها ٪٦٤ من جملة الساهرين على الصحة - ويلاحظ عين الاختلال الفاحش فى نسبة الصيادلة (١٠٩ بتونس من جملة ١٧٦ سنة ١٩٥٤) ونسبة اطباء الاسنان (٥٣ من ٨١) - وانه لمن الاستهتار فى الفضاعة ما يلوح فى جهاز المستشفيات اذ كان يتجمع فى مستشفيات تونس سنة ١٩٥٤ عدد ٣٠١٤ فراشا بينما لم يتجاوز ما خصص لداخل البلاد عدد ١٣٩١ سريرا ويتضح من دراسة نشرها معهد الدراسات العليا خاصة « بتراب اولاد سيدى عون » مدى ما لهذه الكارثة التابعة لاختلال الاعتدال ٠

فلجملة ١٠٠٠٠٠ ساكن بشمال تونس ٢٢ طبيبا وبالساحل الشرقى ١٠ وبالوسط والجنوب اقل من ٣ - واما من جهة الاسرة فكان للشمال لعين النسبة من السكان ١٠٧ اسرة وللساحل الشرقى ٥٨ وللوسط والجنوب ٢٠ ، ومن جهة الصيادلة احرز الوسط والجنوب قصب السبق : فكان لهما صيدلى لمجموع ١٥٠٠٠٠ من السكان وطبيب اسنان لكل ٥٠٠٠٠٠ ساكن

وهل يفيد التعليق لتوضيح خسارة هذه التجارة وافلاسها ؟

ان الجنوب والوسط بما لهما من ٢٠ سريرا للمرضى بالمستشفيات واقل من ثلاثة اطباء وصيدلى واحد لكل ١٠٠٠٠٠ ساكن لهما حلية العقد وراس ما قيم به لفائدة تونس من الناحية الصحية - وانه ليس فى نيتنا ان ننكر ما قامت بهفرنسا فى هذا الميدان او فى غيره او ان نحط من قيمته ، ولكن انه ينبغى ان نقول وان نكرر انه لا يمكن الحكم على عمل ما بالنسبة الى ما اجرى منه بل بالنسبة الى ما كان من اللازم القيام به ، واذا كانت ثلاثة ارباع بلد من البلدان هذه حال الجهاز الصحى فيها يكون من الاولى ان نسكت والا نقول شيئا ٠ واذا علمنا ان تونس العاصمة لها ٨٠طبيبا لكل ١٠٠٠٠٠ نسمة وان الوسط والجنوب لهما اقل من ٣ اطباء وقفنا على تهاون حقيقى خطير صار من الحتمى ان نجعل حداله ، واذا علمنا انه كان لتونس العاصمة نحو ٨٠٠ سرير

مستشفى لكل ١٠٠٠٠٠ ساكن وللوسط والجنوب ٢٠ لا يمكن ان ينكر مدى هدا الاحتقار الفضيع للحياة البشرية بصفة عامة والتونسية على الخصوص ٠

فصار من الاكيد ومن الواجب المتحتم ان يسعى بشدة الى تفريق متوظفي الصحة من اطباء وغيرهم ونشر الجهاز الصحي نشرا ٠

هذا ولم يكن هذا النقص الجلي ـ ان لم نقل هذا الانعدام التام ـ في الجهاز الطبي في معظم الارياف التونسية ، ليحمينا من تعس آثاره ، فان انعدم الاطباء او كانوا قليلين انه لم ينعدم المرض ٠

وقد لاحظنا قبل ان كارثة موتى الاطفال تحفر سنويا ٣٠٠٠٠ او ٤٠٠٠٠ قبر ـ وقد شاهدنا ان السبب في هذه الكارثة الفادحة انما هو في معظمه من جراء الاسهال وقلة الاعتناء بحفظ الصحة ـ وفي هذا الميدان ان العلم العصري يمكن بكل نجاح من مجابهة هذه الامراض وحينئذ من انقاذ آلاف من البشر من براثين الموت ٠

ومرض الجرب ، وان قد انتقص شيئا ما ، هو الآن من امر الكلوم بالجنوب التونسي ٠ « فالنسبة المائوية من اطفال المدارس المصابين بالجرب هي ٢٪ بتونس العاصمة ، بينما تبلغ هذه النسبة ٪١١،٢ بسوسة و ٪٢٣ بصفاقس و ٪٤٧،٤ بقفصة و ٪٦١،٣ بقابس ، و ٪٧٦،٣ بالحامة و ٪٧٩،٣ بجربة »(١)

« فبالنسبة الى عشرات الآلاف من الاشخاص الذين يفقدون البصر تماما او شيئا ما ، متراكمين في جملة السواقط الاجتماعية فتضيع البلاد التونسية سنويا من ٢٠ الى ٢٥ مليونا من ايام الشغل » (٢) مازال عدد اطباء العيون (١٩ سنة ١٩٥٤) غير كاف لايفي بالحاجة ٠

وخلافا لما يظن بعضهم ان السل هدية من هدايا الحماية ـ وقبل ذلك العصر كانت هذه البلية «نسيا منسيا» (٣) كما كان الامر ايضا بالجزائر قبل ١٨٣٠(٤)

(١) ب، صباغ : « البلاد التونسية » ص ١٧٣

(٢) حسب الحكيم نطاف ، ذكر آنفا

(٣) الحكيم دوبيان ،دراسة على السل بالبلاد التونسية، جوف، باريس ـ ١٩٢٧

(٤) الدكتور جيلو : « لما دخل الفرنسيون الجزائر وجدوا بلادا كاملة لا مدخل للسل اليها ، ويظهر ان سكانها من العرب كانوا في حصانة من هذا المرض » ذكره ل٠ شفالي : « المشكل التناسلي بشمال افريقيا » ص ١٦٠

فسنة ١٩٤٨ كانت نسبة سكان الحاضرة المسلمين الذين اودى بهم مرض السل ١٣،٧٪ (١) وسنة ١٩٥٤ كانت هذه النسبة ٨،٢٪ – وكان انخفاض الوطاة فى هذا المرض (٢) كما فى سائر الامراض تابعا ادق التبع للتقدم الباهر الذى تقدم به الطب فى السنوات الاخيرة وفى جملة بلدان العالم بواسطة الادوية المضادة للجراثيم ٠

وفيما يخص الجهاز الثقافى قد ذكرنا اهمه حين تحدثنا عن التعليم – على انه من المفيد ان نلاحظ ما فى توزيع المدارس على سائر الجهات بتونس من عين التهاون بالوسط والجنوب ٠ فنشاهد من جملة ١٠٠٠ ساكن (ومن بينهم ٢٥٠ فى سن الدراسة) هناك ٥٧ طفلا يزاولون التعلم فى الشمال و ٨١ بالساحل و ٢٥ فى الوسط والجنوب ٠

وسائر العناصر اللامادية التى بها تتيسر ظروف العيش وتحلو الحياة كل ذلك نلاحظ فيه عين الملاحظة فيما يخص توزيعها الجغرافى ٠ فقد شاهدنا فى الابواب السابقة عين الاختلال الفادح القاسى بين الشمال من جهة وبين الوسط والجنوب من جهة اخرى فيما يخص الطرقات والسكك الحديدية والطاقة الكهربائية واشغال الرى والجهاز الفلاحى والتجارى والصناعى ٠

فكأن شيطانا خبيثا جعل همه ان يعزل هذا المنفى الكائن فى الوسط والجنوب عن مظاهر الحضارة وآثار الرقى البشرى ٠

فكان من اعمال العدالة ان كان من اول اعمال الحكومة التونسية فى عهد الاستقلال ان انكبت على هؤلاء المحرومين واهتمت بمصيرهم فانشات «صندوق احياء الوسط والجنوب» الذى من شانه ان يصلح ما اضرهم به هذا الظلم الاجتماعى القديم الذى اثقل كاهلهم علاوة على ما قاسوه من النقمة الجغرافية

وختاما بعد هذه الجولة فى ميدان مستويات العيش نصل الى فكرة واضحة جلية من وسط بشرى ظروف عيشه المادية والصحية والثقافية بلغت الحضيض وادركت مستوى لا احط منه ، هو نهاية المستويات ، مستوى عم ٣/٤ البلاد

---

(١) حسب ب، صباغ : « البلاد التونسية » ص ١٧٣

(٢) ان عدد المصابين بهذا المرض من التلامذة الذين عثر عليهم بواسطة الاشعة آخذ فى النقص حسب التقرير الحديث للحكيم مرار بمناسبة « ايام الامراض الرئوية » بتونس

وما يقرب من ٤/٥ سكانها ولا يمكن العيش العضوى الفيسيولوجى باقل منه
فهذه تونس المستقلة التى غنمت هذا الارث الثقيل امام مشكلة تدعو حقيقة الى الحيرة والقنوط

وكى نتمكن من المحافظة على المستوى الحالى مـن التعاسة والشقـاوة يجب ايضا ان نواجه حاجيات جديدة يحدثها سنويا ما يتزايد من الولادات فكل سنة يولد ١٢٠٠٠٠ تونسى ويموت ٥٤٠٠٠

على انه لا ينبغى ان يفكر فى تصميمات للتجهيز بالنظر الى هذه الزيادة التى قدرها ٦٥٠٠٠ او ٧٠٠٠٠ من التونسيين الجدد اذ هم يولدون وتولد معهـم جميع حاجياتهم التى يفرضها كيانهم • ويكون من المعقول ان نبنى جـدا ولنا باعتبار ١٠٠٠٠٠ من المستهلكين الجدد كل سنة

هذا ولو اعتبرنا رقم التزايد نفسه لكان المجهود جبارا

وحين قدم وزيرنا للمالية الى الصحافة ميزانية التجهيز لسنة ١٩٥٦، قد وضح ما يمثل هذا المجهود قائلا :

« ان تزايد السكان بقدر ٧٠٠٠٠ نسمة سنويا ليفرض زيادة سنوية قدرها ٣،٥ مليار بالنسبة للانتاج القومـى » ـ واذا اردنا ان نضاعف معدل الانتـاج فى ظرف عشرين عاما اى اذا اردنا ان نبلغ به من ٤٦٠٠٠ فرنك الى ٩٢٠٠٠ فرنك ينبغى ان ينمو الانتاج القومى بقدر ٧،٥ مليارات ويكون مجموع النمو الاول والثانى للانتاج القومى قدره ١١ مليارا فى السنة ـ وهذا النمو ليستدعى حسب وزيرنا ، تمويلا سنويا قـدره ٤٠ او ٥٠ مليـارا اى ما يعادل ميزاننا الاعتيادى •

فاذا ما نظرنا هذا المجهود هذه النظرة اذا هو يلوح لنا ، رغم كل ما يضع فيه التونسيون من طموح خلاق ، كعمل عملاقى بل وقد لا يبعث على الطمانينة

الا اننا قد لاحظنا ان معظم ثرواتنا القومية ، مـن ثروات ما تحت ارضنا ، واراضى الاستعمار وخيرات موارد الطاقة ووسائل النقل ، كل ذلـك ما زال خارجا عن تصرفنا • وان فى تاميم ذلك ما يزود البلاد فى الحال بدون شك باكثر من ١١ مليارا من الفرنكات سنويا

على ان فى ذلك حلا موقتا ، وزادا نواجـه به انبعاثنا التناسـلى ، ريثمـا تؤتى ملايين الزياتين التى سوف لا نتوانى على غرسها اكلها وثمرها وانتاجها

٤ _ مشكل التشغيـل

وفى النهاية مدار كل‌شىء على الانسان ،ففى‌الميادين الاقتصادية‌والاجتماعية والثقافية ،هو فى آن واحد « منتج » و « مستهلك » او على لغة الفلاسفة هـو « ذات » و « موضوع » ، وهو مقدر (بالفتح) ومقدر (بالكسر) ٠ فعمليـات احياء الاراضى واستثمار الثروات المادية والبشرية كل ذلك يتعلق به ، كما بالعكس ان مستوى عيشه بل حياته نفسها متاثران تاثرا عميقا بهذه العوامل

وهذا الانسان ، الذى اليه ينتهى كل ما يزمع القيام به بالبلاد التونسيـة ومنه يصدر كل ذلك ، هو فى غالب الاحيان لا شغل له ، اى ليس بين يديـه وسيلة للتمعش ـ ففى بلد كل‌شىء فيه يتمخض للانشاء والتشييد اى فى بلد يحتاج ـ او يجب ان يحتاج ـ الى جميع السواعد للحرث والـزراعة واحيـاء الارض والنسج والتنقيب والحفر والتشييد ، او بعبارة اخصر فى بلـد ليس العمل فيه بقليل ليس عدد البطالين الذين يعوزهم الشغل بقليل !

وقبل ان نخوض غمار هذا الوضع المنافـى للمنطق يجـدر بنا ان نحيـط بالمشكل لنحدده ونضبط عناصره ، وان ندقق قبل كل شـىء تلك المعانـى المبهمة المطموسة المعالم التى اعتدنا فى هذه البلاد وفى محادثاتنا المحليـة ان نتلاطم بها وان نرمى بها ادمغتنا من بطالة ومعوزى الشغل ، والطبقة الوضيعة الشغيلـة

فيوجد بالبلاد التونسية عمال يستخدمون على الدوام او ما يقرب من ذلـك فى الجملة كما نجد ذلك بالبلدان الصناعية او شبه الصناعية ، وهؤلاء العمـال هم الذين يستخدمون فى المناجم التونسية حيث يبلغ عددهم خمسـة عشـر الفا ، ومن منهم يستعمل فى الشركات التى تستخدم اكثر من ٥٠ عاملا ويبلغ عددهم حسب احصائية حديثة ٦٣٠٠٠ نفر ٠

واما البقية ، من يستخدمون فى معامل اقل اهمية ، فكم عددهم يا تـرى ؟ نحن لا نعلم عن ذلك شيئا حتى‌الان ،وفى الحالة الراهنة التى‌عليها احصائياتنا ينبغى ان نقتصر على اعداد تقريبية بعيدة عن الضبط والدقة

وضمن هذه المجموعة الشغيلة هناك الوان متنوعة تنوعا عجيبا لا من حيث وجوه النشاط فحسب بل وحتى فى شكل التشغيل نفسه

ولنضرب لك مثلا بالزراعة ، وهى بدون شك اهم المناطق ٠

فالفلاح الصغير هو فى غالب الاحيان العامل المباشر بنفسه ، وهو يشتغل بنفسه وبمعية من فيعائلته من النساء والاطفال لاستغلال ارضه ، واذا نظرت « كدرونه » او « قشابيته » المرقعة لا يمكنك ان تميزه عن جمع العمال الذين يعملون حوله ، لا من حيث الهياة ولا الانتاج او نوع العيش • واذا اعتمدنا البحث الذى قامت به المصلحة التونسية للاحصائيات بالجهة البرية من النفيضة فى شهر سبتامبر ١٩٥٥ ، حيث كان البحث يهم ٢٠٠٠٠ شخص ، نجد ان انتاج الفلاح الملاك يبلغ سنويا قدر ٤١٥٠٠ فرنك بينما يبلغ العامل الفلاحى القار ٤١٠٠٠ فرنك والفلاح المتسوغ للارض ٣٣١٠٠ فرنك •

فهذه نتائج واضحة الدليل فيما يخص التقسيم النسبى للسلم الاجتماعى بالبلاد التونسية ، فالفلاح الصغير المستغل للارض لا يمكن اعتباره كاجير ، على انه خدام كالعامل الاجير له ما له من الانتاج السنوى او هو انتاجه اقل من انتاج العامل الزراعى كما يلوح ذلك جليا من مثال النفيضة • فايهما احقر حظا يا ترى ؟

وصغار الفلاحين هؤلاء الذين يعيشون بما تجدى به عليهم قطعة ارضهم ليسوا امرا استثنائيا ، بل هم بدون شك المجموعة الاجتماعية التى يتفوق عددها ، اذ هم ٤٠٠٠٠٠ او ٥٠٠٠٠٠ او هم اكثر من ذلك ، واضف اليهم عائلاتهم تبلغ هكذا على الاقل ٢/٣ السكان باجمعهم • ولكن فيما يخص هذه الطبقة التى هى حقيقة القاعدة ذات الاهمية التى يرتكز عليها المجتمع التونسى هل يمكن ان نقول ان هناك اعرافا اوراس مال نعارض بهم — حسب جمال العادة الغربية — الطبقة الشغيلة المستغلة استغلالا فادحا ؟

ولهذا السؤال اهمية حيوية لمصير البلاد •

نحن لا نظن ، ولا يمكن ان نظن ان لاحديهما حظا يغبط عليه بالنسبة الى الاخر ، او انه يمكن ان يعارض احدهما بالاخر وان يقابله ويضاده او يطمع فى التحسن على ظهر الاخر

فلذا ان يزمع انشاء فكرة الطبقات وتطاحن الطبقات والشنان المقسم للطبقات ، كل ذلك لا معنى له ولا محل له من الاعراب ، اذ هو لا يرتكزعلى دعامة اجتماعية ولا على اى واقع اقتصادى بل هو فيه ادهى خطر يمكن ان يهدد وحدة الامة ، مقسما اياها تقسيما اصطناعيا ، موسعا الشقة بين ابنائها العاملين ، حافرا بينهم جبا عميقا •••

فاذا كان « العرف » ، حسب التعبير العذب للغرب والمركسية ، فى حالة من التعاسة والعراء تطاهى حالة العامل ، لا موجب للدفاع عن مصالح احدهما اكثر من المدافعة عما للاخر من مصالح ، خصوصا اذا تضادت المصلحتان •

واذا لم يكن الاعراب الرحالة عملة نقابيين — لم اسمع بنقابة للرحالة — فليس فى ذلك ما يكفى لئلا نهتم بحالهم او لان نجعل لها اهمية ثانوية ، جاعلين الاولوية « للماجورين » الذين علموا كيف يجتمعون ويتحدون ويتظمون

على ان ما صح فى حق الفلاح الصغير يصح فيما يخص الصانع التقليدى الصغير ، فى الاسواق ، والصياد وبصفة عامة رب الصناعة الصغيرة • فالفرق الذى يكون بين مستواه الاجتماعى وبين مستوى عامله الماجور يكون احيانا ضئيلا بل قد يتجاوزه هو نفسه لفائدة الماجور

وكم مرة شاهدنا — وهناك آلاف منهم ، « اعرافا » فلاحين او صناعا او صيادين او مربين للاغنام ، افلسوا واجتازوا الجسر الحقير فتضخم بهم عدد الطبقة التعيسة التى تتجمع حول المدن ؟

فاسالو جمع البطالين بخرب الجبل الاحمر تجدوا الخبر اليقين (١)

ولنرجع الان للعمال الزراعيين ، فهم لا يكونون عملة كلهم (دائمون) بل منهم من هم عملة «من فصل الى آخر» • على انه ينبغى ان نتفق على مدلول لفظة «عملة دائمون» • فالعملة الفلاحيون الدائمون هم الذين يعملون فى موقع قار بمزرعة كبيرة او صغيرة ، وهم فى الواقع لا يتصفون بصفة «الديمومة» اكثر من العملة الفصليين ومدة عملهم تابعة لدورة الاعمال الزراعية التى لا تتغير — وهى الحرث والزراعة فى الخريف والحصاد فى الصيف وتلك هى الاعمال التى توفر لهم اكثر ما يمكن من العمل ، وان كانوا يجدون فى جنى الزيتون وقطف العنب مدخلا للاشتغال لاباس به — ولكن اذا تمت اعمال الحقل وجد العملة الدائمون انفسهم فى راحة جبرية • وفى ذلك بالطبع ما فيه من التخفيض من انتاجهم • ولكن كيف العمل؟ واذا لم تستنبط زراعات متممة للاولى فى الوقت

---

(١) «ربض فى خفاء بتونس : الجبل الاحمر (قد ذكر) يوضح ان اصل السكان بهذه الخرب برى : فهم شبه مستقرين استقروا اثر جفاف ١٩٤٥ — ١٩٤٨ من جهة ومن جهة اخرى فلاحو باجة وسوق الخميس ووادى مجردة الذين استحال عليهم متابعة استغلال ارضهم » (ص ٢١٨)

كيف يمكننا ان نذكر فى شانهم التشغيل العام او ان نضبط مدة العمل ؟

هذا وان القانون الضابط للعملة الزراعيين صار نافذ المفعول منذ غرة ماى ١٩٥٦ وهو يوفر ضمانات مهمة لهذه الطبقة من الشغالين • فهو يضبط من جهة المدة الدنيا للاشتغال وهى تختلف باختلاف الجهات ويقرر من جهة اخرى اجرا ادنى يتراوح بين ٣٠٠ فرنك و ٢٥٠ فرنك فى اليوم حسب المناطق الزراعية ، وتضاف الى ذلك منح الصابة (١٠٪) ومنح الاقدمية (من ٥٪ الى ١٥٪) • ويقرر هذا القانون ايضا منح غرامة للعامل عند رفضه ويقرر راحة اسبوعية والحق فى التمتع بالمنح العائلية وبمنحة الشيخوخة

وذاك تقدم اجتماعي ذو اهمية لفائدة طبقة شغيلة لها عظيم المزايا ، ولكن كل المشكل هو ان نعلم هل فى امكان الفلاح التونسى الصغير ، وقد قصر فى رقعة محدودة من الارض الكالحة يتخبط فيها ، هل فى امكانه ان يواجه هذه الواجبات الجديدة ، وهل فى امكان فلاحة معدل انتاجها فى القموح فى الخمس والعشرين سنة الاخيرة بين ٤،١ و ٥،٩ فى الشمال وبين ٠،٥ و ٢،٢ فى الوسط والجنوب ان تتحمل هذه المصاريف • انه لم يمر على ذلك من الوقت ما يكفى للتمكن من الجواب عن هذا السؤال

على انه يمكن ان نتساءل لماذا يكون العملة « الصيافة » — الذين لهم من الموارد مقادير ضئيلة جدا بالنسبة للصنف « الدائم » — اقل حظا منهم ولماذا لم يعن بهم مثلهم ؟

وازاء العملة الفلاحيين وعملة المناجم والماجورين فى المعامل الصناعيةواعوان الصناع التقليديين ، والعملة الدائمين بالمدن هناك جموع غفيرة من العمال اليوميين الصالحين لسائر الاعمال المتقلبين بين سائرها ، الباحثين عن الرزق بالمدن ، وخاصة بتونس ، والذين هم فى غالب الاحيان فى حالة بطالة ، وفى تعاسة مدقعة كثيرا ما تصل الشحاذة وما ترمى بهم فى الجناية

وهناك عدة دراسات حديثة عنيت بسبر غور التعاسة بالخرب المحيطة بالمدينة كالسوار وباحياء العملة التعيسة (١) — ولكن هذا التيار الجارف لعديمى الشغل الراحلين نحو المدن المتشبعة من الا يدى العاملة هو كبير الضرر

---

(١) دردال والقليبى : النشرة المذكورة ، ب• صباغ : ذكر ايضا ، أ : عتال: « حى الخرب بالملاسين »

لهم انفسهم وللمدينة ايضا ـ وذاك ما يلاحظه ـ والصواب فى هذه الملاحظة ـ تقرير الاتحاد العام التونسى للشغل :

« تلوح لنا هذه الهجرة ... اصلا لعدة كوارث ـ فهؤلاء اناس قصدوا المدينة اذ طردتهم الارض ، هم قصدوا مدينة لم تدعهم اليها ولم تكن فى حاجة اليهم ، ولم تكن لتمنحهم ما حرمتهم الارض ، بل لنخط خطوة اخرى ، فنلاحظ انه كان يتعذر على المدينة ان تستخدمهم بقدر ما لم تؤهلهم تربيتهم لاى شغل صناعى » (ص ٢٠)

وهكذا ها نحن امام هذه الماساة العظمى ، ماساة « المحرومين من الشغل » ونحن لا نقول بطالة اذ تستدعى البطالة وجود عمل وقع التعطيل عنه ، فهناك بطالون ، بالمعنى المعهود لهذا اللفظ ، فى الصناعة التقليدية او العصرية ولكن ذلك هو النادر ، وجملة «البطالين» ليس لهم شغل بل لم يحترفوا ابدا اى حرفة ، وهم يحاولون ان يقفوا الانفسهم على حرفة فى الوقت نفسه الذى يؤملون فيه ان يتحصلوا على عمل ما ؟ والله برحمته الواسعة يؤتى جميع عباده اكلهم ، وتلك عصابة « المحرومين من الشغل » عديدة العدد ، ذلك العبء الاجتماعى الذى يتثاقل ويتضخم يوما فيوما .

ولنحط بعض الشيء بمدى هذه الكارثة فكم هم هؤلاء المترشحون الى الشغل الذين يرقبون المن والسلوى فى عامة البلاد للحصول عما يسد رمقهم ؟
انها لم توجد بالبلاد التونسية اى احصائية للبطالة او « الحرمان من الشغل »

ولكن سنحاول ان نتخطى هذه العقبة،فهذا عدد مجموع السكان الناشطين ٩٥٤٠٠٠ (احدث احصائية) فيه ما يكفى لتمام الفائدة ـ اذ نحن نعلم ان جملة السكان تقارب ٣٨٠٠٠٠٠ نسمة ، ونسبة الناشطين تلوح ضئيلة جدا وتثقل كاهل من هم اهل للتشغيل (نسبة واحد الى اربعة) وذاك ناشىء عن هيكل السكان ببلد شاب يعد ٤٢ طفلا لا يفوق عمرهم ١٥ سنة من جملة ١٠٠ ساكن

ومن بين هؤلاء السكان الناشطين ـ او قل من من شانهم ان يكونوا ناشطين ـ وان كانت نسبتهم ضئيلة وان كان عليهم ان يقوموا بشؤون الباقين العديدين ، فمع ذلك، الثلث منهم على الاقل محروم من الشغل

وكيف نصل الى هذه النسبة ؟ نتوصل اليها خاصة بالنظر فى الاحصائيات الواردة من حظائر الشغل للبطالين ....

ان هذه الحظائر مبدئيا تهب الشغل للبطالين : ١٥ يوما كل شهرين من فترات الفراغ • واذا كان الاجر ٣٠٠ فرنكا او ٣٥٠ فرنكا يوميا تجمع لهم كل شهرين من ٤٥٠٠ الى ٥٢٥٠ فرنكا اى ما يقارب ٨٠ فرنكا فى اليوم ، واذا فكرنا ان كل بطال على عاتقه القيام بشؤون عائلة معدل افرادها اربعة اشخاص تصورنا مدى ما اجداه هذا العمل من الغنم !

وحظائر الشغل هذه التى كان فى الامكان ان تجدى نفعا عميما لتجهيز البلاد فيما يخص الاعمال الصغيرة للرى والطرقات وغرس الاشجار واشادة المدارس والمستشفيات انما استعملت فى الجملة فى اشغال اقل ما يقال فيها ان صلوحيتها مشكوك فيها كقلع العشب من السواقى والحفر •

وعلى كل فقد كان لها من النفع ان افادتنا بفكرة تقريبية عن عدد المحرومين من الشغل بكل منطقة •

وكان جملة المحرومين المسجلة اسماؤهم بكافة البلاد التونسية ٣٣٥٠٠٠ نعم ان كل شخص مسجل ليس حتميا بطالا « دائما » • فهؤلاء فى غالب الاحيان وفى آن واحد بطالون « وقتيون » وعمال « وقتيون » • وانه لمن العسير ان يميز هذا المجموع بين المحرومين الوقتيين من الشغل وبين من حرموه طول السنة ، بل وبين الماجورين انفسهم وبين صغار الفلاحين الذين مسهم الافلاس وبين الاعراب الرحل الذين غادروا رحلة الانتجاع •

وان الجهات التى اصابتها هذه المصيبة بكيفية فادحة خطيرة هى بدون منازع احواز العاصمة ولكن على الاخص الوسط والجنوب • فاذا كانت جهات الشمال الثرية بها نسبة ضعيفة فى الجملة من الافراد الذين وقعت اعانتهم بالنسبة الى السكان الذكور فى سن النشاط (سوق الاربعاء ٪ ٩ ماطر ٪ ١٧ سوق الخميس ٪ ١٣ سليمان ٪ ٦) فالسوار الاهل المحيط بتونس تبلغ فيه هذه النسبة ٪ ٥٩ وبالساحل والوسط اكثر من٪ ٥٠ وبالجنوب ٪ ٨٠ فهذا التوزيع الجهوى لمحرومى الشغل يذكرنا فى الجملة فى توزيع مستويات العيش ، وكل القرائن تتظافر لتؤكد ما اصاب الاعضاء السفلى للبلاد ، الوسط والجنوب ، من الشلل الذى تترامى منه آثار مفزعة نحو الجهات العليا •

هذا وان مشكل التشغيل ليس القصد منه فحسب ان نوجد الشكل لجيوش الجائعين بل هو يرمى ايضا كل سنة الى ترسيم كل من بلغ سن الرجولة

وزاد الطين بلة بتضخيم عدد البطالين ٠

ويقدر الان عدد الشبان الذين يبلغون كل سنة العشرين من العمر بقدر ٣٣٦٠٠ شاب ، وهذا العدد في ازدياد كل سنة ٠ ثم ان العنصر النسائي سيسعى شيئا فشيئا الى احتلال سائر المناصب فى الحياة التونسية وستتكون هكذا مزاحمة ذات اهمية لجمع الذكور

وان كان عدد المحرومين من الشغل عظيما فى الوقت الحاضر فهو سيتضخم كل سنة اذا كان عدد مناصب العمل الجديدة اقل من عدد المترشحين الجدد للعمل

والمشكل هو نفسه بالنسبة للتعليم ، فنحن قد لاحظنا انه اذ ابقى عدد الصغار المقبولين كل سنة فى المدارس اقل من عدد من هم بلغوا سن الدراسة تتاخر حركة التعليم اذ يزداد كل سنة عدد المحرومين منه ٠

وكذلك ايضا اذا كانت ابواب التشغيل الجديدة اقل من عدد الاشخاص الذين بلغوا سن الشغل ، سيتضخم عدد المحرومين من العمال بلا انقطاع وسيتعكر مشكل البطالة

ولكن من الناحية التطبيقية ان المعطيات الحالية لهذا المشكل تخالف بعض الشيء ــ وبصفة موقتة ــ هذه النظرة ٠

وينبغي ان نلاحظ انه ان « قدم » الى فترة النشاط كل سنة عدد من القادمين » ، هناك ايضا عدد من « الذاهبين » يشغر بذهابهم عدد من المناصب فمنجملة المترشحين الجدد وعددهم٣٣٦٠٠ كلسنة، يحتل نحو العشرةالالاف البقاع التى شغرت بموجب الوفاة او التقاعد او الشيخوخة ــ وما زاد على ذلك يجد متمما للعمل يقدر بنحو ٢٠٠٠ منصب فى حركة نشر التصنيع وبعث التجهيز ٠ فيبقى هكذا ما يقرب من ٢٠٠٠٠ بطال يتضخم بهم عدد البطالين كل سنة ــ هذا وان تونسة الادارات التونسية اليوم وهجرة عدد عديد من الموظفين والعملة الاروبيين كل ذلك فتح فتحات جديدة فى وجه التونسيين ٠

ولكن اذا كان هذا الانخراط الوقتى يمكن بعض الشيء من الحط من عدد المحرومين من العمل ويخفف ما يرهق الشباب من وساوس البطالة ، لا ينبغى ان نستنتج منه ان التونسى العاقل المفكر يتمنى ان يغادر الفرنسيون كلهم على السواء البلاد التونسية او يسعى فى بعثهم على هذه المغادرة ــ فمن منهم ينوى العمل بصدق لصالح الامة التونسية المستقلة ومن فيهم الكفاءة لهذا

العمل اولائك دائما نقبلهم على الرحب والسعة ، ولم تترك الحكومة التونسية اى مناسبة للتصريح بذلك بدون التواء او تردد ٠

فهناك — وسيبقى دائما — مقام ذو بال لذوى الكفاءة والنية الصالحة لبعث النهضة التونسية وتدعيمها و « الحركة للمشاركة الحرة بين تونس وفرنسا » التى تضم عددا من الفرنسيين الاحرار بصدق وتعقل قد احست بوجوب الملاءمة للظروف الجديدة وبما يتحتم على العنصر الفرنسى من التطور داخل اطار السيادة التونسية ، تطورا مصمما على قلع ما بقى من بذور الاستعمار ٠

فنشرت هذه الحركة ما يلى (١) « ان عصرا جديدا قد فتح امام فرنسيى تونس الذين يكنون المحبة لهذا البلد فى نفسه ٠ وسيكون هذا العصر مساعدا على اقرار حضور فرنسى متسع مثمر اذا علمنا :

— كيف نقبل دون تردد او تلكؤ السيادة القومية التى نعيش ضمنها
— كيف نلائم نشاطنا لحاجيات البلاد التونسية وكيف نعمل لفائدة ازدهارها
— وكيف نساعد هكذا على خلق جو من الثقة والتوادد بين الاهالى التونسيين وبين مجموعتنا »

والبلاد التونسية حين قبلت هذا التعاون — بل حين تمنته ورغبت فيه — انما سايرت سنتها القديمة ، سنة مفترق عظيم من مفترقات الطرق بالبحر الابيض المتوسط ، فاتحة ابوابها فى وجوه ارباب النية الصالحة والعزيمة الصادقة — وفرنسا فى معاملتها لتونس معاملة الند للند ، قد صار فى امكانها اليوم — باعانتها التى ليس من ورائها نية للاستثمار ، بل هى اعانة الانسان للانسان — قد صار فى امكانها ان تظهر ان « الرسالة التمدينية » الحقة هى التى تنشر اعلامها فى جو الحرية لا تحت نير العبودية

ولكن لنعد لمشكل التشغيل — انه اذا ما تم تعمير ما شغر من المناصب بموجب هذا الترحال — وسيتم ذلك فى اجل قريب — ستعود الحالة كما هى — على انه من الملاحظ ان المناصب الشاغرة لا تهم الا حاملى الشهادات والفنيين من التونسيين وهى لا تطمع فيها جملة العملة اليوميين

فسنكون اذا — بل نحن منذ الآن — امام بطالة مزمنة تقريبا يتخبط فيها

(١) « نداء الى فرنسيى تونس » ادرج بجريدة « البتى ماتان » فى ٢٣ ديسامبر ١٩٥٦

الثلث من السكان الناشطين ـ وكما لاحظ تقرير الاتحاد العام التونسي للشغل « انه قضى على البطالين بتحمل عيش لايزن للاعتبارات البشرية وزنا وذاك في نفسه امر خطير جدا ، ولكن علاوة على ذلك ان وجود هؤلاء البطالين وعدم استغلال ما يتمثل فيهم من امكانيات الانتاج قد كان ذلك في النهاية هو السبب في ضعف ما لمجموع السكان من انتاج جماعي جاهز » (ص ٢٠) ٠

هذا من سوء الحظ واضح جدا ٠ ولنضرب لك مثلا في ذلك محركا يدور ويلتهم الوقود التهاما ـ كالبطالين الذين يعيشون عيشا تعيسا ، ولكن يعيشون ـ وهو قد نصب في نقطة الاستقرار ، فلا تتمكن العربة من التقدم قيد انملة ٠

فالامر اذا ان يدفع بالمحرك اى ان يعرض العمل على محرك يدور ليس همه الا ان يتقدم بالمجموعة التى هو منها ٠

وكل المنشئات الاقتصادية التى في نية تونس الجديدة ان تبعثها للوجود ضمن مشاريع نهضتها لايمكن ان تجدى نفعا مالم تتعلق بهذا الفرض الاجتماعي وهو ان يدخل اكثر عدد ممكن من الايدى العاملة في جميع فروع النشاط ـ او بعبارة اخرى ، انه ان صح انه يجب البعث على تنمية الموارد والمنتوجات يجب قبل كل شيء توجيه الاختيار كي تعطى الاولوية للتحويلات التى من شانها ان تبتلع اكبر كمية من اليد العاملة وان تشغل اكثر عدد ممكن من السواعد البطالة ٠

وسوف لا يكون الامر من السهولة بمكان ، خاصة في الميدان الصناعي ، اذ ان التصنيع اذا كان من شانه ان يوفر قبل كل شيء وسائل التشغيل ـ وذاك يستدعي اولا وبالذات تكوينا فنيا ولو بسيطا ـ فهو دائما مشغول البال بالبيع وباصدار منتوجاته ٠ ويكون اذاك الدور الاساسي للقيمة التى تتكلف بها هذه المنتوجات اذ ينبغي ان يحاذى الثمن القيم العالمية وان يمكن من مجابهة المزاحمة الاجنبية ٠ وفي الميدان الصناعي كلما عاوضت الالة الميكانيكية بنى الانسان انخفضت الاسعار ومكنت من المزاحمة ٠ واذا ما فكرنا في الاكثار من اليد العاملة قد ينتج عن ذلك الترفيع في الاثمان وقصر منتوجاتنا على السوق الداخلية ـ فلذا ـ في الظروف الحالية من التكوين الصناعي او قل من عدم التكوين الصناعي في الطبقة الشغيلة ـ لا يمكن التصنيع التونسي المعتمد

على تمويلات ضخمة ان يستعمل الا كميات محدودة من اليد العاملة — واذا كان التصنيع وجوبيا لانماء ما للاقتصاد التونسي من الموارد — وفي ذلك ما يمس الطبقة الشغيلة بصفة غير مباشرة — فليس فيه الحل الناجع لمشكل التشغيل

وهذا الحل هو دائما في الارض. فالارض هي التي في امكانها ان تهب العمل لعدد عديد من العاملين بل هي ايضا التي تمكن من اقرار من هم حرموا الشغل ومن تموينهم . نعم انه ليس الغرض ان نجعل من الفلاحة اخف الاضرار وان نحشوها حشوا بمن فقدت منهم الكفاءة ومن لفظهم سائر فروع النشاط . وليس الشان ايضا ان نبدي كثيرا من العناد لاحياء الاراضي الغير الصالحة للزراعة او ان نهمل تماما او بعض الشيء الاراضي الخصبة البديعة وان نحمل الرحمة الربانية ان تبرر جهلنا او كسلنا — فالزراعة ترمي في اهم بلدان العالم الى ان تكون علما حقيقيا او بعبارة اصح فنا صناعيا يعتمد على علوم شتى — فهي تتمكن بواسطة تحليل التربة ودرس المناخ ان تلائم اكثر المزروعات جودة وانتاجا لهذا الوسط الطبيعي وان تنمي الدخل بواسطة البذور المختارة والاسمدة الموافقة لحاجيات الارض والزرع والوسائل الزراعية التي ما فتئت تتقدم وتتحسن .

وليست الزراعة كذى قبل مغامرة يرتمي فيها الفلاح خبط عشواء محملا السماء دائما مسؤولية التسبب في خيباته ومصائبه — نعم سيبقى طويلا — وخاصة بتونس — بعض الدواعي الغامضة والاسباب الخفية التي لا يمكن التكهن بها والتي تسم الى حد ما احسن التصميمات اتقانا وادق الوسائل الفنية ببعض من الاخطاء والاغلاط . ولكن الشان هو ان يقع التحديد من هذه الخيبات كي يكون لها اقل حظ ممكن ، والشان ان تستثمر الامكانيات المتاحة لنا الى اقصى حد ممكن ، وان تعاوض فكرة تربية الاغنام بواسطة نشر هذه التربية بفكرة الزيادة في غزارة الانتاج كلما امكن ذلك فنيا ، وان تعاوض زراعة القمح الصلب الذي تتراوح نسبة رده بين الواحد والاثنين في الوسط بزراعات اجدى وانفع ، وان يجعل من الاراضي السقوية من وادي مجردة السفلى صورة ثانية من مصر تنتج بجوار البواكير الارز والقطن وتمكن من تشغيل ما تكدس من البطالين باحواز العاصمة ، وان يهتم في النهاية بغراسة الحوامض والزياتين التي هي وحدها — كما شاهدنا — تمكن من اقرار السكان ومن ايجاد كثافات

بشرية قوية ، ويمكن - فى هذا الصدد - ان يحاذى مثل الوطن القبلى والساحل فى سائر انحاء الجمهورية

هذا ويتحتم فى شتى الميادين ، من تصنيع واحياء للصناعات التقليدية وتحويلات فى الزراعة وتحسين منظم فى مستوى العيش وحلول لمشكلة التشغيل ، او بعبارة اخصر فى جميع المشاريع التى تبذل فيها المجهودات للنهوض بالبلاد التونسية ، يتحتم ان ينسجم كل ذلك وان يرتب ترتيبا وان يكون متكاملا حتى ينتظم الكل فى تصميم عام ،تصميم يعتبر فيه الواقع الحاضر وينظر فيه بعيدا فى مسارب المستقبل ، فيكون الاداة الرئيسية لما شرع فيه بعد من حثيث السعى وعظيمه قصد انهاض البلاد واحيائها وتزويدها بالاساليب العصرية

وليس الشان شان ذاك الامير التونسى الذى ذكره جورج دوهامال فى كتابه «الامير جعفر» والذى لم يكن فى امكانه ان يعين رسم داره الا بعد ان تم بناؤها

وكل الشعوب التى شرعت فى ما فى تشييد دارها من عمل عظيم هى بدات بخط تصميم للعمل المزمع القيام به ودققت جزئياته وضبطتها ضبطا ثم هى لم تحتفظ بهذا التصميم كحرز يتبرك به بل هى اتبعته خطوة خطوة وطبقته تطبيقا محكما دقيقا

وهل من اللازم ان نذكر ان بعض التصميمات لخمس سنوات منظمة مدققة دقة حركات الساعة كفت لتمكن الروسيا لتتدارك ما تخلفت به عدة قرون من الناحية الصناعية والفلاحية والثقافية بل قد تمكنت ايضا ان تسبق من قد خلفها فى الماضى ؟

واليوم انجل الامم العصرية لها مكتب للتصميم كيلا تسير حياة البلاد سير الاعشى وكيلا تضيع الثروات الطبيعية والبشرية وكى تتحاشى المحاولات والاخطاء وضياع الوقت والفوضى التى من شانها ان تضر بالدولة كما تضر بالافراد

نعم ان مصلحة للتصميم فى التجهيز والتعصير قد بعثت للوجود فى العهد البائد . ولكنها كانت فى الواقع مركزا للاستعلامات اكثر من ان تحل منصبا للانسجام ولتوفيق الادارة والاتجاه . واذا ما اعيدت لها وظيفتها الحقيقية قد تتمكن هذه المصلحة من ان تكون عاملا قويا لنشر اقتصادنا ولتقويم حالنا

الاجتماعية ، وبها يكون لفاتحى العهد الجديد ان يعلموا زمرة واحدة كى يبعثوا من هذه الرقعة العتيقة الافريقية معجزة الحياة التى لا تنضب وما قسا من دواعى الغبطة والازدهار ٠

الخلاصة

قد حاولنا فى هذه الجولة فى الميدان الاقتصادى والبشرى بتونس الجديدة حاولنا ان ندقق حدود بعض المشاكل وان نحدد بعض المعطيات وان نوضح بالاشراف على المنظر الحالى ـ لا على تصميم مدقق مضبوط مفصل هو من نظر الفنيين فى كل ميدان ـ بل ان نوضح بعض الافاق المنسقة ونفتح نوافذ فسيحة تمكن من الاشراف على الحلول المدققة ـ نعم ان عظيم الانجازات تترقبنا فى سائر الميادين ، من الميدان الفلاحى ومن الغابات والصحارى ومن مشاكل الرى والمشاكل الصناعية والفنية والثقافية والصحية، كى تنتشل البلاد من الخندق الذى اغرقتها فيه ٧٥ سنة من الحماية ٠ وفى هذا الاحياء الشامل القوى لا يمكن ان نغفل اى موهبة ولا اى منفس تجارى ولا اى فريق من الامل ـ ومن هذه الناحية قد نظرنا ما للتصنيع من حظوظ كى نرفع من قيمة المواد الخام التونسية وكى نحول الصناعة التقليدية والزراعة تحويلا

على ان هذه الانشاءات التصنيعية وهذه التحويلات الصناعية التقليدية وان كانت لازمة لاقتصادنا فهى لا تكفى وحدها لحل مشكلة التشغيل العام ٠ والمنفس الوحيد الذى من شانه ان يستخدم مازاد من النسل انما هو دائما غراسة الزيتون قبل كل شىء

وبالزيتونة يمر حتما مستقبل البلاد التونسية ٠

فاذا ما طما بحر زياتين الساحل غامرا تحت نعمة اوراقها معظم الاراضى بالبلاد التونسية ، جارا وراءه الرفاهية وكثافة السكان اللتين عمتا بفضل الزيتونة الساحل التونسى ، عند ذاك تتمكن البلاد من القيام بشؤون عدد من السكان لا هو ٣ او ٤ ملايين ـ بل هو من ٨ الى ١٠ ملايين من التونسيين ٠

ويفترض ذلك مدة خمسة عشر سنة ان يقام ببرنامج غراسة للزيتون يغرس منه على الاقل ٣ او ٤ ملايين من الاصول سنويا ـ وتكون هذه الفترة ـ التى لا دخل فيها ـ بل هى تستلزم نفقات باهظة ـ تكون هذه الفترة هى الفترة

العصيبة ــ وخاصة فى هذه الفترة ــ قبل ان تربط الصلة بالمستقبل وعهد الانتاج ــ يكون للتصنيع وللتاميم اجمل الاثر ٠

ولكن العمل الجبار ــ عمل النهضة القومية والانتاج ــ الذى تدعو اليه الحكومة الحالية جميع المواطنين ، فهو يستدعى حتما جوا اجتماعيا صافيا ، جو اخاء لا تشوبه شائبة نزاع او حقد مقسم للطبقات الاجتماعية ، وذاك عين ما صرح به الرئيس بورقيبة نفسه فى برقية وجهها من نيويورك للاتحاد التونسى للشغل : « ٠٠٠ اسالكم ان تبلغوا عملة الاتحاد التونسى للشغل تشكراتى للاحساسات التى عبروا لى عنها ورجائى ان تتم الوحدة النقابية للقيام بعمل مثمر، عمل اشادة فى اطار الوحدة القومية، بمعزل عن النظريات الجنائية نظريات تطاحن الطبقات والحقد بين ابناء القومية الواحدة »

وكرر رئيس الحكومة التونسية هذا المعنى واطنب فيه فى خطاب الملاسين (٢٧ ديسامبر) قائلا : « ينبغى ان تؤمنوا انكم ابناء عائلة واحدة : »(الامة التونسية)٠ فقد تختلف آراؤكم وقد تتباين نزعاتكم ، وقد يفوق بعضكم الاخر علما وتطورا، ولكن بالنظر الى ذلك ينبغى ان يكون للمجموعة القومية المحل الاول

افلم تشارك جميع الطبقات الاجتماعية فى كفاح الاستقلال ؟ فمن باعوا الحياة باستقلال البلاد التونسية كانوا من ملاكة الاراضى كالهادى شاكر ومن النقابيين كفرحات حشاد ، وكلاهما رمز لهذه الوحدة فى الكفاح التحريرى ٠

وعلينا الا ننسى هذا المثل وهذه العبرة ، انه ينبغى ان نبتعد عن احياء الضغائن او عن زرع بذور الشقاق فى ظل آراء اجنبية ومباد اعجبية نكون من المخطئين لو طبقناها على بلادنا ٠

٠٠٠ « واريد اليوم ان اصرح لكم بكل وضوح اننا لانتقدم فى طريق الرقى ولا ندعم سيادتنا ولا نبلغ حياة العزة والكرامة الا فى ظل الوحدة القومية ، وحدة قلعت منها بذور الاغراض ، وطهرت تطهيرا من ادران المطامع ومكايد الخزعبلات ٠

فللعامل حقوق تحترمها الحكومة وتضمنها ٠ ولكنه عليه واجبات نحو مشغله من الواجب ان يقوم بها بكل اخلاص ــ ولا ينبغى ان ينحط منحنى الانتاج مهما كانت التكاليف ومهما كان السبب ٠ وذاك فيه صالح الامة الاسمى ٠

فهذا حينئذ عصر الاندفاع الخلاق على الابواب ، عصر طموح يحيى الهمم ، ولكنه حتما عصر وحدة قومية وسلام اجتماعى كى نشيد بعزم واحد صرح تونس حيث سيلذ العيش وسيعمل ابناء هذه الارض كلهم فى اخاء وسلم رابطين علاقات الود مع سائر الشعوب المتشبعة من عين هذا المبدا المشغوفة بعين هذا الطموح

على انه ليس الشان ان نطمس الحقيقة او ان نظل الواقع ٠

ان المشكل المر الذى يخنق بلادنا والذى يتفوق على سائر المشاكل هو فى الواقع المشكل الذى تتخبط فيه جملة البلدان الحديثة التى قوى فيها الضغط التناسلى : الاوهو توفيق حركة الانتاج مع حركة التضخم البشرى

فالهند والصين واليابان واندونيسيا والهند الصينية وبالجملة كافة البلدان التابعة لمنطقة المواسم بآسيا تعالج عين المشكل اى ان فيهم سكانا ينمو عددهم اكثر مما تنمو موارد البلاد ، ويتبع ذلك انحطاط فى مستوى العيش ٠

فكيف كان عمل هؤلاء الاشخاص الذين يعدون مئات الملايين ويتضخم عددهم بقدر خمسة عشر مليونا او عشرين مليونا كل سنة لمجابهة مشاكل الحياة اليومية؟

تلك عين الحالة ــ مع وجود الفارق فى النسبة ــ فيما يخص البلاد التونسية وجملة الشمال الافريقى ٠ وفى الواقع ليس من الممكن الا نعمم المسالة على الكرة الارضية جمعاء ٠

فهناك من جهة مليار ونصف من بنى البشر ــ اعنى بالضبط من مثلوا بباندونغ ــ يعيشون عيش الاعواز والفقر المزمن فى المواد الغذائية، قد يبلغون احيانا حد المجاعة (١) ، ومن جهة اخرى شعوب ضعف نسلها ، وقوى تصنيعها وتضخم انتاجها تضخما جعلها لا تعلم ما تصنع منه ٠

ومن المحال ان يستمر هذا الخلل الاقتصادى العالمى الفظيع دون ان تتبعه

---

(١) فى هذا الصدد طالع الكتاب البديع الذى نشرته الشابة الهندية «كماله مرقندايه» واسمه : « الارز وريح الموسم » (نكتار فى ابسيف (ر٠ لفون ، نشر باريس ١٩٥٦

اخطار عظيمة ، وتلك هي عين الاسباب التي خر من اجلها صرح الامبراطورية الرومانية ودعت الى زحف الامواج الزاخرة للهجومات العظيمة ، ومن المحال ان تستمر مئات الملايين من البشر الجائعين على الاستسلام للموت بكل هدو بينما يتالم من جاورهم من الشعوب من داء التخمة ٠

وما اصاب البلاد التونسية من داء وما هي تئن منه انما هو عين الداء الذى اصاب ثلاثة ارباع سكان المعمورة ٠

والعلاج قبل كل شيء هو ايجاد حل دولى كي يقع توزيع عادل بين الثروات وبين ما يحتاج اليه البشر

وفكرة تقسيم الاملاك القومية للتسوية بين الاهالى فى الفقر - كما تودها الشيوعية - لها بين الناس من الحظ اقل من فكرة الاشتراك فى الموارد ذات الاهمية الكبرى وفى الاسواق العالمية الكبرى كي يستتب التعادل الاقتصادى الدولى الذى من شانه ان يمكن العباد من الاكل اذا جاعوا ومن العيش فى ظل السلام ٠

والبلاد التونسية كسائر البلدان التى تشابهها لا يمكنها ان تجد العلاج لحالها الا على نسبة ضئيلة ان هي بقيت فى الاطار القومى ٠

ولابد ان يكون للتضامن البشرى مفعوله الفعال بين عظيم المنظمات العالمية الموجودة ، والشعوب التى لم تستكمل بعد نموها والتى هي تتطور تطورا عظيما من الناحية التناسلية لها من الحق فى الحياة ما لمن كان من حظه ان ولد ببلاد ثرية او من اثرى بتفقير غيره ٠ فعلى هذه البلدان السعيدة اذا ان تمد اليها يد المساعدة كي تتظافر جهودها فى الاطار المحلى وتبلغ عيش الاستقلال لا تشغل بالها الشواغل المادية ٠

وان تونس لتنشد اليوم هذه الاخوة البشرية، سائرة بقيادة الرئيس بورقيبة الرشيدة ٠

والرجل الذى كان سنى العبودية رمزا لما كان من عظيم الامال للشعب التونسى الطامح نحو الاستقلال ، يتجسم فيه نفسه اليوم الامل فى الصعود نحو الكرامة الادبية والمادية ٠

ويبعث خطابه الاخير بالكاف (٢٨ ديسامبر ١٩٥٦) على الايمان بان المعركة التى يخوض غمارها ، ويؤازره فيها الشعب التونسى باكمله، لتشييد تونس

سعيدة مزدهرة ، لابد ان تكسب وان يكون النجاح مكللالها كما كسبت معركة الاستقلال :

« .... ويلذلى ان الحظ اليوم ان الثورة العظمى قد تمت فى القلوب وفى الافكار . فالشعب ذاق طعم الاجتهاد والعمل ، وانى مررت شاهـدت الارض تحرث والاشجار تغرس ، فمنذ بضعة ايام غرست عشرة آلاف اصل زيتـون بجهة قعفور - والاهالى يعملون ويختطون الطرقات ويشيـدون المنازل - وذاك تيار عام صالح يبعث على التفاؤل والوثوق من المستقبل .

« والشعب واثق من مصير بلاده ، وعاد له امله فاذا هو يرتمى بكليته فـى العمل وذاك اساس ازدهارنا وذاك هو الكفيل به .

الا انه من الواجب ان ننمى انتاجنا حتى يتحسن عيشنا . وان نزيد فـى مبادلاتنا وان ندعم استقلالنا . فالاستقلال بلا ازدهار خديعة وغرور خطير .

ومن هذه الارض التى هى نصيبنا ، بسهولهـا وسباسبهـا وحصبائهـا الصحراوية ، منها معاشنا ومنها يجب ان نستثمر مواهبها الى اقصى حد ممكن كى يسعد عيشنا وتزدهر حياتنا . وعلينا ان نعمـل ليلا نهارا بلا تـوان ولا فتور - ولكم فى الحكومة اسوة حسنة وهى دوما فى اعانة من اجتهد وعمل .

وان نحن اردنا ان نكون حريين بما قدمه من تضحيات من كافحوا وعذبـوا وسقطوا فى سبيل حريتنا واستقلالنا ، فانه يفرض علينا على الدوام ان تتوتر مجهوداتنا بعزيمة واحدة نحو العمل الكريم والسعى النبيل المثمر . »

الفهـرس

المواضيع — الصفحة

المواضيع | الصفحة

القسم الثانى

المشاكل الاقتصادية

المواضيع	الصفحة